المُغْني في التَّفْسِير

المُحَرِّرُ الجَامِعُ لِتَفَاسِيرِ السَّلَفِ

[تَهْذِيبُ التَّفْسِيرِ المُحَرَّرِ لِلدُّرَرِ السَّنِيَّةِ]

[مُطَرَّزًا بِحَاشِيَةٍ مِنْ تَحْرِيرَاتٍ وَتَرْجِيحَاتٍ وَتَعْلِيقَاتِ عُيُونِ تَفَاسِيرِ المُحَقِّقِينَ فِي التَّفْسِيرِ:

{ابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ عَطِيَّةَ، وَابْنِ تَيْمِيَّةَ، وَابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ، وَابْنِ كَثِيرٍ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى}

كَتَبَهُ وَاعْتَنَى بِهِ

د/ هَانِي بْن عَبْده

د/ آلَاء رِضَا

«المُغْنِي فِي التَّفْسِيرِ»

المُحَرِّرُ الجَامِعُ لِتَفَاسِيرِ السَّلَفِ

[تَهْذِيبُ التَّفْسِيرِ المُحَرَّرِ لِلدُّرَرِ السَّنِيَّةِ]

[مُطَرَّزًا بِحَاشِيَةٍ مِنْ تَحْرِيرَاتٍ وَتَرْجِيحَاتٍ وَتَعْلِيقَاتِ عُيُونِ تَفَاسِيرِ المُحَقِّقِينَ فِي التَّفْسِيرِ:

{ابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ عَطِيَّةَ، وَابْنِ تَيْمِيَّةَ، وَابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ، وَابْنِ كَثِيرٍ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى}

مُقْتَبَسَةً مِنْ مَوْسُوعَةِ التَّفْسِيرِ المَأْثُورِ

كَتَبَهُ وَاعْتَنَى بِهِ

د/ هَانِي بْنُ عَبْدِهِ

د/ آلَاء رِضَا

غَفَرَ اللَّهُ لَهُمَا وَلِوَالِدَيْهِمَا وَلِمَشَايِخِهِمْ وَلِلْمُسْلِمِينَ

بسم الله الرحمن الرحيم

«المُغْنِي فِي التَّفْسِيرِ»

المُحَرِّرُ الجَامِعُ لِتَفَاسِيرِ السَّلَفِ

سُوْرَةُ الفَاتِحَةِ، سُورَةُ البَقَرَةِ

(المجلَّدُ الأوَّل)

" نُسْخَةٌ إِلِكْتِرُونِيَّةٌ، حُقُوقُهَا مَحْفُوظَةٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ "

نسخة إلكترونية

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ}

الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي افْتَتَحَ كِتَابَهُ بِالْحَمْدِ فَقَالَ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الْفَاتِحَة: 2–4]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا * قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا * مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا * وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا * مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلا لآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلا كَذِبًا﴾ [الكهف: 1–5].

وَافْتَتَحَ خَلْقَهُ بِالْحَمْدِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأَنْعَام: 1].

وَاخْتَتَمَهُ بِالْحَمْدِ، فَقَالَ بَعْدَ ذِكْرِ مَآلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ: ﴿وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزُّمَرِ: 75].

وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَى وَالآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الْقَصَصِ: 70]، كَمَا قَالَ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [سبأ: 1].

فَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ، أَيْ فِي جَمِيعِ مَا خَلَقَ وَمَا هُوَ خَالِقٌ، هُوَ الْمَحْمُودُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ، كَمَا يَقُولُ الْمُصَلِّي: "اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ، مِلْءَ السَّمَاوَاتِ وَمِلْءَ الْأَرْضِ، وَمِلْءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ".

وَلِهَذَا يُلْهَم أَهْلُ الْجَنَّةِ تَسْبِيحَهُ وَتَحْمِيدَهُ كَمَا يُلْهَمون النَّفس، أَيْ يُسَبِّحُونَهُ وَيَحْمَدُونَهُ عَدَدَ أَنْفاسِهِم؛ لِمَا يَرَوْنَ مِنْ عَظِيمِ نِعَمِهِ عَلَيْهِمْ، وَكَمَالِ قُدْرَتِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ، وَتَوَالِي مِنَنِه وَدَوَامِ إِحْسَانِه، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يُونُس: 9،10].

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَرْسَلَ رُسُلَهُ ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النِّسَاءِ: 165].

وَخَتَمَهُمْ بِالنَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الْعَرَبِيِّ الْمَكِّيِّ الْهَادِي لِأَوْضَحِ السُّبُلِ، أَرْسَلَهُ إِلَى جَمِيعِ خَلْقِهِ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، مِنْ لَدُنْ بَعْثَتِهِ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى:

﴿قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: 158]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الْأَنْعَامِ: 19].

فَمَنْ بَلَغَهُ هَذَا الْقُرْآنُ مِنْ عَرَبٍ وعَجَم، وأسودَ وأحمرَ، وَإِنْسٍ وَجَانٍّ، فَهُوَ نَذِيرٌ لَهُ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هُودٍ: 17].

فَمَنْ كَفَرَ بِالْقُرْآنِ مِمَّنْ ذَكَرْنَا فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ، بِنَصِّ اللَّهِ تَعَالَى، وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ [الْقَلَمِ: 44، 45].

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ –: "بُعِثتُ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ".

قَالَ مُجَاهِدٌ: يَعْنِي: الْإِنْسَ وَالْجِنَّ.

فَهُوَ –صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ–رَسُولُ اللَّهِ إِلَى جَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ: الْإِنْسُ وَالْجِنُّ، مُبَلِّغًا لَهُمْ عَنِ اللَّهِ مَا أَوْحَاهُ إِلَيْهِ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ الْعَزِيزِ الَّذِي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فُصِّلَتْ: 42].

وَقَدْ أَعْلَمَهُمْ فِيهِ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّهُ نَدَبهم إِلَى تفهُّمه، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾ [النِّسَاءِ: 82]،

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كِتَابٌ أَنزلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ﴾ [ص: 29]،

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [مُحَمَّدٍ: 24].

فَالْوَاجِبُ عَلَى الْعُلَمَاءِ الْكَشْفُ عَنْ مَعَانِي كَلَامِ اللَّهِ، وَتَفْسِيرُ ذَلِكَ، وَطَلَبُهُ مِنْ مَظَانِّهِ، وتَعلُّم ذَلِكَ وَتَعْلِيمُهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: 187]،

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلا أُولَئِكَ لَا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: 77].

فَذَمَّ اللَّهُ تَعَالَى أَهْلَ الْكِتَابِ قَبْلَنَا بِإِعْرَاضِهِمْ عَنْ كِتَابِ اللَّهِ إِلَيْهِمْ، وَإِقْبَالِهِمْ عَلَى الدُّنْيَا وَجَمْعِهَا، وَاشْتِغَالِهِمْ بِغَيْرِ مَا أُمِرُوا بِهِ مِنَ اتِّبَاعِ كِتَابِ اللَّهِ.

فَعَلَيْنَا –أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ– أَنْ نَنْتَهِيَ عَمَّا ذمَّهم اللَّهُ تَعَالَى بِهِ، وَأَنْ نَأْتَمِرَ بِمَا أُمِرْنَا بِهِ، مِنْ تَعَلُّمِ كِتَابِ اللَّهِ الْمُنَزَّلِ إِلَيْنَا وَتَعْلِيمِهِ، وَتَفَهُّمِهِ وَتَفْهِيمِهِ،

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نزلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ * اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الْحَدِيدِ: 16، 17].

فَفِي ذِكْرِهِ تَعَالَى لِهَذِهِ الْآيَةِ بَعْدَ الَّتِي قَبْلَهَا تَنْبِيهٌ عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى كَمَا يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، كَذَلِكَ يُلِينُ الْقُلُوبَ بِالْإِيمَانِ بَعْدَ قَسْوَتِهَا مِنَ الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي، وَاللَّهُ الْمُؤَمَّلُ الْمَسْؤُولُ أن يفعل بنا ذلك، إنه جَوَادٌ كَرِيمٌ.

وَبَعْدُ، فَإِنَّ أَعْظَمَ ٱلْعُلُومِ قَدْرًا وَأَرْفَعَهَا شَرَفًا، عِلْمُ ٱلتَّفْسِيرِ، ٱلَّذِي هُوَ رَئِيسُ ٱلْعُلُومِ ٱلدِّينِيَّةِ وَرَأْسُهَا، وَمَبْنَى قَوَاعِدِ ٱلشَّرْعِ وَأَسَاسُهَا، لَا يَلِيقُ لِتَعَاطِيهِ وَالتَّصَدِّي لِلتَّكَلُّمِ فِيهِ إِلَّا مَنْ بَرَعَ فِي الْعُلُومِ الدِّينِيَّةِ كُلِّهَا أُصُولِهَا وَفُرُوعِهَا، وَفَاقَ فِي الصِّنَاعَاتِ الْعَرَبِيَّةِ وَالْفُنُونِ الْأَدَبِيَّةِ بِأَنْوَاعِهَا.

فإنَّ كتاب الله هو النورُ المُبِيْن، والطَّريقُ القَويم، والحقُّ المستَبِين، والصراطُ المستقيم، لا شيءَ أسطعُ من أعلامه، ولا حُكمَ أصدعُ مِن أحكامه، ولا كلامَ أفصحُ مِن بلاغته، ولا قولَ أرجحُ من فصاحته، ولا عملَ في ليلٍ أو نهارٍ ألذُّ مِن تِلاوته، فيه خبرُ مَن قَبْلَنا، ونبأُ مَن بعدَنا، وحُكْمُ ما بيننا.

أَعجزَ الفصحاءَ، وحيَّرَ البُلغاء، وأعياهم أنْ يأتوا بسورةٍ مِن مِثْله، حتى شهِد بإعجازه الأعداءُ قبل الأصدقاء، وأيقنَ بصدقهِ الجاحدون والملحِدون؛ فإعجازُه وبلاغتُه وحسنُ نظامه يشهدُ للنبيِّ -ﷺ- بنبوَّته، وبأنه أعظمُ معجزاتهِ، الباقيةِ على طولِ أيام الدهرِ وسنواتهِ.

وقد كان النبيُّ من الأنبياءِ عليهم السلام يأتي بالآيةِ وتَنْقَضي بموته، فقَلَّ لذلك مَن يتَّبعه، وكَثُرَ أتْباعُ نبيِّنا -ﷺ- لكونِ معجزتهِ الكبرى باقيةً بعدَه، فيؤمنُ باللهِ ورسولهِ كثيرٌ ممَّن يسمعُ القرآن على ممرِّ الأزمان.

فلا غَرْوَ أنْ نَهَض العلماءُ منذُ فجرِ الدَّعوةِ مشمِّرِينَ عن ساعدِ الجِدِّ لشرحه وتفسيرِه، وبيانِ ما غَمضَ من معانيه، وحلِّ ما أَشْكل على مَن يُعانيه.

ومِن أَجْلِ هذا ظَهَر على مَرِّ التَّاريخِ الإسلاميِّ تصانيفُ لا يَحْصُرُها العَدُّ، اخْتَلَفَتْ أساليبُها لكنَّ غايتَها كانت واحدةً، وهي تفسيرُ كتابِ الله، وإيصالُه إلى أجيالِ الأُمَّة جيلًا إثْرَ جيلٍ، وتفهيمُ الأُمَّةِ

معانيَه، وما فيه مِن عِبَرٍ وأمثال، وحِكَمٍ وأحكام، وبلاغةٍ لا تُرام، وخيرٍ عمَّ الأَنام؛ لتُدْرِكَ هذه الأُمَّةُ عَظَمتَه، فتتمَسَّكَ به، وتجتهدَ في اتِّباعِه والعملِ بمُقْتَضاه، ودعوة الخلقِ إليه.

وهذه التصانيفُ كانت متفاوِتةً مِن حيثُ الفائدةُ، وبعضُها يقدَّمُ على بعضٍ، بل قد يكونُ بعضُها أصلًا والآخَرُ فرْعًا، فإنَّ منها ما يُمْكِنُ أنْ يُعَدَّ فَرْدًا في بابِه، وإمامًا في محرابِه، وأساسًا في موضوعِه، بحيثُ يُمْكِنُ أنْ يُقالَ مَثَلًا: إنَّ ما جاء بَعْدَه ليس كالذي كان قَبْلَه، فيُقالَ مثلًا: إنَّ ما أُلِّفَ قبل «تفسير الطبري» في التَّفسيرِ بالمأثورِ ليس كما أُلِّفَ بَعْدَهُ، وإنَّ ما كُتِبَ في معاني القرآنِ وبلاغته قبلَ «كشَّاف» الزَّمَخْشريِّ ليس كالذي كُتِبَ بعدَه، وإنَّ موضوعَ أحكامِ القرآنِ قبلَ «الجامع لأحكام القرآن» ليس كموضوعِه بَعْدَهُ، وإنَّ كُتبَ إعرابِ القرآنِ قبلَ «بحر» أبي حيَّانَ ليست كالتي أَعقبت «بحره».

وجاء مِن التفاسيرِ بعد تلك الأمَّهات ما هو تَبَعٌ لها، فهَذَّبَ ونَقَّحَ، وزادَ ورَجَّحَ، وشَرَحَ وصَحَّحَ، ومع أن هذه أيضًا لا تُنْكَر مكانتُها وفضلُها، لكنْ يَبْقَى الفضلُ للسَّابق ولو أجادَ اللَّاحِق.

فَإِنَّهُ لَا يَخْفَىٰ كَثْرَةُ الْمُؤَلَّفَاتِ فِي التَّفْسِيرِ، الْمَطْبُوعِ مِنهَا وَالْمَخْطُوطِ، عَلَىٰ تَبَايُنٍ بَيْنَهَا فِي الْأُسْلُوبِ وَالْمَضْمُونِ، مَعَ تَكْرَارٍ كَثِيرٍ فِيهَا تَحْوِيهِ هَٰذِهِ الْكُتُب، وَمَنْ يُطَالِعُ فِي كُتُبِ التَّفْسِيرِ سَيُوَاجِهُ جُمْلَةً مِنَ الْمُعَوِّقَاتِ مِنْهَا كَثْرَةُ مَا فِي كُتُبِ التَّفْسِيرِ مِنَ الِاسْتِطْرَادِ وَالْخُرُوجِ عَنْ مَقْصُودِ التَّفْسِيرِ، مَعَ تَكْرَارٍ وَمُخَالَفَاتٍ كَثِيرَةٍ شُحِنَتْ بِهَا غَالِبُ كُتُبِ التَّفْسِيرِ لِعَقِيدَةِ السَّلَفِ الصَّالِحِ وَفَهْمِهِمْ، فَقَلَّمَا تَجِدُ تَفْسِيرًا سَلِيمًا مِنَ الْبِدَعِ الِاعْتِقَادِيَّةِ وَغَيْرِهَا.

فَلَمَّا أَرَدْنَا أَنْ نَخْتَارَ لِأَنْفُسِنَا، وَنَظَرْنَا فِي عِلْمٍ يُعَدُّ أَنْوَارُهُ لِظُلْمَةِ ٱلْقُبُورِ، سَبَرْنَاهُ بِٱلتَّنْوِيعِ وَٱلتَّقْسِيمِ، وَعَلِمْنَا أَنَّ شَرَفَ ٱلْعِلْمِ عَلَى قَدْرِ شَرَفِ ٱلْمَعْلُومِ، فَوَجَدْنَا: أَمْتَنَهَا حِبَالًا، وَأَرْسَخَهَا جِبَالًا، وَأَجْمَلَهَا آثَارًا، وَأَسْطَعَهَا أَنْوَارًا عِلْمَ كِتَابِ اللَّهِ جَلَّتْ قُدْرَتُهُ وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ، ٱلَّذِي لَا يَأْتِيهِ ٱلْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ.

وَلَطَالَمَا اشْتَاقَتْ نُفُوسُنَا بِأَنْ نُصَنِّفَ فِي هَٰذَا الْفَنِّ كِتَابًا يَحْتَوِي عَلَىٰ صَفْوَةِ تَفَاسِيرِ السَّلَفِ مَعَ التَّحْرِيرِ وَالتَّرْجِيحِ، إِلَّا أَنَّ قُصُورَ بِضَاعَتِنَا كَانَتْ تُثَبِّطُنَا عَنِ الْإِقْدَامِ، وَتَمْنَعُنَا عَنِ الِانْتِصَابِ فِي هَٰذَا الْمَقَامِ، حَتَّىٰ سَنَحَ لَنَا بَعْدَ الِاسْتِخَارَةِ عَلَى الشُّرُوعِ فِيمَا أَرَدْنَاهُ، وَالْإِتْيَانِ بِمَا قَصَدْنَاهُ، بَعْدَمَا صَدَرَتْ أَكْبَرُ مُوسُوعَتَيْنِ فِي الْعَصْرِ الْحَدِيثِ فِي تَفْسِيرِ كَلَامِ الْبَارِي: الْمُعَلَّمَةُ الْكُبْرَىٰ فِي تَفْسِيرِ السَّلَفِ «مُوسُوعَةُ التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ» فِي ٢٤ (مُجَلَّدًا)، أَكْبَرُ جَامِعٍ لِتَفْسِيرِ النَّبِيِّ – ﷺ – وَالصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَتَابِعِيهِمْ.

مَعَ تَحْرِيرَاتٍ وَتَرْجِيحَاتٍ وَتَعْلِيقَاتِ عُيُونِ تَفَاسِيرِ الْمُحَقِّقِينَ فِي التَّفْسِيرِ: {ابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ عَطِيَّةَ، وَابْنِ تَيْمِيَّةَ، وَابْنِ قَيِّمِ الْجَوْزِيَّةِ، وَابْنِ كَثِيرٍ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَىٰ}.

فَتَطَفَّلْنَا عَلَيْهَا وَانْتَقَيْنَا مِنْهَا دُرَرَهَا وَوَاسِطَةَ عِقْدِهَا، وَهِيَ مُنَاقَشَاتٌ وَتَرْجِيحَاتٌ لِكِبَارِ ٱلْمُفَسِّرِينَ، لِيَكُونَ كَافِيًا لِلطَّالِبِ ٱلْمُبْتَدِئِ وَمُغْنِيًا لِلْمُقْتَصِدِ لِمَا سِوَاهُ مِنَ الْكُتُبِ.

وَصَدَرَ بَعْدَهَا مُوسُوعَةُ «التَّفْسِيرِ الْمُحَرَّرِ» فِي (44 مُجَلَّدًا).

فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الْكَرِيمِ الْمَنَّانِ.

وَمَعَ ٱلْعجْزِ وَعَدَمِ ٱلْأَهْلِيَّةِ لِذَلِكَ، تَطَفَّلْنَا عَلَى مَوَائِدِ ٱلْمُفَسِّرِينَ وعلى هذين الكتابين وعلى غيرهما من عيون التفاسير مُعْتَمِدِينَ فِي ذَلِكَ عَلَى مُعُونَةِ ٱلْبَارِي وَهِيَ خَيْرُ مُعُونَةٍ.

فَتَمَّ انْتِقَاءُ أَجْوَدِ مَا فِي ٱلموسوعتين، وَتَمَّ اسْتِبْعَادُ ٱلِاسْتِطْرَادَاتِ وَمَا لَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ،

لِيَكُونَ بَعْدَ هَذَا ٱلتَّنْقِيحِ وَٱلتَّهْذِيبِ عَسَلًا مُصَفًّى سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ.

فَلَقَدِ احتوى هذا الْكِتَابُ على مَا تَضَمَّنَتْهُ الدَّوَاوِينُ الطَّوِيلَةُ مِنَ الْعِلْمِ، بِتَحْقِيقِ أَقْوَالِ الْمُفَسِّرِينَ وَتَحْرِيرِهَا وَنِسْبَتِهَا إِلَىٰ مَنْ قَالَهَا مِنَ السَّلَفِ، مَعَ التَّنْقِيحِ وَالتَّحْرِيرِ.

وَكِتَبْنَاهُ لِأَنْفُسِنَا وَلِمَنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَنْتَفِعَ بِهِ مِنْ بَعْدِنَا.

وَأَرَدْنَا بِذَلِكَ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْعَمَلُ لَنَا فِي الْقَبْرِ نُورًا، وَأَنْ يَكُونَ الْقُرْآنُ لَنَا فِي الْقِيَامَةِ شَفِيعًا.

فَلَمْ نَضَعْ حَرْفًا وَاحِدًا مِنْ عِنْدِنَا.

فَالْكَلَامُ فِي كِتَابِ اللَّهِ بِالْخَرْصِ وَالظُّنُونِ وَالرَّأْيِ الْمُجَرَّدِ عَنِ الدَّلِيلِ شَدِيدٌ،

وَالوَعِيدُ عَلَى ذَلِكَ أَكِيدٌ.

فَمَنْ أَسْنَدَ وَأَحَالَ فَقَدْ بَرِئَ.

فَرَحِمَ اللَّهُ امْرَأً نَظَرَ بِعَيْنِ الْإِنْصَافِ إِلَيْهِ، وَوَقَفَ فِيهِ عَلَى خَطَأٍ فَأَطْلَعَنَا عَلَيْهِ.

وَقَدْ قُلْنَا:

حَمِدْنَا اللَّهَ رَبَّنَا إِذْ هَدَانَا مَعَ عَجْزِنَا وَضَعْفِنَا،

فَمَنْ لَنَا بِالْخَطَأِ فَنَرُدَّ عَنْهُ؟

وَمَنْ لَنَا بِالْقَبُولِ وَلَوْ بِحَرْفٍ.

هَذَا ولَمْ يَكُنْ قَطُّ فِي خَلَدِنَا أَنْ نَتَعَرَّضَ لِذَلِكَ؛ لِعِلْمِنَا بِالْعَجْزِ عَنِ الْخَوْضِ فِي هَذِهِ الْمَسَالِكِ، وَلَكِنْ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَنْفَعَ بِهِ نَفْعًا جَمًّا، وَيَفْتَحَ بِهِ قُلُوبًا غُلْفًا، وَأَعْيُنًا عُمْيًا، وَآذَانًا صُمًّا.

نَاوِيًا أَنْ نُسَمِّيَهُ بَعْدَ أَنْ نُتِمَّهُ بِـ

«««المُغْنِي فِي التَّفْسِيرِ»»»

رَزَقَنَا اللَّهُ بِهِ هِدَايَةً إِلَى سَبِيلِ الْحَقِّ، وَتَوْفِيقًا وَاطِّلَاعًا عَلَى دَقَائِقِ كَلِمَاتِهِ وَتَحْقِيقًا.

وَجَعَلَنَا بِهِ مِنَ الَّذِينَ أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ، وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا.

وَاللَّهُ نَسْأَلُ أَنْ يَجْعَلَهُ خَالِصًا لِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ، وَأَنْ يَجْعَلَ عَمَلَنَا صَوَابًا، وَيَنْفَعَ بِهِ الْإِسْلَامَ وَالْمُسْلِمِينَ، وَأَنْ يَجْعَلَهُ ذُخْرًا لَنَا يَوْمَ الدِّينِ، وَلِمَنْ قَرَأَهُ وَصَوَّبَهُ وَأَعَانَ عَلَى إِخْرَاجِهِ.

وَأَنْ يَجْعَلَهُ كَمَا نُرِيدُ وَفَوْقَ مَا نُرِيدُ، بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ، إِنَّهُ أَكْرَمُ مَسْؤُولٍ وَأَعْظَمُ مَأْمُولٍ.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

فَهَذَا أَوَانُ الشُّرُوعِ فِي المَقْصُودِ، وَاللَّهُ الْمُوَفِّقُ لِكُلِّ خَيْرٍ وَمُعْطِي كُلِّ مَسْؤُولٍ.

منهج العمل في متن «المُغْنِي فِي التَّفْسِيرِ» (مختصرًا من منهج التفسير المحرر)

أوَّلًا: المُقَدِّماتُ بينَ يدَي كُلِّ سورةٍ:

وتَشتَمِلُ على عِدَّةِ أمورٍ:

1- اسمُ السُّورةِ وما ورد فيه مِن نُصوصٍ مَرفوعةٍ ومَوقوفةٍ، مع الإشارةِ في الحاشيةِ إلى سَبَبِ التَّسميةِ.

2- بَيانُ المكيِّ والمَدَنيِّ

والاعتِمادُ فيه على الضَّابطِ الزَّمانيِّ، وهو أنَّ ما نزَلَ قَبلَ الهجرةِ، فهو مكِّيٌّ، وما نزَل بعدَها فهو مَدَنيٌّ.

3- ذِكرُ الإجماعاتِ على مكيَّةِ السُّورةِ أو مَدَنيَّتِها، وما يَرِدُ عليه مِن استثناءاتٍ وما يقَعُ مِن خِلافٍ.

3- فَضائلُ السُّورةِ وخَصائِصُها، ويُذكَرُ ما ثَبَت للسُّورةِ مِن فَضائِلَ، وما اختصَّت به من خَصائصَ.

4- مَقاصِدُ السُّورةِ

ويُذكَرُ تحتَه المحورُ أو المحاوِرُ التي تدورُ عليها السُّورةُ.

5- موضوعاتُ السُّورةِ

ويُذكَرُ تحتَه أهمُّ الموضوعاتِ التي تناولَتْها السُّورةُ.

ثانيًا: في غَريبِ الكَلِماتِ:

فأول ما يحتاج أن يشـــتغل به من علوم القرآن العلوم اللفظية، ومن العلوم اللفظية تحقيق الألفاظ المفردة، فتحصـــيل معاني مفردات ألفاظ القرآن في كونه من أوائل المعاون لمن يريد أن يدرك معانيه، كتحصـــيل اللّبن في كونه من أول المعاون في بناء ما يريد أن يبنيه، وليس ذلك نافعا في علم القرآن فقط، بل هو نافع في كلّ علم من علوم الشرع.

فألفاظ القرآن هي لبّ كلام العرب وزبدته، وواسطته وكرائمه، وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم وحكمهم، وإليها مفزع حذّاق الشـــعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم، وما عداها وعدا الألفاظ المتفرّعات عنها والمشـتقات منها هو بالإضـافة إليها كالقشـور والنوى بالإضـافة إلى أطايب الثمرة، وكالحثالة والتبن بالإضافة إلى لبوب الحنطة.

1- الاقتِصارُ على الكَلِماتِ الغريبةِ التي يُحتاجُ إلى مَعرفةِ معناها.

2- الاعتِناءُ في التَّعريفِ بذِكرِ معنى الكَلِمة، وأصلِ اشتِقاقِها، والرَّبطِ بينهما- إنْ أمكَنَ.

3- الاعتِمادُ في بيانِ الغريبِ على أُمَّاتِ كتُبِ الغريبِ، مِثلُ: ((غريب القرآن)) لابن قُتَيبة، ((غريب القرآن)) للسِّجْستاني، ((مقاييس اللُّغة)) لابن فارس، ((المفردات)) للراغب، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي، ((التبيان)) لابن الهائم، وغيرها عندَ الحاجةِ، مع الرُّجوعِ إلى كتُبِ التَّفاسيرِ أحيانًا.

ثالثًا: في المُناسَباتِ بين الآياتِ:

1- الاقتِصارُ على ذِكرِ أهمِّ المُناسَباتِ.

2- الابتِعادُ عن المُناسَباتِ المُتكلَّفةِ.

رابعًا: في القِراءاتِ:

1- الاكتِفاءُ بالقِراءاتِ المتواترةِ.

2- الاقتِصارُ على ما له أثرٌ في التَّفسيرِ.

3- عزْوُ القِراءاتِ إلى كِتاب: ((النشر)) لابن الجَزَري، وعزْوُ معانيها إلى الكتُبِ المَعنيَّة بذلك، مثل: ((معاني القِراءات)) للأزهري، ((الحُجَّة في القراءات السَّبْع)) لابن خَالويه، ((حُجَّة القِراءات)) لابن زنْجَلة، ((الإبانة عن معاني القِراءات)) لمكيٍّ، ((الكشف)) لمكيٍّ، ((تفسير أبي حيان))، ((الدُّر المصون)) للسَّمين الحَلَبي، وغيرها عند الحاجةِ.

خامِسًا: في تَفسيرِ الآياتِ:

1- تَجزئةُ السُّورةِ إلى مقاطعَ تعتَمِدُ على الوَحدةِ الموضوعيَّةِ لمجموعةِ آياتٍ مُتتاليةٍ.

2- الاعتِمادُ على ما نقَلَه المفسِّرونَ مِن إجماعاتٍ ثابتةٍ وصَحيحةٍ.

3- الاعتِمادُ في اختيارِ معاني الآياتِ في الجُملةِ على عدَدٍ من المُبَرِّزينَ والمحقِّقينَ في التَّفسير، مثل: ابن جرير، وابن كثير، وابن تيميَّة، وابن القيِّم، والشِّنقيطي، مع الاستِعانة بتفاسيرِ آخَرِينَ، كالواحدي، وابن عطيَّة، والقُرطبي، وابن رَجَب، وابن عاشور، وغيرِهم.

4- إذا وُجِد خِلافٌ في معنى الآيةِ، يُذكَرُ المعنى الرَّاجِحُ، مع الإشارةِ إلى الأقوالِ الأخرى إذا كانت قويَّةً ومُحتَمَلَةً.

5- تُذكَرُ أقوالُ السَّلَفِ- الموافِقةُ للتَّفسيرِ المختارِ- في الحاشيةِ، وذلك في المواضعِ المُشْكِلةِ، أو التي كثُرَ فيها الخِلافُ، مع عزْوِها إلى مصادرِها الأصليَّةِ، كتفسيرِ ابنِ جريرٍ، وابنِ أبي حاتمٍ، مع الاستعانةِ ببعضِ الكتُبِ التي جَمَعت أقوالَهم، كـ((زاد المسير)) لابن الجوزي، و((تفسير ابن كثير))، و((الدُّر المنثور)) للسُّيوطي.

6- ذِكرُ ما يُناسِبُ الآيةَ وتفسيرَها مِن الآياتِ والأحاديثِ.

8- بيانُ النَّاسِخِ والمَنسوخِ في الآياتِ.

9- ذِكرُ سَبَبِ نُزولِ الآيةِ إن ثبَتَ.

10- ذِكرُ ما لبَعضِ الآياتِ مِن فَضائِلَ إن ثبَتَ.

حاشية تَفسيرِ الآياتِ

تم انتقاء أنفس ما في الْمُعَلَّمَةُ الْكُبْرَىٰ فِي تَفْسِيرِ السَّلَفِ «مُوسُوعَةُ التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ»، أَكْبَرُ جَامِعٍ لِتَفْسِيرِ النَّبِيِّ -ﷺ- وَالصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَتَابِعِيهِمْ مِنْ تَحْرِيرَاتٍ وَتَرْجِيحَاتٍ وهي تَعْلِيقَاتِ عُيُونِ تَفَاسِيرِ الْمُحَقِّقِينَ فِي التَّفْسِيرِ: {ابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ عَطِيَّةَ، وَابْنِ تَيْمِيَّةَ، وَابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ، وَابْنِ كَثِيرٍ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَىٰ}، مع العودة إلى أصول تلك التعليقات عند الحاجة.

ثامنًا:

«تم عمل مجلد ملحق يتضمن مباحث فقهية متعلقة بالقرآن الكريم مع مُلحق الفهارس والمراجع من الدرر السنية»

ضوابِطُ عامَّةٌ:

1- تجنُّبُ ما يخالِفُ الاعتِقادَ الصَّحيحَ؛ اعتِقادَ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ، سواء في التفسيرِ أو الفوائِدِ.

2- الاعتِمادُ على ما صَحَّ من الأحاديثِ المرفوعةِ والموقوفاتِ، وبيانُ مَن صحَّحَها من أهلِ العِلمِ.

3- حُسنُ العَرضِ وسُهولةُ العبارةِ.

4- تعريفُ الكَلِماتِ الغَريبةِ الواردةِ في نُصوصِ الأحاديثِ.

فدُونَكَ – أيُّها القارئ الكريم – هذا الكتاب، الذي انتظم فيه ما تناثر من دُررٍ في بطون التَّفاسير، وحوى مما تفرَّق من نفائسِ العلم الشيءَ الكثير، حتى غَدَتْ قريبةَ المنال، ظاهرةً في غاية الوضوح والتَّيسير.

نسأل الله العلي القدير أن يتقبل منا، وأن يجعل القرآن قائدنا وهادِينا، وحُجَّةً لنا لا علينا، وأن يرزقنا تلاوته وتدبره آناء اللَّيل وَأَطْرَافَ النَّهَارِ، وأن يُكفِّر به عنَّا السَّيِّئات، ويرفعنا به درجاتٍ عاليات، والحمدُ لله الَّذي بنعمته تتمُّ الصَّالحات.

فَصْلٌ فِي الاسْتِعَاذَةِ

الاستعاذة مشروعة قبل تلاوة القرآن[1]

قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨].[2]

---

(1) وجمهور العلماء على أنه مستحبة، وحكى الإجماع على ذلك ابن جرير وغيره. ينظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/٣٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (١ / ١١٣) (٤ / ٦٠٢).

وأجمع العلماءُ على أن قول القارئ: أعوذُ باللهِ منَ الشيطانِ الرجيم ليس بآيةٍ من كتاب اللهِ تعالى، وأجمعوا على استحسانِ ذلكَ، والتزامِهِ في كل قراءة في غير صلاةٍ.

ومعنى (أعوذ بالله) أي: أستجيرُ وأمتنعُ بعظمة الله (من الشيطان) هو إبليسُ، فَيْعالٌ من شَطَنَ؛ أي: بَعُدَ من رحمةِ الله. (الرَّجيم)؛ أي:

المرجوم بالشُّهُبِ عندَ استراقِ السمعِ، فصار المعنى: أستجيرُ وأمتنعُ بعظمة اللهِ من المرجوم المطرودِ عن رحمةِ اللهِ.

والمختارُ لجميع القراءِ من حيثُ الروايةُ: أعوذُ بالله من الشيطان الرجيم، كما ورد في سورة النحل، وهو المأخوذ به عند عامة الفقهاء؛ كالشافعي، وأبي حنيفة، وأحمد بن حنبل، وغيرهم.

والمختار عند أئمة القراءة الجهرُ بها كما تقدَّم، ومحلُّها قبلَ القراءة إجماعًا، وهي مستحبةٌ في القراءة بكل حال، في الصلاةِ وخارجَها ندبًا، وهي في الصلاة للقراءة لا للصلاة، وهو مذهب الأئمة الثلاثة، وأما الإمام مالك، فإنه قال: لا يُستعاذ إلا في قيام رمضان فقط، والله أعلم. ((فتح الرحمن في تفسير القرآن)) (33/1).

(2) قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلَّم: وإذا كنت يا محمد، قارئا القرآن، فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم) ((تفسير ابن جرير)) (١٤/٣٥٧).

وقال ابن تيمية: الشيطان يريد بوساوسه أن يشغل القلب عن الانتفاع بالقرآن؛ فأمر الله القارئ إذا قرأ القرآن أن يستعيذ منه؛ قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيم * إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٩٨، ٩٩] فإذا عاذ العبد بربه كان مستجيرًا به متوكلا عليه، فيُعيذه الله من الشيطان، ويُجيره منه) ((مجموع الفتاوى)). (٧/٢٨٣)

وقد أجمع العلماء على أنَّ التعوذ ليس من القرآن ولا آية منه،

وهو قول القارئ: (أعوذُ بالله من الشَّيطان الرجيم).

وهذا اللفظ هو الذي عليه الجمهور من العلماء في التعوذ.

ومعناها: أستجير والتجئ، بالمعبود الحق سبحانه وتعالى)، من كل جان متمرد، مطرود عن كل خير.

ومن فوائد الاستعاذة ولطائفها:

الالتجاء إلى قادر يدفع الآفات عن العبد، لا سيما دفع وساوس الشيطان الذي يسعى بشدة إلى صد العبد عن قراءة القرآن وتدبره؛ لأنه من أعظم الطاعات، ولأنه لما كان سعي الشيطان في الصدّ عن ذلك أبلغ، كان احتياج العبد إلى من يصونه عن شر الشيطان أشد. ففي الاستعاذة استعانة بالله تعالى، واعتراف له بالقدرة، وللعبد بالضعف والعجز عن مقاومة هذا العدو المبين الباطني، الذي لا يقدر على منعه ودفعه إلا الله الذي خَلَقه، ولا يقبل مصانعة، ولا يُدارى بالإحسان، بخلاف العدو الإنساني.

وقال ابن كثير: المشهور الذي عليه الجمهور أنَّ الاستعاذة لدفع الوسواس فيها إنما تكون قبل التلاوة، ومعنى الآية: إذا أردت القراءة ((تفسير ابن كثير)) (١/١١١).

ومنها: أنها طهارة للفم مما كان يتعاطاه العبد من اللغو والرفث، وتطييب له، وتهيو لتلاوة كلام الله عز وجل.

ومنها: أن الملائكة تدنو من قارئ القرآن وتستمع لقراءته.

والشيطان ضد الملك وعدوه؛ فأمر القارئ أن يطلب من الله تعالى مباعدة عدوه عنه؛ حتى يحضره خاصته وملائكته، فهذه وليمة لا يجتمع فيها الملائكة والشياطين.

ومنها: أنَّ الاستعاذةَ قَبلَ القِراءة عنوان وإعلام بأن المأتي به بعدها القرآن؛ ولهذا لم تشرع الاستعاذة بين يدي كلام غيره، بل الاستعاذة مقدمة وتنبيه للسامع أن الذي يأتي بعدها هو التلاوة، فإذا سمع السامع الاستعاذة، استعد لاستماع كلام الله تعالى، وشرع ذلك للقارئ، وإن كان وحده.

ومنها: أن الشيطان يُجلب على القارئ بخيله ورَجْلِه؛ حتى يشغله عن المقصود بالقرآن، وهو تدبره وتفهمه، ومعرفة ما أراد به المتكلم به سبحانه؛ فيحرص بجهده على أن يحول بين قلبه وبين مقصود القرآن؛ فلا يكمل انتفاع القارئ به، فأمر عند الشروع أن يستعيذ بالله عز وجل منه).

الكَلَامُ فِي تَفْسِيرِ البَسْمَلَةِ

البسملة هي قول: بسم الله الرحمن الرحيم

ومعناها: باسم الله وحده أقرأ أو أتلو، مُتبركا بالبداءة باسم المعبود الحق تبارك وتعالى، ذي الرحمة الواسعة لجميع خلقه، وذي الرحمة الخاصة بعباده المؤمنين.

وقيل: الرحمن اسم دل على اتصافه بالرحمة سبحانه، والرَّحيم اسم دل على وقوع الفعل منه، وهو إيصال رَحْمَتِه إِلى خَلْقِه.

هل البسملة آية من سورة الفاتحة؟[3]

(3) قال ابن تيمية: (وقد كان كثير من السلف يقول: البسملة آية منها، وكثير من السلف لا يجعلها منها، ويجعل الآية السابعة: أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ، كما دلّ على ذلك حديث أبي هريرةَ الصحيح، وكلا القولين حق؛ فهي منها من وجه، وليست منها من وجه، والفاتحةُ سَبْعُ آيات). ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (٢٢/٣٥١).

وقال الشنقيطي: (ومن أحسن ما قيل في ذلك: الجمع بين الأقوال، بأن البسملة في بعض القراءات كقراءة ابن كثير- آية من القرآن، وفي بعض القراءات ليست آية) ((المذكرة)) (١/٦٦).

اختلف العلماءُ والقراء فيها، فقيل: هي آية من الفاتحة فقط، وهو مذهب أهل مكة، والكوفة، ومن وافقهم.

وقيل: آية من الفاتحة، ومن أول كل سورة سوى براءة، وهو الصحيح من مذهب الإمام الشافعي ومن وافقه، فيجهر بها في صلاة الجهر.

وقيل: آيةٌ فاصلةٌ بين كل سورتين سوى براءة، فيكره ابتداؤها بها، وهو مذهب الإمامين أبي حنيفة، وأحمد بن حنبل، ومن وافقهما، فتقرأ سرًّا في صلاة الجهر.

وقيل: ليست بآية، ولا بعض آية من الفاتحة، ولا من غيرها، وإنما كتبت للتيمُّن والتبرُّك، وهو مذهب الإمام مالك، ومن وافقه، ونقل جماعة عن أبي حنيفة كمذهب مالك، وعند مالك تكره قراءتها في صلاة الفرض، مع إجماعهم على أنها بعضُ آية من سورة النمل، وأن بعضها آية من الفاتحة.

وليست من القرآن أول براءة؛ لنزولها بالقتال الذي لا تناسبه البسملة المناسبة للرحمة والرفق.

واختلف الأئمةُ فيها، هل هي فرض في الصلاة؟ فقال أبو حنيفةَ: ليست فرضًا، فلو قرأ آية في كل ركعة، صحَّتْ صلاته، وقال صاحباه: ثلاثُ آيات قِصار، أو آيةٌ طويلة تَعْدِلُها؛ لقوله تعالى: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ (٢٠)﴾ [المزمل: ٢٠] من غير تقييدٍ، وفرضُ القراءة عندهم إنما هو في الركعتين الأُولَيين من الرُّباعية، وأما في الأُخْرَيين، فسنةٌ، فلو سبَّحَ أو سكتَ فيهما، أجزأهُ.

وقال الأئمةُ الثلاثةُ: هي ركنٌ في كلِّ ركعةٍ من الرباعية وغيرها، وتبطل الصلاةُ بتركها عمدًا أو سهوًا؛ لقوله - ﷺ -: «لا صلاةَ إلا بفاتحةِ الكتابِ» رواه البخاري (٧٢٣)، كتاب: صفة الصلاة، باب: وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات كلها، في الحضر والسفر، ومسلم (٣٩٤)، كتاب: الصلاة، باب: وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، عن عبادة بن الصامت -رضي الله عنه-.

ويسن للقارئ أن يقولَ بعد فراغه من قراءة الفاتحة: آمين مفصولًا عنها بسكتة، وهو مخفَّف، ويجوز ممدودًا ومقصورًا، ومعناه: اللهمَّ اسمعْ واستجبْ.

روى أبو هريرةَ وغيرُه عن رسول الله - ﷺ - أنه قال: «إذا قالَ الإمامُ: ولا الضَّالّينَ، فقولوا: آمين، فإنَّ الملائكةَ تقولُ في السماءِ: آمين، فمن وافقَ قولُه قولَ الملائكة، غُفر له ما تقدَّم من ذنبِه».

ليســت البســملة بآية من الفاتحة، وهذا مذهب جمهور العلماء من الحنفية، والمالكية، والحنابلة، وهو قول أهل المدينة من القراء والفقهاء،

وذهب إلى هذا جمع من المفســـرين منهم: ابن جرير، وابن العربي، وابن عطية، والقرطبي، وابن تيمية.

لحديث أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلم قال: مَن صلَّى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج، ثلاثا، غير تمام.(4)

رواه البخاري (٤٢٠٥)، كتاب: التفسير، باب: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧)﴾ [الفاتحة: ٧]، ومسلم (٤١٠)، كتاب: الصلاة، باب: التسميع والتحميد والتأمين، عن أبي هريرة -رضي الله عنه-.

وليس التأمينُ من القرآن بالاتفاق، بدليل أنه لم يثبت بالمصاحف.

واختلف الأئمةُ في الجهر به في الصـــلاة الجهرية، فعند أبي حنيفة: يخفيه الإمامُ والمأموم، وعند مالك: لا يؤمِّنُ الإمام في الجهرية، وهو الأفضـل عنده، وروي عنه: يؤمِّن ويُسِـرُّ كالمأمومِ والمنفردِ، وعندَ الشـافعيِّ وأحمدَ: يجهرُ به الإمامُ والمأموم، والله أعلم.

((فتح الرحمن في تفسير القرآن)) (63/1).

(4) رواه مسلم (٣٩٥).

سُورةُ فَاتحَة الكِتابِ

ثبتَت لسورة الفاتحة عدَّةُ أسماء، وهي:

1- فاتحة الكِتاب.[5]

2- أمُّ القرآن.[6]

3- أُمُّ الكِتاب.[7]

---

(5) قال ابنُ جرير: (سُمِّيت فاتحةَ الكتاب؛ لأنَّها يُفتتَح بكتابتها المصاحف، ويُقرأ بها في الصلوات؛ فهي فواتح لِمَا يتلوها من سُور القرآن في الكتابة والقِراءة) ((تفسير ابن جرير)) (105/1).

(6) قال ابن جرير: (سُمِّيت أمَّ القرآن؛ لتقدُّمها على سائر سُور القرآن غيرها، وتأخُّر ما سواها خلفها، في القراءة والكتابة، وذلك من معناها شبيهٌ بمعنى فاتحة الكتاب، وإنَّما قيل لها لكونِها كذلك أمَّ القرآن؛ لتسمية العربِ كلَّ جامع أمرًا، أو مُقدَّمًا لأمر، إذا كانت له توابعُ تتبعه، هو لها إمام جامعٌ أُمًّا، فتقول للجلدة التي تجمع الدماغ: أمُّ الرأس) ((تفسير ابن جرير)) (105/1).

(7) قال البخاريُّ: (سُمِّيت أمَّ الكتاب؛ لأنَّه يبدأ بكِتابتها في المصاحِف، ويُبدأ بقراءتها في الصَّلاة) ((صحيح البخاري -كتاب التفسير. باب ما جاء في فاتحة الكتاب)) قبل حديث (4474)، ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (105/1).

كان محمد بن سيرين -من طريق أيوب- يكره أن يقول: أم الكتاب. ويقول: قال الله: ﴿وعنده أم الكتاب﴾ [الرعد:٣٩]. ولكن يقول: فاتحة الكتاب.

بيّن ابن عطية (٦٩/١-٧٠) أن العلماء اختلفوا في جواز قول «أم الكتاب» عن الفاتحة، فذكر أن منهم من كره هذا، ومنهم من أباحه، وكذا في تسميتها بـ«أم القرآن».

عن عفيف بن سالم، قال: سألت عبد الله بن يحيى بن أبي كثير عن قراءة الفاتحة خلف الإمام. فقال: عن الكافية تسأل؟ قلت: وما الكافية؟ قال: الفاتحة، أما علمتَ أنها تكفي عن سواها، ولا يكفي سواها عنها.

4- السَّبْع المَثاني.(8)

5- القُرآن العظيم.(9)

6- سورة الحَمْد.(10)

- عن عُبادةَ بن الصَّامتِ رضي الله عنه، أنَّ رسولَ الله - ﷺ - قال: ((لا صلاةَ لِمَن لم يقرأْ بفاتحةِ الكِتاب)).(11)

- عن عائشةَ رضي الله عنها قالت: ((كان النبيُّ - ﷺ - يُخَفِّفُ الرَّكعتَينِ اللَّتَينِ قبلَ صلاةِ الصُّبحِ، حتى إني لأقولُ: هل قرَأ بأمِّ الكتابِ؟!)).(12)

وجَّه ابنُ كثير (١/١٥٢) هذا القولَ بما جاء في بعض الأحاديث المرسلة: «أم القرآن عِوَضٌ من غيرها، وليس غيرُها عِوَضًا عنها».

(8) قال ابنُ جرير: (أمَّا تأويل اسمها أنَّها السَّبع؛ فإنَّها سَبعُ آيات، لا خِلاف بين الجميع من القرَّاء والعلماء في ذلك... وأمَّا وصْف النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم آياتِها السَّبعَ بأنهنَّ مثانٍ؛ فلأنَّها تُثنَّى قراءتها في كلِّ صلاة تطوُّع ومكتوبة، وكذلك كان الحسنُ البصري يتأوَّل ذلك). ((تفسير ابن جرير)) (1/106-107). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (1/60)، ((تفسير ابن كثير)) (1/101)، ((تفسير ابن عاشور)) (1/135).

(9) قال القرطبيُّ: (سُمِّيت بذلك؛ لتضمُّنها جميعَ علوم القرآن؛ وذلك أنها تشتمل على الثَّناء على الله عزَّ وجلَّ بأوصاف كماله وجلاله، وعلى الأمر بالعبادات والإخلاصِ فيها، والاعترافِ بالعجز عن القِيام بشيءٍ منها إلَّا بإعانته تعالى، وعلى الابتهالِ إليه في الهداية إلى الصِّراط المستقيم، وكفايةِ أحوال الناكثين، وعلى بَيانِ عاقبة الجاحِدين). ((تفسير القرطبي)) (1/112).

(10) وسُمِّيت بذلك؛ لكونها مُفتَتحةً بالحَمْد. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (1/111).

(11) رواه البخاريُّ (756)، ومسلِم (394).

(12) رواه البخاريُّ (1165).

- عن أبي هُرَيرَة رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ - ﷺ - قال: ((أمُّ القُرآنِ هي السَّبْع المثاني، والقرآنُ العَظيم)).[13]

- عن أبي سَعيدِ بن المعلَّى رضي الله عنه، قال: ((مرَّ بي النبيُّ - ﷺ - وأنا أُصلِّي، فدَعاني فلم آتِهِ حتى صلَّيتُ، ثم أتيَتُ فقال: ما منَعك أن تأتيَ؟ فقلتُ: كنتُ أُصلِّي، فقال: ألم يقُلِ اللهُ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ؟! ثم قال: ألَا أُعَلِّمُك أعظمَ سورةٍ في القرآنِ قبلَ أن أخرُجَ منَ المسجدِ؟ فذهَب النبيُّ - ﷺ - ليخرُجَ منَ المسجدِ فذَكَّرتُه، فقال: الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ هي السَّبعُ المَثاني، والقرآنُ العظيمُ الذي أوتيتُه)).[14]

لسورةِ الفاتحة فضائلُ كثيرة، وخصائصُ عظيمة، وردَت في السُّنَّة النبويَّة؛ منها:

- أنَّها نور، ولم يُؤْتَهَا نبيٌّ قبل محمَّدٍ - ﷺ -.

عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما، قال: ((بينما جبريلُ قاعدٌ عند النبيِّ - ﷺ -، سمِع نقيضًا من فوقه؛ فرفَع رأسَه، فقال: هذا بابٌ من السَّماء فُتِح اليوم، لم يُفتح قطُّ إلَّا اليوم، فنزل منه مَلَك، فقال: هذا ملَكٌ نزل إلى الأرض، لم ينزلْ قطُّ إلَّا اليوم، فسلَّم، وقال: أبشِرْ بنورَينِ أوتيتَهما، لم يُؤتَهما نبيٌّ قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لن تَقرأ بحرفٍ منهما إلَّا أُعطيتَه)).[15]

(13) رواه البخاريُّ (4704).
(14) رواه البخاريُّ (4703).
(15) رواه مسلم (806).

- أنَّه بِقِراءتها تحصُل المناجاةُ في الصَّلاة بين العَبدِ وربِّه

عن أبي هُرَيرَة رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ - ﷺ - قال: ((مَن صلَّى صلاةً لم يقرأْ فيها بأُمِّ القرآن، فهي خداجٌ -ثلاثًا- غير تمام، فقيل لأبي هُرَيرَة: إنَّا نكونُ وراءَ الإمام، فقال: اقرأْ بها في نفسِك؛ فإنِّي سمعتُ رسولَ الله - ﷺ - يقول: قال الله تعالى: قسمتُ الصلاة بَيني وبَين عبدي نِصفين، ولعَبدي ما سأل، فإذا قال العبدُ: الحمدُ لله ربِّ العالَمين، قال الله تعالى: حمَدني عَبدي، وإذا قال: الرَّحمن الرَّحيم، قال الله تعالى: أثْنَى عليَّ عبدي، وإذا قال: مالِك يومِ الدِّين، قال: مجَّدني عبدي، (وقال مرَّة: فوَّض إليَّ عبدي)، فإذا قال: إيَّاك نعبُدُ وإيَّاك نستعين، قال: هذا بَيني وبَين عبدي، ولعَبدي ما سأل، فإذا قال: اهدِنا الصِّراطَ المستقيمَ صِراطَ الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالِّين، قال: هذا لعَبدي، ولعبدي ما سألَ)).(16)

- أنَّه لا صَلاةَ لِمَن لم يقرأْ بها

عن عُبادةَ بنِ الصامتِ رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ - ﷺ - قال: ((لا صَلاةَ لِمَن لم يقرأْ بفاتحةِ الكِتابِ)).(17)

- أنها رقيةٌ شافيةٌ بإذن الله تعالى

---

(16) رواه مسلم (395).

(17) رواه البخاريُّ (756)، ومسلم (394).

عن أبي سَعيدٍ الخُدريّ رضي الله عنه، قال: ((انطلَق نفرٌ من أصحابِ النبيّ - ﷺ - في سَفرةٍ سافروها، حتى نزَلوا على حيٍّ من أحياء العرب، فاستضافوهم فأَبَوْا أن يُضيّفوهم، فلُدِغ سيِّد ذلك الحيّ، فسَعَوا له بكلِّ شيءٍ، لا ينفعه شيءٌ، فقال بعضُهم: لو أتيتم هؤلاءِ الرهطَ الذين نزلوا؛ لعلَّه أن يكون عند بعضهم شيءٌ، فأتوْهم، فقالوا: يا أيُّها الرهط، إنَّ سيّدنا لُدِغ، وسَعَينا له بكلِّ شيءٍ، لا ينفعُه؛ فهل عند أحدٍ منكم من شيءٍ؟ فقال بعضهم: نعَمْ، واللهِ إني لأرقي، ولكن واللهِ لقدِ استضفناكم فلم تُضيِّفونا! فما أنا براقٍ لكم حتى تجعلوا لنا جُعلًا، فصالحوهم على قَطيعٍ من الغنَم، فانطلق يتْفُل عليه، ويقرأ: الحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ، فكأنَّما نشِط من عِقال، فانطلَق يمشي وما به قَلَبَةٌ،[18] قال: فأوْفوهم جُعلَهم الذي صالحُوهم عليه، فقال بعضُهم: اقسِموا، فقال الذي رقَى: لا تَفعلوا حتى نأتيَ النبيَّ - ﷺ - فنذكُرَ له الذي كان، فننُظرَ ما يأمرُنا، فقدِموا على رسولِ الله، فذكروا له، فقال: وما يُدريك أنَّها رُقيةٌ؟! ثم قال: قد أصبتُم، اقسِموا، واضرِبوا لي معكم سهمًا، فضحِكَ رسولُ الله ﷺ)).[19]

سورةُ الفاتحة سورةٌ مكيَّة، نزلت قبل الهِجرة.[20]

---

(18) قَلَبَة: ألَمٌ وعِلَّة. ((النهاية)) لابن الأثير (98/4).

(19) رواه البخاريُّ (2276).

(20) وهو قول الجمهور، يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (111/1)، ((تفسير ابن كثير)) (101/1)، ((تفسير ابن عاشور)) (135/1).

رجَّح ابنُ عطية (٦٩/١)، وابنُ تيمية (٥٩/١)، وابنُ كثير (١٥٣/١) مَكِّيَّةَ سورةِ الفاتحة استنادًا إلى السنة، ودلالة التاريخ، وذلك:

١- أنه وردت تسمية الفاتحة بالسبع المثاني في السنة، وذلك قوله ﷺ: «الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العالَمِينَ هِيَ السَّبْعُ المَثانِي».

بدليل قوله تعالى: وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ [الحجر: 87].

وجاء عن أبي سَعيدِ بن المُعلَّى رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ – ﷺ – قال: ((...هي السَّبْعُ المثاني، والقرآنُ العظيم الذي أُوتيتُه)).[21]

فهذه الآية التي ورَد فيها ذِكر السَّبع المثاني، مكيَّةٌ بالإجماع، وقد جاء النصُّ من النبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام، بكون السَّبع المثاني هي سورةُ الفاتحة؛ فلزِم من ذلك أن تكون سورةُ الفاتحة مكيَّة.[22]

ومن الأدلة على مكِّيتها كذلك، أنَّ الصلاة لا تصحُّ إلا بها، وقد شُرعت الصلاة بمكة، أي قبل الهجرة.[23]

وقد جاءت هذه التسمية في سورة مكية، وهي سورة الحجر، في قوله تعالى: ﴿ولَقَدْ آتَيْناكَ سَبْعًا مِنَ المَثانِي والقُرْآنَ العَظِيمَ (٨٧)﴾.

٢– أنّ فَرْضَ الصلاة كان بمكة، ولم يُحفظ أنه كانت هناك صلاة بغير الفاتحة. قاله ابن عطية (١/٦٩).

٣– أن القائلين بمكيتها معهم زيادة علم. قاله ابنُ تيمية (١/٥٩).

وانتقد ابنُ تيمية (١/٥٩) القول بكونها لم تنزل إلا بالمدينة بقوله: «وهو غلط بلا ريب».

(21) رواه البخاريُّ (4703).

(22) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (115/1)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (190/17)، ((تفسير ابن كثير)) (101/1)، (547/4).

(23) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (65/1).

مِن أهمِّ مقاصدِ سورة الفاتحة:

1- التعريف بالمعبودِ تبارَك وتعالى.

2- بيان طَريقِ العبوديَّة.

3- بيان أحوال النَّاس مع هذا الطَّريق.

عرَضتِ السُّورةُ لعددٍ من الموضوعات الرئيسة، وهي:

1- صفات الله عزَّ وجلَّ.

2- اليوم الآخر.

3- إفراد الله تعالى بالعبادة، ومن ذلك: الاستعانة، والدُّعاء.

4- التعريف بالصِّراط المستقيم؛ طريقِ المهتدين.

5- تجنُّب طريق الغاوين من المغضوبِ عليهم والضالِّين.

مناسبة افتتاح القرآن بسورة الفاتحة:

افتَتح الله سبحانه كتابه بهذه السورة؛ لأنَّها جمَعتْ مقاصد القرآن، ولأنَّ فيها إجمالَ ما يحويه القرآن مفصلًا؛ فجميع القرآن تفصيل لِمَا أجملتْه، وفي ذلك براعة استهلال؛ لأنَّها تنزل من سور القرآن منزلَ دِيباجة الخطبة أو الكتاب.

تَفْسِيرُ
سُورَةِ الفَاتِحَةِ

سُورةُ الفاتحة

الآيات (1–7)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (1)

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (3) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (4) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (5) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (6) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (7)

غريب الكلمات:

رَبِّ: **الرَّب: السيِّد، والمالِك، والمصلِح، والصَّاحب، والمربِّي، والخالِق، والمعبود، وأصله: إصلاح الشيء والقيام عليه.**

الصِّراط: **الطَّريق**

تفسير الآيات:[24]

الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ (1).

هذا خبرٌ من الله عزَّ وجلَّ فيه حمدَ نفسه الكريمة، وفي ضمنه إرشادٌ لعبادِه بأن يحمدوه سبحانه وتعالى.

الْحَمْدُ لله.

أي: جميعُ المحامد للمعبود تبارك وتعالى، لا يستحقُّها إلَّا هو وحده سبحانه، وهو حمدٌ دائم ومستمر.

والحَمْدُ: هو وصفُ المحمود سبحانه بالكمال، مع محبَّته، وتعظيمِه جلَّ وعلا.[25]

---

(24) نقل ابنُ عطية (١/٥٩)، وابنُ تيمية (١/٦٨)، وابنُ كثير (١/١٥٣) الإجماعَ على أنّ سورة الفاتحة سبع آيات.
وانتقد ابنُ تيمية وابنُ كثير قولَ من قال: إنّها ثماني آيات، أو ستة. وحكما عليه بالشُّذوذِ.
وقال ابنُ عطية: «وقول الله تعالى: ﴿ولَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ المَثَانِي والقُرْآنَ العَظِيمَ﴾ [الحجر:٨٧] هو الفَصْلُ في ذلك».

(25) رجَّح ابنُ جرير (١/١٣٥-١٣٦) أنّ الحمد والشكر بمعنًى واحد استنادًا إلى لغة العرب؛ لأن الحمدَ لله قد يُنطَق به في موضع الشكر، وأن الشكر قد يُوضَع موضع الحمد؛ لأنّ ذلك لو لم يكن كذلك لَما جاز أن يقال: «الحمد لله شكرًا»، فيخرج من قول القائل «الحمد لله» مصدر «أشكر»، لأن الشكر لو لم يكن بمعنى الحمد كان خطأً أن يصدر من الحمد غير معناه وغير لفظه.
ورجَّح ابنُ عطية (١/٧١) أنّ الحمدَ أعمُّ من الشكر.
ثم انتقد ابنَ جرير (١/٧١، ٧٢) في جَعْلِهما بمعنًى واحد، فقال: «وذهب الطبري إلى أن الحمد والشكر بمعنًى واحد، وذلك غير مرضيٍّ، وحُكِي عن بعض الناس أنه قال: الشكر ثناء على الله بأفعاله وإنعامه. والحمد ثناء بأوصافه، وهذا أصح معنًى من أنهما بمعنى واحد، واستدل الطبري على أنهما بمعنًى بصحة قولك:» الحمد لله شكرًا، وهو في الحقيقة دليل على خلاف ما ذهب إليه، لأن قولك: شكرًا، إنما خصصت به الحمد أنه على نعمة من النعم».

و(الله): اسمٌ ثابتٌ له سبحانه، يتضمَّن صِفةَ الألوهيَّة له عزَّ وجلَّ. ومعناه: المألوه، أي: المعبود.(26)

رَبِّ العالمين(27)

أي: هو السيِّد، والمالِك، والمدبِّر لجميع العالَمين، وهم كلُّ مَن سِوى اللهِ تعالى، مِن جميع أصناف المخلوقاتِ في كلِّ مكانٍ وزمان.

وانتقده ابنُ كثير (٢٠٢/١) كذلك بقوله: «وهذا الذي ادَّعاه ابن جرير فيه نظر؛ لأنه اشتهر عند كثير من العلماء من المتأخرين أن الحمد هو الثناء بالقول على المحمود بصفاته اللازمة والمتعدية، والشكر لا يكون إلا على المتعدية، ويكون بالجنان واللسان والأركان... ولكنَّهم اختلفوا أيهما أعم، الحمد أو الشكر؟ على قولين، والتحقيق أن بينهما عمومًا وخصوصًا، فالحمد أعم من الشكر من حيث ما يقعان عليه؛ لأنه يكون على الصفات اللازمة والمتعدية، تقول: حَمدته لفروسيته، وحمدته لكرمه. وهو أخص لأنه لا يكون إلا بالقول، والشكر أعم من حيث ما يقعان به؛ لأنه يكون بالقول والعمل والنية، كما تقدم، وهو أخص لأنه لا يكون إلا على الصفات المتعدية، لا يقال: شكرته لفروسيته، وتقول: شكرته على كرمه وإحسانه إليّ، هذا حاصل ما حرره بعض المتأخرين».

(26) عن أبي العالية رفيع بن مهران -من طريق الربيع بن أنس- في قوله: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، قال: الإنس عالَم، والجن عالَم، وما سوى ذلك ثمانية عشر ألف عالَم من الملائكة، وللأرض أربع زوايا، في كل زاوية ثلاثة آلاف عالَم وخمسمائة عالَم خلقهم لعبادته.

انتقَد ابنُ كثير (٢٠٨/١) هذا الأثر بقوله: «وهذا كلام غريب، يحتاج مثله إلى دليل صحيح».

(27) رَجَّحَ ابنُ جرير (١٤٤/١-١٤٥) أن يكون «العالَم» اسمًا لأصناف الأمم، وكل صنف منها عالَمٌ، وأهل كل قَرْن من كل صنف منها عالَمُ ذلك القرن وذلك الزمان، قال: «وهذا القول الذي قلناه... هو معنى قول عامّة المفسرين».

عن أبي العالية رفيع بن مهران -من طريق الربيع بن أنس- في قوله: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، قال: الإنس عالَم، والجن عالَم، وما سوى ذلك ثمانية عشر ألف عالَم من الملائكة، وللأرض أربع زوايا، في كل زاوية ثلاثة آلاف عالَم وخمسمائة عالَم خلقهم لعبادته.

انتقَد ابنُ كثير (٢٠٨/١) هذا الأثر بقوله: «وهذا كلام غريب، يحتاج مثله إلى دليل صحيح».

كما قال تعالى: قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إن كُنتُم مُّوقِنِينَ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ [الشعراء: 23–28].

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (2).

هما اسمانِ مشتقَّان من الرَّحمة على وجه المبالَغة، ورحمن أشدُّ مبالغةً من رَحيم؛ وذلك لأنَّ (رحمن) على وزن فعلان، وهذه الصيغة تفيد الكثرة والسعة، فالرَّحْمَن: ذو الرَّحمة الواسِعة لجميع خلقه، والرَّحِيم: ذو رحمةٍ خاصَّة، يختصُّ بها عبادَه المؤمنين.

قال الله تعالى: يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ [العنكبوت: 21]، وقال سبحانه: وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا [الأحزاب: 43].[28]

---

(28) عن عبد الله بن عباس –من طريق الكلبي، عن أبي صالح– قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾: وهو الرقيق. ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾: وهو العاطف على خلقه بالرزق. وهما اسمان رقيقان، أحدهما أرَقُّ من الآخر. أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات ١/١٣٩.

ذكر ابن كثير (١/١٩٧) عن ابن عباس قوله: أحدهما أرق من الآخر.

ثم ذكر أنّ بعض أهل العلم استشكلوا هذه الصفة، ووجّهوها بقولهم: «لعله أرفق»؛ مستدلين بالحديث: «إن الله رفيق».

عن عامر الشعبي –من طريق مِسْعَر، عمَّن سمع الشعبي– قال: اسم الله الأعظم هو: يا الله.

رجَّح ابنُ جرير (١/١٢٢–١٢٣) في تأويل قوله تعالى: ﴿الله﴾ أن يكون على معنى ما رُوِي عن ابن عباس: «والله ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين»: هو الذي يألَهه كل شيء، ويعبده كل خلقٍ. مِن ألَهَ يَأْلَه إلاهَةً، مستندًا إلى الأثر المذكور، وإلى قراءة ابن عباس ومجاهد: (ويَذَرَكَ وإلاهَتَكَ) [الأعراف:١٢٧]، وتفسيرهما الإلاهة بالعبادة".

مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (3).

أي: إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ هو المتصرِّف في جميع خلْقِه بالقول والفِعل.

كما قال تعالى: وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لله [الانفطار: 17-19].

وكما قال سبحانه: إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ [مريم: 40].

وقال أيضًا: لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لله الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ [غافر: 16].

يَوْمِ الدِّينِ: أي: يوم الجزاء والحِساب.[29]

القراءات ذات الأثر في التفسير

في قوله تعالى: مَالِكِ قِراءتان:

1- مالِك بالألف مَدًّا، وهو: المتصرِّف بالفِعل في الأشياء المملوكةِ له.[30]

---

(29) عن مجاهد بن جبر أنّه قال: الدين: الحساب.

علَّق ابنُ عطية (١/٧٩-٨١) على قول مجاهد بقوله: «وهذا عندي يرجع إلى معنى الجزاء».

وقال ابنُ تيمية (١/٩٥-٩٦): «الله عز وجل سمّى يوم القيامة يوم الدين... وذلك يَتَضَمَّن جزاءَهم وحسابَهم؛ فلهذا من قال: هو يوم الحساب ويوم الجزاء؛ فقد ذكر بعض صفات الدين».

(30) قرأ بها: عاصمٌ، والكِسائيُّ، ويعْقوب، وخَلَف. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (271/1). ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (150/1)، ((تفسير ابن كثير)) (133/1-134).

2- مَلِك بغير ألف قَصْرًا، وهو: المتصرِّف بالقول أمرًا ونهيًا في مَن هو مَلِكٌ عليهم.(31)

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (4).

أي: قولوا: إيَّاك نَعبُد وإيَّاك نستعين.

(31) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشــر)) لابن الجزري (271/1). ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفســير ابن جرير)) (150/1)، ((تفسير ابن كثير)) (133/1-134).

قال ابن شهاب [الزهري]: وأوَّل من أحدث: ‹مَلِكِ› مروان.

أخرجه ابن أبي داود في كتاب المصاحف ص٢٣٠.

فيه ضعف؛ الزهري من صغار التابعين، وحديثه مرسل. انظر: تهذيب التهذيب ٦٩٦/٣.

رَجَّحَ ابنُ جرير (١/١٥١-١٥٤) قراءة ‹ملكِ يوم الدين› مُستَدِلاً على ذلك بإجماع القراء، وبالدلالات اللغوية؛ حيث إن لفظة «ملك» أعم من لفظة «مالك»، فكل ملكٍ فهو مالك، وليس كل مالكٍ ملِكًا، ومستدلاً بأن في قراءة ‹مَلِك› مع الآيات السابقة زيادة معنى ليست في قراءة ﴿مالك﴾ مع ما قبلها من الآيات؛ لأنه أخبر أنه مالك كل شيء بقوله: ﴿رب العالمين﴾ فتصير قراءة ﴿مالك﴾ تكريرًا لما قبلها من معنًى.

ورجّح ابن عطية (١/٧٤-٧٦) وابن كثير (٢١١/١) صِحَّة القراءتين معًا.

واستشهد ابن عطية بقراءة النبي ﷺ: ‹مَلِك› و﴿مالك﴾.

وانتَقَدَ ابنُ عطية (١/٧٦-٧٧) قولَ مَن احتجَّ لقراءة ﴿مَلِك﴾ بأنّ لفظة «مَلِك» أعم من لفظة «مالِك» بقوله: «تتابع المفسرون على سَرْد هذه الحجة، وهي عندي غير لازمة؛ لأنهم أخذوا اللفظتين مطلقتين لا بنسبة إلى ما هو المملوك وفيه الملك، فأما إذا كانت نسبة الملك هي نسبة المالك، فالمالك أبلغ».

ووجّه ابن جرير (١/١٥٤-١٥٥) قراءة ‹مَلِك› بأنّ لله المُلْك يوم الدين خالصًا دون جميع خلقه الذين كانوا قبل ذلك في الدنيا ملوكًا جبابرة ينازعونه الملك، ويدافعونه الانفرادَ بالكبرياء والعظمة والسلطان والجبرية. ووجّه قراءة ﴿مالك﴾ بمعنى: أنه يملك الحكمَ بينهم وفصلَ القضاء، متفرّدًا به دون سائر خلقه.

والمعنى: لا نعبُد إلَّا أنت، متذلِّلين لكَ وحْدَك لا شريكَ لك، ولا نستعين إلَّا بك وحْدَك لا شريكَ لك.(32)

اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (5).

أي: قولوا: اهدِنا الصِّراطَ المستقيم.(33)

والمعنى: دُلَّنا على الطَّريق الواضِح الذي لا اعوجاجَ فيه، ووفِّقنا لسلوكه، وثبِّتنا عليه.(34)

---

(32) عن عبد الله بن عباس –من طريق أبي رَوْق، عن الضحاك– في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ يعني: إياك نُوَحِّد ونخاف ونرجو ربَّنا، لا غيرك، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ على طاعتك، وعلى أمورنا كلها.

قال ابنُ جرير (١/١٥٩–١٦٠): «وتأويل قوله ﴿إيّاكَ نعبُدُ﴾: لك اللهم نَخشعُ ونَذِلُّ ونستكينُ، إقرارًا لك يا ربنا بالرُّبوبية، لا لغيرك». وقال: «... معنى ﴿وإيّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: وإياك ربَّنا نستعين على عبادتنا إيّاك وطاعتنا لك وفي أمورنا كلها، لا أحدًا سواك».

مستشهدًا بأثر ابن عباس من طريق أبي رَوْق عن الضحاك.

(33) قال ابنُ عطية (١/٨٥): «والهداية في اللغة: الإرشاد، لكنها تتصرف على وجوه يُعَبِّر عنها المفسرون بغير لفظ الإرشاد، وكلها إذا تُؤُمِّلَت رَجَعَتْ إلى الإرشاد».

وذكر أنّ من بين معاني الهدى «الإلهام»، وعلّق عليه بقوله: «وهذا أيضًا يبين فيه معنى الإرشاد».

وقد ترد الهداية والمراد بها إرشاد المؤمنين إلى مسالك الجنان والطرق المفضية إليها، من ذلك قوله تعالى في صفة المجاهدين: ﴿فلن يضل أعمالهم سيهديهم ويصلح بالهم﴾ [محمد]، ومنه قوله تعالى: ﴿فاهدوهم إلى صراط الجحيم﴾ [الصافات] معناه: فاسلكوهم إليها.

(34) قال ابن جرير: (أجمعت الأمة من أهل التأويل جميعًا على أن الصراط المستقيم هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه ((تفسير ابن جرير)) (170/1).

عن أبي العالية رفيع بن مهران –من طريق عاصم الأحول– في قوله: ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾، قال: هو رسول الله ﷺ، وصاحباه من بعده.

قال: فذكرنا ذلك للحسن، فقال: صدق أبو العالية ونصح.

صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ (6).

أي: طريق الذين أَنعمَ الله تعالى عليهم بالهِداية إلى الصِّراط المستقيم، وهم الذين عِلموا الحقَّ وعمِلوا به؛ امتثالًا لِمَا أمَر الله عزَّ وجلَّ، واجتنابًا لِمَا نهى عنه سبحانَه، بإخلاصٍ لله تعالى، ومتابعةٍ للرَّسول – ﷺ –، وهم المذكورون في قوله تعالى: وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا [النساء: 69].(35)

غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (7).

غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ.

أي: إنَّ مِن صفات الذين أنعم الله تعالى عليهم، أنَّهم ليسوا كاليهود، ومَن سلَك طريقتَهم في ترْك العمل بالحقِّ بعد معرفته.(36)

وجَّه ابنُ عطية (١/٨٩) أثرَ أبي العالية بأن المراد: أنّ ﴿الصراط المستقيم﴾ طريق محمد ﷺ وأبي بكر وعمر، وقال: «وهذا أقوى في المعنى؛ لأن تسمية أشخاصهم طريقًا تَجَوُّزٌ».

(35) عن عمر بن الخطاب –من طريق الأسود بن يزيد– أنّه كان يقرأ: (سِراطَ مَن أنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وغَيْرِ الضَّآلِّينَ) و(سِراطَ مَن أنْعَمْتَ) قراءة شاذة، وتروى أيضًا عن ابن مسعود وغيره. انظر: مختصر ابن خالويه ص٩.

و(وغَيْرِ الضَّآلِّينَ) كذلك قراءة شاذة، تروى أيضًا عن أُبَي وغيره. انظر: البحر المحيط ١/١٥٠.

وجَّه ابنُ كثير (١/٢٢٤) هذه القراءة بقوله: «وهو محمول على أنه صَدَرَ منه على وجْهِ التفسير».

بيَّن ابنُ جرير (١/١٧٦–١٧٧)، وابنُ عطية (١/٨٧)، وابنُ تيمية (١/١١٦–١١٧)، وابنُ كثير (١/٢٢٣) أنّ المراد بالمُنْعَم عليهم: هم المذكورون في قوله تعالى:﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ والرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ والصِّدِّيقِينَ والشُّهَداءِ والصّالِحِينَ وحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء:٦٩]؛ لعموم ذلك القول وشموله.

(36) قال ابنُ أبي حاتم: (لا أعلمُ بين المفسّرين في هذا الحَرْف اختلافًا) ((تفسير ابن أبي حاتم)) (31/1).

فأخصُّ أوصاف اليهود، الغضبُ، كما قال الله تعالى فيهم: مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ [المائدة: 60]، وقال سبحانه أيضًا: فَبَاؤُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ [البقرة: 90].

وعن عَديّ بن حاتمٍ رضي الله عنه، قال: قال رسولُ الله – ﷺ –: ((المغضوب عليهم: اليهود)).[37]

ولا الضَّالِّينَ.

أي: إنَّ من صِفات الذين أنعمَ الله تعالى عليهم، أنَّهم ليسوا كالنَّصارى، ومَن سلك طريقتَهم ممَّن جهِلوا الحقَّ، فعبَدوا الله تعالى بغير عِلم.

---

(37) رواه أحمد (378/4) (19400)، وابن حبان (183/16) (7206)، والطبراني (100/17) (237).
قال الهيثميُّ في ((مجمع الزوائد)) (210/6): رجاله رجال الصَّحيح، غير عبَّاد بن حُبَيش، وهو ثِقة، وحسَّن إسنادَه ابن حجر في ((فتح الباري)) (9/8)، وصحَّحه بمجموع طرقه الألبانيُّ في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (3263).

فأخصُّ أوصاف النصارى الضلال، كما قال سبحانه: قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ [المائدة: 77].

وعن عديٍّ بن حاتم رضي الله عنه، قال: قال رسول الله – ﷺ –: ((ولا الضالين: النَّصارى)).[38]

---

(38) رواه أحمد (4/378) (19400)، وابن حبان (16/183) (7206)، والطبراني (17/100) (237).

قال الهيثميُّ في ((مجمع الزوائد)) (6/210): رجاله رجالُ الصَّحيح غير عبَّاد بن حُبَيش وهو ثِقة، وحسَّـن إسـنادَه ابن حجر في ((فتح الباري)) (8/9)، وصحَّحه بمجموع طُرقه الألباني في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (3263).

وجَّهَ ابنُ عطية (١/٩١-٩٢)، وابنُ تيمية (١/١١٩-١٢٠)، وابنُ القيم (١/٧٩-٨٠)، وابنُ كثير (١/٢٢٤-٢٢٧) تفسير ﴿المغضوب عليهم﴾ باليهود، وتفسير ﴿الضالين﴾ بالنصارى بأنّه الوصف الغالب عليهما في القرآن؛ فاليهود يعرفون الحق ولا يعملون به، والنصارى يعبدون بلا علم. قال إسماعيل بن مسلم: كان الحسن البصري إذا سُئِل عن «آمين»: ما تفسيرها؟ قال: هو: اللهم استجب.

قال ابنُ عطية (١/٩٧): كلّ داعٍ ينبغي له في آخر دعائه أن يقول: آمين.

وكذلك كل قارئ للحمد في غير صلاة، لكن ليس بجهر الترتيل، وأما في الصلاة فهناك خلاف في الإمام، ولم يُختلَف في الفَذِّ، ولا في المأموم».

تَفْسِيرُ
سُورَةِ البَقَرَةِ

سُورَةُ البَقَرَةِ

سُورَةُ البَقَرَةِ[39]

- سِمّيت هذه السُّورةُ الكريمة، سورةَ البَقرة.[40]

فعن أَبِي مَسعودٍ عُقبةَ بن عمرو رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ - ﷺ - قال: ((مَن قرَأ بالآيتَينِ مِن آخِرِ سورةِ البَقرةِ في ليلةٍ كفَتاه)).

- سِمّيت هي وسورة آل عِمران، الزَّهراوين.

(39) عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقولوا: سورة البقرة، ولا سورة آل عمران، ولا سورة النساء، وكذلك القرآن كله، ولكن قولوا: السورة التي يُذكر فيها البقرة، والسورة التي يُذكر فيها آل عمران، وكذلك القرآن كله» أخرجه الطبراني في الأوسط ٤٧/٦ (٥٧٥٥)، والبيهقي في الشعب ١٧٢/٤ (٢٣٤٦).

قال البيهقي: «عبيس بن ميمون منكر الحديث، وهو لا يصح، وإنما يروى فيه عن ابن عمر من قوله». وقال الهيثمي في المجمع ١٥٧/٧ (١١٦١٧): «وفيه عبيس بن ميمون، وهو متروك».

انتَقَدَ ابنُ كثير (٢٤٩/١) هذا الحديث، مستندًا إلى السنة، وأقوال السلف، فقال: «هذا حديثٌ غريبٌ، لا يصح رفعُه ... وقد ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود: أنّه رمى الجمرة ... ثم قال: هذا مقام الذي أنزلت عليه سورة البقرة». وذكر آثارًا أخرى.

(40) رواه البخاري (5008).

فعن أبي أُمامةَ الباهليِّ رضي الله عنه، قال: سمعتُ رسولَ الله – ﷺ – يقول: ((اقْرَؤوا القرآنَ؛ فإنَّه يأتي يومَ القيامةِ شَفيعًا لأصحابه، اقرَؤوا الزَّهرَاوَيْنِ[41]: البقرةَ، وسورةَ آلِ عمرانَ...)).[42]

لهذه السُّورة الكريمةِ فضائلُ متعدِّدة، منها:

– أنها تُنفِّر الشيطانَ من البَيت الذي تُقرأ فيه

فعَن أبي هُرَيرةَ رضي الله عنه، أنَّ رسولَ الله – ﷺ – قال: ((لا تجْعَلوا بُيوتَكم مقابرَ؛ إنَّ الشيطانَ ينفِرُ من البيتِ الذي تُقرأ فيه سورةُ البَقرة))[43]

– أنَّها وآلَ عمران تُدافعانِ عن قارئِهما يومَ القيامة، وفي قِراءتِها والعملِ بما فيها حصولُ البَركات لصاحبِها.

فعن أبي أُمامةَ الباهليِّ رضي الله عنه، قال: سمعتُ رسولَ الله – ﷺ – يقول: ((اقْرَؤوا القرآنَ؛ فإنَّه يأتي يومَ القيامةِ شَفيعًا لأصحابه، اقرَؤوا الزَّهرَاوَين: البقرةَ، وسورةَ آلِ عمرانَ؛ فإنَّهما تأتِيان يومَ

---

(41) الزَّهراوان: أي المنيرتان، واحدتهما زَهراء. ((النهاية)) لابن الأثير (321/2).
(42) رواه مسلم (804).
(43) رواه مسلم (780).

القِيامةِ كأنَّهما غَمامتانِ،[44] أو كأنَّهما غَيايتانِ،[45] أو كأنهما فِرْقانِ[46] من طَيرٍ صوافَّ،[47] تُحاجَّان عن أصحابِهما، اقرَؤوا سورةَ البقرةِ؛ فإنَّ أَخْذَها بَرَكةٌ، وتركَها حَسرةٌ، ولا يستطيعُها البَطَلَةُ))، قال معاويةُ ابن سلام –أحد رجال سند الحديث–: بلغَني أنَّ البطلَةَ السَّحرةُ.[48]

– تعظيمُ الصَّحابة رضي الله عنهم لقارئِها هي وآل عمران

فعن أَنسٍ رضي الله عنه، قال: ((كان الرجلُ إذا قرَأَ البَقرة وآل عمران، جَدَّ فينا– يعني: عظُم– وفي رواية: يُعَدُّ فينا عَظيمًا، وفي أخرى: عُدَّ فينا ذا شأنٍ)).[49]

سورة البَقرة سورةٌ مدنيَّة، نزلتْ بعد الهِجرة، ونقَل الإجماعَ على ذلك عددٌ من المفسِّرين.[50]

---

(44) الغَمامة: السَّحابة. ((النهاية)) لابن الأثير (3/389).

(45) الغَياية: كلُّ شيءٍ أظلَّ الإنسانَ فوق رأسه كالسَّحابة وغيرها. ((النهاية)) لابن الأثير (3/403).

(46) فِرقان: أي: قِطعتان، مثنَّى الفِرْق، وهو القِطعة من الشَّيء. ((كشف المشكل)) لابن الجوزي (4/150)، ((النهاية)) لابن الأثير (3/440).

(47) صَوافَّ: أي: مُصطفَّة متضامَّة؛ لتظلِّل قارئها. ((كشف المشكل)) لابن الجوزي (4/150).

(48) أخرجه مسلم (804).

(49) رواه أحمد (3/120) (12236)، وابن حبَّان (3/19) (744). صحَّح إسنادَه ابن تَيميَّة في ((الصارم المسلول)) (2/241)، وقال ابن كثير في ((البداية والنهاية)) (6/179): على شرْط الشيخين، وصحَّحه الألباني في ((صحيح الموارد)) (1268).

(50) نقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ تيميَّة في ((مجموع الفتاوى)) (17/193)، وابنُ كثير في ((تفسيره)) (1/155)، والشِّنقيطي في ((العذب النمير)) (2/362).

قال ابنُ كثير (١/٢٤٨): «والبقرة جميعها مدنية بلا خلاف». ثم ذكر الروايات عن السلف في بيان مدنية السورة، ثم قال: «وهكذا قال غيرُ واحد من الأئمة، والعلماء، والمفسرين، ولا خلاف فيه».

مَن أهمِّ المقاصد التي تضمَّنتها سورةُ البقرة:

1- الاهتمامُ بالجانب العَقديّ؛ فقد بيَّنت الســورة الكثيرَ من أصــول العقيدة، وأدلَّة التوحيد، وبراهين البعث.

2- بيانُ جوانبَ من التَّشــريع الإســلاميّ، ســواءً في العِبادات، أو الأحوال الشــخصــيَّة، أو المعاملات الماليَّة، أو الحدود، وغير ذلك.

من أَبرزِ الموضوعاتِ التي تناولتْها سورةُ البَقرة:

1- وصْف أصناف النَّاس، حيثُ قسَّمتْهم ثلاثةَ أقسام، هم: المؤمنون، والكافِرون، والمنافقون.

2- وصيَّةُ الناس كافَّةً بعبادة ربِّهم، مع ذِكر بعض نِعمه الجليلة عليهم، التي تدلُّ على استحقاقِه سبحانَه وتعالى للعبادة وحْده، مع تحذيرهم إنْ لم يمتثلوا هذا الأمر، وتبشــير مَن امتثل منهم بما أعدَّه الله تعالى له من النَّعيم المقيم.

3- بداية خَلْق الإنسان، وحوار الله عزَّ وجلَّ مع ملائكتِه.

4- قِصَّة استخلاف آدَمَ في الأرض، وقصَّته مع الشيطان.

5- عَرْض أبرز الأحداث التي وقعتْ لبني إسرائيل.

6- قِصَّــة ابتلاء إبراهيمَ بالكلمات، وبنائِه الكعبةَ مع ولده إسماعيل، ووصــيَّته لأبنائه ويعقوب، ووصية يعقوب لأبنائِه.

7- عَرْض مجموعة من الأحكام الشــــرعيَّة في جانب العبادات، تتعلَّق بالصَّـــلاة والصَّــــدقة، والصَّوم، والحجِّ، وفي جانب المعاملات، كالرِّبا والدَّيْن، والرَّهن، وكذلك في جانب الأُسْرَة من النِّكاح والطَّلاق والإيلاء والعِدَد، وغير ذلك من أحكام.

8- عَرْض وقائع في إحياء الله الموتى، ومنها: (قصــة قتيل بني إســرائيل، وقصــة الذين أصــيبوا منهم بصاعقة أماتتهم، وقِصَّة الذين خرَجوا من دِيارهم وهم أُلوف حذرَ الموت، وقِصَّة الذي مرَّ على قريةٍ وهي خاويةٌ على عروشها، وقصَّة إبراهيم عليه السَّلام مع الطَّير).

9- قِصَّة طالوت وجالوت مع الملأ من بني إسرائيل من بعدِ موسى عليه السَّلام.

10- قصَّة الذي حاجَّ إبراهيمَ عليه السَّلام في ربِّه.

سُورةُ البَقَرَة

الآيات (1–5)

الم (1)

ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (2)

الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3)

وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (4)

أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (5)

غريب الكلمات:

رَيْب: الرَّيب: الشكُّ، أو هو الشكُّ مع الخَوف، ومع تُهَمَة المشكوكِ فيه، وتوهُّمُ أمْرٍ ما بالشَّيء، والرَّيب مصدر رابني الشيء: إذا حصل فيه الريبة، وهي قلق النفس واضطرابها.

لِلْمُتَّقِينَ: الذين يقُون أنفسهم تَعاطي ما يُعاقَب عليه من فِعل أو تَرْك، والتقوى جعْل النفس في وقاية مما تخاف، وأصل الاتِّقاء: الحَجْز؛ كأنَّهم وضعوا بينهم وبين العذاب حاجزًا يقيهم.

يُوقِنُونَ: يعلمون علمًا متمكِّنًا في نفوسهم لا يمكن أن يدخله شكٌّ، وأصل اليقين: زوال الشَّكِّ.

الْمُفْلِحُونَ: أي: الظَّافرون بما طلبوا، الباقون في الجنة؛ فأصل الفَلَاح: الظَّفَرُ وإدراك البُغية، والبقاء.

تفسير الآيات:

الم (1).

هذه الحروفُ المقطَّعة التي افتُتِحَت بها هذه السُّورة وغيرها، تأتي لبيان إعجازِ القرآن؛ حيث تُظهِر عجْزَ الخَلْق عن معارضته بمثلِه، مع أنَّه مركَّبٌ من هذه الحروف العربيَّة التي يتحدَّثون بها![51]

ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (2).

(51) رجَّح ابنُ جرير (١/٢٢٣-٢٢٥) أنّ الحروف المقطعة في فواتح السور تحوي سائر ما قاله مفسرو السلف؛ لأن الله -جلّ ثناؤه- لو أراد بذلك الدلالة على معنًى واحد دون سائر المعاني غيره لأبان ذلك لهم رسول الله ﷺ، وفي تركه ﷺ إبانةَ ذلك أوضحُ الدليل على أنه مُرادٌ به جميعُ وجوهه التي هو لها محتمل، إذ لم يكن مستحيلًا في العقل وجهٌ منها أن يكون من تأويله ومعناه، كما كان غير مستحيل اجتماعُ المعاني الكثيرة للكلمة الواحدة باللفظ الواحد في كلام واحد.

ونقل ابنُ عطية (١/٩٩-١٠١) اختلافًا في التكلم في تفسير الحروف المقطعة، أو الامتناع عن تفسيرها، ثم قال: «والصواب ما قاله الجمهور: أن تُفَسَّر هذه الحروف، ويُلْتَمَس لها التأويل».

وعلَّق ابنُ كثير (١/٢٥٥-٢٥٧)، فقال: «ولم يُجمِع العلماء فيها على شيء معين، وإنما اختلفوا، فمَن ظهر له بعض الأقوال بدليلٍ فعليه اتّباعه، وإلا فالوقف حتى يتبين».

ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ.

أي: إنَّ هذا القرآن، لا شكَّ(52) في أنَّه حقٌّ في ذاته، وأنَّه نزَل من عند الله تعالى، كما أنَّه لا يتضمَّن ما يوجب الرَّيْب.

كما قال تعالى: الم تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ [السجدة: 1–2].

وقال سبحانه: أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا [النساء: 82].

هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ.

أي: إنَّ القرآن هدًى من الضلالة، ونورٌ وتبيان للذين يتَّقون غضبَ الله تعالى وعقابَه، بامتثال ما أَمَر الله تعالى به، واجتنابِ ما نَهَى عنه.

الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (3).

---

(52) وجَّه ابنُ تيمية (١/١٣٧) تفسير الريب بالشك بأنه تقريب للمعنى، فقال: «فهذا تقريب، وإلا فالريب فيه اضطراب وحركة ... فكما أنّ اليقين ضُمِّن السكون والطمأنينة، فالريب ضده ضُمِّن الاضطراب والحركة، ولفظ الشك وإن قيل: إنه يستلزم هذا المعنى؛ لكن لفظه لا يدل عليه».

الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ.

أي: إنَّ مِن صفات المتَّقين أنَّهم يُصدِّقون ويُقِرُّون(53) بالغيب.

والغيبُ هو: كلُّ ما غاب عن العَبد، ومن الإيمان بالغيب: الإيمانُ بالله تعالى، وملائكتِه، وكُتبِه، ورُسلِه، واليومِ الآخِر.(54)

---

(53) عن محمد ابن شهاب الزهري –من طريق مَعْمَر– قال: الإيمانُ العملُ.

رجَّح ابنُ جرير (٢٤١/١) شمول معنى الإيمان للقول والاعتقاد والعمل، فقال: «والإيمان: كلمة جامعةٌ للإقرار بالله، وكُتبه، ورسلِه، وتصديق الإقرار بالفعل. وإذْ كان ذلك كذلك فالذي هو أولى بتأويل الآيةِ، وأشبه بصفة القوم: أن يكونوا موصوفين بالتصديق بالغَيْبِ قولًا واعتقادًا وعملًا؛ إذ كان –جلّ ثناؤه– لم يحصُرْهم من معنى الإيمان على معنى دون معنى». وقال ابنُ كثير (٢٦٤/١): «أما الإيمان في اللغة: فيطلق على التصديق المحض. وقد يستعمل في القرآن والمراد به ذلك، كما قال تعالى: ﴿يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين﴾ [التوبة:٦١] ...، وكذلك إذا اسْتُعْمِل مقرونًا مع الأعمال؛ كقوله: ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ [الانشقاق:٢٥]، فأما إذا اسْتُعْمِل مطلقًا فالإيمان الشرعي المطلوب لا يكون إلا اعتقادًا وقولًا وعملًا».

عن الربيع بن أنس –من طريق أبي جعفر الرازي– ﴿يؤمنون﴾: يخشون.

بيَّن ابنُ جرير (٢٤١/١) اندراج الخشية تحت معنى الإيمان، فقال: «وقد تدخل الخشية لله في معنى الإيمان، الذي هو تصديق القول بالعمل».

(54) رجَّح ابنُ عطية (١٠٥/١)، وابنُ تيمية (١٣٦/١)، وابنُ كثير (٢٦٥/١) القول بالعموم في معنى الغيب. وجمع ابنُ عطية بين تلك الأقوال بقوله: «وهذه الأقوال لا تتعارض، بل يقع الغيب على جميعها».

وجمع ابنُ كثير بينها، فقال: «وأما الغيب المراد هاهنا فقد اختلفت عبارات السلف فيه، وكلها صحيحة ترجع إلى أن الجميع مراد، فكل هذه متقاربة في معنى واحد؛ لأن جميع هذه المذكورات من الغيب الذي يجب الإيمان به».

وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ.

أي: يؤدُّون الصَّلوات بحدودِها، وفروضِها، وواجباتها، كما أمَر الله عزَّ وجلَّ.(55)

وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ.

أي: يُخرِجُون من طيِّب ما أعطاهم ربُّهم من الأموال.(56)

والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (4).

(55) ومن المفسِّرين مَن أدخل فيها النوافلَ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: 41).

ومنهم مَن أطلق الصلاة ولم يقيِّدها بشيء. يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (81/1)، ((تفسير ابن عطية)) (85/1).

(56) رجَّح ابنُ جرير (١/٢٥٠)، وابنُ عطية (١/١٠٧)، وابنُ كثير (١/٢٦٩-٢٧٠) شمول معنى ﴿ينفقون﴾ لكل أنواع النفقات؛ لأن الله مدحهم بالإنفاق، ولم يخصص نوعًا من أنواع الإنفاق.

ومِن المفسِّرين مَن خصَّص النفقة المذكورة هنا، بالزَّكوات المفروضة، والنَّفقات الواجِبة. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (250/1)، ((تفسير ابن كثير)) (169/1).

ومن المفسِّرين مَن جعَلها شاملةً للصَّدقات الواجبة والمستحبَّة. يُنظر: ((تفسير الراغب الأصفهاني)) (82/1)، ((تفسير القرطبي)) (179/1)، ((تفسير السعدي)) (ص: 41)، ((تفسير ابن عاشور)) (235/1).

ومنهم مَن أطلق النفقة ولم يقيِّدها بشيء. يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (81/1)، ((تفسير ابن عطية)) (85/1).

وممَّن أطلق القولَ من السَّلف، قتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (38/1).

والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ.

أي: إنَّ من صِفات المتقين أيضًا، أنَّهم يؤمنون بالقرآن الذي أُنزل إلى محمَّدٍ – ﷺ –، ويُؤمنون أيضًا بجميع الكتُب السماويَّة السابقة، من قَبل بَعثةِ محمَّدٍ – ﷺ –.(57)

كما قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ [النساء: 136].

---

(57) رجَّح ابنُ جرير (١/٢٤٦–٢٤٧) أنّ المراد بقوله: ﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾: مؤمنو العرب، وأنّ المراد بقوله تعالى: ﴿والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك﴾: مؤمنو أهل الكتاب، وذلك أنه تعالى قال: ﴿والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك﴾، ولم يكن للعرب كتابٌ قبل الكتاب الذي أنزله الله عز وجل على محمد ﷺ، وبأنّ الله صنَّف الكافرين في الآيات بعدها إلى صنفين: منافق، وكافر، فكذلك المؤمنون صنَّفهم إلى عربيٍّ، وكتابيٍّ.

وانتقد ابنُ تيمية (١/١٢٧) هذا القول، ووصفه بالغلط؛ لأن «مشركي العرب إن لم يؤمنوا بما أُنزِل إليه وما أُنزِل من قبله لم يكونوا مُفْلِحين، وأهل الكتاب إن لم يؤمنوا بالغيب ويقيموا الصلاة ومما رزقناهم ينفقون لم يكونوا مفلحين؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾، فدلَّ على أنهم صنف واحد».

ولم ير ابنُ عطية (١/١٠٨) تعارضًا بين قول من جعل الآيتين في صنف واحد، أو فسر كل آية بصنف منهما، فقال: «وهذه الأقوال لا تتعارض».

ورجَّح ابنُ تيمية (١/١٢٧–١٢٨، ١٤٢) أن الآيات صفة لموصوف واحد، وأن عطف الشيء على الشيء قد يكون لتغاير الصفات، وإن كانت الذات واحدة.

وبنحوه قال ابنُ كثير (١/٢٧٢–٢٧٤)، فقد رجَّح أن الآيات عامة في كل مؤمن اتصف بها، وذلك أنه ليس تصح واحدة من هذه الصفات دون الأخرى، بل كل واحدة مستلزمة للأخرى وشرط معها، وقوّى قولَه بعدد من الآيات الدالة على أمر جميع المؤمنين بالإيمان بالله ورسله وكتبه، كقوله تعالى: ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ ورَسُولِهِ والكِتابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلى رَسُولِهِ والكِتابِ الَّذِي أنْزَلَ مِن قَبْلُ﴾ الآية [النساء:١٣٦]، وقوله: ﴿ولا تُجادِلُوا أهْلَ الكِتابِ إلّا بِالَّتِي هِيَ أحْسَنُ إلّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنهُمْ وقُولُوا آمَنّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إلَيْنا وأُنْزِلَ إلَيْكُمْ﴾ [العنكبوت:٤٦]، وغيرها.

وبيَّن ابنُ عطية (١/١٠٨) اختلاف الإعراب على كلا القولين، فقال: «فمن جعل الآيتين في صنف واحد فإعراب ﴿والَّذِينَ﴾ خفض على العطف، ويصح أن يكون رفعًا على الاستئناف، أي: وهم الذين. ومن جعل الآيتين في صنفين فإعراب ﴿والذين﴾ رفع على الابتداء، وخبره ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدىً﴾، ويحتمل أن يكون عطفًا».

وقال سبحانه أيضًا: وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ [العنكبوت: 46].

وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ.

أي يؤمنون إيمانًا لايتطرَّق إليه شكٌّ بالبعث والنُّشور، والثواب والعِقاب، والحِساب والميزان، وغير ذلك ممَّا أعدَّ الله تعالى لخلْقِه يومَ القِيامة.

أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (5).

أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ.

أي: إنَّ المتَّصفين بجميعِ ما تقدَّم ذِكرُه من صِفات المتقين، على نورٍ وبُرهانٍ وبصيرةٍ من ربِّهم سبحانه.

وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ.

أي: وهم أيضًا فائزونَ بإدراك ما طلَبوا، وبالنَّجاة ممَّا منه هربَوا.

سُورةُ البَقَرَةِ.

الآيات (6–7)

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (6)

خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (7)

غريب الكلمات:

أَأَنْذَرْتَهُمْ: أأعلمتهم بما تحذِّرهم منه، وأصل الإِنْذار: إخبارٌ فيه تخويف، أو الإبْلاغُ.

خَتَمَ: طبَع على الشَّيء ووسَمه، وسدَّه وربَطَه، والخاتِم بمنزلة الطَّابع.

غِشَاوَةٌ: غِطاء وسَاتر، مِن غشِي الشَّيءَ، أي: غَطَّاه وستَرَه.

تفسير الآيات:

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (6).

أي: إنَّ هؤلاء الذين كفروا، يتساوى في حقِّهم كِلا الأمرين، الإنذارُ وعدمه، فهم في كِلا الحالين لا يؤمنون بما جِئتَهم به- يا أيُّها الرسولُ- من الحقِّ.[58]

خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (7).

---

(58) رجَّح ابنُ جرير (١/٢٦٠-٢٦٢) مستندًا إلى دلالة السياق أنّ الآية نزلت «في أحبار اليهود الذين قُتِلوا وماتوا على الكفر، مُستَدِلًّا بأنّ مجيء قول الله: ﴿إن الذين كفروا سواء عليهم﴾ عَقِيبَ خبر الله عن مؤمني أهل الكتاب يُقَوِّي أن المراد بذلك الخبر عن كُفّار أهل الكتاب، ومُسْتَدِلًّا باستمرار آيات السورة في ذكر أخبارهم، وبيان أخذ الله العهود والمواثيق عليهم في أمر محمد ﷺ في قوله: ﴿يا بَنِي إِسْرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠] وما بعدها، وأنّ الخبر إذا كان أوَّلًا عن مُؤمِني أهل الكتاب، وآخرًا عن مشركيهم، فأَوْلى أن يكون وسَطًا عنهم، إذْ كان الكلامُ بعضُه لبعض تَبَعٌ».

ورجَّح ابنُ عطية (١/١١٠-١١١) ما أفاده قول ابن عباس من طريق علي بن أبي طلحة من أنّ الآية عامة فيمن سبق في علم الله أنه لا يؤمن. وكذا رجَّحه ابنُ كثير (١/٢٧٧).

وبيَّن ابنُ تيمية (١/١٥٢-١٥٦) أنّ الآية مطلقةٌ عامَّةٌ تتناولُ كلَّ الكفار، وأنّ المراد بها أن الكافر ما دام مُصِرًّا على كُفْرِه لا ينفعه الإنذار؛ للحُجُب التي على قلبه وسمعه وبصره، وذلك لا يمنع انتفاعَه بالإنذار إذا زالت تلك الحُجُب.

وقد نصَّ ابن تَيميَّة على أنَّ هذا حالُ الكفَّار ما داموا على كُفرهم؛ بسبب موانعَ تمنعهم من الإيمان، وإلَّا فإنَّ إيمانَهم ممكنٌ إذا زالت تلك الموانع، بإذن الله تعالى. يُنظر: ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (16/584-589)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: 91).

ونصَّ كثيرٌ من المفسِّرين على أنَّ الآية خاصَّةٌ بقومٍ معيَّنين استمروا على كفرهم، وإلا فإنَّ هنالك من الكفار من آمن بعد نزول هذه الآية. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (1/258-259)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (1/40)، ((تفسير ابن عطية)) (1/87)، ((تفسير ابن عاشور)) (1/248).

خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ.

أي: طَبَع اللهُ عليها، فلا يَنتفعون بهُدى.(59)

وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ.

أي: عليها غِطاء، فلا يُبصرون هُدًى.

وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ.

أي: عذابُ النَّار.

(59) رجَّح ابنُ جرير (١/٢٦٨) مستندًا إلى السنة أنّ الختم في الآية حقيقيٌّ وعلى ظاهره.

وانتَقَدَ قول من قال: إنّ الختم مجاز عن التكبر والإعراض، بقوله: «والحق في ذلك عندي ما صَحَّ بنظيره الخبرُ عن رسول الله ﷺ: «إن المؤمن إذا أذنب ذنبًا كانت نكتةً سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر صقلت قلبه، فإن زاد زادت حتى تغلق قلبه، فذلك الران، الذي قال الله –جل ثناؤه–:﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾». [المطففين:١٤]، فأخبر ﷺ أن الذنوب إذا تتابعت على القلوب أغْلَقَتْها، وإذا أغْلَقَتْها أتاها حينئذ الختمُ من قِبل الله عز وجل والطبع، فلا يكون للإيمان إليها مَسْلَك، ولا للكفر منها مَخْلَص، فذلك هو الطبع والختم الذي ذكره الله –تبارك وتعالى–، نظير الطبع والختم على ما تدركه الأبصار من الأوعية والظروف، التي لا يوصل إلى ما فيها إلا بفَضِّ ذلك عنها، ثم حَلِّها، فكذلك لا يصل الإيمان إلى قلوب مَن وصَف الله أنه خَتَم على قلوبهم، إلا بعد فَضِّه خاتمَه، وحَلِّه رباطَه عنها».

ووافقه ابنُ كثير (١/٢٧٨–٢٧٩).

قال القرطبيُّ: (الأمَّة مجمِعة على أنَّ الله تعالى قد وصف نفْسَه بالختم والطَّبع على قلوبِ الكافرين؛ مجازاةً لكفرهم، كما قال تعالى: بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ [النساء: 155]) ((تفسير القرطبي)) (1/187). يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (1/265–267)، ((تفسير ابن كثير)) (1/174–175)، ((تفسير ابن عُثيمين – الفاتحة والبقرة)) (1/38).

سُورةُ البَقَرَةِ

الآيات (8–20)

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (8)

يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (9)

فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (10)

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (11)

أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (12)

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ

وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ (13)

وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ

(14)

اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (15)

أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (16)

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي

ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (17)

صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (18)

أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ

حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (19)

يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ

لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (20)

غريب الكلمات:

يُخَادِعُونَ: أي: يُظهِرون غير ما في نُفوسهم. وأصل الإخداع: إخفاء الشَّيء.

مَرَضٌ: أي: شكٌّ ونفاق، وأصلُ المرض: الفُتور، والخروج عن الاعتدال الخاصِّ بالإنسان.

السُّفَهَاءُ: أي: الجهلة، وأصل السَّفه: الجَهْل، والخفَّة في البَدن والعقل، والضَّعْف والحُمق، واستُعمل في خِفَّة النفس؛ لنُقصان العقل.

شَيَاطِينِهِمْ: رؤوسهم في الكفر ومردتهم، جمْع شيطان، وهو كلُّ عاتٍ متمرِّد من الجنِّ والإنسِ والدواب، وأصلُه من: شَطَن، إذا تباعد؛ وذلك لبعده عن رحمة الله أو الخير، وقيل: أصله مِن شَاطَ إذا احترَق.

طُغْيَانِهِمْ: عُتُوِّهم وتكبُّرهم، أو غيهم وكُفْرهم، وأصل الطُّغيان: مجاوزة الحدِّ.

يَعمهون: يتحيَّرون ويجورون عَن الطَّرِيق؛ فأصل العَمَهِ: التردُّد في الأمْر من التحيُّر.

صُمٌّ: الصَّمَمُ: فقدانُ حاسَّة السَّمع، وبه يُوصَف مَن لا يُصغِي إلى الحقِّ ولا يَقبله، وأصله: الصَّلَابة، وقيل: السدُّ.

بُكْمٌ: جمع أَبْكَم، وهو الذي يُولَد أخرس؛ فكلُّ أبكمَ أخرسُ، وليس كلُّ أخرس أبكمَ، والبَكَم: آفة في اللِّسان مانعةٌ من الكلام.

كصَيِّبٍ: أي مطر، مأخوذٌ من الصَّوب، وأصل الصَّوْب: النُّزُولُ؛ سِمِّي به المطر لأنَّه ينزل من السَّماء.

الصَّوَاعِق: جمْع صاعِقة، وهي النَّار التي تنزل من السَّماء عندَ اشتداد الرَّعد، وقيل: الصَّوت الشديد من الجوِّ، والوَقعُ الشَّديدُ منَ الرَّعْدِ، أو كلُّ عذاب مُهلك (الموت، والعذاب، والنار)، ومنه: صَعق، إذا مات، وأصل صعق: يدلُّ على شِدَّة الصَّوت.

يَخْطَفُ: يختلس بسرعة، أو يأخذ الشيء بسرعة.

تفسير الآيات:

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ (8).

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ.

أي: إنَّ المنافقين يقولون بألسنتهم: آمنَّا بالله، وبالبعث يومَ القيامة، قولًا مجرَّدًا ليس معه إيمانٌ حقيقيٌّ.[60]

وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ.

أي: ليسوا بمقرِّين بحقيقةِ الإيمان بقلوبِهم.

كما قال تعالى: إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ [المنافقون: 1].

يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ (9).

يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا.

بإظهارِهم الإيمانَ، وإبطانهم الكفرَ.

(60) قال ابنُ جَرير: (أجمَع جميعُ أهل التأويل على أنَّ هذه الآية نزلتْ في قوم من أهل النِّفاق، وأنَّ هذه الصِّفةَ صفتُهم) ((تفسير ابن جرير)) (1/275)، ويُنظر (1/278-279) منه، ((تفسير ابن كثير)) (1/176-177).

كما قال سبحانه: يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ [المجادلة: 18].

وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ.

أي: إنَّ هؤلاء المنافقين مخدُوعون في الحقيقة بصَنيعهم الذي يَحسَبون أنهم يخادعون به ربَّهم والمؤمنين، وذلك بخِذلان الله تعالى لهم في الدُّنيا والآخِرة، وهم مع ذلك لا يَدرُون بأنَّهم مخدوعون.

كما قال تعالى: إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ [النساء: 142]

القراءات ذات الأثر في التفسير:

في قوله تعالى: وَمَا يَخْدَعُونَ قراءتان:

1- (وما يُخَادِعُون) قيل: على معنى أنَّ الخِداع وقع من اثنين، فهو واقعٌ منهم وإليهم؛ إذ خدَعوا أنفسهم، وأنفسهم خدَعتْهم.(61)

2- (وَمَا يَخْدَعُونَ) قيل: على معنى أنَّ الخداع وقع من طرفٍ واحد، فهو واقعٌ منهم على أنفسهم.(62)

---

(61) قرأ بها: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (2/207).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 87)، ((تفسير أبي حيَّان))(1/93).

(62) قرأ بها: الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (2/207).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 87)، ((تفسير أبي حيان)) (1/93).

فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (10).

فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا.

في قلوبهم شكٌّ ونفاق؛[63] فزادهم اللهُ تعالى شكًّا ونفاقًا.

فالجزاءُ من جِنس العمل، كما قال تعالى: فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ [الصف: 5].

وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ.

أي: لهم عذابٌ مؤلِم، أي: موجِع؛ بسبب كذِبهم في دعواهمُ الإيمانَ، وبسبب تكذيبهم لله تعالى ورسولِه عليه الصَّلاة والسَّلام.

القراءات ذات الأثر في التفسير:

في قوله تعالى: يَكْذِبُونَ قِراءتان:

1- (يَكْذِبُون) بالتَّخفيف، أي: إنهَّم كاذبون في قولهم: آمَنَّا باللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ.[64]

(63) نقل الإجماع على أن المراد بالمرض هنا: الشـك: ابن جرير، في ((تفسـيره)) (1/286-287)، والواحدي في ((التفسـير الوسيط)) (1/87).

(64) قرأ بها: عاصم، وحمزة، والكسائيُّ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (2/207).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص:88)، ((الكشف)) لمكي (1/228).

2- (يُكَذِّبُونَ) بالتَّشديد، أي: يكذِّبون النبيَّ - ﷺ - والقرآن مرَّةً بعد مرَّة، ومن كذَّب بذلك، فقد كَذَبَ.[65]

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (11).

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ.

أي: إذا قيل للمنافقين: لا تفسدوا في الأرض، بمعصية الله تعالى، وبالنِّفاق والكفر، واتِّخاذ الكافرين أولياء، والصَّدِّ عن سبيل الله، والتعويقِ عن طاعتِه وطاعةِ رسوله - ﷺ -، والإرجافِ... إلى غير ذلك.

قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ.

يدَّعون أنَّ ما يفعلونه من الفَساد، إصلاحٌ.[66]

---

(65) قرَأَ بها: الباقون.
يُنظر: ((النشـــر)) لابن الجزري (207/2). ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات الســبع)) لابن خالويه (ص: 68-69)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص:88)، ((الكشف)) لمكي (228/1).
(66) ذكر ابن عطية (١/١٢١-١٢٢) ثلاث تأويلات في معنى الآية:
«أحدها: جحد أنهم يفسدون، وهذا استمرار منهم على النفاق.
والثاني: أن يقروا بموالاة الكفار ويدَّعون أنها صلاح من حيث إنهم قرابة توصل.
والثالث: أنهم مصلحون بين الكفار والمؤمنين، فلذلك يداخلون الكفار».

أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ (12).

أي: هم المخالِفون في الحقيقة أمرَ الله عزَّ وجلَّ بالكُفر والمعاصي، ولكن لا يَدْرُون ولا يَفطنون إلى أنَّ ما يفعلونه هو فسادٌ في الحقيقة.(67)

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاء أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاء وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ (13).

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ.

أي: إذا قِيل للمنافقين: آمنوا بمحمَّدٍ - ﷺ -، وبما جاءَ به من عند الله عزَّ وجلَّ، كما آمن أصحابُ محمَّدٍ - ﷺ -، وكلُّ مَن آمن به.(68)

---

(67) ذكر ابن عطية (١/١٢٢) في معنى: ﴿ولَكِنْ لا يَشْعُرُونَ﴾ احتمالين:

الأول: «لا يشعرون أنهم مفسدون».

والثاني: «أن يراد: لا يشعرون أن الله يفضحهم».

ثم وجَّهه بقوله: «وهذا مع أن يكون قولهم: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ جحدًا محضًا للإفساد».

ووجَّه الاحتمال الأول بقوله: «والاحتمال الأول هو بأن يكون قولهم: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ اعتقادًا منهم أنه صلاح في صلة القرابة، أو إصلاح بين المؤمنين والكافرين».

(68) نقل ابنُ عطية (١/١٢٣) عن قوم: أن «الآية نزلت في منافقي اليهود، والمراد بالناس: عبدالله بن سلام ومن أسلم من بني إسرائيل».

ثم انتقده قائلًا: «وهذا تخصيص لا دليل عليه».

وحكى الواحديُّ إجماع المفسِّرين على أن المراد بالنَّاس في هذه الآية أصحابُ محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ والذين آمنوا به.

يُنظر: ((التفسير الوسيط)) (89/1).

قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ.

أي: يقولون: أنؤمِنُ كما آمَنَ ذوو الجهل وضعف الرأي وقلة المعرفة بالمصالح والمفاسد– يعنون الصحابة رضوان الله تعالى عليهم– فنكون نحن وإيَّاهم على طريقةٍ واحدة؟!

أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاء وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ.

أي: هُم السُّفهاء في الحقيقة، فليست لديهم معرفةٌ صحيحةٌ لإقامة نفعٍ حقيقي؛ حيث يُفسِدون في الأرض، ويظنُّون أنَّ ذلك هو عينُ الإصلاح، وهذا هو السَّفَه.

وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُونَ (14).

وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا.

أي: إذا لقِي المنافقون المؤمنين، أظْهَروا لهم الإيمانَ نفاقًا.

وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ.

أي: إذا انصَرفوا إلى رُؤسائهم، من سادات الكفَّار والمشركين والمنافقين، خالِين بهم.(69)

قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُونَ.

أي: نحن معكم على دِينكم، ومِن ذلك التكذيبُ بمحمَّدٍ – ﷺ –، ومعاداتُه، ومعاداةُ أتباعه، والسُّخريةُ(70) بهم بقولهم لهم: آمَنَّا بالله وَبِاليَومِ الآخِرِ).

اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (15).

---

(69) رجَّح ابنُ جرير (١/٣٠٦)، وابنُ عطية (١/١٢٧)، وابنُ تيمية (١/١٥٩) العمومَ في معنى ﴿شياطينهم﴾، قال ابنُ عطية: «ولفظ الشيطنة –الذي معناه: البعد عن الإيمان، والخير– يعمُّ جميع من ذُكِر والمنافقين، حتى يُقدَّر كل واحد شيطان غيره، فمنهم الخالون، ومنهم الشياطين».

وقال ابنُ تيمية: «والآية تتناول هذا كله وغيره».

ونقل ابن عطية عن ابن الكلبي وغيره قوله: «هم شياطين الجن».

ثم انتقده قائلًا: «وهذا في هذا الموضع بعيد».

وكذا ابن تيمية مستندًا لدلالة العقل قائلًا: «ولفظها –أي: الآية– يدل على أنّ المراد: شياطين الإنس؛ لأنه قال: ﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم﴾.

ومعلوم أن شيطان الجن معهم لما لقوا الذين آمنوا لا يحتاج أن يخلوا به، وشيطان الجن هو الذي أمرهم بالنفاق ولم يكن ظاهرًا حتى يخلو معهم، ويقول: إنا معكم، لا سيما إذا كانوا يظنون أنهم على حق.

كما قال تعالى: ﴿وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون﴾، ولو علموا أن الذي يأمرهم بذلك شيطان لم يرضوه».

(70) حكى ابنُ جَرير الإجماع على أنَّ معنى قوله: إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ إنَّما نحن ساخِرون. فقال: «أجمع أهل التأويل جميعًا –لا خلاف بينهم– على أنّ معنى قوله: ﴿إنما نحن مستهزئون﴾: إنما نحن ساخرون».

﴿اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى أجْرى لهم ما للمؤمنين من الأحكام الظاهِرة، كعِصمة دِمائهم وأموالهم، لكنَّه سبحانه يُميِّز بينهم وبين المؤمنين في الآخِرة، ويُلقي بهم في الدَّرك الأسفل من النار، فكان ذلك استهزاءً بهم.

وهذا من الله سبحانه مقابلة لهم على استهزائهم بالمؤمنين؛ فالجزاء من جنس العمل.

كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: 79].

﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

أي: يَزيدهم على وجه الإملاءِ، والتَّرْك لهم في عتوِّهم وتمرُّدهم بالكُفر، يتردَّدون حيارى ضُلَّالًا، لا يجدون إلى المخرَج من ذلك سبيلًا.(71)

﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (16)﴾.

---

(71) وممَّن فسَّر قوله تعالى: (يمدُّهم) بِ يَزيدهم: أبو العالية.
يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (48/1).
وممَّن فسَّر طُغيانهم بكفرِهم: ابن عبَّاس، والسُّدي.
يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (49/1).
وممَّن فسر يعمهون بِ يتردَّدون: ابن عبَّاس، ومجاهد، وأبو مالك، وأبو العالية، والرَّبيع بن أنس.
يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (49/1).

أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى.

أي: استعاضوا بالضَّلالة عن الهُدَى.

فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ.

أي: خسِر المنافقون بأخْذهم الضَّلالةَ، وتركِهم الهُدى؛ وما كانوا راشدين بصَنيعهم هذا.[72]

ثم ضرب الله لهم مثلًا يصوِّر حالهم، فقال:

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ (17).

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً.

أي: مثَل المنافقين الذين آمنوا أو أظهروا الإيمان ثم كفَروا، كمثَل مَن أوقَد نارًا؛ لتضيءَ له، وينتفعَ بها، والمراد بذلك تشبيههم بأنَّهم آمنوا أو أظهروا الإيمان.

فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ.

---

(72) نقل ابن عطية (١/١٣١) في معنى: ﴿وما كانُوا مُهْتَدِينَ﴾ ثلاثة أقوال، فقال:

«قيل: المعنى في شرائهم هذا.

وقيل: على الإطلاق.

وقيل: في سابق علم الله».

ثم علَّق عليها بقوله: «وكل هذا يحتمله اللفظ».

أي: أنارتِ النارُ ما حولَ المستوقِد، فأبصر بها ما ينفعُه ويَضرُّه، والمراد بذلك أنَّهم أبصَروا الحقَّ، أو أنهم انتفعوا بها انتفاعًا مؤقَّتًا، حيثُ حقنوا دماءَهم، وأحرزوا أموالَهم.

ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ.

أي: خمَدت النار، وانطفأ النور، فذهب عنهم ما يَنفعُهم وهو النور، وبقِي لهم ما يضرُّهم وهو الإحراقُ والدُّخَان؛ ذلك بأنَّهم كفروا بعد إيمانهم، فبقِيت في قلوبهم حرارةُ الكفرِ والشُّكوكِ.

وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ.

أي: بقُوا في عِدَّة ظلمات، منها: ظُلمة اللَّيل، والظُّلمة الحاصِلة بعد فقْد النور، وهي أشدُّ من الظُّلمة الأُولى، والمراد: ما أصبَحوا فيه من ظُلمات الكُفر، والشُّكوك، والنِّفاق.

صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (18).

صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ.

أي: لا يَسمعون هُدًى، ولا يَنطِقون به، ولا يُبصرونه بقلوبهم.

كما قال تعالى: فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ [الحج: 46].

وقال سُبحانه: ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ [المنافقون: 3].

فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ.

أي: لا يَعودُون إلى الهُدى الذي باعوه بالضَّلالة.

ثم ضرب الله لهم مثلًا آخرَ، فقال:

أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ واللّهُ مُحِيطٌ بِالْكافِرِينَ (19).

أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ.

أَوْ هنا للتنويع، فبعض المنافقين يشبه المثل الأول، وبعضهم يشبه هذا المثل الثاني، فضربه الله تعالى هاهنا لصنفٍ آخر من المنافقين.[73]

والمرادُ بالصيِّب: القرآنُ الذي نزَل من عند الله تعالى، والذي يُظهر المنافقون بألسنتِهم إيمانَهم به.[74]

---

(73) ذهب ابن تيمية في ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (276/7)، وابن كثير في ((تفسيره)) (189/1)، إلى أن أو هنا للتنويع، أي أن بعض المنافقين يشبه المثل الأول، وبعضهم يشبه المثل الثاني.

قال ابن كثير: (وذهب ابن جرير الطبري ومن تبعه من كثير من المفسرين أن هذين المثلين مضروبان لصنف واحد من المنافقين وتكون «أو» في قوله تعالى: أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ بمعنى الواو، كقوله تعالى: وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا [الإنسان: 24]، أو تكون للتخيير، أي: اضرب لهم مثلًا بهذا وإن شئت بهذا، قاله القرطبي. أو للتساوي مثل جالس الحسن أو ابن سيرين، على ما وجهه الزمخشري: أن كلًّا منهما مساو للآخر في إباحة الجلوس إليه، ويكون معناه على قوله: سواء ضربت لهم مثلًا بهذا أو بهذا فهو مطابقٌ لحالهم) ((تفسير ابن كثير)) (194/1). يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (354/1-356)، ((تفسير الزمخشري)) (81/1)، ((تفسير القرطبي)) (215/1).

(74) رجَّح ابنُ كثير (٣٠٠/١) أن الصَّيِّب هو المطر قال: «والأشهر: هو المطر نزل من السماء في حال ظلمات».

فِيهِ ظُلُمَاتٌ.

هي ظُلمة اللَّيل، وظُلمة السَّحاب، وظُلمة المطر، والمرادُ: ما عليه المنافقون من الشكِّ، والكُفر، والنِّفاق.

وَرَعْدٌ.

المراد به: وعيدُ القرآن وزواجره، وأوامِره ونواهيه.

فهُم منها في حالِ خوفٍ وفزعٍ شديد، كقوله تعالى: يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ [المنافقون: 4]، وقال: وَيَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ [التوبة: 56–57].

وَبَرْقٌ.

المراد به: حُججُ القرآن وبراهينه التي تُبهرهم.

يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ.

المرادُ بها: آياتُ القرآن التي تتضمَّن التكاليفَ الشرعيَّة، والوعيدَ، وغيرَه.

أي: يضعون أصابعَهم في آذانِهم؛ كي يتَّقوا سماعَ أصوات الصَّواعق، والمرادُ: أنَّهم يتَّقون سماعَ زواجر القُرآن الكريمِ ووعيده.

حَذَرَ الْمَوْتِ.

أي: حذرًا من حلول الوعيد الذي توعَّدهم اللهُ به في القُرآن، وإشفاقًا من حلول عُقوبةِ الله بهم على نِفاقِهم؛ إمَّا عاجلًا في الدُّنيا، وإمَّا آجلًا في الآخِرة.

واللهُ مُحِيطٌ بِالْكافِرِينَ.

أي: محيطٌ بهم قدرةً وعلمًا، فلا يُعجِزونه، ولا يُغني عنهم حذرُهم شيئًا.

يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضاء لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاء اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (20).

يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ.

أي: يوشك البَرقُ من شِدَّة لَمَعانه، وقوَّة ضيائه –مع ضَعْف أبصارهم– أنْ يذهب بها فيُعميها، والمرادُ: أنَّ شِدَّة نور القرآن– بما يحويه من حُججٍ وبراهينَ ساطعة، يرَون معها الحقَّ واضحًا جدًّا– لا تتحمَّله بصائرُهم الضَّعيفة.

كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا.

أي: إذا ظهر لهم نورُ الحقِّ، ولَمَع في قلوبِهم مشَوْا على ضوئِه، وخطَوا خُطواتٍ يسيرةً، لكنَّه لا يستقرُّ في قلوبهم المظلِمة بالشُّبهات والشكوك القويَّة، فلا يلبَث أن ينطفِئ، فيقفون حائرين! عائدين إلى تَكذيبهم، فهُم في هذه الحال في شكٍّ وتردُّد!

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ.

هذا تهديدٌ ووعيدٌ لهم بإذهاب أسماعِهم وأبصارهم؛ عقوبةً لهم على نِفاقهم وكُفرهم.

إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

أي: ذو قُدرةٍ على إيقاع ما أوعد به هذا الصِّنفَ من المنافقين، فلْيحذروا نِقمةَ الله وعذابَه عاجلًا أو آجلًا؛ فإنَّه سبحانه وتعالى لا يُعجزه شيءٌ أبدًا.

سُورةُ البَقَرَةِ

الآيات (21–25)

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (21)

الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ
رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (22)

وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ
إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (23) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ
أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (24) وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ
فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (25)

غريب الكلمات:

أَنْدَادًا: أي: شركاء أمثالًا، ونظراءَ، واحدهم نِد، والندُّ هو النظير المُناوِئ.

وَقُودُهَا: أي: حَطَبُها المجعول للوقود، اسم لِمَا يُوقد، وأصل (وقد): اشتعال النار.

تفسير الآيات:

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (21).

أي: اعبُدوا اللهَ تعالى- أيُّها الناس-؛ لأنَّه هو الذي أوجدكم أنتم ومن قبلكم من العدم؛ وذلك من أجل أن تصلوا إلى مرتبة التقوى.

الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (22).

الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً.

أي: اعبُدوا ربَّكم أيضًا؛ لأنه هو الذي جعَل لكم الأرض ممهَّدةً كالفِراش، موطأةً مثبَّتةً يستقرُّ عليها الإنسان، وجعَل لكم السماء سقفًا.

قال سبحانه: وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ [الأنبياء: 32].

وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ.

أي: وهو كذلك أَنزل من السَّحاب مطرًا؛ فأنبت للناس بسببه أنواعًا متعدِّدةً من الثِّمار؛ رزقًا لهم.

فَلَا تَجْعَلُوا للهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ.

أي: لا تتَّخذوا له أمثالًا ونظراءَ بزعمكم، وهو الذي خلَقَكم ورزقكم؛ فهو المستحقُّ لأنْ تُخلصوا له العبادة وحده لا شريكَ له، وأنتم تعلمون أنَّه إلهٌ واحدٌ، لا ندَّ له ولا شريكَ له في الخَلْق والرِّزْق وغير ذلك؛ فليس كمثله شيءٌ سبحانه وتعالى.[75]

كما جاء عن ابن مسعودٍ رضي الله عنه، أنه قال: سألتُ النبيَّ – ﷺ –: ((أيُّ الذنبِ أعظمُ عندَ اللهِ؟ قال: أنْ تجعل للهِ نِدًّا وهو خلقَك...)) الحديث.[76]

وهذِه الآية قريبةٌ من قوله تعالى: اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ [غافر: 64].

وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (23).

---

(75) اختلف المفسرون في المُخاطَب بهذه الآية،
فقيل: جميع المشركين، كما في هذا الأثر.
وقيل: مشركو أهل الكتاب خاصة،
وزاد ابن عطية (١٤٦/١) قولًا آخر نقله عن ابن فورك، فقال: «وقال ابن فورك: يحتمل أن تتناول الآية المؤمنين».
ثم وجَّهه بقوله: «فالمعنى: لا ترتدوا أيها المؤمنون وتجعلوا الله أندادًا بعد علمكم الذي هو نفي الجهل بأن الله واحد».
(76) رواه البخاري (4477)، ومسلم (86).

وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ.

أي: إذا كنتم– أيُّها الكفَّار والمنافقون– في شكٍّ من نزول القرآن من عند الله سبحانه على محمَّدٍ – ﷺ –، فأتُوا من عندكم بسورةٍ مِثل القرآن،[77] يَتحدَّاهم الله تعالى بذلك.

وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ.

أي: استعينوا على الإتيان بسورةٍ من مثل القرآن، بمن شئتم من غير الله عزَّ وجلَّ، من كل من يشهد لكم فيوافقكم على عدم الإقرار بنزول هذا القرآن من عند الله تعالى، وذلك كأعوانكم[78] وشركائكم، إن كنتم محقِّين في دعواكم أنَّ القرآن كلامٌ مختلَق تقوَّله بشر.

فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (24).

---

(77) ذكر ابنُ جرير (١/٣٩٧–٣٩٨) اختلاف المفسرين في عود الضمير في قوله تعالى: ﴿من مثله﴾، هل هو عائد على القرآن، أو عائد على الرسول ﷺ؟.

ثم رجَّح عودَ الضمير على القرآن ورجَّحه ابنُ كثير (١/٣١٤) فقال بعد حكاية القول بعَوْدِه على القرآن: «وقال بعضهم: من مِثْل محمد ﷺ، يعني: من رَجُلٍ أُمِّيّ مِثْلِه، والصحيح الأول؛ لأنّ التَّحَدِّي عامٌّ لهم كلهم، مع أنهم أفصح الأمم، وقد تحَدّاهم بهذا في مكة والمدينة مرات عديدة، مع شدة عداوتهم له وبغضهم لدينه، ومع هذا عجزوا عن ذلك».

وزاد ابنُ عطية (١/١٤٧) عن طائفة: أن «الضمير في ﴿مثله﴾ عائد على الكتب القديمة: التوراة، والإنجيل، والزبور».

(78) رجَّح ابنُ جرير (١/٤٠٠–٤٠١): أنّ المراد بالشهداء الأعوان

وقال ابنُ تيمية (١/١٧٦): «والصوابُ: أن شهداءهم الذين يشهدون لهم؛ كما ذكره ابن إسحاق بإسناده المعروف عن ابن عباس، قال: ﴿شُهَدَاءَكُم﴾: من استطعتم من أعوانكم على ما أنتم عليه».

أي: فإنْ لم تأتوا بسورةٍ من مِثل القرآن، ولن تأتوا بها أبدًا، فاجعلوا بينكم وبين عذاب النار وقايةً بفِعل أوامره سبحانه، واجتناب نواهيه؛ لتنقذوا أنفسكم من النَّارِ التي يُلقَى فيها العصاةُ من الناس، والحجارةُ؛ لإيقادِها وإضرامِها، وقد جُهِّزت وهُيِّئت مسبقًا لكلِّ مَن كفر فترك التصديقَ بالحقِّ والإقرار به والانقياد إليه.(79)

وَالْحِجَارَةُ. قيل: هي حجارةُ الكِبريت، وهي أشدُّ الأحجار حَرًّا إذا حَمِيتْ،(80) وقيل المراد بها: الأصنام.

وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (25).

---

(79) قال ابنُ كثير (٢٠٢/١): «الأظهر: أنّ الضـمير في ﴿أُعِدَّتْ﴾ عائد إلى النار التي وقودها الناس والحجارة، ويحتمل عوده على الحجارة، ولا منافاة بين القولين في المعنى؛ لأنهما متلازمان».

(80) رجَّح ابنُ جرير (٤٠٣/١-٤٠٤)، وابنُ عطية (١٤٩/١)، وابنُ كثير (٣١٦/١-٣١٧) من أن المراد بالحجارة: حجارة الكبريت.

وعلَّل ابنُ جرير ذلك بأنَّها «أشدّ الحجارة فيما بلغنا حرًّا إذا أُحميَت».

وقال ابن عطية: «خُصَّـت بذلك لأنها تزيد على جميع الأحجار بخمسـة أنواع من العذاب: سـرعة الاتِّقاد، ونَتَن الرائحة، وكثرة الدُّخان، وشِدَّة الالتصاق بالأبدان، وقوة حرها إذا حَمِيَت».

قال الشنقيطي: (هذه الحجارة قال كثيرٌ من العلماء: إنها حجارة من كبريت. وقال بعضهم: إنها الأصنام التي كانوا يعبدونها. وهذا القول يبينه ويشهد له قوله تعالى: (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) ((أضواء البيان)) (18/1).

وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ.

أي: أخْبِر يا أيُّها الرَّسولُ، الذين آمَنوا بالله عزَّ وجلَّ، وآمَنوا بك، وبما جِئتَ به من عند الله تعالى، وصدَّقوا إقرارَهم ذلك بأعمالهم الصالحة- أخْبِرْهم خبرًا يسرُّهم، بأنَّ لهم في الآخرة بساتين، تجري الأنهارُ من تحت أشجارها وغروسِها وغُرَفها.[81]

كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا.

أي: كلَّما أُعطوا أيَّ ثمرةٍ من أشجار الجَنَّة، ظنُّوا أنَّها نفس الثَّمرة التي أُعطوها سابقًا في الدنيا؛[82] لمشابهتها إيَّاها في المنظر، أو أنها التي أُعطوها في وقتٍ سابقٍ في الجنة، وإنَّما أُعطُوا الذي رُزِقوا من ثمارِ الجنَّةِ متشابهًا في اللَّون والمنظَر، لكنَّ الطعم مختلفٌ.[83]

---

(81) ذكر ابنُ جرير (١/٤٠٦-٤٠٧)، وابنُ عطية (١/١٥١)، وابنُ كثير (١/٣٢٠-٣٢١) أن المراد بقوله: ﴿تجري من تحتها الأنهار﴾، أي: من تحت أشجارها، وغروسها، وثمارها، وغُرَفها.

قال ابن كثير: «وقد جاء في الحديث: أنّ أنهارها تجري من غير أُخدُود، وجاء في الكوثر أنّ حافتيه قِباب اللُّؤلؤ المُجَوَّف، ولا منافاة بينهما، وطينها المسك الأذفر، وحصباؤها اللؤلؤ والجوهر ...».

ثم استشهد بحديث أبي هريرة.

فعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «أنهارُ الجنة تَفَجَّرُ من تحتِ جبالِ مِسْكٍ».

(82) رجَّح ابنُ جرير (١/٤١٠-٤١٢) أنّ المراد من قوله تعالى: ﴿هذا الذي رزقنا من قبل﴾، أي: في الدنيا، فقال: «والذي يدل على صحته ظاهر الآية، ويُحَقِّق صحته؛ قولُ القائلين: إنّ معنى ذلك: هذا الذي رُزِقنا من قبلُ في الدنيا».

(83) رجَّح ابنُ جرير (١/٤١٧-٤١٨) أنّ التشــابه في اللون والمنظر والاســم، والطعم مختلف، فقال: «وأَوْلى هذه التأويلات تأويل من قال: وأُتوا به متشابهًا في اللون والمنظر، والطعم مختلف.

وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ.

أي: إنَّ الذين آمنوا وعمِلوا الصالحات، لهم في الجنَّاتِ زوجاتٌ مطهَّرات من كلِّ أذًى ومكروه ورِيبة، طهارةً حِسيَّةً ومعنويَّة.[84]

وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ.

أي: إنَّ الذين آمَنوا وعمِلوا الصَّالحات، باقونَ في الجنَّات على الدَّوام، آمِنون من الموت، وانقطاع النَّعيم.

(84) نقل الماورديُّ الإجماعَ على نحو ذلك. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (87/1).

سُورةُ البَقَرَةِ

الآيات (26–29)

إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ
الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ
كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (26) الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ
مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (27)
كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (28)
هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ
بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (29)

غريب الكلمات:

يَنْقُضُونَ: ينبذونه بعدَ القَبول، ويتركون العمل به، والنَّقض ضِدُّ الإِبرام: وهو فكُّ تركيب الشيء وردُّه إلى ما كان عليه أوَّلًا، فنقض البناء: هدمه، ونقض المبرم: حلُّه.

مِيثَاقه: الميثاق: عقد مؤكَّد بيمين وعهد، أو العهد المُحكَم، وأصله: العقد والإحكام.

تفسير الآيات:

إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (26)

إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا.

أي: إنَّ الله تعالى لا يَستحيي أن يبيِّن الحقَّ عبر التشبيه[85] بأيِّ شيءٍ كائنًا ما كان، ولو كان في الحقارة والصِّغر كالبعوضة فما فوقها ممَّا هو أكبرُ منها، أو دونها في الصِّغر؛[86] وذلك لاشتمال الأمثال

---

(85) عرَّف ابن القيّم أمثال القرآن بأنَّها: (تشبيه شيءٍ بشيءٍ في حكمه، وتقريب المعقول من المحسوس، أو أحد المحسوسين من الآخر، واعتبار أحدها بالآخر) ((إعلام الموقعين)) (116/1).

(86) رَجَّحَ ابن جرير (١/٤٣٠) أن يكون معنى ﴿فما فوقها﴾ أي: فما هو أعظم منها؛ لأنه ليس شــيء أحقر ولا أصــغر من البعوضة، مستندًا في ذلك إلى ما ورد عن قتادة وابنِ جريج من أنّ البعوضة أضعف ما خلق الله.

وأيّده ابن كثير (١/٣٢٦) مُستندًا إلى السّنّة، فقال: «يؤيده ما رواه مسلم عن عائشة، أنّ رسول الله ﷺ قال: «ما من مسلم يشاك شوكة فما فوقها».

فأخبر أنه لا يَسْـتَصْـغِر شـيئًا يَضْـرِب به مثلًا، ولو كان في الحقارة والصِّـغَر كالبعوضـة، كما لا يسـتنكف عن خلقها كذلك لا يستنكف من ضرب المثل بها».

وانتَقَد ابنُ جرير (١/٤٣١) قولَ من جعل معنى ﴿فما فوقها﴾ أي: في الصــغر والقِلَّة والحقارة؛ لمخالفتِه تأويلَ أهلِ التأويل، فقال: «وهذا قولٌ خلافُ تأويل أهل العلم الذين تُرْتَضى معرفتُهم بتأويل القرآن».

وعلَّقَ ابن عطية (١/١٥٧) على القولين قائلًا: «والكُلُّ مُحتَمَل».

على الحِكمة، وإيضاح الحقِّ، والله تعالى لا يَستحيي من الحقِّ، ولابتلاء عبادِه واختبارهم بهذه الأمثال؛ ليتميَّز أهلُ الهداية والإيمان، من أهل الضَّلالة والكُفران.

ثم شرع في تفصيل مواقف الخلق من ضرب الأمثال في القرآن فقال:

فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ.

أي: إنَّ الذين أقرُّوا وصدَّقوا بقلوبهم وجوارحهم، يَعلَمون أنَّ هذا المثَل المضروب حقٌّ، حتى لو خفي عليهم تفصيله، فهم يَعلَمون أنَّه حقٌّ في الجُملة؛ لعِلمهم بأنَّ الله لم يضربْه عبثًا، بل لحِكمةٍ بالغة، فيزدادون بذلِك إيمانًا مع إيمانهم.

وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلًا.

أي: إنَّ الذين كفروا فلم يقرُّوا بالحق وينقادوا إليه، لم يَفهَموا حِكمةَ المثل المضروب؛ لذا فهم يعترضون ويتحيَّرون، أو فهموه لكنهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم؛ فيَزدادون كفرًا إلى كُفرهم.

ثم بيَّن الله تعالى حكمة ضرب المثل في كتابه، فقال:

يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا.

أي: إنَّ ضرب المثل في القرآن بمثابة ابتلاء واختبار يتميَّز به المؤمن من الكافر، فهو إضلالٌ لكثيرٍ لم يَفهموه، وهم المنافقون والكفَّار، وهدايةٌ لكثيرٍ فهِموه، وهم المؤمنون.

كما قال تعالى: وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ [التوبة: 124–125].

وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ.

أي: لا يُضلُّ اللهُ سبحانه بهذا المَثَل المضروبِ إلّا الخارجين عن طاعتِه من أهل الكفر والنِّفاق، وهذا ما تقتضيه حِكمتُه وعدلُه.(87)

كما قال تعالى: وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ [المدثر: 31].

الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (27).

---

(87) رَجَّح ابنُ تيمية (١/١٧٨) أن يكون المعنى: كلُّ من ضل به فهو فاسق. فهو ذم لمن يَضِلُّ به؛ فإنه يفسق بذلك، وإن لم يكن فاسقًا من قبل؛ مستدلًا على ذلك بتأوّل سعد بن أبي وقاص لها في الخوارج، وسماهم فاسقين؛ لأنهم ضلوا بالقرآن.

الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ.

أي: يصِف اللّهُ تعالى الفاسقين الذين يَضلُّون بالمَثل المضروب، فيُخبر أنَّهم الذين يُفسِدون العهدَ الذي أخذ عليهم من بعد تأكيدِه. وهو وصيةُ الله تعالى بالإيمان به سبحانه وبجميع رُسله– ومنهم محمَّد – ﷺ – كما عهد إلى بني إسرائيل بذلك فنقضه كفارهم.(88)

كما قال سبحانه: وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ... إلى قوله: ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ... [البقرة: 84 – 85].

وقال تعالى: وَلَقَدْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا... إلى قوله: فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ... [المائدة: 12– 13].

(88) رَجَّحَ ابنُ جرير (١/٤٣٨) بالسياق أن تكون هذه الآية نازلةً في كُفّارِ أحْبارِ أهل الكتاب، والمنافقين منهم، وأن يكون المراد بالعهد ما أخذه الله عليهم في التوراة من العمل بما فيها، واتّباع محمد ﷺ إذا بُعِث، والتصديق به، ونقضهم ذلك: هو جحودهم به بعد معرفتهم بحقيقته، وإنكارهم ذلك، وكتمانهم عِلْمَ ذلك الناسَ. ويدخل في أحكامهم كلُّ مَن كان على مِثْلِ ما كانوا عليه من الضَّلال.

وحَسَّنَ ابنُ كثير (١/٣٢٩–٣٣٠) أن يكون عُنِي بهذه الآية جميعُ أهل الشرك والكفر والنفاق، وأنّ المراد بالعهد: هو ما وضعه الله لجميع الكُفّار من الأدلة الدّالَّة على ربوبيته، وما احتج به لرسله من المعجزات. ونقضُهم إياه: تركُهم الإقرارَ بما ثبتت لهم صحتُه، وتكذيبهم الرسل والكتب، مع علمهم أنّ ما أتوا به حقٌّ.

ونقل ابن عطية (١/١٥٩) في معنى العهد أقوالًا أخرى، فقال: «وقال آخرون: بل نصب الأدلة على وحدانية الله بالسماوات والأرض وسائر الصنعة هو بمنزلة العهد. وقال آخرون: بل هذا العهد هو الذي أخذه الله على عباده بواسطة رسله: أن يوحدوه، وأن لا يعبدوا غيره ... وقال قتادة: هذه الآية هي فيمن كان آمن بالنبي ﷺ ثم كفر به فنقض العهد».

وقال عزَّ وجلَّ: لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ [المائدة: 70].

وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ.

أي: يَقطعون كلَّ ما أمر الله تعالى بوَصلِه، كالأرحام، والتَّصديق بالأنبياء، وغير ذلك من شرائع الدِّين.(89)

وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ.

أي: ويفسدون في الأرض بالكُفر والمعاصي.

أُولَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ.

أي: إنَّهم بكُفرِهم وأفعالِهم التي يرتكبونها قد ضلُّوا، فحَرَموا أنفسهم من الرِّبحِ الحقيقيِّ بنَيلِ رحمة الله تعالى، والحصولِ على الفوزِ الأبديّ.

كَيْفَ تَكْفُرُونَ باللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (28).

---

(89) رَجَّحَ ابنُ عطية (١/١٥٩-١٦٠) العمومَ في الآية، فقال: «قال جمهور أهل العلم: الإشــارة في هذه الآية إلى دين الله، وعبادته في الأرض، وإقامة شرائعه، وحفظ حدوده. وهذا هو الحقُّ، والرَّحِمُ جزءٌ من هذا».

أي: يُنكر الله تعالى على مَن كفر به، مُتعجِّبًا من كُفرهم مع وضوح الأدلَّة على وجودِه سبحانه، وعلى قُدْرته العظيمة، والحال أنَّه أماتهم مرَّتين، وأحياهم مرَّتين؛ وذلك بأنْ يُخرِجَهم من العدَم بعد أنْ كانوا نُطُفًا في أصلابِ آبائهم، فيُحييهم بأنْ ينفُخَ الرُّوح فيهم؛ ليَخرجوا إلى عالم الوجود الدُّنيويّ، ثم يُميتَهم بقَبْض أرواحهم من أجسادِهم، فتنقضيَ آجالُهم الدنيويَّة، ثم يُحيِيَهم في قُبورِهم للبَعث والنُّشور، ثم يُخرِجَهم من قُبورِهم، ويَحشرَهم إليه يوم القِيامة.

كما أخبر تعالى عن الكفَّار، أنَّهم يقولون يومَ القيامة: رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ [غافر: 11].

هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (29).

هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا.

أي: أوجَد لكم- من فَضله وكرمِه- جميعَ ما على الأرض؛ للانتفاعِ به، والاستمتاعِ، والاعتبار.

ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ.

أي: بعد أنْ خلَقَ اللهُ تعالى الأرض، علا وارتفع قاصدًا[90] إلى خَلْقِ السَّموات،[91] فخلَقها بإحكامٍ وإتقانٍ، وهو العليم بما يَخلُق، وكيف يَخلقُه، كما أنَّ عِلمه سبحانه محيطٌ بجميع ما خلَق.

كما قال تعالى: قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ

---

(90) وممن ذهب إلى أن استوى هنا بمعنى قصد وأراد وأقبل: الواحدي في ((الوجيز)) (ص: 98)، وابن كثير في ((تفسيره)) (213/1).

وممن ذهب إلى أن استوى هنا بمعنى علا وارتفع: ابن جرير في ((تفسيره)) (458/1).

وقال البغوي: (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَأَكْثَرُ مُفَسِّرِي السَّلَف: أي ارْتَفع إلى السَّماء) ((تفسير البغوي)) (78/1).

رجَّح ابنُ جرير (١/٤٥٧) أن ﴿استوى﴾ بمعنى: علا، وارتفع.

فقال: «وأَوْلى المعاني بقول الله –جل ثناؤه–: ﴿ثم استوى إلى السماء فسواهن﴾: عَلا عليهن، وارتفع، فدَبَّرهُنَّ بقدرته، وخَلَقَهُنَّ سبع سموات».

ثم تَعَجَّب ممن أنكر هذا المعنى المفهوم من كلام العرب؛ هربًا عند نفسه من أن يكون إنّما علا وارتفع بعد أن كان تحتها، وانتقَدَه (١/٤٥٧) بقوله: «يُقال له: زعمتَ أن تأويل قوله: ﴿استوى﴾: أقْبَلَ. أفكان مُدْبِرًا عن السماء فأقبل إليها؟ فإن زعم أنّ ذلك ليس بإقبال فعل، ولكنه إقبال تدبير، قيل له: فكذلك فقل: علا عليها عُلُوَّ ملك وسلطان، لا علو انتقال وزوال».

وعَلَّل ابنُ تيمية (١/١٨٥–١٨٦) تفسيرَ السلف له بالارتفاع بدلالة القرآن في قوله تعالى: ﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخان﴾ [فصلت:١١]: «وهذه نزلت في سورة (حم) بمكة، ثم أنزَل الله في المدينة سورةَ البقرة: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إلى السَّماءِ فَسَوّاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ وهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، فلمّا ذَكَرَ أنّ اسْتِواءَه إلى السماء كان بعد أن خلق الأرض، وخلق ما فيها، تَضَمَّن معنى الصُّعُود؛ لأنّ السماء فوق الأرض، فالاستواءُ إليها ارتفاعٌ إليها».

وعلَّق ابنُ كثير (١/٣٣٢) بقوله: «أي: قَصَد إلى السماء، والاستواءُ هاهنا تَضَمَّن معنى القصد والإقبال؛ لأنه عُدِّي بـ﴿إلى﴾».

(91) اختار ابنُ جرير (١/٤٦١) أنّ المعنى المراد بالسماء في قوله تعالى: ﴿ثم استوى إلى السماء﴾: معنى الجمع.

سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ [فصلت: 9–12].

وقال سبحانه: وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ [المؤمنون: 17].

سُورةُ البَقَرَةِ

الآيات (30-33)

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا
وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (30)
وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ
صَادِقِينَ (31)

قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (32)

قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (33)

غريب الكلمات:

خَلِيفَةً: الخِلافة النِّيابة عن الغَير، خلف فلان فلانًا: قام بالأمر عنه، إمَّا معه وإمَّا بَعدَه، وأصله: مجيء شيءٍ بعدَ شيء يقوم مقامَه.

وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ: أي: يُسيلها، وأصل السَّفك: الصَّبُّ والإراقة؛ يقال: سفَك دمَه: إذا أسالَه.

وَنُقَدِّسُ لك: أي: نُطهِّر الأشياء ارتسامًا لك، أو نصفك بالتقديس، ونثبت ما يَلِيق بك، ونُقدِّسك ونُقدِّس لك بمعنى واحد، وأصل التقديس: التطهير.

سُبْحَانَكَ: سُبْحَانَ: اسْم وُضِع مَوضِع المصدر، ومعناه التَّنزيه والتبرئة للربِّ – جل ثناؤه– من السُّوء، وأصله: المرُّ السَّريع في عِبادة الله تعالى.

تفسير الآيات:

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (30)

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً.

أي: واذكر يا محمَّد،[92] حين قال ربُّك للملائكة أنَّه سيجعل في الأرض خليفةً، وهو آدمُ عليه السَّلام،[93] وذُريتُه من بعده، يَخلُف بعضُهم بعضًا، جيلًا بعد جِيل.

قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ.

أي: قال الملائكةُ لربِّهم مُستَعْلمين لا مُعْتَرِضين: ما الحِكمةِ من إقامة ذُرِّية آدَم في الأرض، والحال أنَّهم سيُفسدون فيها، ويُعمِلون القَتلَ بينهم، ولِم نُستخلفْ نحن في الأرض مع أنَّنا دائمون على تسبيحك تسبيحًا مصحوبًا بالحمدِ لك ودائمون على التقديس لك؟

والتسبيح هو تنزيهُ الله تعالى، أي: يُبعِدون كلَّ نقصٍ وعيب، فلا ينسبونه إلى الله عزَّ وجلَّ.

---

(92) قال أبو البقاء الكفوي: (كل ما ورد في القرآن: و(إذ)، فـ(اذكر) فيه مُضمَر، أي: اذكر لهم، أو في نفسك كيفما يقتضيه صدرُ الكلام، و(إذ) منصوبٌ به، وعليه اتِّفاق أهل التفسير) ((الكليات)) (ص: 69).

(93) حَكى الواحديُّ في ((التفسير الوسيط)) (113/1)، والقرطبي في ((تفسيره)) (263/1)، وابن القيم في ((مفتاح دار السعادة)) (26/1)، الإجماعَ على أنَّ المراد بالخليفة هنا آدَمُ عليه السَّلام، ولكن ذهَب ابنُ كثير إلى أنَّ دعوى الإجماع هذه لا تصحُّ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (216/1).

والحمدُ هو وصفُ الله المحمودِ بالكمالِ، حبًّا وتعظيمًا له عزَّ وجلَّ.[94]

والتقديس هو التطهيرُ، فيَصِفون الله تعالى بالطَّهارة من جميع الأدناس.

كما قال تعالى: وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ [الشورى: 5].

وعن أبي ذرٍّ رضي الله عنه، أنَّ رسولَ الله – ﷺ –، سُئِلَ: أيُّ الكلام أفضلُ؟ قال: ((ما اصطَفَى اللهُ لملائكتِه أو لعبادِه: سُبحانَ اللهِ وبِحَمدِه)).[95]

قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ.

أي: أنا العالِم بالظَّواهر والسرائر، أعلم ما خفِي عليكم ممَّا يحصُل بخَلْق البَشَر من المصالِح والحِكَم، ومِن ذلك: أنَّه يكونُ منهم الرُّسُل والأنبياء والصِدِّيقون وغيرُهم ممَّن يُحقِّق عبودية الله تبارك وتعالى.

لَمَّا أَعلم سبحانه الملائكةَ أنَّ الأمر على خِلاف ما ظنُّوا، شرَع في إقامة الدَّليل عليه، فقال:

وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (31)

---

(94) حكى ابنُ جرير (١/٥٠٥) خلافًا في معنى التسبيح في الآية: أهو التسبيح المعلوم، أم الصلاة؟ ثم جمع بين القولين بقوله: «فمعنى قول الملائكة إذن: ﴿ونحن نسبّح بحمدك﴾: نُنَزِّهك، ونُبَرِّئُك مما يُضِيفُه إليك أهلُ الشرك بك، ونصلي لك. ﴿ونقدس لك﴾: ننسبك إلى ما هو من صفاتك، من الطهارة من الأَدْناس، وما أضاف إليك أهل الكفر بك».

وقال ابن القيم (١/١١٦): «المعنى: نُقَدِّسك، ونُنَزِّهُك عما لا يليق بك. هذا قول جمهور أهل التفسير».

(95) رواه مسلم (2731).

وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا.

أي: إنَّ الله تعالى قد عَلَّم آدَمَ عليه السَّلام أسماءَ كلِّ شيء.(96)

ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ.

أي: أظْهَر الله تعالى تلك المسمَّياتِ للملائكة، وامتحنهم تحديًا لهم، فأمَرهم أن يُخبروه بأسماء ما عَرَض عليهم، إنْ كانوا حقًّا صادقين في دَعواهم بأنَّهم على علمٍ بالأشياء، ومستحَقُّون للأفضلية على آدَم.

قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ.

هذا تنزيهٌ من الملائكة لله عزَّ وجلَّ بنفي علم أي شيءٍ، إلَّا ما علَّمهم الله تعالى، وهو العليم بغِير تعليم، وهو الحكيم الذي يضَعُ الأشياءَ مواضعَها، حكيمٌ في خَلْقه وأمْره، وفي تعليم مَن يشاء، فنَفَى الملائكةُ الكرام أصلَ العلم عن أنفسهم، وأثبتوا كمالَ العِلم والحِكمة لله تبارك وتعالى.

---

(96) نسَبه ابنُ تَيميَّة إلى الجمهور. كما في ((مجموع الفتاوى)) (94/7).

وممَّن قال من السَّلف بذلك: ابن عبَّاس ومجاهد، وسعيد بن جبير، وقَتادَة.

قال القرطبيُّ: (قال ابنُ خُوَيز مِنداد: في هذه الآية دليلٌ على أنَّ اللغة مأخوذة توقيفًا، وأنَّ الله تعالى علَّمها آدم عليه السلام جملةً وتفصيلًا، وكذلك قال ابنُ عبَّاس: علَّمه أسماءَ كلِّ شيء، حتى الجَفْنة والمِحْلَب) ((تفسير القرطبي)) (282/1).

وقال ابنُ كثير: (يقال: إنَّ هودًا عليه الســـلام أوَّلُ مَن تكلَّم بالعربية، وزعَم وهب بن منبه أنَّ أباه أوَّلُ من تكلَّم بها، وقال غيرُه: أوَّل مَن تكلم بها نوح، وقيل: آدم، وهو الأشبهُ) ((البداية والنهاية)) (138/1).

وقال ابن كثير (١/٣٤٨): «والصحيح أنّه علمه أسماء الأشياء كلها؛ ذواتها، وصفاتها، وأفعالها، كما قال ابن عباس».

قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (33)

أي: أمَر اللهُ تعالى آدَمَ عليه السَّلام أن يُخبر الملائكةَ بأسماء الأشياء التي علَّمها الله تعالى إيَّاه من قبلُ، وعرَضها سبحانه على الملائكة، فلم يعرفوها، فلمَّا أخبرهم آدَمُ بتلك الأسماء، فسمَّى كلَّ شيء باسمه، ظهَر فضلُه وشرفُه عليه السَّلامُ على الملائكة، فقال الله تعالى مقرِّرًا بأنه قد قال لهم من قَبلُ بأنَّه يعلم كلَّ ما يَغيب عن الخلْق، سواء في السموات أو في الأرض، كما يعلم سبحانه ما يُظهِره الملائكة، وما يُخفونه.

كما قال تعالى إخبارًا عن قولِ الهُدهد لسليمان عليه السَّلام: أَلَّا يَسْجُدُوا لله الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ [النمل: 25].

سُورةُ البَقَرَةِ

الآيات (34–39)

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ
(34) وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ
الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (35)

فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي
الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (36)

فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (37)

قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
يَحْزَنُونَ (38) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (39)

غريب الكلمات:

إِبْلِيسَ: أبو الشياطين، وأصل الإبلاس: اليأس، والحُزن المعترِض من شِدَّة اليأس، ومنه اشتقَّ إبليس، وقيل: هو اسمٌ أعجميٌّ.

رَغَدًا: رِزقًا واسعًا كثيرًا بلا عناء، وأصله: أطيب العيش، وسعة المعيشة.

فَأَزَلَّهُمَا: أي: استزلهما، والزلة في الأصل: استرسال الرِّجْل من غير قصد، يقال: زلَّت رِجل تزل، والزلة: الخطأ؛ لأنَّ المخطئ زلَّ عن نهج الصواب، وقيل للذنب من غير قصد: زلَّة؛ تشبيهًا بزلة الرِّجْل.

حِينٍ: الحين: وقتُ بلوغ الشيء وحصوله، أو الدهر، وأصله: الزمان؛ قليله وكثيره.

تفسير الآيات:

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (34)

أي: يُذكِّر الله تعالى بأمْره لجميع الملائكة بالسُّجود لآدم إكرامًا وتعظيمًا له، وعبوديةً لله تعالى، وأنَّهم بادَروا جميعًا بالسجود، وامتنع إبليسُ[97] من ذلك، وتَكبَّر على أمر الله تعالى، وعلى آدَم، فاتَّصف بكفرٍ عظيم.

وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (35)

أي: يُبيِّن الله تعالى إكرامَه لآدَمَ وزوجِه حواءَ عليهما السَّلام، بأنْ أذِن لهما في سُكنى الجنَّة،[98] وأباح لهما أن يأكلَا منها رِزقًا واسعًا هنيئًا، لا عناءَ فيه، ينالانِه فيها حيثُ شاءَا، عدَا شجرةٍ واحدة

---

(97) ذهَب ابنُ جرير (١/٥٤٣) إلى أنّ إبليس: إفْعِيل من الإبْلاس، وهو الإياس من الخير، والندمُ والحزنُ، مُسْـــتَنِدًا إلى قول ابن عباس هذا، ولغة العرب.

رجَّح ابنُ جرير (١/٥٤٢-٥٤٣) قولَ من قال: «إن إبليس كان من الملائكة» مُسْتَدِلًّا بأنّ الله استثنى من جميعهم إبليس، فدلَّ باستثنائه إياه منهم على أنه منهم.

وذكر ابنُ عطية (١/١٧٨-١٧٩) أنه قول الجمهور، وقال: «وهو ظاهر الآية».

وبيّن كون الاستثناء مُتَّصِلًا على هذا القول.

(98) والجنة التي أُسْكنها آدَمُ وزوجُه هي جنَّة الخُلد في السماء.

فقط، عيَّنها لهم الحكيمُ الخبيرُ سبحانه،[99] فنهاهم عن قُربانها، وإلَّا صارا بالأكْل منها من الظالِمين، باعتدائهما على حدٍّ من حدود الله جلَّ وعلا.

كما قال تعالى: تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ [البقرة: 229].

فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (36)

ونسبه ابنُ تيمية إلى سلف الأمَّة وأهل السنة والجماعة، وعزاه ابن كثير للأكثرين، وابن عاشور إلى جمهور السلف. يُنظر ((تفسير القرطبي)) (302/1)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (347/4)، ((تفسير ابن كثير)) (233/1)

ويُنظر في أدلة القائلين بهذا القول والقول الآخر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: 19).

(99) رجَّحَ ابنُ جرير (٥٥٦/١-٥٥٧ بتصرف)، وابنُ عطية (١٨٣/١)، وابن كثير (٣٦٥/١-٣٦٦) عدمَ القطع بتعيين شجرة بعينها.

نقل ابن عطية (١٨٣/١) أنه «وروي عن ابن عباس أيضًا: أنها شجرة العلم، فيها ثمر كل شيء».

ثم انتقده لعدم ثبوته قائلًا: «وهذا ضعيف لا يصح عن ابن عباس».

فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ.

أي: إنَّ الشَّيطانَ قد أوقعهما في المعصية والزَّلل، الذي أبعدهما عن الجَنَّة، وذلك بأَكْلِهما من الشجرة، فكان إبليسُ بإغوائه ووسوسته سَبَبًا في إخراجِهما من الرِّزق الواسع، والعيش الهنِيء، الذي كانَا ينعمان به في الجنَّة.(100)

القراءات ذات الأثر في التفسير:

في قوله تعالى: أزلَّهما قِراءتان:

1- (فأَزَالَهُما) من زالَ يزُولُ، ومعناه: فنحَّاهما.(101)

2- (فَأَزَلَّهُمَا) مِن زَلَلت وأزلَّني غيري، أي: أوْقَعهما في الزَّلل.(102)

---

(100) علَّقَ ابنُ عطية (١/١٨٦) على الوجوه المذكورة في معنى الإخراج، فقال: «قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ يحتمل وجوهًا: فقيل: أخرجهما من الطاعة إلى المعصية. وقيل: من نعمة الجنة إلى شقاء الدنيا. وقيل: من رفعة المنزلة إلى سفل مكانة الذنب، ... وهذا كله يتقارب».

قال ابنُ عطيَّة: (لا خِلافَ بين العلماء أنَّ إبليس اللَّعين هو متولِّي إغواء آدمَ، واختُلف في الكيفيَّة، فقال ابنُ عباس وابنُ مسعود وجمهورُ العلماء: أغواهما مشافهةً، ودليلُ ذلك قولُه تعالى: وَقاسَمَهُمَا، والمقاسمة ظاهرُها المشافهة) ((تفسير ابن عطية)) (128/1).

ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (560/1، 570، 571)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (122/1)، ((تفسير ابن كثير)) (235/1-236)، ((تفسير السعدي)) (ص: 49)، ((تفسير ابن عاشور)) (434/1).

(101) قرأ بها حمزةُ.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (211/2). ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (147/1)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 94).

(102) قرَأ بها الباقون بالحذْفِ والتشْديد.

وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ.

أي: أمَرَ الله تعالى آدَمَ وحواءَ وإبليس بالهبوطِ إلى الأرضِ؛(103) وأخبر بعداوة بعضهم لبعض.

كما قال عزَّ وجلَّ: وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا [الكهف: 50].

وقال سبحانه: إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ [فاطر: 6].

وقال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ [التغابن: 14].

يُنظر: ((النشـــر)) لابن الجزري (211/2). ويُنظر لمعنى هـذه القراءة: ((معـاني القراءات)) للأزهري (147/1)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 94).

(103) قال ابنُ عطية (١/١٩١): «واختُلِف في المقصـــود بهذا الخطاب، فقيل: آدم، وحواء، وإبليس، وذريتهم. وقيل: ظاهره العموم، ومعناه الخصوص في آدم وحواء؛ لأن إبليس لا يأتيه هدًى، وخُوطبا بلفظ الجمع تشريفًا لهما.

والأول أصح؛ لأن إبليس مخاطب بالإيمان بإجماع».

وقال ابنُ القيم (١/١٢٢-١٢٣): «وهذا إهباط آدم وحواء وإبليس من الجنة، فلهذا أتى فيه بضمير الجمع».

وممَّن قال من السَّلف: إنَّ المقصود بقوله: اهْبِطُوا آدَمُ وحواءُ وإبليسُ: ابن عبَّاس، وأبو صالح، والسُّدِّي، وزاد بعضهم الحيَّة، إلَّا أنَّ ذلك لا يصحُّ؛ فالأخبارُ التي نصَّت على الحيَّة، إسرائيلياتٌ لا يُعوَّل عليها في تفسير الآية. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (572/1) و((تفسير ابن أبي حاتم)) (89/1).

وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ.

أي: يستقرُّون على ظهرها أحياءً،(104) متمتِّعين بما يَرزُقهم الله تعالى، إلى أجَلٍ مُعيَّن، وهو انقضاءُ أعمارهم، ويستقرُّون في بطنها مقبورِينَ إلى وقتٍ مُحدَّد، وهو قيام السَّاعة.

قال سبحانه: وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ [الأعراف: 10].

وقال جلّ وعلا: قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ [الأعراف: 24-25].

---

(104) قال ابنُ جرير (١/٥٧٦-٥٧٧ بتصرف): «والمُسْتَقَرُّ في كلام العرب: هو موضع الاستقرار. وإنّما عنى الله -جل ثناؤه- بذلك: أنّ لهم في الأرض مُستَقَرًّا ومَنزِلًا بأماكنهم ومستقرِّهم من الجنة والسماء».

وعلَّقَ ابنُ عطية (١/١٨٨) قائلًا: «ويترتب أيضًا على أنّ المستقر في الدنيا أن يُراد بقوله: ﴿ولَكُمْ﴾ أي: لأنواعكم في الدنيا استقرار ومتاع قرنًا بعد قرن إلى يوم القيامة».

عن عبد الله بن مسعود، في قوله: ﴿ومتاع إلى حين﴾، قال: إلى يوم القيامة

علَّقَ ابنُ عطية (١/١٨٨) على هذا القول، فقال: «وهذا قول مَن يقول: المستقر هو في القبور».

عن إسماعيل السدي -من طريق أسباط- في قوله: ﴿ومتاع إلى حين﴾، قال يقول: بلاغ إلى الموت.

علَّقَ ابنُ عطية (١/١٨٨) على هذا القول قائلًا: «وهذا قول من يقول: المستقر هو المقام في الدنيا».

وممَّن قال من السَّلف في قوله تعالى: وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ، أي: على ظهرها وهم أحياء: ابن عبَّاس، وأبو العالية، والرَّبيع، وابن زيد.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (575/1) و((تفسير ابن أبي حاتم)) (89/1).

وممَّن قال من السَّلف: إنَّ المستقرَّ يعني القرارَ في القُبور: ابن عبَّاس، والسُّدِّي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (576/1)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (89/1).

وممَّن قال من السَّلف: إن قوله: مَتَاعٌ إِلَى حِين يعني: إلى قيام الساعة: مجاهدٌ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (578/1).

فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (37)

فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ.

أي: إنَّ الله عزَّ وجلَّ لقَّن آدمَ كلماتٍ تحصُل بها توبتُه ممَّا وقَع من عصيانه لله سبحانه، فتلقَّفَها آدَمُ عليه السَّلامُ متلقِّيًا لها بالقَبول،[105] فاعترف بذنبه، وسألَ اللهَ تعالى مغفرتَه ورحمتَه، فَتَابَ الله عليه ورحِمه، فهو التوَّاب، أي: كثير التَّوْب، بمعنى الرُّجوع على عبدِه بقَبول التوبة، وتوبته بتوفيق عبدِه للتوبة أولًا، وقَبولها منه ثانيًا، وهو الرَّحيمُ بعباده المؤمنين، يختصُّهم برحمته سبحانه.

وهذه الكلمات مذكورةٌ في قوله تعالى: قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ [الأعراف: 23].[106]

---

(105) قال ابن جرير (٥٧٩/١) مُبَيِّنًا معنى ﴿فتلقى﴾ في الآية: «فلقّى الله آدمَ كلمات توبة، فتلقّاها آدم من ربه، وأخذها عنه تائبًا، فتاب الله عليه بقيله إياها، وقبوله إياها من ربه».

ولم يورد فيه إلا قول ابن زيد.

قال ابن عطية (١٨٩/١): «والتلقي من آدم هو الإقبال عليها، والقبول لها، والفهم، وحكى مكيٌّ قولًا أنه أُلْهِمَها فانتفع بها».

(106)

رجَّحَ ابنُ جرير (٥٨٦/١-٥٨٧ بتصرف)، وابنُ تيمية (١٩٨/١-١٩٩) أنّ الكلمات التي تلقاها آدم من ربه هي قوله تعالى: ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكوننّ من الخاسرين﴾ [الأعراف:٢٣]،

واستندا إلى دلالةِ القرآن.

قال ابنُ جرير: «والذي يدلُّ عليه كتابُ الله: أنّ الكلمات التي تلقاهنّ آدمُ من ربه هُنَّ الكلمات التي أخبر الله عنه أنه قالها، وهو قوله: ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكوننَّ من الخاسرين﴾. وليس ما قاله مَن خالف قولَنا هذا -من الأقوال التي حكيناها- بمدفوع قوله، ولكنه قولٌ لا شاهد عليه من حُجَّة يجب التسليم لها، فيجوز لنا إضافته إلى آدم، وأنه مما تلقاه من ربّه عند إنابته إليه من ذنبه».

والآية شبيهةٌ بقوله تعالى: فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى [طه: 121–122].

وقوله سبحانه: وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ [التوبة: 118].

القراءات ذات الأثر في التفسير:

في قوله تعالى كَلِمَات قراءتان:

1– (فتلقى آدمَ من ربه كَلِمَاتٌ) على أن الكلمات قد استنقذت آدَمَ بتوفيق الله تعالى له لقوله إيَّاها.(107)

2– (فتلقى آدمُ من ربه كَلِمَاتٍ) على أن آدم هو الذي تلقَّى الكلمات بالقَبول لمَّا علَّمه الله هذه الكلماتِ، وأمره بهن.(108)

وقال ابنُ تيمية: «ومن ذكر أن الكلمات التي تلقاها من ربه غير هذه لم يكن معه حجة في خلاف ظاهر القرآن».

(107) قرأ بها ابْنُ كَثِير. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (211/2).
يُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الكشف)) لمكي (237/1)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: 75).

(108) قَرَأَ بها الْبَاقُونَ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (211/2).
يُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الكشف)) لمكي (237/1). ((الحجة)) لابن خالويه (ص: 75).

قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (38)

قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا.

أي: قال الله تعالى لآدَمَ وحواءَ وإبليسَ: اهبطوا من الجنَّة، مُجتمِعين في هُبوطكم.

فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ.

أي: أخْبر الله تعالى الذين أهبَطهم من الجنَّة، ويدخُل في هذا الخطاب ذرِّيتهم، بأنَّه إنْ جاءهم في أيِّ وقت وحين، كتابٌ أو رسول يبيِّن لهم الطريقَ، ويرشدهم إليه، واتَّبعوه في ذلك، أنَّ لهم الأمنَ التامَّ، والسرور الدائم.

فلا يخافون ممَّا يستقبلون، ولا على ما فاتهم من أمور الدُّنيا يحزنون،

وبهذا تحصُل لهم السَّعادة الدنيويَّة والأخرويَّة، بإذن الله عزَّ وجلَّ.

كما قال تعالى: قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى [طه: 123].

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (39)

أي: إنَّ مَن لم يتَّبع هُدى الله عزَّ وجلَّ فجَحَد الحقَّ، وكذَّب بالآيات الشرعيَّة أو الكونيَّة، فهو من أهل النارِ الملازمين لها على الدَّوام، لا يَخرُجون منها أبدًا.

سُورةُ البَقَرَةِ

الآيات (40-46)

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ
فَارْهَبُونِ (40) وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا
بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (41) وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ
(42) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (43) أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ
أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (44) وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ
إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (45) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (46)

غريب الكلمات:

وَأَوْفُوا: أي: أدُّوه وافيًا تامًّا، وأصل الوفاء: تمام الشيء، وإتمام العهد والقيام بمقتضاه، وإكمال الشَّرط.

فَارْهَبُونِ: خافوني، وأصل الرهبة والرَّهب: مخافة مع تحرُّز واضطراب.

بِالْبِرِّ: الدِّين والطاعة، وأصله: الصِّدق في المحبَّة.

وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ: لثقيلة شاقَّة، وأصل الكِبَر: خِلافُ الصِّغر.

تفسير الآيات:

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (40)

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ.

أي: يا بَني يعقوب[109] كونوا مثلَ أبيكم في متابعة الحقّ، واذكروا نِعمَ الله تعالى على آبائكم، ومنها النِّعم التي سيأتي ذِكرُها في هذه السُّورة الكريمة، وذِكرُ هذه النعمِ يستوجب منهم القيامَ بشُكر الله تعالى عليها، بالدُّخول في دِينه ومتابعة رسولِه عليه الصَّلاة والسَّلام.[110]

وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ.

---

(109) يعقوب عليه السلام يُدْعى: إسرائيل، بمعنى: عبد الله وصفوته من خلقه.
وإيل هو الله، وإسرا هو العبد.

(110) رجَّح ابنُ جرير (١/٥٩٤-٥٩٥) العمومَ في المراد من النعمة
فقال: «ونعمته التي أنعم بها على بني إسرائيل -جلّ ذِكْرُه-: اصطفاؤُه منهم الرسلَ، وإنزاله عليهم الكتب، واستنقاذُه إيّاهم مما كانوا فيه من البلاء والضَّـــرّاء من فرعون وقومه، إلى التمكين لهم في الأرض، وتفجير عيون الماء من الحجر، وإطعام المنّ والسلوى. فأمر -جلَّ ثناؤه- أعقابهم أن يكون ما سلَف منه إلى آبائهم على ذِكْر، وأن لا ينسوا صنيعه إلى أسلافهم وآبائهم، فيحلّ بهم من النقم ما أحلّ بمن نسي نعمَه عنده منهم وكفرها، وجحد صنائعه عنده».
وكذا رجَّح ابنُ عطية (١/١٩٤ بتصرف)، وقال مُوَجِّهًا أقوال السلف: «وخَصَّص بعضُ العلماء النِّعْمَة في هذه الآية، وهذه أقوالٌ على جهة المثال، والعموم في اللفظة هو الحسن».
ثم نقل أقوالًا أخرى، فقال: «النعمة هنا أن دركهم مدة محمد ﷺ. وقال آخرون: هي أن منحهم علم التوراة، وجعلهم أهله وحملته».

أي: لا تُخالفوا وصيةَ الله تعالى التي عَهِدَ بها إليكم من الإيمان به سبحانه، وبرسلِه، ومنهم محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام، وإقامةِ شرْعه، وبيان الحقّ الذي تعرفونه،(111) فإنَّكم إن أنفذتُم وصيةَ الله تعالى لكم، أمضَى لكم ما وعدَكم به، وهو تكفيرُ السيئاتِ، ودخولُ الجنَّة، ثم حذَّرهم نفْسَه بعد أن رغَّبهم، فإنْ تحقَّقت فيهم هذه الخشيةُ لله تعالى، فإنَّها تَحمِلهم على الإيفاء بعَهدِه عزَّ وجلَّ.

كما قال تعالى: وَلَقَدْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ [المائدة: 12].

وقال سبحانه: وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ [آل عمران: 187].

---

(111) رجَّح ابنُ جرير (١/٥٩٦-٥٩٨) مُستدلًا بالقرآنِ أنّ المراد بعهد الله هنا: عهدُ الله ووصيته التي أخذ على بني إسرائيل في التوراة أن يبيِّنوا للناس أمر محمد ﷺ أنه رسولٌ، وأنهم يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة أنه نبيّ الله، وأن يؤمنوا به وبما جاء به من عند الله.

قال: «وعهدُه إياهم أنهم إذا فعلوا ذلك أدخلهم الجنة، كما قال -جلَّ ثناؤه-: ﴿ولَقَدْ أخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ بَنِي إسْرائِيلَ وبَعَثْنا مِنهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وقالَ اللَّهُ إنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أقَمْتُمُ الصَّلاةَ وآتَيْتُمُ الزَّكاةَ وآمَنتُمْ بِرُسُلِي وعَزَّرْتُمُوهُمْ وأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئاتِكُمْ ولأُدْخِلَنَّكُمْ جَنّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِها الأَنْهارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلِ﴾ [المائدة:١٢]».

وأثبت ابنُ عطية (١/١٩٤-١٩٥) الخلافَ دون ترجيح.

وقال عزَّ وجلَّ: قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ [الأعراف: 156–157].

وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (41)

وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ.

أي: يأمُر اللهُ تبارك وتعالى بَني إسرائيل بأنْ يُقرُّوا بقلوبهم وجوارحِهم بهذا الذي يُوافِق ما لديهم من التَّوراة، وهو القرآنُ الذي أنزله الله تعالى على محمَّد – ﷺ –، وفي ضِمن ذلك الإشارةُ إلى أنَّ تكذيبهم للقرآن، هو تكذيبٌ لِمَا معهم من التوراة، التي يدَّعون إيمانَهم بها.

وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ.

أي: نَهَى الله تعالى بني إسرائيل عن أن يكونوا أوَّلَ مَن يكفُر بالقرآن ومَن أُنزِل عليه،(112) وهو محمَّد – ﷺ –؛ فعندهم من العِلم به ما ليس عند غيرِهم، وإلَّا فإنَّه يَقتدي بهم مَن بعدهم، فيكون إثمُ كُفره عليهم.

وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا.

أي: نهاهم اللهُ تعالى عن أن يَبيعوا آياتِه؛ فيترُكوا الإيمانَ به سبحانه، ومتابعةَ رسولِه عليه الصَّلاة والسَّلام، وبيان ما في كِتابهم من الحقِّ، ومنه ما ورد فيه من أمْر محمَّد – ﷺ –، من أجْل الدُّنيا وشهواتها، كالإبقاء على ما يَحظَوْن به من المناصب والأموال، وغير ذلك؛

---

(112) ذَهَبَ ابن جرير (١/٦٠٠) إلى أن الضمير في ﴿به﴾ عائد على القرآن، فقال: «يا معشر أحبار أهل الكتاب، صدِّقوا بما أنزلتُ على رسولي محمد ﷺ من القرآن المصدِّق كتابَكم، ولا تكونوا أوَّل أمّتكُمْ كذَّبَ به وجحد أنه من عندي، وعندكم من العلم به ما ليس عند غيركم».

وذَهَبَ ابنُ كثير (١/٢٧٦) إلى أنّ المقصود بالضمير في ﴿به﴾ محمد ﷺ، ثم قال جامِعًا بينهما: «وكلا القولين صحيح؛ لأنهما متلازمان؛ لأنّ من كفر بالقرآن فقد كفر بمحمد ﷺ، ومن كفر بمحمد ﷺ فقد كفر بالقرآن».

ونقل ابن عطية (١/١٩٦) قولًا ولم ينسبه أن الضمير يعود «على التوراة إذا تضمنها قوله: ﴿لما معكم﴾».

ثم وجَّهه بقوله: «وعلى هذا القول يجيء ﴿أوَّلَ كافِرٍ بِهِ﴾ مستقيمًا على ظاهره في الأولية».

وممَّن قال من السَّلف: إنَّ المقصود بقوله تعالى: وَلَا تَكُونُواْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ القرآن: ابن جُرَيج.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (602/1).

وممَّن قال من السَّلف أنَّ المقصود به: محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ: أبو العالية.

قال ابن أبي حاتم: (ورُوي عن الحسن، والسُّدِّي، والرَّبيع بن أنس نحوُ قول أبي العالية) ((تفسير ابن أبي حاتم)) (97/1).

فإنَّ الدنيا بحذافيرها ثمنٌ قليل لا يُساوي شيئًا بجانب الإيمان بالله تعالى.

وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ.

أي: إنَّ اللهَ سبحانه وَحْدَه هو المستحقُّ للتقوى دون مَن سواه؛

فإنَّهم إذا اتَّقَوا الله وحْدَه، أوجب لهم ذلك، تقديمَ الإيمان بآياته على كلِّ شهوةٍ فانية.

وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ.

أي: نَهَى الله تعالى اليهودَ عن خلْط الحقِّ الذي أنزله الله تعالى بالباطِل الذي افترَوه، بحيث لا يتمايزان، أو يُظهروا الباطلَ في صورة الحق، كما نَهاهم أيضًا عن كِتمان الحقِّ، والحال أنَّهم يعلمونه، ويعلمون ما في صَنيعهم هذا من الضَّرر العظيم على الناس، ومِن الحقِّ المذكور في هذه الآية، ما يعرِفه اليهودُ مِن أمر نبوَّةِ محمَّدٍ - ﷺ -.

كما قال تعالى: يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ [آل عمران: 71].

وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ.

أي: بعد أن أمَر اللهُ عزَّ وجلَّ اليهودَ باعتناق دِين الإسلام، أمَرهم بأنْ يُقيموا الصَّلاة، أي: يؤدُّوها بأركانها، وواجباتِها على أحسنِ وجه، ويُعطوا الصَّدقةَ المفروضة أهلَها المستحقِّين لها، ويصلُّوا مع المصلين- ومنهم محمَّدٌ - ﷺ - وأصحابُه رضي الله عنهم- ويكونوا من جملتهم.

أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (44)

أي: يوبّخ اللهُ تعالى اليهودَ مُنكِرًا عليهم قُبْحَ صنيعهم في أمْرِ الناس بالإيمانِ والخيرِ، وتَرْكِ أنفسِهم لا يأمرونها بذلك، والحالُ أنَّهم يقرؤون التوراةَ ويتدارسونها بينهم، ويَعلمون منها ما أُمِروا به من الخير، وما عليهم إنْ قصَّروا في شرْعِ الله تعالى.

أوَليس لهم عقولٌ يدركون بها ضلالهم، وتزجرهم عن الوقوع في ذلك؟!

كما قال تعالى إخبارًا عن شُعَيب عليه السَّلام:

وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ [هود: 88].

وقال سبحانه: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ [الصف: 2–3].

وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (45)

أي: اطلبوا العونَ على جميع ما تُؤمِّلون من أمور الدُّنيا والآخِرة، وعلى تحمُّل المشاقِّ والمصائبِ بالصَّبر والصَّلاة، والصَّلاةُ ثقيلةٌ وذات مشقَّة على الأنفس، لكنَّها سهلةٌ وخفيفةٌ على مَن خشَع، فخضَع لله تعالى واطمأنَّ إليه قلبُه، وظهرَ أثرُ ذلك الخشوعِ على جوارحِهِ.

الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (46)

وهؤلاءِ الخاشعون هم الموقِنون بعودتهم إلى الله تعالى، والحشرِ إليه يوم القِيامة.

كما قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ [البقرة: 153].

وقال سبحانه: قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ [المؤمنون: 1–2].

سُورةُ البَقَرَةِ

الآيات (47–57)

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ **(47)**

وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ **(48)**

وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ **(49)**

وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ **(50)**

وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ **(51)**

ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ **(52)**

وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ **(53)**

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ

فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (54)

وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ

(55)

ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (56)

وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا

ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (57)

غريب الكلمات:

لَا تَجْزِي: أي: لا تقضي عنها ولا تُغني، والجزاء: القضاء، وأصله: قِيام الشيء مقامَ غيره ومكافأته إيَّاه.

عَدْلٌ: أي: فدية، وأصْل العدْل: ضد الجور والظُّلم، والعَدَالَةُ والمُعَادَلَةُ: لفظٌ يقتضي معنى المساواة.

يَسُومُونَكُمْ: يُولُونَكم، أي: يولونكم إذلالًا واستخفافًا، وقيل: يُرسِلون عليكم، وسامه: كلَّفه العمل الشاق. وأصل السَّوْم: الذَّهاب في ابتغاء الشَّيء.

يَسْتَحْيُونَ: أي: يستبقونهنَّ أحياء، والاستحياء: الإبقاء حيًّا، واستفعل فيه بمعنى أفعل.

بَلَاءٌ: أي: اختبار، وأصل البلاء: إخلاقُ الشِّيء، والاختبارُ، ثم صار يُطلق على المكروه والشدَّة، ويُقال: أُبلي بالنِّعمة، وبُلي بالشدَّة.

فَرَقْنَا بِكُمُ البَحْرَ: فلقناه لكم، والفرق يُقارب الفلق، لكن الفلق انشقاق، والفَرْق انفصال، وأصْل الفَرْق: الفصل والتمييز والتزييل بين الشيئين.

جَهْرَةً: أي: علانية ظاهرًا، وأصله: إعلان الشيء وكشفُه وعلوُّه.

الصَّاعِقَةُ: هي النَّار التي تنزلُ من السَّماء عندَ اشتداد الرَّعد، أو الصَّوت الشديد من الجوِّ، والوَقعُ الشَّديدُ منَ الرَّعْدِ، أو كلُّ عذاب مُهلك (الموت، والعذاب، والنار)، ومنه: صَعق، إذا مات، وأصل صعق: يدلُّ على شِدَّة الصَّوت.

الْغَمَامَ: جمع غمامة، وهو سحابٌ أبيضُ يُواري وجْهَ السماء، لكنَّه يُبقيها مستنيرة؛ سُمِّي بذلك لأنَّه يغمُّ السَّماء، أي يَستُرها ويُواريها، وأصل الغَمِّ: ستر الشيءِ.

تفسير الآيات:

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (47).

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ.

أي: يا بَنِي يعقوب كونوا مثلَ أبيكم في متابعة الحقِّ، واذكُروا نِعمه تعالى على آبائكم ذِكرًا يحملكم على شُكرها بالخضوع لله تعالى، وذلك بالدُّخول في دِينه، واتّباع رسولِه الكريم – ﷺ –، ومنها النِّعم التي سيأتي ذِكرُها في هذه السُّورة الكريمة [474]

وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ.

أي: واذكُروا تفضيلي لكم على سائرِ الأمم من أهل زَمانِكم،(113) من إرسال الرُّسل منكم، وإنزال الكتُب عليكم، وغير ذلك من النِّعم الخاصَّة.

---

(113) رجَّح ابنُ جرير (١/٦٢٩-٦٣٠) استنادًا إلى السنة، وأقوال السلف، والنظائر أنّ المراد بالعالمَين في الآية: عالمي زمانهم، فقال: «وأخرج قوله: ﴿وأني فضلتكم على العالمين﴾ مخرج العموم، وهو يريد به خصوصًا؛ لأن المعنى: وإني فضلتكم على عالَم من كنتم بين ظهريه وفي زمانه».

ثم استدل لترجيحه بحديث أفاد أنّ بني إسرائيل لم يكونوا مفضَّلين على أمة محمد ﷺ، وهو قوله ﷺ: «ألا إنكم وفيتم سبعين أمة أنتم آخرها»، وفي رواية: «أنتم خيرها وأكرمها على الله».

وبنحوه قال ابنُ عطية (١/٢٠٣) استنادًا إلى القرآن؛ وذلك قول الله: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾.

وبنحوهما قال ابنُ كثير (١/٣٩٣-٣٩٤).

وانتقَد ما حكاه الرازي من كون «المراد تفضيل بنوع ما من الفضل على سائر الناس، ولا يلزم تفضيلهم مطلقًا».

وما حكاه القرطبي من أنهم «فُضِّلُوا على سائر الأمم؛ لاشتمال أمتهم على الأنبياء منهم».

كما قال تعالى: وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ [الدخان: 32].

وقال تعالى: وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ [المائدة: 20].

وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (48).

وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا.

أي: أَمَرهم الله أن يعتقدوا ويَفعلوا ما يكونُ حاجزًا يَقِيهم من عذابِه سبحانه، في يوم القِيامةِ الذي لا تَقضِي فيه نفْسٌ عن نفْس حقًّا وجَب عليها لغيرها، ولا يُغني فيه أحدٌ- كائنًا من كان- عن أيِّ أحدٍ شيئًا، ولو كان من عَشيرته الأقرَبين، أو كان الشيءُ قليلًا ويسيرًا جدًّا.

كما قال تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا [لقمان: 33].

وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ.

قال ابنُ أبي حاتم: (عن أبي العالية: وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ، قال: بما أُعطوا من المُلك والرُّسل والكتُب، على عالَم مَن كان في ذلك الزَّمان؛ فإنَّ لكلِّ زمان عالَمًا. قال أبو محمد: ورُوي عن مجاهد، والرَّبيع بن أنس، وقتادة وإسماعيل بن أبي خالد نحو ذلك) ((تفسير ابن أبي حاتم)) (104/1). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (629/1).

أي: لا يُقبَل من أيِّ نفْسٍ شفاعةٌ لنفْسٍ أخرى إذا كانت كافرةً على الإطلاق.[114]

كما قال تعالى: فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ [المدثر: 48].

وقال سبحانه عن أهل النار: فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ [الشعراء: 100–101].

أمَّا المؤمنة فتُقبل منها، إنْ كانت الشفاعةُ بإذن الله تعالى، مع رِضاه سبحانه عن المشفوعِ له.

كما قال تعالى: وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى [النجم: 26].

وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ.

أي: لا يُقبَل منها فِداءٌ.[115]

---

(114) نقل ابن عطية الإجماع على أنَّ هذه الآية في الكافرين.

يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (139/1).

بيَّن ابنُ جرير (٦٣٧/١): أن قوله تعالى: ﴿ولا يُقبَل منها شفاعة﴾ مخصوص بمن «مات على كفره غير تائب إلى الله».

وكذا ابنُ عطية (٢٠٥/١)، فقال: «وهذا إنما هو في الكافرين؛ للإجماع وتواتر الحديث بالشفاعة في المؤمنين».

(115) ذكر ابنُ جرير (٦٣٧/١–٦٣٩) أنّ العدل في كلام العرب: الفدية.

واستدل له بلغة العرب، وأقوال السلف، والسُّنَّة، والنّظائر، ولم يذكر قولًا غيرَه. ووجَّه تفسير العدل بالفدية بقوله: «وإنّما قيل للفدية من الشيء والبدل منه: عدل؛ لمعادلته إياه وهو من غير جنسه، ومصيره له مِثلًا من وجه الجزاء، لا من وجه المشابهة في الصورة والخلقة، كما قال –جل ثناؤه–: ﴿وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها﴾ [الأنعام: ٧٠]، بمعنى: وإن تُفْدَ كل فدية لا يؤخذ منها».

ورجَّح ابنُ كثير (٣٩٤/١–٣٩٥ بتصرف) هذا المعنى بقوله: «وهو أظهر في تفسير هذه الآية، وقد ورد حديثٌ يقويه، قيل: يا رسول الله، ما العدل؟ قال: «العدل الفدية»».

كما قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ [آل عمران: 91].

وقال سبحانه: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ [المائدة: 36].

وقال تعالى: وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا [الأنعام: 70].

وقال عزَّ وجلَّ: فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا... [الحديد: 15] الآية.

وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ.

أي: ليس لهم أحدٌ يُنقِذهم من عذابِ الله تعالى [480].

كما قال تعالى: فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ [الطارق: 10].

وقال سبحانه: مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ [الصافات: 25–26].

وقال عزَّ وجلَّ: فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ [الأحقاف: 28].

وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (49).

وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ

أي: واذْكُروا يا بني إسرائيل، نِعمتي عليكم بإنجاءِ آبائكم من شِيعة فِرعونَ وقومِه وملئِه، الذين كانوا يُذيقونهم– ويُديمون عليهم– عذابًا سيِّئًا وشديدًا، وهو ذبْح الأبناء الذُّكور، واستبقاء الإناثِ أحياءً؛ لإذلالهنَّ، وإهانتهنَّ، واستضعافهنَّ، وإنجاءُ الآباء إنجاءٌ لهم؛ ولذا وُجِّه الخِطابُ إليهم.(116)

وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ.

أي: وفي إنجائِنا لآبائكم من عدوِّكم(117) نعمةٌ عظيمةٌ لكم من ربِّكم.

---

(116) عن محمد بن إسحاق –من طريق سَلَمة– أنّ اسم فرعون موسى: الوليدُ بن مُصْعَب.

زاد ابنُ عطية (١/٢٠٦) قائلًا: «وقيل: اسمه مصعب بن الريان».

قال ابنُ عطية (١/٢٠٧) بقوله: «والصحيح من التأويل: أنّ الأبناء هم الأطفال الذكور، والنساء هم الأطفال الإناث، وعبر عنهنَّ باسم النساء بالمآل، وليذكُرهنَّ بالاسم الذي في وقته يستخدمن ويُمْتَهَنَّ، ونفس الاستحياء ليس بعذاب، لكن العذاب بسببه وقع الاستحياء».

(117) ذكر ابنُ عطية (١/٢٠٧) أنّ الإشارة بـــ﴿ذلكم﴾ «إلى جملة الأمر، إذ هو خبر، فهو كمفرد حاضر، و﴿بلاءٌ﴾ معناه: امتحان واختبار، ويكون البلاء في الخير والشر».

ثم نقل قولين آخرين ووجَّههما، فقال: «وقال قوم: الإشارة بـــ﴿ذلِكُم﴾ إلى التنجية، فيكون البَلاءُ على هذا في الخير، أي: وفي تنجيتكم نعمة من الله عليكم.

وقال جمهور الناس: الإشارة إلى الذبح ونحوه، والبلاء هنا في الشر، والمعنى: وفي الذبح مكروه وامتحان».

قال ابنُ أبي حاتم: (عن ابن عبَّاس: قوله: بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ يقول: نِعمة. ورُوي عن مجاهد، وأبي مالك، والسُّدِّي نحوُ ذلك)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (1/106).

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (1/653).

ويُحتمل أن يكون المراد بـ ذَلِكُم: أي سوء العذاب.

يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (1/73-74).

لَمَّا ذكَر الله سبحانه وتعالى تسلُّطَ آل فِرعون على بني إسرائيل، ذكَر مآل هؤلاء المتسلِّطين، فقال:

وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (50)

أي: ذكَّرَ سبحانه بني إسرائيل بأنَّه فرَق البحر لهم، وبسبب دُخولِهم فيه، ففَصَل بعضَه عن بعض؛ ليسلكوا طريقًا يابسًا بيْن أجزاء البحر، فأنقذهم اللهُ تعالى بذلك من فِرعونَ وقومِه، الذين أغْرَقهم الله تعالى جميعًا، وأمكن بني إسرائيل من النَّظر إليهم بأبصارهم وهم يَغرَقون، فكان ذلك أشْفَى لصدورهم، وأبلغَ في إهانةِ عدوِّهم.

كما قال تعالى: فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ [الشعراء: 61-66].

وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (51).

أي: واذكُروا يا بني إسرائيلَ مواعدتَنا لموسى تمامَ أربعين ليلةً، ثم عِبادتكم العِجلَ من بعد أنْ فارقكم موسى متوجِّهًا إلى الموعِد، وأنتم ظالمون بوضعِكم للعبادةِ في غير موضعها؛ لأنَّ العبادةَ لا تَنبغي إلَّا لله عزَّ وجلَّ، وأنتم قد اتخذتُمُ العِجل إلهًا، والشركُ بالله تعالى ظلمٌ عظيمٌ.

القراءات ذات الأثر في التفسير:

في قوله تعالى: وَاعَدْنَا قراءتان:

1- (وَعَدْنَا) على معنى أنَّه وعْدٌ من الله تعالى لموسى عليه السلام، وليس فيه وعدٌ مِن موسى عليه السلام.[118]

2- (وَاعَدْنَا) على معنى أنَّ المواعدةَ من الله سبحانه لموسى عليه السلام، ومِن موسى عليه السلام لربِّه.[119]

ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (52).

أي: تجاوزْنا عنكم بمحوِ أثر ذنبِكم بعبادة العِجل، فلم نعاقبْكم؛ لتكونوا من الشاكِرين نعمةَ الله تعالى عليكم بالعَفوِ.

وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (53).

(118) قَرَأَ بها أَبُو جَعْفَرٍ، وَالْبَصْرِيَّانِ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (212/2).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الكشف)) لمكي (239/1). ((تفسير ابن جرير)) (663/1).

(119) قَرَأَ بها الْبَاقُونَ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (212/2).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الكشف)) لمكي (239/1). ((تفسير ابن جرير)) (663/1).

أي: واذكُروا إعطاءَنا موسى التوراةَ،[120] التي تُفرِّق بين الحقِّ والباطل؛ لتهتدوا بها باتِّباع الحقِّ الذي فيها.

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ **(54)**.

أي: واذكُروا حين نادَى موسى عليه السَّلام قومَه، يؤكِّد لهم ظُلمَهم لأنفسهم باتِّخاذهم العِجلَ إلهًا يعبدونه؛ ولذا فقد وجَبتْ عليهم التوبةُ من هذا الجُرم الشنيع، في حقِّ مَن أَوجدهم من العدَم، فالذي خلقَهم هو من يستحقُّ أن يُعبَد وحده لا شريك له، ثمَّ وصَف لهم كيفيَّةَ توبةِ الله تعالى عليهم بأنْ يَقتُل بعضُهم بعضًا،[121] فذلك خيرٌ لهم عند الله تعالى، الذي تاب عليهم؛ فهو التوَّاب الرَّحيم.

وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ **(55)**.

---

(120) نقل ابنُ عطية في ((تفسيره)) (144/1) الإجماع على أن المراد بـ الكتابَ: التوراة.

(121) قال القرطبيُّ: (أجمَعوا على أنَّه لم يُؤمَر كلُّ واحد من عَبَدة العِجل بأن يقتُل نفْسَه بيده) ((تفسير القرطبي)) (401/1).

وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً.

أي: واذكُروا حين قلتُم لموسى عليه السَّلام، لن نصدِّقك ولن نُقرَّ بما جئتَنا به، حتى نرى الله عِيانًا، ننظُر إليه بأبصارنا.

كما قال تعالى: يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ [النساء: 153].

فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ.

أي: فعاقَبَكم الله تعالى بالصَّعْقِ فمتُّم، ينظرُ بعضكم إلى بعضٍ وهم يموتون.

ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (56).

أي: ثم أحييناكم من بعد موتكم بالصاعقة التي أهلكتكم؛ لتشكروني على نعمتي عليكم بإحيائكم؛ لتحدثوا توبةً من عظيم ذنبكم.

لَمَّا ذكَر تعالى ما دفعَه عنهم من النِّقم، ذكَّرهم أيضًا بما أسبغَ عليهم من النِّعم، فقال:

وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (57).

وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ.

أي: وارَيْنا عنكم وجْهَ السَّماء بالسَّحاب الأبيض الرَّقيق؛ لنَقِيَكم حرَّ الشَّمس في التِّيه.

وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى.

أي: يذكُر الله تعالى لهم أيضًا أنَّه أنزَل عليهم رِزقًا طيِّبًا سهلًا يحصُلون عليه بلا كُلفةٍ، ولا مشقَّة.

والمنُّ قيل هو كل ما امتن الله تعالى به عليهم من الطعام والشراب، مما ليس في تحصيله كلفة ولا مشقة.

وقيل: هو التُّرنجبين، وهو شيءٌ أبيضُ ينزِلُ على الشَّجر كالندى، حُلوٌ، يُشبِه العسلَ الأبيض.

والسَّلوى طائر، قيل: هو السُّمَانَى، وقيل: يُشبه السُّمَانَى.(122)

---

(122) قال ابن عطية: (السَّلْوى طير بإجماع من المفسرين، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والربيع بن أنس وغيرهم.

قيل: هو السُّمَانَى بعينه.

وقيل: طائر يميل إلى الحمرة مثل السُّمَانَى،

وقيل: طائر مثل الحمام تحشره عليهم الجنوب) ((تفسير ابن عطية)) (149/1).

وممن قال أن السَّلوى هو السُّمَانَى: ابن عبَّاس – في رواية عنه – ومجاهد، والشعبيُّ، والضحَّاك، والحسن، وعِكرمة، والرَّبيع بن أنس.

يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (115/1)، ((تفسير ابن جرير)) (705/1).

وممَّن قال من السَّلف: إنَّ السلوى طائرٌ يُشبه السُّمانَى: ابن عبَّاس – في رواية عنه – وابن مسعود، وغيرُهما من أصحاب رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ، والسُّدِّي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (704/1).

كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ.

أي: قلنا لهم: كُلوا من طيِّبات ما رزقناكم، كهذا المنِّ والسَّلوى، وهما طيِّبانِ حسًّا ومعنًى؛ للذاذة طعمهما، وحِلِّيَّتهما شرعًا.

وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ.

أي: أنعمْنا عليهم هذِه النِّعم، فقابَلوا نِعمَنا بالجحود، بعدم الشُّكر، وارتكاب المعاصي، وما وضَعوا فِعلهم ذلك وعِصيانهم إيَّانا موضعَ مضرَّة علينا، ومنقصة لنا، ولكنَّهم وضَعوه من أنفسِهم موضعَ مضرَّة عليها ومنقصة لها، والمعنى: أنَّ هذا الظلمَ واقعٌ على أنفسهم؛ حيثُ عرَّضوها به لسَخَطِ الله عزَّ وجلَّ وعِقابه، فضررُ فِعلهم عائدٌ إليهم، والله سبحانه وتعالى لا تضرُّه معاصي خَلْقه، ولا تنفعُه طاعاتُهم.

سُورةُ البَقَرَةِ

الآيات (58-61)

وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا
حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (58) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي
قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (59) وَإِذِ اسْتَسْقَى
مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ
أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (60) وَإِذْ قُلْتُمْ يَا
مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا
وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ
لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا
يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (61)

غريب الكلمات:

حِطَّةٌ: أي: حُطَّ عنَّا ذنوبَنا، وأصل الحطِّ: إنزال الشيء من علو.

رِجْزًا: عذابًا، وأصله: الاضطراب.

وَلَا تَعْثَوْا: ولا تفسدوا، وأصل العيث: الفساد، والعيث والعثي متقاربانِ، إلَّا أنَّ العَيث أكثر ما يقال في الفساد الذي يُدرك حسًّا.

بَقْلِهَا: البقل قيل: هو النَّبات الذي لا ساقَ له، وقيل: ما لا ينبت أصلُه وفرعه في الشِّتاء، وقيل غير ذلك.

قِثَّائِهَا: القثَّاء: اسم جنس واحده قُثَّاءة- بضمِّ القاف، وكسرها- قيل: هو الخيار المعروف، وقيل غير ذلك.

فُومِهَا: الفوم: قيل: هو الثوم؛ أُبدلت الثاء بالفاء، مثل: جدث وجدف للقبر. وقيل: هو الحنطة، والخبز جميعًا؛ من قولهم: فوَّموا، أي: اختبزوا- وهي لغة قديمة- ويقال: الفوم الحبوب.

تفسير الآيات:

وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (58).

وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا.

أي: واذكُروا حين أمَرْنَا بني إسرائيل بالدُّخول لبيت المقدِس، وأن يأكُلوا منها من أيِّ مكان فيها رِزقًا واسعًا هنيئًا.

وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ.

أي: إنَّهم أُمروا أن يَخضعوا له سبحانه بالفِعل والقول عند دُخولِهم أحدَ أبواب بيت المقدس،[123] بأنْ يدخُلوا رُكَّعًا متواضعين،[124] وأن يَطلُبوا من الله تعالى أن يضَعَ عنهم ذُنوبَهم وخطاياهم.

---

(123) قال مقاتل بن سليمان: ﴿وادخلوا الباب سجدا﴾، يعني: باب إيلْياء سُجَّدًا، فدخلوا مُتَحَرِّفِين على شق وجوههم.

نقل ابن عطية (١/٢٢٢) قولين آخرين في معنى الباب؛ فقال: «وقيل: هو باب القبة التي كان يصلي إليها موسى. وروي عن مجاهد أيضًا: أنّه باب في الجبل الذي كلَّم عليه موسى كالفرضة».

(124) وممَّن قال معنى سُجَّدًا أي: رُكَّعًا: ابن عبَّاس.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (714/1).

وممَّن قال من السَّلف بأن معنى: حِطَّةٌ: مغفرة، أي: استغفِروا، ابن عبَّاس، ورُوي عن عطاء، والحسَن، وقتادة، والرَّبيع بن أنس نحوُ ذلك.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (716/1)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (118/1).

نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ.

أي: إذا فعلتُم يا بني إسرائيل، ما أمَرَكم الله تعالى، فسيستُرُ عليكم ذنوبَكم، ويتجاوز عنها، وسيَزيد سبحانه إيمانًا، أو حسناتٍ من فَضلِه- عاجلًا أو آجلًا- مَن أحْسَن في عبادة الله تعالى، ومَن أحسن للخَلْق بوجوه الإحسان المختلِفة.

فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (59).

فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ.

أي: فغيَّر الظالمون منهم القولَ الذي أُمِروا أن يقولوه بقولٍ غيرِه، فقالوا بدَلَ حِطَّة: حَبَّة في شَعرة، وإذا بدَّلوا القول مع خِفَّته، فتبديلُهم للفِعل من باب أَوْلى وأحرى؛ ولهذا دخَلوا يَزحَفون على أَدبارِهم.

عن أبي هُرَيرَة رضي الله عنه: أنَّ رسولَ الله - ﷺ - قال: ((قيل لبَني إسرائيلَ: ادْخُلوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ، فبدَّلوا، فدخلوا يَزحَفون على أَستاهِهم، وقالوا: حبَّةٌ في شَعرةٍ)).[125]

---

(125) رواه البخاري (4641).

قال ابنُ تيمية (١/٢١٧): «فإنّ الثابت عن النبي ﷺ أنهم دخلوا يزحفون على أســتاههم، وفي لفظ: على أوراكهم، والمعنى واحد، وما نُقِل خلاف هذا فإنما أخذ عن أهل الكتاب، وقد كان يؤخذ عنهم الحق والباطل».

فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ.

أي: أنزل الله تعالى على هؤلاء- الذين استبدلُوا بالقولِ الذي أُمِروا به قولًا غيرَه- عذابًا من السَّماء؛(126) بسبب خروجهم عن طاعةِ الله تعالى إلى معصيتِه.

وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (60).

وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ.

أي: واذكُروا حين طلَب منَّا موسى ماءً لبني إسرائيل يَشربون منه.

فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا.

أي: إنَّ الله تعالى قد استجاب لطلبِ موسى عليه السَّلام، فأمَره بأن يضرِبَ عصاه بحجرٍ، ففعَل ذلك، فخرَجتْ من الحَجر اثنتَا عَشرةَ عينًا من المياه العَذْبة؛ تيسيرًا لهم، وإنعامًا من اللهِ تعالى عليهم.

---

(126) رواه البخاري (4641).

قال ابنُ تيمية (١/٢١٧): «فإنّ الثابت عن النبي ﷺ أنهم دخلوا يزحفون على أســتاههم، وفي لفظ: على أوراكهم، والمعنى واحد، وما نُقِل خلاف هذا فإنما أخذ عن أهل الكتاب، وقد كان يؤخذ عنهم الحق والباطل».

قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ.

أي: إنَّ كلَّ قبيلةٍ من قبائل بني إسرائيل الاثنتي عَشرة، قد عرَفَتْ محلَّها الذي تَشرَبُ منه من هذه الأعين الخارجة من الحَجر، فلا يُزاحم بعضُهم بعضًا، بل يَشربونه متهنِّئين.

كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللهِ.

أي: كُلُوا واشْربوا من هذا الرِّزقِ الإلهيِّ، الذي آتاكم مِن غيرِ كدٍّ ولا تعب. وهذا أمْرَ إباحةٍ وإرشادٍ لهم مِن الله تعالى.

وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ.

أي: لا تَسْعَوْا في الأرضِ بالفَسادِ.

وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاؤُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (61).

وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ.

أي: واذكُروا يا معشرَ بني إسرائيل حين أخبرتُم موسى عليه السَّلام بضجرِكم وكراهيتِكم للمَنِّ والسَّلوى، وأنْ لا طاقةَ لكم بحَبْس أنفسِكم على تناوُل هذا الطَّعام الذي رزَقَكم الله تعالى رِزقًا هنيئًا سهلًا بلا عناءٍ.

فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا.

أي: ادعُ لأجْلِنا يا موسى، ربَّك؛ كي يُخرِجَ لنا بعض ما تنبته الأرضُ من البَقل والقِثَّاء والفُوم،[127] ومن العَدَس والبَصَل.

قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ.

أي: إنَّ موسى عليه السَّلام استنكر عليهم ووبَّخهم بسؤالِهم له طلبَ تلك الأطعمة الدَّنيئة من البقول وغيرها،[128] مع ما لديهم من الطعام الهَنِيء، مستبدلين الوضيعَ من العيش بالرَّفيع منه! فقال لهم موسى: أتأخُذون الذي هو أخسُّ قِيمةً وقدرًا من العيش، بدلًا بالذي هو خيرٌ منه قيمةً وقدرًا؟!

---

(127) رجَّحَ ابنُ عطية (١/٢٢٨) أن يكون المراد بـ(الفوم): الحنطة، لا الثوم.
قال ابن جرير: (والبقل والقثاء والعدس والبصل، هو ما قد عرفه الناس بينهم من نبات الأرض وحبها) ((تفسير ابن جرير)) (15/2).

(128) ذهب ابنُ جرير (٢/١٩-٢٠) إلى أن ﴿أدنى﴾ في قوله تعالى: ﴿الذي هو أدنى﴾ بمعنى: أخسّ، وأوضع، وأصغر قدرًا وخطرًا.

اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ.

أي: هذه الأطعمةُ التي طلبتُم ليستْ بأمرٍ عزيز، بل هي كثيرةٌ؛ ففي أيِّ بلد دخلتموه(129) ستجدون هذا العيشَ الذي تطلُبون.

لَمَّا كان الذي جرَى منهم أكبرَ دليل على قِلَّة صبرهم، واحتقارهم لأوامرِ الله ونِعمه، جُوزُوا من جنس عملهم، فقال تعالى:

---

(129) توقَّف ابنُ جرير (٢/٢٢) في تحديد المراد بـ(مصر) في الآية، وجوَّزَ كلا القولَيْن، وقال: «والذي نقول به في ذلك: إنّه لا دلالة في كتاب الله على الصواب من هذين التأويلين، ولا خبر به عن الرسول ﷺ يقطع مجيئه العذر».

وانتقد ابنُ كثير (٤٢٨/١) كلامَ ابن جرير، وتوقّفَه في المراد بـ(مصر) في الآية، فقال: «وهذا الذي قاله فيه نظر، والحق أن المراد مصرًا من الأمصار كما روي عن ابن عباس وغيره، والمعنى على ذلك؛ لأنّ موسى يقول لهم: هذا الذي سألتم ليس بأمر عزيز، بل هو كثير في أي بلد دخلتموها وجدتموه، فليس يساوي مع دناءته وكثرته في الأمصار أن أسأل الله فيه. ولهذا قال: ﴿أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم﴾ أي: ما طلبتم، ولما كان سؤالهم هذا من باب البطر والأشر ولا ضرورة فيه لم يجابوا إليه».

قال ابنُ أبي حاتم: (عن ابن عبَّاس في قوله: اهْبِطُوا مِصْرًا قال: مصرًا من الأمصار، ورُوي عن السُّدِّي، وقتادة، والرَّبيع بن أنس نحوُ ذلك) ((تفسير ابن أبي حاتم)) (124/1). يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (22/2).

وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاؤُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ.

أي: أصبح الهوانُ والصَّغار مفروضًا عليهم،[130] وأصبح أثرُ مسكنة الفقر والحاجة والحِرص – من المهانة والخضوع على قلوبِهم، أو ظواهر أبدانهم– لازمًا لهم، كما أنَّه قد حلَّ عليهم غضبٌ من الله تعالى، ورجَعوا متحمِّلين سخطَ الله تعالى عليهم.

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ.

أي: هذا الذي جازيناهم من الذِّلَّة والمسكَنة، واستحقاقهم غضبَ الله عزَّ وجلَّ؛ بسبب جحودِهم آياتِ الله تعالى الكونيَّةَ والشرعيَّة، فاستكبروا عن اتِّباع الحقِّ، واعتدَوْا على أنبياء الله تعالى بالقَتْل بلا وجه حقٍّ يخوِّل تلك الأفعالَ الشَّنيعة.

---

(130) ذَهَبَ ابنُ جرير (٢/٢٦) إلى أنّ المراد بــــ﴿الذلة﴾: الصَّغار الذي ذكره الله تعالى في قوله: ﴿حتى يُعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون﴾ [التوبة ٢٩].

ذَهَبَ ابنُ جرير (٢/٢٦–٢٧) إلى أنّ المراد بـ(المسكنة) في هذا الموضع: مسكنة الفاقة والحاجة، وهي خشوعها وذلها.

ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ.

أي: ذلك الجزاء الذي جُوزوا به، مِن ضَرْب الذِّلة والمسكنة، وإحلال الغضبِ عليهم، أو ذلِك الكفر بآيات الله عزَّ وجلَّ، والقتْل لأنبيائه، إنَّما سببُه هو عصيانُهم لله تعالى، أي: خروجهم عن طاعته؛ إمَّا بارتكاب المحظور، وإمَّا بترْك المأمور، ومِن أسباب ذلك أيضًا استمرارُهم على تجاوُز حدود الله تعالى.

سُورةُ البَقَرَةِ

الآيات (62–66)

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (62)

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (63)

ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (64)

وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (65)

فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (66)

غريب الكلمات:

وَالصَّابِئِينَ: جمْع صابئ، وهو الخارج من دِينه إلى دينٍ آخَر، وأصله الخروج، يقال: صبأت النُّجُوم خرجت من مطالعها. وهم فِرق؛ منها: الصابئة الحُنفاء.

نَكَالًا: أي: تنكيلًا وعقوبةً، وعِبرةً وعِظةً لمن وراءهم، وأصله: المنع والامتناع؛ وسمِّي النَّكال؛ لأنَّه فعل به ما يمنعه من المعاودة، ويمنع غيرَه من إتيان مِثل صنيعه.

خَاسِئِينَ: أي: باعِدين ومبعدين، وهو إبعاد بمكروهٍ، صاغرين ذَليلين، أو مُنزجِرين، ومنه: خسَأ البَصرُ، أي: انقبَض عن مَهانةٍ.

تفسير الآيات:

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (62).

أي: إنَّ الله تعالى لَمَّا ذكَر قبائح بني إسرائيل وذمَّهم، بيَّن طائفةً لم يَلحقْها هذا الذمُّ، ولَمَّا كان ذِكرُ بني إسرائيل خاصَّةً يُوهِم اختصاصهم بهذا الفضل، ذكَر سبحانه حُكمًا عامًّا يشمل عددًا من أتباع الشَّرائع الأخرى.

وعنَى بالذين آمنوا: أُمَّة محمَّد - ﷺ -؛ لأنَّهم هم الذين يستحقُّون الوصفَ بالإيمان المطلَق؛ حيث آمنوا بجميع الكتُب، والرُّسل؛ ولكثرة إيمانهم، وشِدَّة إيقانهم. واليهود هم أتباعُ موسى عليه السَّلام قَبل نَسْخ دِينهم، وقبل تحريفه،[131]

(131) ذهب ابنُ جرير (٢/٣٢) مِن أنّ سبب تسمية اليهود بذلك قولهم: ﴿إنا هدنا إليك﴾، ولم يُورِد فيه قولًا غيره.

والنصارى أتباعُ عيسى عليه السَّلام قَبل نسْخ دِينهم، وقبل تحريفه،(132) وأمَّا الصابئون فهم فِرق؛ منها: الصَّابئة الحُنفاء، الذين بَقُوا على فِطرتهم بتوحيد الله عزَّ وجلَّ، وتحريم الظُّلم والفواحِش، وغير ذلك، من غير تقيُّد بمِلَّة ولا نِحلة، ودون أن يُحدِثوا كُفرًا.(133)

فمَن أحسن مِن هذه الأُمم السالِفة، وأطاع، فإنَّ لهم الثوابَ من عند الله عزَّ وجلَّ، ولهم السَّعادة الأبديَّة، فلا خوفَ عليهم فيما يستقبلونه، ولا هم يحزنون على ما يُخلِّفونه.

---

(132) عن عبد الله بن عباس -من طريق الكلبي عن أبي صالح- قال: إنما سميت النصارى: نصارى؛ لأنّ قرية عيسى كانت تسمى: ناصِرَة.

علَّقَ ابنُ جرير (٢/٣٤) على أثر ابن عباس هذا بقوله: «ذُكِرَ عن ابن عباس من طريق غير مرتضًى أنه كان يقول: إنما سميت النصارى نصارى لأن قرية عيسى ابن مريم كانت تسمى: ناصرة». ويشير ابن جرير بقوله: «من طريق غير مرتضًى» إلى أنّه من رواية الكلبي، وقد ذكر في مقدّمة تفسيره أنّه سيجتنب روايته ما استطاع.

(133) عن مجاهد بن جَبْر -من طريق لَيْث- قال: الصابئون: قومٌ بين اليهود والمجوس، ليس لهم دين.

علَّقَ ابنُ تيمية (١/٢٢٤) على قول مجاهد، بقوله: «أي: ليس لهم شريعة مأخوذة عن نبي، ولم يُرِد بذلك أنهم كفار؛ فإنّ الله قد أثنى على بعضهم، فهم متمسكون بالإسلام المشترك، وهو عبادة الله وحده، وإيجاب الصدق والعدل، وتحريم الفواحش والظلم، ونحو ذلك مما اتفقت الرسل على إيجابه وتحريمه؛ فإنّ هذا دخل في الإسلام العام الذي لا يقبل الله دينًا غيره».

وجَّه ابن تيمية (١/٢٢٤) القولَ بكون الصابئين فرقة من أهل الكتاب قائلًا: «أما مَن قال مِن السلف: الصابئون فرقة مِن أهل الكتاب يقرءُون الزبور. كما نقل ذلك عن أبي العالية، والضحاك، والسدي، وجابر بن يزيد، والربيع بن أنس، فهؤلاء أرادوا من دخل في دين أهل الكتاب منهم».

رجَّحَ ابنُ كثير (١/٤٣٤) مستندًا إلى التاريخ أنّ المراد بالصابئ: مَن بقي على فطرته، فقال: «وأظهر الأقوال -والله أعلم- قولُ مجاهد ومتابعيه، ووهب بن منبه: أنهم قوم ليسوا على دين اليهود، ولا النصارى، ولا المجوس، ولا المشركين، وإنما هم قوم باقون على فطرتهم، ولا دين مقرر لهم يتبعونه ويقتفونه؛ ولهذا كان المشركون ينبزون مَن أسلم بـ(الصابئ)، أي: إنه قد خرج عن سائر أديان أهل الأرض إذ ذاك».

وهذا الحُكم بين هذه الطَّوائف من حيثُ هم؛ فإنَّ هذا إخبارٌ عنهم قَبل بعثةِ محمَّد - ﷺ -، فأمَّا بعدَ بعثةِ النبيِّ - ﷺ -، فلا يُعدُّ مؤمنًا، ولا ينال هذا الأجْر مَن لم يؤمنْ برسالة محمَّد - ﷺ - ، ولم يعملْ بمقتضاها.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (63).

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ.

أي: واذكُروا حِين أخَذْنا عليكم عهدًا مؤكَّدًا بالإيمان به وبرُسله، والالتزام بشَرْعه، ورفَعْنا فوقكم الجبلَ لتخويفكم؛ كي تُقرُّوا بما عُوهِدتم عليه، وتَعمَلوا به.

خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ.

أي: قُلنا لهم: تلقَّوُا التوراةَ التي أعطيناكم إيَّاها، بهمَّةٍ وحَزمٍ، وجدٍّ ونشاط، واذكُروا ما فيها بأنْ تتلوها، وتتعلَّموا ما فيها، وتتدبَّروها، وتعمَلوا بمقتضاها، من أجل أن تكونوا من المتَّقين.

ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (64).

ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ.

أي: بعد هذا المِيثاق المؤكَّد أعرضتُم عنه، ونقضتموه بترْك العمل به.

فَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ.

أي: لولا أنْ أكرمكم الله تعالى، فتداركَكم بالتوبةِ وإرسالِ الرُّسل، وآخِرهم محمَّد – ﷺ –، لكُنتم من الهالِكين في الدُّنيا والآخِرة.

وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (65).

وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ.

أي: قد عرفتُم يا معشرَ اليهود، ما حلَّ بمَن جاوزوا منكم ما أُمِروا به مِن ترْك صيدِ البحر يومَ السَّبت، فاحتالوا على هذا الأمر، مُتعدِّين حدود الله عزَّ وجلَّ.

فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ.

أي: لَمَّا فَعلوا ذلك، مَسخَهم اللهُ تعالى، فصيَّرهم بقُدرته سبحانه في صورة القِرَدة، حَقيرينَ ذَليلِين.

فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (66).

أي: جعَلْنا هذه العقوبةَ رادعًا لِمَن حول أولئك الممسوخين قِردةً، وتذكرةً نافعةً للمتَّقين؛ لينزجِروا بها ويَعتبِروا.

سُورةُ البَقَرَةِ

الآيات (67–74)

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (67)

قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (68)

قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (69)

قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (70)

قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (71)

وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (72)

فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (73)

ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (74)

غريب الكلمات:

فَارِضٌ: مُسنَّة، والفارض: المسنَّة من البَقر، أو الهَرِمة، والفارض هُوَ الضَّخم من كل شَيْء، وأصل الفرض: التأثير في الشيء بقطع أو غيره.

بِكْرٌ: أي: صغيرة لم تلد، وأصله: أول الشيء وبدؤه؛ ولذا سُمِّيت التي لم تُفتضَّ بكرًا.

عَوَانٌ: أي: نصف بَين الصَّغيرة والمُسِنَّة، والمتوسِّطة بين السِّنين.

فَاقِعٌ: أي: ناصع صاف؛ يقال: أصفر فاقع: إذا كان صادِقَ الصفرة، كقولهم: أسود حالك، وأحمر قان، وأخضر ناضِر؛ فهذه التوابع تدل على شِدَّة الوصف وخلوصه.

ذَلُولٌ: التي قد أذلَّها العمل، وأصل الذل: الخضوع، والاستكانة، واللين. والذل: ضد العز، وخلاف الصُّعوبة. وقيل: بالضم ما كان عن قَهْر، وبالكسر: ما كان عن تصعُّب، وهو الذلول من الدَّواب.

تُثِيرُ الْأَرْضَ: أي تقلبها للزراعة، وأصل الإثارة: الاستخراج والقلقلة من مكانٍ إلى مكان.

مُسَلَّمَةٌ: أي: مُخلَّصة، ومبرَّأة من العيوب، وأصْل السلم والسلامة: الصحة والعافية، والتعرِّي من الآفات الظاهرة والباطنة.

لَا شِيَةَ: لا لون فيها سِوى لون جميع جِلدها، والشية: مأخوذة من وشيت الثوب: إذا جعلت فيه أثرًا يُخالف معظمَ لونه، أو نسج على لونين مُختَلفين.

فَادَّارَأْتُمْ: أي: تدافعتُم، واختلفتم، أو اختصمتم، وأصل الدَّرْء: دفْع الشيء.

تفسير الآيات:

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (67)

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً.

أي: واذكروا يا بني إسرائيل، حين أخبَرَ موسى عليه السَّلام آباءَكم بأمْر الله تعالى لهم بذَبْح بقرة؛ كي يضربوا القتيل بجزء منها، فيَحيا القتيل، ويُخبرهم بقاتله، ولم يُحدِّد الله تعالى لهم بقرةً معيَّنة ولم يخبرهم بأوصاف محدَّدة، بل أي بقَرة ذبَحوها، فإنَّها تُفيد في تحقيق المطلوب.

قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا.

أي: إنَّهم استنكروا على موسى عليه السَّلام أمْره بذَبح بقرة، ورأوا أنَّ جوابه غيرُ محقِّقٍ لمقصودهم، فظنوا بموسى عليه السَّلام أنَّه هازئٌ وساخرٌ بهم في ذلك.

قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ.

أي: إنَّ موسى عليه السَّلام استعاذَ بربِّه عزَّ وجلَّ من أن يكونَ في عِداد السُّفهاء، الذين يَستهزِئون بالنَّاس.[134]

قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (68).

قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ.

أي: يُخبِر سبحانه عن تعنُّت بني إسرائيل، وكثرةِ سؤالهم لموسى عليه السَّلام، وأنَّهم لَمَّا ضيَّقوا على أنفسهم ضُيِّق عليهم، ولو أنَّهم ذَبَحوا أيَّ بقرة لكفتْهم، لكنَّهم شدَّدوا، فشُدِّد عليهم، فقالوا: ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ، أي: اسأل لنا ربَّك ما هذه البقرة؟ صفْها لنا؛ لنعرفَها.

---

(134) ذكر ابن عطية (٢٤٦/١) أن قول موسى: ﴿أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين﴾ يحتمل معنيين:
الأول: الاستعاذة من الجهل في أن يخبر عن الله تعالى مستهزئًا.
الثاني: الاستعاذة من الجهل كما جهلوا في قولهم: ﴿أتتخذنا هزوا﴾ لمن يخبرهم عن الله تعالى.
ذكر ابنُ جرير (٨١/٢) أن المفسرين مجمعون على أن السبب الذي من أجله قال موسى: ﴿إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة﴾ القتيل الذي احتكموا إليه في أمره، وإن اختلفوا في ذكر القاتل.
وقال ابنُ كثير (٤٤٧/١-٤٤٨) معلِّقًا على هذه الآثار: «وهذه السياقات كلها عن عَبِيدَة وأبي العالية والسدي وغيرهم فيها اختلاف ما، والظاهر أنها مأخوذة من كتب بني إسرائيل، وهي مما يجوز نقلها، ولكن لا نصدق ولا نكذب، فلهذا لا نعتمد عليها إلا ما وافق الحق عندنا».

قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ.

أي: قال لهم موسى عليه السَّلام: إن الله تعالى يقول: إنَّ البقرة التي سألتُم عنها ليستْ في سِنِّها بالكبيرة الهَرِمة، وليست بالصَّغيرة التي لم يَنكِحْها الفحلُ فتلِد، بل هي متوسِّطة في السِّنِّ بين الكبيرة جدًّا، والصغيرة جدًّا. أمَا وقد أتاكم العلمُ، فاذبحوا البقرةَ التي أُمرتم بذَبْحها؛ لتصِلوا إلى قاتل قتيلكم.(135)

قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (69).

أي: طلَب بنو إسرائيل من موسى عليه السَّلام أن يَسألَ ربَّه عن لون البَقرة المطلوب ذبْحها، فجاءَهم الجوابُ بأنَّها بقرةٌ صفراءُ صافية، شديدةُ الصُّفرة،(136) وتُدخِل السُّرورَ على مَن نظَر إليها؛ لشِدَّة حُسنها وجمال منظرها.

---

(135) قال ابنُ جرير (٢/٨٣-٨٤ بتصرف): «يعني بقوله -جل ثناؤه-: ﴿لا فارِضٌ﴾: لا مُسِنَّةٌ هَرِمَةٌ، وبمثل الذي قلنا في تأويل ﴿فارِض﴾ قال المتأولون».

ذهب ابنُ جرير (٢/٨٦-٨٧) إلى أن المراد بـ﴿ولا بكر﴾: ولا صغيرة لم تلد.

وبنحو قوله قال ابن كثير (١/٤٤٩).

قال ابنُ جرير (٢/٨٧-٨٨ بتصرف): «العوان: النَّصَف التي قد ولدت بطنًا بعد بطن، وليست بنعت للبِكْر، وإنما معنى الكلام أنه يقول: إنها بقرة لا فارض ولا بكر، بل عَوان بين ذلك، وبنحو الذي قلنا في ذلك تأوله أهل التأويل».

(136) عن الحسن البصري -من طريق أبي رجاء محمد بن سيف- في قوله: ﴿صفراء فاقع لونها﴾، قال: سوداء شديدةُ السَّواد.

قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ (70).

أي: طلَبوا من موسى عليه السَّلام– من تعنُّتهم– طلبًا ثالثًا بسؤال ربّه؛ كي يبيِّن لهم المزيدَ من صفات البقرة المطلوبِ ذبحُها، مُتذرِّعين في طلبهم هذا بحُجَّة الْتِباس البقرة المطلوبة من بين غيرها من البَقر، فلم يَهتدوا– بزَعْمِهم– إلى ما يُريدون، وأخَذوا على أنفسهم أنَّهم سيهتدون؛ ولكنَّهم علَّقوا ذلك بمشيئة الله تعالى.

قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (71).

وجَّهَ ابنُ جرير (٢/٩٤) تأويل الحسن هذا بقوله: «وأحسب أن الذي قال في قوله: ﴿صفراء﴾: يعني به: سوداء، ذهب إلى قوله في نعت الإبل السود: هذه إبل صفر، وهذه ناقة صفراء، يعني: بها سوداء. وإنما قيل ذلك في الإبل لأن سوادها يضرب إلى الصفرة».

ثم انتقد (٢/٩٤–٩٥) هذا التأويل مستندًا إلى اللغة والسياق، وبيَّنَ أنّ وصْفَ الأصفر بالفقوع، من الدليل البين على خطإِ ذلك التأويل. ووصف ابن عطية (١/٢٤٨) هذا التأويل بالشذوذ.

ووصفه ابن كثير (١/٤٥٠) بالغرابة.

قال ابنُ جرير (٢/٩٥–٩٦): «يعني: خالص لونها.

والفقوع في الصفرة نظير النصوع في البياض، وهو شدته وصفاؤه».

ولم يذكر قولًا غيره.

﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا﴾.

أي: قال لهم موسى عليه السَّلام: إنَّ الله تعالى يقول: إنَّ البَقرة التي أمرتكم بذَبْحها ليستْ مُذلَّلة بالعمَل،(137) فليست بالتي أُعِدَّت لتقليبِ الأرض للحَرْث، أو سَقي الزَّرع، كما أنَّها سليمةٌ من كلِّ عيب، ولا يخالط لونَ جلدها الأصفر الفاقِع أيُّ لون آخَر.(138)

﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾.

أي: قالوا قد اتَّضح للتوِّ الحقُّ في أمْر البقرة، وجئتَ لنا يا موسى بصِفاتها التي تُميِّزها عن غيرِها، فنستطيع معرفتَها، فوجدوها وذبَحوها، وقد أوشكوا على ترك ذبْحها.(139)

---

(137) ذهب ابنُ جرير (٢/١٠٥) إلى أنّ المراد بقوله تعالى: ﴿لا ذلول﴾ أي: لم يُذَلِّلها العمل، مستندًا في ذلك إلى أقوال السلف، وقال: «فمعنى الآية: إنها بقرة لم تُذَلِّلها إثارة الأرض بأظلافها، ولا سُنِي عليها الماء فيسقى عليها الزرع».
ولم يَذْكُر قولًا غيره.

(138) رجَّحَ ابنُ جرير (٢/١٠٨-١٠٩) أنّ معنى ﴿مُسلَّمة﴾: سلامتها من العيوب، مستندًا في ذلك إلى الدلالة العقلية، فقال: «والذي قاله ابن عباس وأبو العالية ومن قال بمثل قولهما في تأويل ذلك أوْلى بتأويل الآية مما قاله مجاهد؛ لأن سلامتها لو كانت من سائر أنواع الألوان سوى لون جلدها لكان في قوله: ﴿مسلمة﴾ مُكْتَفًى عن قوله: ﴿لا شية فيها﴾، وفي قوله: ﴿لا شية فيها﴾ ما يوضح عن أن معنى قوله: ﴿مُسلَّمة﴾ غير معنى قوله: ﴿لا شية فيها﴾. وإذ كان ذلك كذلك فمعنى الكلام: إنه يقول: إنها بقرة لم تُذَلِّلها إثارة الأرض وقلبها للحراثة، ولا السنو عليها للمزارع، وهي مع ذلك صحيحة مسلمة من العيوب».

(139) اختلف المفسرون في السبب الذي من أجله كادوا أن يُضَيِّعوا فرضَ الله عليهم في ذبح البقرة،
فذهب بعضهم إلى أنّ السبب: غلاء ثمنها.
وذهب آخرون إلى أنّ السبب: خوف الفضيحة.
ورجَّحَ ابنُ جرير (٢/١١٤) أنّ السبب: الأمران معًا مستندًا إلى أقوال السلف، فقال: «والصواب من التأويل عندنا: أنّ القوم لم يكادوا يفعلون ما أمرهم الله به من ذبح البقرة للخلتين كلتيهما: إحداهما: غلاء ثمنها، مع ما ذكر لنا من صغر خطرها وقلة

وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (72).

وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا

أي: واذكُروا يا بني إسرائيل، حين قتلتم نفسًا، فتنازعتُم واختلفتم فيها، كلٌّ يَدفَع قتْلَها عن نفْسه.[140]

وَاللهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ.

أي: إنَّ الله تعالى مُظهِرٌ هذا القاتل؛ ليُعلَمَ.

فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (73).

قيمتها. والأخرى: خوف عظيم الفضيحة على أنفسهم، بإظهار الله نبيه موسى -صلوات الله عليه- وأتباعه على قاتله».
وانتَقَدَ ابن كثير (١/٤٥٢) كلامَ ابن جرير، فقال: «وقال ابن جرير: وقال آخرون: لم يكادوا أن يفعلوا ذلك خوف الفضيحة، إن أطلع الله على قاتل القتيل الذي اختصموا فيه. ولم يسنده عن أحد. ثم اختار أن الصواب في ذلك: أنهم لم يكادوا يفعلوا ذلك لغلاء ثمنها، وللفضيحة. وفي هذا نظر، بل الصواب -والله أعلم- ما تقدم من رواية الضحاك، عن ابن عباس».
وقد أسند ابن جرير (٢/١١٧) هذا القولَ عن وهب بن منبه، فقال: «وأما ما قلنا مِن خوفهم الفضيحة على أنفسهم فإنّ وهب بن منبه كان يقول: إن القوم إذ أمروا بذبح البقرة إنما قالوا لموسى: ﴿أتتخذنا هزوا﴾؛ لعلمهم بأنهم سيفتضحون إذا ذبحت، فحادوا عن ذبحها. حُدِّثْتُ بذلك عن إسماعيل بن عبد الكريم، عن عبد الصمد بن معقل، عن وهب بن منبه».

(140) قال ابن عطية (١/٢٥٣): «ومعناه: تدافعتم، أي: دفع بعضكم قَتْلَ القتيلِ إلى بعض».
ذكر ابن عطية (١/٢٥٤) أن الضمير في قوله: ﴿فيها﴾ عائد على النفس، ثم أورد قولًا آخر، فقال: «وقيل على القتلة».
عن مجاهد بن جَبْر -من طريق ابن أبي نَجِيح- في قوله: ﴿والله مخرج ما كنتم تكتمون﴾، قال: ما تُغَيِّبون.
ذهب ابنُ جرير (٢/١٢٤)، وابنُ كثير (١/٤٥٣) في معنى قوله: ﴿تكتمون﴾ إلى ما ذهب إليه مجاهد.

فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا.

أي: أمَرَهم الله جلَّ ثناؤه أن يضربوا القتيلَ ببعض البقرة؛[141] ليحيا المضروب، فضَربوه، فحيِيَ بإذن الله عزَّ وجلَّ، وأخبرهم بقاتله.

كَذَلِكَ يُحْيِ اللهُ الْمَوْتَى.

أي: كما أحيا اللهُ تعالى هذا القتيلَ في الدُّنيا، فكذلك يُحيي الموتى بعد مَماتِهم، فيبعثهم يومَ القِيامة.

---

(141) اختلف المفسرون في البعض الذي ضُرِب به القتيل من البقرة وأي عضو كان ذلك منها.

ورجَّحَ ابنُ جرير، وابنُ كثير أن الصواب عدَمُ القطع بشيء من ذلك؛ لعدم مجيء بيان بذلك من طريق صحيح.

قال ابنُ جرير (١٢٧/٢): «والصواب من القول في تأويل قوله عندنا: ﴿فقلنا اضربوه ببعضها﴾ أن يقال: أمرهم الله –جل ثناؤه– أن يضربوا القتيل ببعض البقرة ليحيا المضروب. ولا دلالة في الآية، ولا في خَبَرٍ تقوم به حجة، على أي أبعاضها التي أمر القوم أن يضربوا القتيل به. وجائز أن يكون الذي أمروا أن يضربوه به هو الفَخِذ، وجائز أن يكون ذلك الذنب وغضروف الكتف، وغير ذلك من أبعاضها. ولا يضر الجهل بأي ذلك ضربوا القتيل، ولا ينفع العلم به، مع الإقرار بأن القوم قد ضربوا القتيل ببعض البقرة بعد ذبحها، فأحياه الله».

وقال ابنُ كثير (٤٥٣/١–٤٥٤): «هذا البعض أي شيء كان من أعضاء هذه البقرة فالمعجزة حاصلة به، وخرق العادة به كائن، وقد كان مُعَيَّنًا في نفس الأمر، فلو كان في تعيينه لنا فائدة تعود علينا في أمر الدين أو الدنيا لبَيَّنه الله تعالى لنا، ولكن أبهمه، ولم يجئ من طريق صحيح عن معصوم بيانه، فنحن نُبْهِمُه كما أبهمه الله».

ونقل ابنُ عطية (٢٥٤/١) قولًا بأنهم لم يضربوا القتيل، بل ضربوا قبره، ثم قال: «لأنّ ابن عباس ذكر أن أمر القتيل وقع قبل جواز البحر، وأنهم داموا في طلب البقرة أربعين سنة، وقال القرظي: لقد أمروا بطلبها وما هي في صلب ولا رحم بعد».

وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ.

أي: يُظهر اللهُ تعالى لكم العلاماتِ الواضحةَ على كمال قُدرته في إحيائه الموتى، وبَعثِهم بعد موتهم؛ كي تنزجِروا عمَّا يضرُّكم، وتمتنعوا عن عِصيانه جلَّ وعلا.

ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (74).

ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْأَشَدُّ قَسْوَةً.

أي: جَفَت قلوبُكم وغلُظت، ولم يكن ينبغي أن تكون كذلك من بَعدِ الأمرِ الذي عاينتموه، وهو إحياءُ القتيل، الذي هو سببٌ عظيمٌ لِلِين القلوبِ ورِقَّتِها، وانقيادِها للحقّ؛ فقلوبكم في غِلظتها وشدَّتِها كالحجارة، أو أشدُّ صلابةً من الحجارة.(142)

---

(142) اختلف المفسِّرون في معنى أو هاهنا، فذهب ابن جرير في ((تفسيره)) (131/2، 133)، إلى أنَّها على معناها الأصلي وهو الشكُّ، لكنه ليس شكًّا من الله تعالى بل على معنى أنَّ قلوبهم في قسوتها كالحجارة، أو أشدُّ من الحجارة قسوةً عندهم وعِندَ مَن عرَف شأنهم.

قال ابن عطية: (وقالت فرقة: هي على بابها في الشكِّ، ومعناه: عندكم- أيُّها المخاطبون- وفي نظركم، أنْ لو شاهدتم قسوتَها لشككتُم أهي كالحِجارة أو أشدُّ من الحجارة) ((تفسير ابن عطية)) (166/1).

وقيل: أو للتنويع، أي: إنَّ قلوب بعضهم كالحجارة، وقلوب البعض الآخَر أشدُّ صلابةً من الحجارة، وهو رأي استحسنه ابن جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (133/2)، واختاره الشنقيطي في ((العذب النمير)) (155/1).

وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ.

أي: إنَّ الحجارةَ مع قسوتها أفضلُ من قلوبِ أولئك القومِ التي لا تَلين ولا تخشع؛ ذلك بأنَّ هناك أنواعًا من الحجارة تَسيل منها أنهارٌ من المياه، ومنها أنواعٌ تلين وتتصدَّع فيَخرُج منها الماء، ومنها ما يَتردَّى من علوٍّ إلى سُفول؛ من خَشيةِ الله تبارك وتعالى.

وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ.

أي: إنَّ الله سبحانه غيرُ غافلٍ عن أفعالهم الخبيثة، ولا ساهٍ عنها، بل هو حافظٌ لها، وسيُجازيهم على ذلك أتمَّ الجزاء.

وقيل: هي لتحقيق ما سبَق، أي: إنَّ قلوبهم إن لم تكُن أشدَّ من الحجارة قسوةً فهي مثلها، وهذا اختيارُ السعدي في ((تفسيره)) (ص: 55).

وقيل: هي بمعنى: بل، وهذا اختيارُ الواحدي في ((التفسير الوسيط)) (1/ 158)، وابن عاشور في ((تفسيره)) (1/563).

سُورةُ البَقَرَةِ

الآيات (75-82)

أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (75)

وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (76)

أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (77)

وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (78)

فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (79)

وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (80)

بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (81)

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (82)

غريب الكلمات:

يُحَرِّفُونَهُ: يَقلبونه ويُغيّرونه، وأصل تحريف الشَّيء وانحرافه: إمالته، والعدول به عن الاستقامة.

أُمِّيُّونَ: جهلة غَفَلة، أو الذين لا يكتبون ولا يقرؤون من كتاب، وأصل (أم): الأصل والمرجع، فنُسِب الأُمِّي إلى ما عليه جِبلَّة الناس؛ لا يكتب ولا يقرأ على ما وُلِد عليه.

أَمَانِيَّ: جمْع أُمْنِية، وهي تأتي بمعنى التِّلَاوة المُجرَّدة عن المعرفة؛ تَجري عند صاحبها مجرَى أمنية متمنَّاة على التخمين. وتأتي الأماني بمعنى: الأكاذيب، ومَا يتمناه الْإِنْسَان ويشتهيه أَيضًا.

تفسير الآيات:

أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (75).

لَمَّا بيَّن سبحانه أنَّ قلوب اليهود صارت من كثرة المعاصي وتوالي التجرُّؤ على بارئِها محجوبةً بالرَّيْن، كثيفةَ الطَّبع، بحيث إنَّها أشدُّ قسوةً من الحجارة، وتسبَّب ذلك في بُعدهم عن الإيمان- لَمَّا بيَّن سبحانه ذلِك أَيْئَسَ عبادَه المؤمنين من استجابة اليهود إلى الدِّين الحقِّ، فقال:

أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ.

أي: أتُعلِّقون الطمعَ بما لا مطمعَ فيه، فترجون أن يؤمنوا لكم؟! أي: يُصدِّقون ويُقرُّون بقلوبهم وألسنتهم وجوارحِهم؛ لأجْل دعوتكم وطلبِكم منهم الإيمانَ؟!

وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ.

أي: والحال أنَّ جماعةً منهم كانوا يَسمعون كلامَ الله يُتلَى في كتابه التوراة.[143]

---

(143) اختلف المفسرون في معنى قوله تعالى: ﴿يسمعون كلام الله﴾؛

فقال بعضهم: التوراة.

وقال آخرون: بل سمعوا كلام الله مباشرة كما سمعه موسى.

وقد رجَّح ابنُ جرير (٢/١٤٢) القول الثاني، وهو قول ابن عباس، والربيع بن أنس، وابن إسحاق، مستندًا إلى ظاهر التلاوة، والأخبار الإسرائيليّة، والدلالة العقلية، وعلَّل ذلك بقوله: «وذلك أنّ الله إنما أخبر أنّ التحريف كان من فريق منهم كانوا

ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ.

أي: إنَّهم من بعد سماعِهم لكلام الله عزَّ وجلَّ، ومن بعد أن أدْركوه بعقولهم ففهِموه جيِّدًا، يقومون بتبديله، وتغييره، وصرْف معانيه إلى معانٍ أُخرى على غيرِ مُرادِ الله تعالى!

يســـمعون كلام الله، اســـتعظامًا من الله لِما كانوا يأتون من البهتان، بعد توكيد الحجة عليهم والبرهان، وإيذانًا منه –تعالى ذِكْرُه– عبادَه المؤمنين قطْعَ أطماعهم من إيمان بقايا نســـلهم بما أتاهم به محمد من الحق والنور والهدى، فقال لهم: كيف تطمعون في تصـديق هؤلاء اليهود إياكم، وإنما تخبرونهم عن غَيْبٍ لم يشـاهدوه ولم يعاينوه، وقد كان بعضـهم يسـمع من الله كلامه وأمره ونهيه ثم يبدله ويحرفه ويجحده؟! فهؤلاء الذين بين أظهركم من بقايا نسلهم أحرى أن يجحدوا ما أتيتموهم به من الحق –وهم لا يسـمعونه من الله، وإنما يسـمعونه منكم– من أوائلهم الذين باشـروا كلام الله من الله –جل ثناؤه–، ثم حرَّفوه من بعد ما عقلوه وعلموه متعمدين التحريف».

وانتقد ابنُ عطية (٢٥٩/١–٢٦٠) هذا القول مستندًا إلى دلالة عقلية، فقال: «وفي هذا القول ضعف، ومَن قال: إن السبعين سمعوا ما سمع موسى فقد أخطأ، وأذهب فضيلة موسى واختصاصه بالتكليم».

وانتقد ابنُ جرير (١٤٣/٢) مستندًا إلى دلالة عقلية القول الأول، وهو قول أبي العالية، ومجاهد، وقتادة، والسدي، وابن زيد، وعلَّل ذلك أنه لو كان تأويل الآية: يسمعون التوراة.

لم يكن لقوله: ﴿يسـمعون كلام الله﴾ معنى مفهوم؛ لأن ذلك قد سمعه المحرف منهم وغير المحرف، فخصوص المحرف منهم بأنّه كان يسمع كلام الله لا معنى له، وإنما المراد الإخبار عن خاصٍّ من اليهود كانوا أعطوا من مباشرتهم سماع كلام الله ما لم يُعْطَه أحدٌ غير الأنبياء والرسل، ثم بَدَّلوا وحَرَّفوا ما سمعوا من ذلك.

وما انتقده ابنُ جرير قبِلَه ابنُ كثير (٤٦١/١)؛ لكون الحجة التي اســـتند إليها ابن جرير غير لازمة، فقال: «وهذا الذي ذكره السـدي أعم مما ذكره ابن عباس وابن إسـحاق، وإن كان قد اختاره ابن جرير لظاهر السـياق، فإنه ليس يلزم من سماع كلام الله أن يكون منه كما سمعه الكليم موسـى بن عمران، وقد قال الله: ﴿وإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْـرِكِينَ اسْـتَجارَكَ فَأَجِرْهُ حَتّى يَسْـمَعَ كَلامَ اللَّهِ﴾ [التوبة:٦] أي: مُبَلَّغًا إليه».

وَهُمْ يَعْلَمُونَ.

أي: والحال أنَّهم يعلمون أنَّهم حرَّفوه مُبطِلين، ومفترين على الله تعالى الكذبَ!

وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (76).

وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا.

أي: وإذا قابَل منافقو اليهود، المؤمنين –وهم النبيُّ – ﷺ – وأصحابُه– أظْهَروا لهم الإيمان بألسنتهم، بما ليس في قلوبِهم.

وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ.

أي: حين ينصرِفُ هؤلاء المنافقون من اليهود، خالين بأصحابِهم في موضعٍ ليس فيه أحدٌ سواهم.

قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ.

أي: قال أصحابُهم اليهود الذين لم ينافقوا، مُنكِرين على مَن نافق منهم: أتُخبِرون النبيَّ – ﷺ – وأصحابَه، بما أعْلَمَنا الله تعالى به في التوراة وحكم به علينا؟! (وذلك كالإخبار بأنَّ محمَّدًا عليه الصَّلاة والسَّلام هو النبيُّ المنتظَر الذي تَنطبِق عليه الصِّفاتُ المذكورة لدَيْهم، والذي وجب علَيْهم الإيمان به، وكقضائه وحكمه على أسلافهم بما وقع عليهم من العذاب).

لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ.

أي: فيكون ذلك الإقرارُ حُجَّةً لهؤلاء المؤمنين علينا عند الله تعالى يوم القيامة، أنَّا عَرَفْنا الحقَّ وتركْنا العمل به؟!

كما قال تعالى: ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ [الزمر: 31].

أَفَلَا تَعْقِلُونَ.

أي: أليس لكم إدراكٌ بعقولكم؛ فتفهموا أنَّه لا ينبغي لكم إخبارُ أصحاب النبيِّ – ﷺ – بأنَّه النبيُّ المنتظَر، فيكون ذلك حُجَّةً لهم عليكم عند الله تعالى يوم القِيامة؟![144]

أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (77).

أي: أيقولون مِثل هذا ولا يعلمون أنَّ إسرارَهم وإعلانهم عند الله جلَّ وعلا سواءٌ؛ فالسِّرُّ عنده علانية؟! فالله تعالى يعلم ما يُسرُّه اليهود من الكفر والتكذيب، وما يُخفونه من التلاوم بينهم على إظهارِهم ما أظهروا للمؤمنين من الإقرار، كما يَعلم ما يُعلنونه للمؤمنين بقولهم لهم: آمنَّا.

وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (78).

---

(144) ذكر ابنُ عطية (٢٦١/١) أنّ قوله تعالى: ﴿أفلا تعقلون﴾ قيل: هو من قول الأحبار للأتباع.
وقيل: هو خطاب من الله للمؤمنين، أي: أفلا تعقلون أنّ بني إسرائيل لا يؤمنون وهم بهذه الأحوال.

وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ.

أي: إنَّ من اليهود مَن لا يحسن القراءة والكتابة، وليسوا على عِلمٍ بالتوراة، وإنَّما لديهم مجرَّد أحاديث وأمنيات باطلة اختلقوها من تِلقاء أنفسهم، كقولهم: لن يدخُل الجنة إلَّا من كان هودًا أو نصارى، وكقولهم أيضًا: لن تمسَّنا النار إلا أيَّامًا معدودات، إلى غير ذلك من تخرُّصاتهم.(145)

---

(145) قال ابنُ عطية (١/٢٦٣): «وقال ابن جرير: تمنى الرجل: إذا حدَّث بحديث مُخْتَلَق كذب.

وذكر أهل اللغة أنّ العرب تقول: تمنى الرجل: إذا كذب واختلق الحديث، ومنه قول عثمان: ما تعنّيتُ ولا تمنّيتُ منذ أسـلمت.

فمعنى الآية: أن منهم أميين لا يعلمون الكتاب، إلا أنهم يسمعون من الأحبار أشياء مُخْتَلَقة يظنونها من الكتاب».

وقال آخرون: هي من تَمَنّى: إذا تلا، ومنه قوله تعالى: ﴿إلّا إذا تَمَنّى أَلْقى الشَّـيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ [الحج:٥٢]، ومنه قول الشـاعر:

تمنّى كتاب الله أول ليلة وآخره لاقى حمام المقادر فمعنى الآية: أنهم لا يعلمون الكتاب إلا سماع شـيء يتلى، لا علم لهم بصحته".

وممَّن قال من السَّـلف: إنَّ معنى أماني: مجرَّد أمنيات باطلة، أي: إنهم يَتمنَّون على الله ما ليس لهم: قتادة، وأبو العالية، والرَّبيع بن أنس.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (156/2)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (152/1).

وقيل: المراد أنَّ في اليهود مَن هو بمنزلة الأُميِّين الذين لا يَعرفون القراءة والكتابة؛ إذ لا يَفقهون معانيَ التوراة، وإنَّما حظُّهم منها تلاوةُ ألفاظها فحسبُ.

وهذا اختيار ابن تيمية ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (170/25) (432/17–443)، وابن القيم ((الصـواعق المرسـلة)) (1049/3).

وقد أفادت الآثار اختلاف المفسرين في معنى ﴿أماني﴾ على ثلاثة أقوال:

الأول: الأكاذيب.

الثاني: التشهي، وتمني ما ليس لهم.

الثالث: التلاوة.

وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ.

أي: نفَى عنهم العِلمَ، وبيَّن أنَّهم ليس معهم إلَّا مجرَّد ظنون.

كما قال تعالى: مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ [النساء: 157].

فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (79).

فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ.

أي: هلاكٌ عظيم، وعذابٌ هائِل سيحُلُّ بدُعاة الضَّلال من اليهود، الذين يُحرِّفون التوراة، فيخطُّون بأيديهم أشياءَ باطلةً مُختلَقة، ثم يدَّعون زُورًا وبهتانًا أنَّها حقٌّ من عند الله تبارك وتعالى.

لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا.

أي: إنَّهم إنَّما قاموا بذلك الافتراء والتزوير؛ لأجْل غايةٍ خسيسة، وهي الحصولُ على مكاسبَ دُنيويَّة.

فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ.

أي: لهم عذابٌ شديد، وهلاكٌ عظيم؛[146] جزَّاءَ ما كتبتْه أيديهم من الكذب والافتراء على الله عزَّ وجلَّ، ولهم العذابُ والهلاك أيضًا؛ جزاءً على أخْذهم الحرامَ عوضًا على ما عملتْه أيديهم من التَّزوير والتحريف.

وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (80).

بعدَ أنْ ذكَر الله تعالى تحريفَهم التوراةَ، بيَّن سبَب جُرأتهم وعدم اكتراثهم بما يرتكبونه من جرائمَ، وأنَّهم مع ذلك يزكُّون أنفسهم فجَمَعوا بين الإساءة والأمْن، قال تعالى:

وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً.

أي: إنهم قالوا: لن تلاقي أجسادنا نار الآخِرة، إلَّا أيامًا قليلةً، ثم ننجُوا منها.

---

(146) وهذا اختيار ابن كثير في ((تفسيره)) (311/1)، والشنقيطي في ((العذب النمير)) (169/1-170).
وممَّن قال من السَّلف: إنَّ (ويل) كلمة تعني العذابَ: ابن عبَّاس رضي الله عنهما.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (163/2).
وقيل: ويل: واد في جهنم.
قال الشنقيطي: (وقال بعض العلماء: (ويل): واد في جهنم تستعيذ جهنم من حره.
ولو فرضنا صحة هذا القول لكان راجعًا إلى الأول) ((العذب النمير)) (168/1).

قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ.

أي: قُلْ يا محمَّد، لأولئك اليهود الذين ادَّعوا لأنفسهم ما ادَّعوا: هل عندكم مِن الله تعالى ميثاقٌ يُثبت صحَّةَ دعواكم؛ فإنْ كان قد وقَع عهد، فلكم العُذر فيما قلتم؛ فإنَّ الله تعالى لا ينقُض ميثاقه، ولا يُخلِف وعده؟

أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ.

أي: أوْ هلْ تتقوَّلون على الله تعالى الباطِل، وتختلِقون الكذبَ جَراءةً عليه سبحانه؟

بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (81).

لَمَّا قال اليهود: لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً، كذَّبهم الله تعالى وأخبرَهم بالحُكم الذي لا حُكمَ غيره، لا أمانيهم ودعاويهم الباطِلة، فقال:

بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً.

أي: ليس الأمر كما تمنَّيتُم يا معشرَ اليهود، ولكن من أشرك بالله تعالى.[147]

---

(147) وممَّن قال من السَّلف: إنَّ السيِّئة هنا معناها الشِّرك: ابن عبَّاس، وأبو وائل، ومجاهد، وقَتادة، وعطاء، والرَّبيع.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (179/2)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (157/1).

كما قال تعالى: لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا [النساء: 123].

وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ.

أي: أحدقت ذنوبُه وخطاياه بقَلبِه من كلِّ جانب، فليس له منفذٌ للخروج منها، ومات عليها قَبلَ التوبة منها.

فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ.

أي: إنَّهم ملازِمون للنار على الدَّوام، لا يخرجون منها أبدًا.

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (82).

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ.

أي: الذين صَدَّقوا وأقرُّوا بألسنتهم وقلوبهم، وصدَّقوا ذلك بجوارحهم، فعمِلوا الأعمالَ الصالحاتِ بإخلاصٍ لله تعالى، ومتابعةٍ للرسول - ﷺ -.

أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ.

أي: هؤلاء هم أهلُ الجنة المقيمون فيها على الدَّوام، لا يخرجون منها أبدًا.

سُورةُ البَقَرَةِ

الآيات (83–86)

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى
وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ
مُعْرِضُونَ (83) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ
ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (84) ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ
دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ
إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا
خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ
(85) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ
(86)

غريب الكلمات:

أُسَارَى: جمْع أَسْرى، وأَسْرى جمْعُ أسير؛ فأُسارَى جمْع الجمْع، وأصل الأسر: الحبس والإمساك، ومنه الشدُّ بالقيد، من قولهم: أسرت قَتَب البَعيرِ، وسُمِّي الأسير بذلك، ثم قيل لكلِّ مأخوذٍ ومقيَّد- وإن لم يكن مشدودًا -: أسير.

خِزْيٌ: هوان، وهلاك، وأصل الخِزي: الإبعاد.

تفسير الآيات:

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ (83).

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ.

أي: واذكُروا يا معشر اليهود، حين أخَذْنا عليكم عهدًا مؤكَّدًا بعبادة الله وحْدَه لا شريكَ له.[148]

وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ.

أي: وممَّا أُخِذ على بني إسرائيل من العهود المؤكَّدة أن يُحسنوا إلى الوالدين، وهذا يشمل كلَّ أنواع الإحسان القوليَّة والفعليَّة، وممَّا أُخِذ عليهم أيضًا: العهد بالإحسان- بجميع طرقه- إلى أنواع القَرابات كافَّةً، وإلى اليتامى- واليتيم هو مَن فقَدَ أباه قبلَ البلوغ، ذَكَرًا كان أم أُنثى- وإلى المساكين، وهم الفقراء.

(148) ذكر ابنُ عطية (١/ ٢٨٦) أن مكيًّا قال بأن هذا هو الميثاق الذي أخذ عليهم حين أخرجوا من صلب آدم كالذر، وانتقده، فقال: «وهذا ضعيف، وإنما هو ميثاق أخذ عليهم وهم عقلاء في حياتهم على لسان موسى - عليه السلام - وغيره من أنبيائهم؟، وأَخْذُ الميثاق قول، فالمعنى: قلنا لهم: لا تعبدون».

كما قال تعالى: وَاعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ... الآية [النساء: 36].

وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا.

أي: ومما أمر الله تعالى به اليهود أن يحسنوا بالقول إلى النَّاس عمومًا، فيكلموهم بكلام طيب لين، يدخل فيه الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والعفو والصفح، وغير ذلك.

وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ.

أي: وممَّا أُمِر به اليهودُ أيضًا: إقامةُ الصَّلاة، وإيتاء الزكاة، أي: ائتوا بالصَّلاة تامَّةً بحقوقها الواجبة عليكم فيها، وأعطوا الزكاةَ مستحقِّيها بما فرَض الله تعالى عليكم في أموالِكم.

ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ.

أي: خاطَب اللهُ تعالى اليهودَ الحاضرين في زمن النبيِّ – ﷺ – بأنَّهم هم وآباؤهم قد ترَكوا ما أخذ الله تعالى عليهم من المواثيق التي ذُكرت في الآية، ترَكوها وراءَ ظهورهم، فنقضوها وأعْرَضوا عنها عن عمْد بعد العِلم بها، إعراضًا لا رجعةَ فيه إليها، عدا عددٍ قليل منهم قد عصمَهم الله تعالى ووفَّقهم، فوفوا بتلك العهود.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (84).

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ.

أي: واذكروا حين أخَذْنا عليكم وعلى آبائكم من قبل، ألَّا يقتل بعضُكم بعضًا، ولا يُخرِج بعضُكم بعضًا من دِيارهم بغير حقٍّ.

ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ.

أي: بعد أخْذ هذا الميثاق عليكم، بقيتُم عليه، وقد أقررتُم بمعرفته وصحَّته، وشهدتُم عليه، فهو لديكم باقٍ، لم يغبْ عنكم، ولم تُنكِروه.

ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (85).

ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ.

أي: إنَّهم من بعد ذلك الميثاقِ، والإقرارِ به، والشهادة عليه، نقَضوا الميثاقَ الذي أُخذ عليهم؛ إذ وقعوا في المخالفة بقَتْل بعضهم بعضًا، وإخراج بعضهم بعضًا من دِيارهم بغير حقٍّ.

تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ.

أي: تتعاونون على أهلِ ملَّتكم بمعصية الله تعالى، وتجاوز حدودِه.

وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى(149) تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ.

أي: إنَّه بعد أَسْر بعض اليهود من كِلا الفريقيْنِ المتحاربيْنِ يقوم الذين قاتلوهم من أهل مِلَّتهم، بتخليصهم من الأَسر، بعِوض أو بمبادلةٍ بين أسارى الفريقين؛ امتثالًا لما أُمِروا به في كتابهم من افتداءِ الأَسرى منهم، مع أنَّه قد حُرِّم عليهم في كِتابهم أيضًا إخراجُهم من دِيارهم، ولم يجتنبوا هذا النهيَ!

القراءات ذات الأثر في التفسير:

في قوله تعالى: (تفادوهم) قِراءتان:

1- (تُفَادُوهُمْ) على معنى أنَّ المفاداة من اثنين؛ لأنَّ الفداء: أن تأخذ ما عنده، وتُعطي ما عندك، فتَفعل به كما يُفعل بك.(150)

(149) قرأ حمزةُ: (أَسْرَى) بفتح الألف الأولى وسكون السين وإسقاط الألف بعدَها، وهما جمع أَسير، ومعناهما واحد.

(150) قرأ بها المدنيَّان، وعاصمٌ، والكسائيُّ، ويعقوبُ.

2- (تَفْدُوهُمْ) أي: تشتروهم من العدوِّ وتُنقِذوهم.(151)

أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ.

أي: أنكَر الله تعالى عليهم ذلك؛ إذ كيف يمتثِلون شيئًا ممَّا أُمروا به في التوراة، وهو فِداء أسراهم من أيدي العدوِّ، بينما يتركون أشياءَ أخرى من نفْس التوراة، وهي ارتكابُ ما نُهوا عنه من قتْل، وإخراج بعضهم بعضًا، ومظاهرة بعضهم العدوَّ على بعض؟!

فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

أي: ليس لِمَن وقَع في ذلك الانحراف الشَّنيع منكم معشرَ اليهود، سوى الذلِّ؛ عقابًا عاجلًا في الدنيا. وممَّا وقَع لهم من ذلك: تسليطُ رسولِ الله - ﷺ - عليهم، فقَتَل منهم مَن قتَل، وسبَى مَن سبَى، وأجلَى البقيةَ من دِيارهم.(152)

وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (218/2).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص:84)، ((معاني القراءات)) للأزهري (164/1).

(151) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (218/2).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص:84)، ((معاني القراءات)) للأزهري (164/1).

(152) ذكر ابن عطية (١/٢٧٦) أنه اختلف في المراد بالخزي على أقوال:

الأول: أنه القصاص فيمن قتل.

الثاني: ضرب الجزية عليهم غابر الدهر.

الثالث: قتل قريظة، وإجلاء النضير.

أي: ويوم تقوم السَّاعة، فيقوم النَّاسُ لربِّ العالمين، يُرَدُّ هؤلاء الذي فعَلوا ذلك منكم- أيُّها اليهود- أي: يرجعون من ذلِّ الدنيا إلى أعظم ما يكون من العُقوبات الأخرويَّة التي أعدَّها الله تعالى لأعدائه.

وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ.

أي: يُهدِّدهم الله تعالى ويتوعَّدهم؛ فلكمالِ عِلمه ومراقبتِه لا يَخفى عليه شيءٌ، ولا يَنسى شيئًا سبحانه وتعالى، بل هو حافظٌ عليهم أعمالَهم، ومحصيها لهم؛ ليجازيَهم بها.

أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (86).

أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ.

أي: إنَّهم قد استبدلوا نَعيمَ الدُّنيا الفاني بنَعيمِ الآخِرة الباقي، وذلك ببذلهم الكفرَ بالله تعالى وترْك شرائعه، ثمنًا للاستحواذِ على ما يبتغون من حُطام الدُّنيا.

فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ.

أي: لأجْل إيثارهم الدُّنيا على الآخِرة، لن يُخفَّف عنهم من عذاب يوم القيامة شيءٌ، لا زَمنًا ولا شدَّةً.

كما قال تعالى: وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ [غافر: 49–50].

وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ.

أي: لا يَستنقِذهم أحدٌ من عذاب الله تعالى.

سُورةُ البَقَرَةِ

الآيات (87-90)

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ
بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا
تَقْتُلُونَ (87)

وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ (88)

وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ
كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (89)

بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ
يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (90)

غريب الكلمات:

وَقَفَّيْنَا: أتْبَعنا وأردفنا على آثارهم، مأخوذ من القفا؛ يقال: قفوت الرجل: إذا سرت في أثره.

بِرُوحِ الْقُدُسِ: جبريل عليه السلام؛ سمي بذلك لأنه يأتي بما فيه حياة القلوب، أو لأنَّه ينزل بالقدس، أي: بما يُطهر به نفوسنا من القرآن والحِكمة.

غُلْفٌ: جمْع أغلف، أي: كأنها في غِلاف لا تفهم، ولا تَعقل شيئًا مما يقال، وأصل الغلف: الغشاوة وغشيان شيءٍ لشيء.

يَسْتَفْتِحُونَ: أي: يستنصرون باسم محمَّد - ﷺ - وببعثته؛ فالاستفتاح: الاستنصار، وطلب الفتح، أي: طلب الظفر.

بَغْيًا: أي: حسدًا، وأصل البغي: طلب الشيء، وجنس من الفساد، والظلم، والترفع والعلو، ومجاوزة المقدار.

فَبَاؤُوا: رجعوا، وانصرفوا بذلك، واستوجبوه. ولا يُقال (باء) إلَّا بشر، ويقال: باء بكذا إذا أقرَّ به.

تفسير الآيات:

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (87).

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ.

أي: أعطى الله تعالى موسى عليه السَّلام التوراة، ومِن بعدِه أرسل أنبياءَ إلى بني إسرائيل، فأتْبع بعضهم بعضًا على منهاج موسى وشريعتِه، بإقامة التوراة، والعملِ بما فيها إلى زمَن عيسى عليه السَّلام.

كما قال تعالى: إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ الآية [المائدة: 44].

وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ.

أي: أخبر تعالى أنَّه أعطَى خاتمةَ أنبياء بني إسرائيل، عيسى عليه السَّلام، معجزاتٍ تُظهر صِدقَه، وتُثبت نبوَّتَه، كإحياء الموتى، وإبراء المَرضَى، وغير ذلك.[153]

---

(153) قال ابن عطية (١/٢٧٨): «البَيِّنات: الحجج التي أعطاها الله عيسى.
وقيل: هي آياته من إحياء وإبراء وخلق طير.
وقيل: هي الإنجيل. والآية تعم جميع ذلك».

وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ.

أي: أيَّد الله تعالى عيسى عليه السَّلام بجبريل عليه السَّلام، يُقوِّيه ويُعينه.[154]

كما قال تعالى: إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ [المائدة: 110].

أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ.

أي: يُنكِر اللهُ تعالى على بني إسرائيل تعامُلَهم الشَّنيع مع رُسله وأنبيائِه عليهم السَّلام، وأنَّهم كلَّما جاءَ نبيٌّ منهم؛ ليلزمَهم بأحكام تُخالِف أهواءهم، شقَّ ذلك عليهم، فتجبَّروا وبغوا عليهم، مقدِّمين هواهم على هُداهم، فكذَّبوا طائفةً منهم، وقتَلوا طائفةً آخرين.

وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ (88).

---

(154) ونسَبَه ابنُ تَيميَّة لجمهور المفسِّرين، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (17/284-285)، ((الجواب الصحيح)) لابن تَيميَّة (2/181-185)، ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (1/321).

وممَّن قال من السَّلف أن روح القدس هو جبريل عليه السلام: ابن مسعود، وابن عبَّاس، وقتادة، والسُّدِّي، والضحاك، والرَّبيع، وإسماعيل بن أبي خالد، وعطية العوفي، ومحمد بن كعب القرظي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (2/222)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (1/168).

وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ.

أي: إنَّهم يقولون كذبًا بأنَّ الله لم يَفتحْ لهم الطريق إلى معرفة ما جاءت به الرُّسُل والأنبياءُ عليهم السَّلام، بجعْل قلوبِهم داخلةً في غِلاف وأَغطيةٍ فلا تَفهم؛ فكيف تقوم عليهم الحُجَّة؟!

كما قال تعالى عن المشركين: وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ [فصلت: 5].

بَلْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ.

أي: ليس الأمرُ كما ادَّعى هؤلاء كذبًا بأنَّ الله تعالى خلَق قلوبَهم غلفًا لا تَعي، ثم أمرهم بالإيمان، وهم لا يفقهونه، كلَّا! بل حقيقة الأمر أنَّ الله تعالى قد طردَهم من رحمته؛ جزاءَ ما اختاروه لأنفسهم من الجحود بآيات الله تعالى وما جاءتْ به رُسلُه وأنبياؤه.

فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ.

أي: إنَّهم آمنوا بشيءٍ يسيرٍ مما وجب عليهم الإيمان به، لكنه إيمانٌ لا ينفعهم؛ لأنه مغمورٌ بما كفروا به.

وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (89).

وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ.

أي: لَمَّا جاء اليهودَ القرآنُ الذي أَنزله الله تعالى على محمَّدٍ - ﷺ -، والمشتمِل على تصديق ما معهم من التوراة.

وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا.

أي: قد كانوا من قَبلِ مجيء الرَّسول - ﷺ - بالقرآن يستنصرون بمجيئِه على أعدائهم من المشركين إذا قاتَلوهم، ويتوعَّدونهم بقتْلهم معه.

فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ.

أي: لَمَّا أتاهم ما يعرفونه من الحقِّ وصِفةِ محمَّد - ﷺ -، تَعمَّدوا الجَحدَ به عليه الصَّلاة والسَّلام بعد قِيام الحُجَّة بنبوَّته عليهم.

فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ.

أي: بسبب ذلك الكُفر؛ طرَدَهم الله تعالى وأبْعَدهم من رحمتِه، وهذا الحكم يعمُّ كلَّ كافر.

سبب النُّزول:

عن عاصم بن عمر بن قتادة عن أشياخٍ منهم قالوا: (فينا والله وفيهم- أي: الأنصار واليهود- نزلت هذه القصة قالوا: كنا علوناهم دهرًا في الجاهلية ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب، فكانوا يقولون: إن نبيًّا يُبعث الآن نتبعه، قد أظل زمانه، نقتلكم معه قتْلَ عاد وإرم. فلمَّا بعث الله عزَّ وجلَّ رسوله من قريش واتبعناه كفروا به، قال الله عزَّ وجلَّ: فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِه) الآية.[155]

بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاؤُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (90).

بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ.

أي: بئس الشيءُ باعوا به أنفسَهم الكفرُ، يعني: أنَّهم اختاروا الكفرَ وأخذوه، وبذلوا أنفسهم للنَّار؛ لأنَّ اليهود علِموا صِدقَ محمَّد - ﷺ -، وأنَّ مَن كذَّبه فالنار عاقبتُه، فاختاروا الكُفر وسلَّموا أنفسهم للنار.[156]

---

(155) أخرجه ابن إسحاق في ((سيرة ابن هشام)) (539/1)، وحسَّنه الوادعي في ((صحيح أسباب النزول)) (26).

(156) ذكر ابن عطية (١/٢٨٢-٢٨٣) أن قوله: ﴿بما أنزل الله﴾ يحتمل ثلاثة احتمالات:

الأول: القرآن.

الثاني: التوراة لأنهم إذ كفروا بعيسى ومحمد فقد كفروا بالتوراة.

الثالث: أن يراد به الجميع من توراة وإنجيل وقرآن؛ لأن الكفر بالبعض يلزم الكفر بالكل.

بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ.

أي: إنَّ الذي حمَلهم على اختيار الكفر، حسدُهم لمن شاء الله تعالى أن يَخصَّه بفضله العظيم مِن دون عبادِه، فحسَدوا محمَّدًا – ﷺ – على أنَّه هو الرسولُ المنتظَر؛ لأنَّه كان من ولد إسماعيل، ولم يكُن من بني إسرائيل.

فَبَاؤُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ.

أي: رجَع اليهودُ مستوجبين ومستصحبين غضبًا آخَرَ من الله تعالى عليهم؛ بسبب جحودِهم رسالةَ النبيِّ – ﷺ – حسدًا منهم، إضافةً إلى الغضب الأوَّل الذي اكتسبوه لذنوبٍ سلَفتْ منهم.

وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ.

أي: وللجاحدين نبوَّةَ محمَّدٍ – ﷺ – من الناس كلِّهم عذابٌ من الله يُهانون فيه ويُذلُّون.

سُورةُ البَقَرَةِ

الآيات (91-93)

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ
مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ **(91)**
وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ **(92)**
وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا
وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ
(93)

غريب الكلمات:

الطُّورَ: الجبل الشاهق، أو اسم لكلِّ جبل، أو الجبل المنبت، أو اسمُ جبلٍ مخصوصٍ، وأصل طور: الامتدادُ في شيءٍ من مكان أو زمان.

تفسير الآيات:

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (91)

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا.

أي: وإذا قيل لليهود الذين كانوا على عهد رسولِ الله - ﷺ -: آمِنوا بالقرآن الذي أَنزلَه اللهُ تعالى، ردُّوا على ذلك بأنَّه يَكفيهم الإيمانُ بالتوراة.

وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ.

أي: إنَّ اليهود يَجحدون بما بعد التَّوراة من كتُب الله تعالى التي أنزلها إلى رُسلِه عليهم الصَّلاة والسَّلام، والحال أنَّ ما أنزله الله عزَّ وجلَّ هو الحقُّ الموافِق لِمَا عندهم من التوراة؛ فَلِمَ يؤمنون بما أُنزل عليهم، ويَكفُرون بنظيره؟! هل هذا إلَّا تعصُّب واتِّباع للهوى؟! فكُفرهم بالقرآن، كُفرٌ بما في أيديهم، ونقضٌ له.

قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ.

أي: قلْ يا محمَّد، لهؤلاء اليهود المتناقضين: إنْ كنتم صادقين في دَعواكم الإيمانَ بالتوراة، فَلِمَ قَتلتُم– والمقصود أسلافُهم –[157] الأنبياءَ الذين جاؤوكم بتصديق التوراة والحُكم بها وعدَم نَسخِها، وأنتم تعلمون صِدقَهم، وقد حرَّم الله عليكم في التوراة قتْلَهم، بل أمرَكم فيها باتِّباعهم وطاعتهم؟! وهذا تكذيبٌ لهم في قولهم: نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا.

لَمَّا بيَّن الله تعالى كذِبَ اليهود في دعواهم الاكتفاء بالإيمان بالتوراة، مع كُفرهم بالقرآن، ذكر أنَّهم لم يَصْدُقوا حتى في دعواهم الإيمانَ بالتوراة؛ فقد قابَلوا دعوة موسى عليه السَّلام– الذي يزعمون أنَّهم لا يؤمنون إلَّا بما جاءهم به– قابلوا دعوتَه بالكُفر والعِصيان، فقال سبحانه:

وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (92).

وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ.

أي: قد جاءكم يا معشرَ اليهود، موسى عليه السَّلام، بالآيات الواضحاتِ، والأدلَّة القاطعة على صِدقه وصِحَّة رِسالته، كالعصا واليَد، وغيرهما من المُعجِزات المؤيِّدة له.

---

(157) وهذا نظيرُ قول العَرَبِ بعضِـــها لبعضٍ: فَعَلْنا بِكم يومَ كذا، كذا وكذا، وفعلتُم بنا يومَ كذا، كذا وكذا، يَعنُون بذلك: أنَّ أسلافَنا فعَلوا بأسلافِكم، وأنَّ أوائِلَنا فَعَلوا بأوائلكم.
ينظر: ((تفسير ابن جرير)) (259/2).

ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ.

أي: إنَّكم يا مَعشرَ يهود، كفرتُم بما جاءكم به موسى عليه السَّلام من توحيدِ الله تعالى، فجعلتُم العِجل إلهًا تَعبُدونه، من بعد ذَهاب موسى إلى الطُّور لمناجاة ربِّه سبحانه،[158] وأنتم بهذا قد تعدَّيتم حدودَ الله عزَّ وجلَّ، وليس لكم أن تفعلوا ذلِك وأنتم تعلمون أنَّه لا معبودَ بحقٍّ سواه، وليس في التوراة– التي تَدَّعون تمسُّككم بها فحسبُ– أمرُكم بعبادة العِجل؛ فدعواكم أنَّكم مؤمنون بالتوراة، باطلةٌ.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (93).

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ.

أي: واذكُروا يا معشر اليهود، حين أَخذْنا عليكم عهدًا مؤكَّدًا بالإيمان بالله سبحانه وبرُسله، والالتزام بشرعِه، ورَفعْنا فوقكم الجبلَ لتخويفكم؛ كي تقرُّوا بما عُوهِدتم عليه، وتعملوا به.

(158) ذكر ابن عطية (١/٢٨٥) أنّ الضمير في قوله: ﴿من بعده﴾ عائد على موسى، أي: من بعده حين غاب عنكم في المناجاة، ثم أورد احتمالًا آخر، فقال: «ويحتمل أن يعود الضمير في ﴿بعده﴾ على المجيء».

خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا.

أي: قلنا لهم تلقَّوُا التوراة التي أعطيناكم إيَّاها، بِهِمَّةٍ وحزمٍ، وجِدٍّ ونشاط، واسمعوا لكلام الله تعالى سماعَ قَبول واستجابة وانقياد.

قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا.

أي: كان جوابهم على ما سبق أنْ قالوا: سمِعْنا بآذاننا قولَك، وعصينا بأفعالِنا ما أُمِرْنا به.

وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ.

أي: خالَط حبُّ العِجل وعبادته شغافَ قلوبِهم، وتغلغل في أعماقها، كالماء الذي يَتغلغل في باطِن أعضاء الجسَد، وإنَّما وقع لهم ذلك؛ بسبب جُحودِهم الحقَّ.

قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ.

أي: أنتم تدَّعون الإيمانَ، مع أنَّكم قتلتُم أنبياءَ الله، واتَّخذتم العِجل إلهًا من دون الله، ولم تَنقادوا لكلامِه؛ فما هذا الإيمان الذي تدَّعون؟!

فإنْ كان هذا إيمانًا بزعمكم، فبِئس الإيمانُ الداعي صاحبَه إلى الطُّغيان، والكفرِ برُسل الله، وكثرةِ العصيان! فإنَّ الإيمان الصَّحيح يأمُر صاحبَه بكلِّ خير، وينهاه عن كلِّ شر؛ فتبيَّن بهذا كذبُهم، وتناقضُهم.

سُورةُ البَقَرَةِ

الآيات (94-96)

قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (94)

وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (95)

وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (96)

غريب الكلمات:

يُعَمَّرُ: يطول عُمره، والتعمير: إعطاء العُمر بالفِعل، وأصله: البقاء وامتداد الزمان.

بِمُزَحْزِحِهِ: أي: بمُبعِده؛ فأصل الزحزحة: الإبعاد.

تفسير الآيات:

﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (94)﴾.

أي: قلْ يا محمَّد، لهؤلاء اليهود: إنْ كان نعيم الآخرة مقصورًا عليكم وحدكم دون بقيَّة الناس- كما تزعمون- فهناك طريقةٌ تُظهِر الحقَّ في دعاويه من الكاذب المبطِل،

وهي المباهلةُ، بأنْ تَدْعُوا بالموتِ على أيِّ الفريقينِ أكذبُ، وسيتبيَّن الأمر.

وقد أَرشد الله تعالى رسولَه عليه الصَّلاة والسَّلام، إلى مباهلة وفْد نجران من النَّصارى بعد قِيام الحُجَّة عليهم في المناظرة، وعُتوِّهم وعِنادهم، فقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: 61].

﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (95)﴾.

وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ.

أخبرَ تعالى عن عِلمه بعَجز اليهود عن تمنّي ذلك مطلقًا؛ بسبب ما اكتسبوه من كُفرٍ ومعاصٍ، ومن ذلك تكذيبهم النبيَّ عليه الصَّلاة والسَّلام، وكتمانهم صفتَه الموجودة في توراتهم، فهم يعلمون أنَّ الموت طريقٌ إلى مجازاتهم على ما اكتَسبوه؛ ولذا فهم يكرهونه.

وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ.

أي: توعَّد اللهُ تعالى اليهود وهدَّدهم– ويدخل في هذا كلُّ ظالمٍ سواهم– بأنَّه سبحانه ذو عِلم بالظالمين، ليس بغافل عنهم ولا ساهٍ، بل هو حافظٌ لأعمالهم، وسيجازيهم على ظُلمهم.

كما قال تعالى: قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ [الجمعة: 6–7].

وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (96).

وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا.

أي: مِن المؤكَّد يا محمَّد، أن تجِد هؤلاء اليهودَ[159] أشدَّ الناس حرصًا على البقاء في الحياة الدُّنيا، وأشدَّهم كراهةً للموت؛ لعِلمهم بما لهم في الآخِرة من العذاب،

وأن تجد حبَّهم للمُكث وطولِ العُمر في الدُّنيا فاق حتى أولئك المشركين الذين لا يُؤمنون بأحدٍ من الرُّسل والكتُب، ولا يُقرُّون بالبعث.

يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ.

قيل: يودُّ أحدُ اليهود- وقيل: يودُّ أحدُ المشركين- مِن حِرصه على المُكث في هذه الحياة الفانية، أن يَطولَ عُمرُه حتى يبلغَ ألْفَ سَنةٍ.

وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ.

أي: وما طولُ البَقاء في الدُّنيا لأحدهم بمُبعِده من عذاب الآخِرة؛ لأنَّه مهما طال العمرُ فلا بدَّ له من فَناءٍ.

(159) ذَهَبَ ابنُ جرير (٢/٢٧٥) إلى أنّ المراد بالضمير في قوله: ﴿ولتجدنهم﴾: اليهود. مُستندًا إلى أقوالِ السّلفِ، ولم يذكُرْ غيرَه.

وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ.

هذا توعُّدٌ لأولئك اليهود، وتهديدٌ لهم بالمجازاة على أعمالهم؛ فالله تعالى يرى كلَّ ما يفعلونه، لا يخفى عليه شيءٌ من ذلك.

كما قال تعالى: قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [الجمعة: 8].

سُورةُ البَقَرَةِ

الآيات (97–103)

قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى

وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (97)

مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ (98)

وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ (99)

أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (100)

وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ

اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (101)

وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ **(102)**

وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ **(103)**

غريب الكلمات:

نَبَذَهُ: ترَكه ولم يعمل به، أو طرَحه لقلَّة اعتداده به، وأصل النبذ: طَرْح الشيء وإلقاؤه.

بِبَابِلَ: اسم بلد، قيل: الكوفة، وقيل: بلد من سواد الكوفة، وقيل: نصيبين، وقيل غير ذلك. وينسب إليها السحر والخمر. وتوجد حاليًّا محافظة بالعراق تسمى بابل.

لَمَثُوبَةٌ: أي: جزاء ثابت، أو ثواب، وهو عبارة عن المنفعة الخالِصة المقرونة بالتعظيم، والمثوبة مختصَّة بالخير، كما أن العقوبة مختصَّة بالشر.

تفسير الآيات:

قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (97).

قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ.

أي: قلْ يا محمَّد، لهؤلاء اليهود الذين زعَموا أنَّ الذي منَعَهم من الإيمان برسالتك، أنَّ وليَّك جبريلُ عليه السَّلام، وأنَّه لو كان وليُّك أحدًا سواه من الملائكة لآمَنوا بك- قل لهم: مَن عادى جبريلَ عليه السَّلام، فليعلمْ أنه هو الذي نزَل بالقرآن على قلبِك، وجبريل لا يَنزل بالأمر من تِلقاء نفْسه، وإنَّما ينزل بأمْر الله تعالى، وهذا يَعني أنَّهم بقولهم ذلك يُعادُون الله تعالى في الحقيقة؛ أمَّا جبريل فهو رسولٌ محضٌ.[160]

كما قال تعالى: وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ [الشعراء: 192 – 194].

(160) قال ابن جرير (٢/٢٨٣): «أجمع أهل العلم بالتأويل جميعًا على أن هذه الآية نزلت جوابًا لليهود من بني إســرائيل، إذ زعموا أن جبريل عدو لهم، وأن ميكائيل وليّ لهم».
وقال مثلَه ابن عطية (١/٢٩١).

مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ.

أي: إنَّ القرآن نزَل والحال أنَّه متطابق مع الكتُب الإلهيَّة الأخرى التي سبقتْه كالتوراة، وموافِق لها، ومن ذلك ما فيها من الأمر باتِّباع محمَّد - ﷺ -، وهو دَلالة على الحقِّ، وبُشرى من الله تعالى للمؤمنين خاصَّةً، وفيه أنواعٌ من البِشارات لهم، ومن ذلك ما أعْلَمَهم الله تعالى فيه بما أعدَّ لهم في الآخِرة من النَّعيم المقيم.

سبب النُّزول:

عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما، قال: ((أقبلتْ يهودُ إلى رسولِ الله - ﷺ -، فقالوا: يا أبا القاسم، إنَّا نسألُك عن خمسة أشياء، فإن أنبأتَنا بهنَّ، عرَفْنا أنَّك نبيٌّ واتبعناك، فأخَذ عليهم ما أخَذ إسرائيلُ على بنيه؛ إذ قالوا: اللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ، قال: هاتوا، قالوا: أخبِرْنا عن علامة النبيِّ، قال: تنام عيناه ولا ينام قلبُه، قالوا: أخبِرْنا كيف تؤنِّث المرأة وكيف تُذكِّر؟ قال: يَلتقي الماءانِ، فإذا علَا ماءُ الرجُل ماءَ المرأة أذْكَرت، وإذا علَا ماءُ المرأة ماءَ الرجُل آنثَتْ، قالوا: أخبِرْنا ما حرَّم إسرائيل على نفْسه؟ قال: كان يَشتكي عِرق النَّسا فلم يجِد شيئًا يلائمه إلَّا ألبانَ كذا وكذا، قال عبد الله بن أحمد: قال أبي: قال بعضُهم: يعني الإبل، قال: فحرَّم لحومها، قالوا: صدقتَ، قالوا: أخبِرْنا ما هذا الرَّعد؟ قال: ملَكٌ من ملائكة الله عزَّ وجلَّ موكَّل بالسَّحاب، بيده أو في يده مِخراق من نار، يزجُر به السحاب يسوقُه حيث أمر الله، قالوا: فما هذا الصوتُ الذي يُسمع؟ قال: صوته، قالوا: صدقتَ، إنَّما بقِيَتْ

واحدةٌ، وهي التي نبايعك إنْ أخبرتَنا بها، فإنَّه ليس من نبيٍّ إلَّا له مَلَك يأتيه بالخبَر، فأخبِرْنا من صاحبك؟ قال: جبريلُ عليه السَّلام، قالوا: جبريل! ذاك الذي يَنزل بالحَرْب والقِتال والعذاب! عدوُّنا! لو قلت: ميكائيل، الذي يَنزل بالرحمةِ والنَّبات والقَطر، لكان! فأنزل الله عزَّ وجلَّ: مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ إلى آخِرِ الآية)).[161]

مَنْ كَانَ عَدُوًّا لله وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ الله عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ (98).

أي: إنَّ مَن عادى الله تعالى، أو أحدًا ممَّن ذُكروا من الملائكة عمومًا، أو جِبريل وميكال[162] خصوصًا، أو مِن بقيَّة رُسل الله الكِرام من البَشر كمحمَّد - ﷺ -، مَن عاداهم أو أحدًا منهم فإنَّه كافر، والله تعالى يتَّخذه عدوًّا له؛ لأنَّه سبحانه يُعادي كلَّ كافر.

عن أبي هُرَيرةَ رضي الله عنه: أنَّ النبيَّ - ﷺ - قال: ((إنَّ اللهَ قال: مَن عادَى لي وليًّا، فقد آذنتُه بالحَرب)).[163]

---

(161) أخرجه الترمذيُّ (3117) (جزءًا منه)، وأحمد (274/1) (2483) واللفظ له.
قال الترمذي: حسنٌ غريب، وذكر ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (16/8) أن له طرُقا يقوّي بعضها بعضًا. وصحَّح إسنادَه أحمدُ شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (161/4)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (3117).
وقد حَكى ابن جرير الإجماعَ على ذلك، فقال: (أجمع أهلُ العلم بالتأويل جميعًا على أنَّ هذه الآية نزلَتْ جوابًا لليهود من بني إسرائيل؛ إذ زعَموا أنَّ جبريل عدوٌّ لهم، وأنَّ ميكائيل وليٌّ لهم) ((تفسير ابن جرير)) (283/2).

(162) قال ابن جرير (٢٩٨/٢): «قال جماعة من أهل العلم: الإلّ: هو الله. ومنه قول أبي بكر الصديق لوفد بني حنيفة حين سألهم عمّا كان مسيلمة يقول، فأخبروه، فقال لهم: ويحكم، أين ذهب بكم؟ والله، إن هذا الكلام ما خرج من إلّ ولا برّ. يعني: من إل: من الله».

(163) رواه البخاري (6502).

سبب النُّزول:

عن ابنِ أَبي لَيْلَى قال: ((إنَّ يهوديًّا لقِي عُمرَ فقال: إنَّ جبريل الذي يذكُر صاحبُكم عدُوٌّ لنا، فقال عمرُ: مَنْ كَانَ عَدُوًّا لله وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهْ إلى لِلْكَافِرِين قال: فنزلتْ على لسان عُمرَ)).(164)

وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ (99).

وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ.

أي: قد أنزلنا إليك– يا محمَّد– فيما أُوحي إليك من القُرآن، آياتٍ هي دلائل واضحة، دالَّةٍ على صِدق نبوَّتك.

وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ.

أي: هذه الآيات البيِّنات قد بلَغتْ من الوضوح والدَّلالة على الحقِّ، مَبلَغًا عظيمًا، ووصلتْ إلى حال لا يَجحدها ويمتنع من قبولها إلَّا مَن خرَج عن دائرة الإيمان، والالتزام بشريعة الرَّحمن.(165)

أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (100).

---

(164) أخرجه ابنُ أبي حاتم في ((تفسيره)) (182/1).

قال ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (16/8): له طرُقٌ يقوِّي بعضها بعضًا.

(165) قال ابن عطية (٢٩٥/١): «﴿الفاسقون﴾ هنا: الخارجون عن الإيمان؛ فهو فِسْق الكفر».

أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ.

هذا توبيخٌ وتعجُّبٌ من الله تعالى، مِن صنيع اليهود الذين لا يلتزمون بما عَهِد الله تعالى إليهم، وهو التمسُّك بأوامره سبحانه في التوراة، ومن ذلك الإيمانُ بمحمَّد - ﷺ - واتِّباعه؛ فكلَّما وعَدوا بالالتزام بعهدٍ من عهود التوراة، نقَضَه جماعةٌ منهم وطرَحوه، تاركين الوفاءَ به.(166)

بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ.

أي: إنَّ أكثرَ اليهود غير مصدِّقين بالحقِّ اعتقادًا وقولًا وعملًا، وعدَم إيمانهم هو الذي حمَلَهم على نبْذ العهود.

لو صدَق إيمانهم، لكانوا مِثل مَن قال الله فيهم: مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ [الأحزاب: 23].

قال تعالى: إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ [الأنفال: 55-56].

وقال سبحانه: وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ [المائدة: 13].

---

(166) قال ابن جرير (٢/٣٠٩): «أمّا النبذُ فإنّ أصــلـه في لغة العرب: الطرح، ولذلك قيل للملقوط: المنبوذ؛ لأنه مطروحٌ مرميٌّ به، فمعنى قوله -جل ذكره-: ﴿نبذه فريق منهم﴾ طرحه فريق منهم، فتركه ورفضه ونقضه».

وذكر ابن عطية (١/٢٩٦) أن الضمير في قوله:﴿أكثرهم﴾ يحتمل احتمالين:

الأول: العود على الفريق.

الثاني: العود على جميع بني إسرائيل، وعلّق عليه، بقوله: «وهو أذم لهم».

وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (101).

وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ.

أي: ولَمَّا أتى اليهودَ رسولٌ مرسَلٌ من قِبل الله عزَّ وجلَّ، وهو محمَّدٌ - ﷺ -، وقد جاءهم بصفته الموافقة لِما في التوراة من صِفاته وإثبات رِسالته، والتي يزعمون أنَّهم متمسِّكون وملتزمون بما فيها.

نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ.

أي: ترَك طائفةٌ من اليهود أصحابِ التوراة، العملَ بالتوراة التي أنزلها الله تعالى عليهم، بالدُّخول في دِين محمَّدٍ - ﷺ -، ترَكوا ذلك متجاهلين، وكأنَّهم لا يعلمون ما في التوراة من البشارة بمحمَّدٍ - ﷺ -، وذِكر صِفاته، والأمر باتِّباعه.

مَن ترَك ما يَنفعُه مع إمكانيةِ الانتفاعِ به، فإنَّه يُبتُلى بالاشتغال بما يضرُّه، فكذلك هؤلاء اليهودُ؛ فلَمَّا ذكَر الله تعالى أنَّهم نبَذوا كتابَ الله، ذكَر اشتغالَهم بما يضرُّهم، فقال:

وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (102).

وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ.

أي: اتَّبع اليهود ما تختلقُه الشياطينُ وتتقوَّلُه، من السِّحر على عهد سليمان، وتَنسُبه إليه، حيث أخرجت الشياطين للناس السِّحر، وزعَموا كذبًا أنَّ سليمان عليه السَّلام كان يستعمله، وأنه حصَل له به المُلك العظيم.

وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ.

أي: إنَّ سليمانَ عليه السَّلام بريءٌ من تُهمة السِّحر التي أَلْصَقَها به اليهود، فلم يكُن كافرًا يمارس السِّحر، أو يُعلِّمه للآخرين؛ وذلك لأنَّ السِّحر كُفر، بل الذين كفروا بسبب السِّحر في الحقيقة هم الشياطين الذين يُعلِّمونه للناس؛ إضلالًا لهم.

وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ.

أي: واتَّبع اليهود أيضًا السِّحرَ، الذي أُنزل على الملَكين: هاروت وماروت، في بابل من أرضِ العِراق.[167]

وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ.

أي: وما يعلِّم هذانِ الملَكانِ السِّحرَ لأحدٍ من الناس، حتى يَنصحاه فيقولَا له: إنَّما نحن هنا لتعليم السِّحر؛ اختبارًا وابتلاءً لبني آدم، فلا تَكفُرْ بالله؛ بسبب تعلُّم السِّحر وممارسته.

فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ.

أي: فيتعلَّم الناسُ السِّحرَ من الملَكينِ بما يَتصرَّفون به تصرُّفاتٍ مذمومةً، من أعظمِها التفريقُ بين الزَّوجين، مع ما بينهما من المودَّة والرَّحمة.

عن جابرِ بن عبد الله رضي الله عنهما، أنَّ النبيَّ - ﷺ - قال: ((إنَّ إبليسَ يَضعُ عرشَه على الماءِ ثمَّ يبعثُ سَراياهُ، فأدْناهم منهُ منزلةً أعظمُهم فِتنةً، يجيءُ أحدُهم فيقولُ: فعلتُ كذا وَكذا، فيقولُ:

---

(167) قال ابنُ كثير: (وقد رُوي في قصة هاروت وماروت عن جماعةٍ من التابعين، كمجاهد والسُّدِّي، والحسن البصري، وقَتادة وأبي العالية والزهري، والرَّبيع بن أنس، ومقاتل بن حيَّان، وغيرهم، وقصَّها خَلْقٌ من المفسِّرين من المتقدِّمين والمتأخِّرين، وحاصلها راجعٌ في تفصيلها إلى أخبار بني إسرائيل؛ إذ ليس فيها حديثٌ مرفوع صحيح، متَّصل الإسناد إلى الصَّادق المصدوق المعصوم، الذي لا يَنطِق عن الهوى، وظاهرُ سياق القرآن إجمالُ القِصَّة من غير بسْط ولا إطناب فيها، فنحن نُؤمِن بما ورد في القرآن على ما أراده الله تعالى، والله أعلمُ بحقيقة الحال) ((تفسير ابن كثير)) (360/1).

ما صنعتَ شيئًا! قال: ثمَّ يجيءُ أحدُهم، فيقولُ: ما ترَكتُه حتَّى فرَّقتُ بينَه وبينَ امرأتِه، قال: فيُدنيهِ منهُ، ويقولُ: نِعمَ أنتَ!)).[168]

وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ.

أي: وما هؤلاء المتعلِّمون السِّحرَ من الملَكيْن، وفاعِلو تلك الأفعال القَبيحة، بضارِّين بذلِك أحدًا من الخَلْق، إلَّا بإذن الله تعالى الكوني، أي: بقُدرته ومشيئته سبحانه.

وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ.

أي: إنَّ السِّحرَ الذي يتعلَّمه هؤلاء المشتغِلون به ضررٌ محضٌ عليهم في الدنيا، ليس فيه نفْعٌ مطلقًا.

وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ.

أي: قد علِم أولئك اليهودُ أنَّ مَن استبدل السِّحرَ بكتاب الله تعالى ومتابعةِ محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام، أنَّه ليس له في الآخِرة حظٌّ ولا نصيبٌ من الجنَّة.

---

(168) رواه مسلم (2813).

وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ.

أي: ولبئس البديلُ السِّحرُ الذي تعلَّموه، بديلًا عن كِتاب الله تعالى، ومتابعة رُسله عليهم الصَّلاة والسَّلام، لو كانوا يَعلمون أنَّهم إنَّما باعُوا أنفسَهم، وحظَّهم من الآخِرة بما يَضرُّهم في الدُّنيا أيضًا، ولا ينفعهم.

وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (103).

أي: إنَّهم لو اختاروا الإيمانَ والتقوى بدلَ السِّحرِ، لكان اللهُ يثيبُهم على ذلك ما هو خيرٌ لهم ممَّا طلبوه في الدُّنيا لو كانوا يَعلمون،[169] فيَحصُل لهم في الدنيا من ثواب الإيمان والتقوى من الخير، الذي هو جَلْب المنفعة ودفْع المضرَّة، ما هو أعظمُ ممَّا يُحصِّلونه بالسِّحر من خير الدُّنيا، مع ما يُدَّخَرُ لهم من الثَّواب في الآخِرة.

---

(169) ذَهَب ابن جرير (٢/٣٧٢)، وابن عطية (١/٣٠٦)، وابن تيمية (١/٢٨٩) إلى أنّ المثوبة في الآية بمعنى: الثواب، كما هو في لسان العرب،

قال ابن عطية: «والمثوبة عند جمهور الناس بمعنى: الثواب والأجر، وهذا هو الصحيح».

ثم أورد قولًا آخر، فقال: «وقال قوم: معناه لرجعة إلى الله من ثاب يثوب إذا رجع».

وبيَّن أن قوله تعالى: ﴿لو كانوا يعلمون﴾ يحتمل احتمالين:

الأول: نفي العلم عنهم.

الثاني: أن يراد: لو كانوا يعلمون علمًا ينفع.

كما قال تعالى: وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ [القصص: 80].

سُورَةُ البَقَرَةِ

الآيات (104–113)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (104)

مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ

وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (105)

مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

(106)

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ

(107)

أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ

ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (108)

وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (109)

وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (110)

وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (111)

بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (112)

وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (113)

غريب الكلمات:

رَاعِنَا: من رعيتُ الرجل: إذا تأمَّلته، وتعرَّفْت أحواله. وكانت اليهود تقوله للنبي صلَّى الله عليه وسلم، على سبيل التَّهكُّم والسبِّ، يقصدون به رميه بِالرُّعُونَة من رعن، وأصلها هوج واضطراب.

نَنْسَخْ: ننقل ونزيل ونُبطل، وأصل النَّسخ: رفْع شيءٍ وإثباتُ غيرِه مكانَه، أو تحويلُ شيءٍ إلى شيء.

وَاصْفَحُوا: الصَّفح: ترْك التثريب واللومِ، والإِعراضُ عن الذَّنب؛ لأنَّه إذا أعرض عنه فكأنَّه قد ولَّاه صَفْحتَه، أي: عُرْضَه، وأصل الصفح: عرض الشَّيء وجانبُه، فصفحة العنق جانبها.

بُرْهَانَكُمْ: حُجَّتكم ودَلالتكم، وأصله: وضوح الشَّيء.

تفسير الآيات:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (104).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا.

أي: نُهِي المسلمون عن قول هذه الكلِمة التي كانتِ اليهود تقولُها– وإنْ كانت من اليهودِ قبيحةً، ومِن المسلمين ليستْ كذلك– لما فيها من مُشابهةِ الكفَّار، ولكونها وسيلة إلى بلوغ غرَضهم، فالمسلمون يَعنُون بها طلبَ المراعاة، واليهود يعنون بها الرُّعونةَ؛ سخريةً من النبيِّ – ﷺ –.

وَقُولُوا انْظُرْنَا.

أي: أمَر الله تعالى عبادَه المؤمنين بلفظةٍ لا تحتمِل إلَّا معنًى حسنًا، بديلًا عن قولهم: راعِنا، للنبي – ﷺ –، وهي: انظُرْنا، أي: انتظرنا وأمهِلْنا حتى نفهم عنك ونتعلم منك.(170)

(170) ذكر ابن عطية (١/٣٠٧) أن لفظة ﴿وانظرنا﴾ تحتمل احتمالين:

الأول: انتظرنا وأمهل علينا.

الثاني: أن يكون المعنى: تفقدنا من النظر.

ثم علَّق بقوله: «وهذه لفظة مخلصة لتعظيم النبي ﷺ على المعنيين».

ثم قال: «والظاهر عندي استدعاء نظر العين المقترن بتدبر الحال، وهذا هو معنى ﴿راعنا﴾، فبدلت للمؤمنين اللفظة ليزول تعلق اليهود».

وَاسْمَعُوا.

أي: أمَرَهم الله تعالى أن يَسمعوا لأوامره سَماعَ استجابةٍ وطاعةٍ.

وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ.

أي: أخبَرَ سبحانه عمَّن جحَد آياتِ الله تعالى من اليهود ومِن غيرهم، أنَّ لهم في الآخرة عذابًا مؤلمًا موجعًا.

قال تعالى: مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا [النساء: 46].

مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (105).

مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ.

أي: لا يحبُّ الكفَّارُ من أهل الكتاب، أو مِن المشركين أن يُنزِّل الله تعالى على المؤمنين أيَّ خيرٍ منه سبحانه، ومِن ذلك الوحيُ المنزَّل على محمَّد - ﷺ -: القرآن الكريم.

وَاللهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ.

أي: إنْ كان الكفَّارُ لا يودُّون لأحدٍ من المؤمنين خيرًا ينزل عليه من الله تعالى، فاللهُ يُريد ذلك؛ فهو الذي يُؤثِر برحماته مَن شاء مِن عباده بعِلمه وحِكمته، ومن ذلك منح النبوَّة والرِّسالة لمحمَّد – ﷺ –؛ فهو رحمة له ولغيره، وهو سبحانه ذو العَطاء الواسِع الكثير.

كما قال تعالى: وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا [النساء: 113].

مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (106).

مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ.

أي: ما نرفع من حكم آيةٍ فنبدِّله ونغيِّره.

أَوْ نُنْسِهَا

أي: أو ما نُزِلْه من الآيات؛ فنَمْحُه من قلبِ الرَّسول – ﷺ – وأصحابه رضي الله عنهم.

وعلى قراءة: أَوْ نَنْسأهَا يكون المعنى: أو ما نؤخِّر نزوله منها.

نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا.

أي نأتِ بخيرٍ من الذي نسخناه أو محوناه من قلب الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم أو بمثله في خيريَّته ووجوه نفْعه.

وعلى قراءة ننسأها يكون المعنى: نأتِ بخيرٍ من الذي نسخناه أو أخَّرنا نزوله أو بمثله في خيريَّته ووجوه نفْعه.

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

أي: إنَّ الله تعالى يَنْسَخُ ما يشاء، ويُثبت ما يشاء، ويَحكُم بما يشاء، فهو القويُّ والقادِر على ذلك، ولا يُعجزه شيءٌ أبدًا، والخطاب للنبيِّ - ﷺ -، وأُمَّتُه تبعٌ له فيه.

القراءات ذات الأثر في التفسير:

أ- في قوله تعالى: نَنْسَخْ قِراءتان

1- (نُنْسِخْ) من أنسختُ الكتاب إنساخًا، أي: وجدته منسوخًا.[171]

2- (نَنْسَخْ) من نَسَخَ، بمعنى أزال، وغيَّر.[172]

---

(171) قرأ بها ابنُ عامرٍ من غير طريقِ الدَّاجونيّ عن هِشامٍ. ((النشر)) لابن الجزري (2/219).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص:109)، ((الكشف)) لمكي (1/257).

(172) قرأ بها الباقون، وكذا رواه الدَّاجُونيُّ عن أصحابه، عن هِشامٍ. ((النشر)) لابن الجزري (2/219).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص:109)، ((الكشف)) لمكي (1/257).

ب- وفي قوله تعالى: نُنْسِهَا قِراءتان

1- (نَنْسَأْها) من التأخير؛ لأنَّ نَسَأَ أي أخَّر.(173)

2- (نُنْسِهَا) من النِّسيان.(174)

---

(173) قرأ بها ابنُ كَثير، وأبو عَمرو. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (220/2).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الكشف)) لمكي (258/1-259).
وذهب ابنُ جرير إلى أنَّ قراءة نَنْسَأها أي نؤخِرها، راجعةٌ إلى معنى قراءة نُنْسِها بمعنى التَّرْك عنده؛ لأنَّ كلَّ متروكٍ فهو مؤخَّرٌ، ما دام باقيًا على حال التَّرْك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (397/2).
علَّقَ ابن جرير (٢/٣٩٤) على قراءة ﴿نَنسأْها﴾، فذكر أنها بمعنى: نؤخرها.
ثُمَّ بَيَّنَ معنى الآية على هذه القراءة، فقال (٢/٣٩٦ بتصرف): «فتأويل من قرأ ذلك كذلك: ما نبدل من آية أنزلناها إليك يا محمد، فنبطل حكمها ونُثْبِت خطها، أو نؤخرها فنرجئها، ونقرها فلا نغيرها، ولا نبطل حكمها، نأت بخير منها أو مثلها».
وبنحوه قال ابن عطية (١/٣١٣)، وابن تيمية (١/٢٩١)، وابن كثير (٢/١٠).
(174) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (220/2).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الكشف)) لمكي (258/1-259).
وجَّهَ ابن جرير (٢/٣٩٠-٣٩٣ بتصرف) قراءة أهل المدينة والكوفة ﴿أَوْ نُنْسِها﴾ بقوله: «لقراءة مَن قرأ ذلك وجهان من التأويل، أحدهما: أن يكون تأويله: ما ننسخ يا محمد من آية فنغير حكمها أو ننسها.
وقد ذُكِرَ أنها في مصحف عبد الله: (ما نُنسِكَ مِن آيَةٍ أوْ نَنسَخْها) نجئ بمثلها، فذلك تأويل النسيان.
والوجه الآخر منهما: أن يكون بمعنى: الترك، من قول الله -جل ثناؤه-: ﴿نَسُواْ اللهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة:٦٧]، يعني به: تركوا الله فتركهم، فيكون تأويل الآية حينئذ على هذا التأويل: ما ننسخ من آية فنغير حكمها ونبدل فرضها نأت بخير من التي نسخناها أو مثلها».

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (107).

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ.

أي: ما دام أنَّ الله تعالى مالكٌ لجميع خلْقه، ومتصرِّف فيهم بما يَشاء؛ إذ له الخَلْق والأمر، فكذلك يحكُم في عباده بما يَشاء، فيُحلُّ ما يشاء، ويُحرِّم ما يشاء، ويُبيح ما يشاء، ويحظُر ما يشاء، وهو الذي يحكُم ما يريد ولا مُعقِّب لحُكمه.

وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ.

أي: ما لكم سوى الله عزَّ وجلَّ أيُّ أحدٍ يتولَّاكم، فيَجلِب لكم الخير، وليس لكم سوى الله تعالى أيُّ أحدٍ ينصرُكم، فيدفع عنكم الشرَّ.

أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (108).

أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ.

نَهى الله تعالى في هذه الآيةِ الناسَ، مؤمنهم وكافرهم، عن سؤال رسولِهم محمَّد – ﷺ – الذي أُرسل للناس كافَّةً– أسئلةَ تعنُّتٍ أو اعتراض، أو اقتراحٍ للآيات، كما كان سلَف اليهود يَسألون موسى عليه السَّلام أسئلةً من هذا القَبيل.

كما قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللهُ عَنْهَا وَاللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ [المائدة: 101– 102].

وقال سبحانه: يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ [النساء: 153].

وقال عزَّ وجلَّ: وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا [الإسراء: 89 – 93].

سبب النُّزول:

عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما، قال: ((قال رافعُ بن حُرَيملةَ ووهْبُ بن زيدٍ لرسولِ الله: يا محمَّد، ائتنا بكتاب تُنزله علينا من السَّماء نَقرؤه، أو فجِّر لنا أنهارًا، نَتَّبعْك ونُصدِّقك، فأنزل اللهُ في ذلك: أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ إلى قوله: سَوَاءَ السَّبِيلِ)).(175)

لَمَّا كانت المسائلُ المنهيُّ عنها مذمومةً؛ فبعضها كفر، وبعضها قد تصِل بصاحبها إلى الكُفر، حذَّر الله تعالى من ذلك فقال:

وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ.

أي: مَن أخذ الكفر عِوضًا عن الإيمان، فقد حادَ عن وسَط الطريق، وانحرَف إلى جوانبه التي تُفضِي به إلى طُرق الهلاك.

وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (109).

---

(175) أخرجه ابن إسحاق في ((سيرة ابن هشام)) (547/1)، وابن جرير في ((تفسيره)) (490/2)، وابن أبي حاتم في ((تفسيره)) (202/1).

جوَّد إسناده ابن حجر في ((العجاب)) (351/1).

وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا.

أي: إنَّ كثيرًا من اليهود والنَّصارى يتمنَّون بكلِّ قلوبهم أن يرتدَّ المؤمنون عن دِينهم، فيَكفروا.

وقد سعَوا في ذلك، وأعمَلوا المكايد.

كما قال تعالى: وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ [آل عمران: 72].

وقال سبحانه عن المنافقين: وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً [النساء: 89].

حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ.

أي: إنَّ تلك الأمنيةَ الصادرة عن كثيرٍ من أهل الكتاب؛ سببُها الحسدُ المتمكِّن والمتأصِّل في نفوسهم، للمؤمنين على ما آتاهم اللهُ تعالى من فَضلِه، بالهداية إلى دِينه القويم، وهذا الحسَد إنَّما صدَر منهم بعدَ أن تبيَّن لهم الحقُّ المبِين.

فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا.

أي: اتركوا عِقابَ أهلِ الكِتاب على مساوئ كلامِهم، وغلِّ قلوبهم، ومكْر أعمالهم؛ واترُكُوا لَومَهم ومعاتبتهم، وأَعْرِضوا عن ذلك كلِّه، وكأنَّ شيئًا لم يكُن.

قال تعالى: وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ [آل عمران: 186].

حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ.

أي: حتى يُحدِث اللهُ تعالى لكم من أمْره فيكم ما يشاء، ويَقضي فيهم ما يُريد، بما يَشفِي غليلَكم، ويُذهِب غيظَ قلوبِكم.

وقد أتَى هذا الأمرُ لاحقًا، بقتال الكفَّار مِن أهل الكِتاب، أو أخْذ الجزيةِ منهم؛ ونُسِخ الأمرُ بالعفو والصَّفح بقوله تعالى: قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ [التوبة: 29].

عن أُسامةَ بنِ زيد رضي الله عنه: ((أنَّ رسولَ اللهِ – ﷺ – ركِب على حِمارٍ، عليه قَطيفَةٌ فَدَكِيَّةٌ،[176] وأسامةُ وَراءَه، يعودُ سعدَ بنَ عُبادَةَ في بني حارثِ ابنِ الخزرَجِ، قبلَ وَقعةِ بدرٍ، فسارَا حتى مرَّا بمجلسٍ فيه عبدُ اللهِ بنُ أُبَيٍّ ابنُ سَلولَ، وذلك قبلَ أن يُسلِمَ عبدُ اللهِ بنُ أُبَيٍّ، فإذا المجلسُ أخلاطٌ منَ المسلمينَ والمشركينَ؛ عبَدَةِ الأوثانِ، واليهودِ، وفي المسلمينَ عبدُ اللهِ بنُ رَواحَةَ، فلمَّا غَشِيَتِ المجلسَ عَجاجَةُ الدابَّةِ،[177] خمَّر ابنُ أُبَيٍّ أنفَه بردائِه وقال: لا تُغَبِّروا علينا، فسلَّم رسولُ اللهِ

---

(176) فَدَكِيَّة: نِسبة إلى فَدَك، وهي قرية قريبة من المدينة.
يُنظر: ((مشارق الأنوار)) للقاضي عياض (1/290)، ((الأنساب)) للسمعاني (10/150).
(177) عَجاجة الدَّابَّة: هي الْغُبَار. وقَوْله: (لا تُغبِّروا علينا)، أي: لا تثيروا الْغُبَار.
يُنظر: ((عُمدة القاري)) للعيني (22/217).

- ﷺ - عليهم، ثم وقَف، فنزَل فدَعاهم إلى اللهِ، وقرَأ عليهمُ القرآنَ، فقال له عبدُ اللهِ بنُ أُبَيٍّ ابنُ سَلولَ: أيُّها المرءُ، لا أحسَنَ ممَّا تقولُ إنْ كان حقًّا، فلا تؤذِنا به في مجالِسِنا، فمَن جاءك فاقصُصْ عليه. قال عبدُ اللهِ بنُ رَواحَةَ: بَلى يا رسولَ اللهِ، فاغشَنا في مجالِسِنا؛ فإنَّا نُحِبُّ ذلك، فاستَبَّ المسلمونَ والمشرِكونَ واليهودُ حتى كادوا يتثاوَرونَ، فلم يزَلْ رسولُ اللهِ - ﷺ - يُخَفِّضُهم حتى سكَتوا، ثم ركِب رسولُ اللهِ - ﷺ - دابَّتَه، فسار حتى دخَل على سعدِ بنِ عُبادَةَ، فقال رسولُ اللهِ - ﷺ -: ((أيْ سعدُ، ألم تَسمَعْ ما قال أبو حُبابٍ- يريدُ عبدَ اللهِ بنَ أُبَيٍّ- قال كذا وكذا)).

فقال سعدُ بنُ عُبادَةَ: أيْ رسولَ اللهِ، بأبي أنت، اعفُ عنه واصفَحْ، فوالذي أنزَل عليك الكتابَ، لقد جاء اللهُ بالحقِّ الذي أَنزَل عليك، ولقدِ اصطَلَح أهلُ هذه البَحرَةِ على أن يُتَوِّجوه ويُعَصِّبوه بالعِصابَةِ، فلمَّا رَدَّ اللهُ ذلك بالحقِّ الذي أعطاك شرِق بذلك، فذلك فعَل به ما رأيتَ. فعَفا عنه رسولُ اللهِ - ﷺ -، وكان رسولُ اللهِ - ﷺ - وأصحابُه يَعفُونَ عنِ المشركينَ وأهلِ الكتابِ كما أمَرهمُ اللهُ، ويَصبِرونَ على الأَذى؛ قال اللهُ تعالى: وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ الآية. وقال: وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فكان رسولُ اللهِ - ﷺ - يتأَوَّلُ في العفوِ عنهم ما أمَره اللهُ به، حتى أذِن له فيهم، فلمَّا غزا رسولُ اللهِ - ﷺ - بدرًا، فقتَل اللهُ بها مَن قتَل من صَناديدِ الكفَّارِ وسادَةِ قريشٍ، فقفَل رسولُ اللهِ - ﷺ - وأصحابُه منصورينَ غانِمينَ، معَهم أُسارى من صَناديدِ الكفارِ، وسادَةِ

قريشٍ، قال ابنُ أُبَيٍّ ابنُ سَـــلولَ ومَن معَه منَ المشــــركينَ عَبدَةِ الأوثانِ: هذا أمرٌ قد تَوَجَّهَ، فبايَعوا رسولَ اللهِ – ﷺ – على الإسلامِ، فأسلَموا)). (178)

إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

أي: إنَّ الله تعالى يَفعَل ما يشاء، فهو القويُّ والقادِر على ذلك، ولا يُعجِزه شيءٌ أبدًا.

وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (110).

أي: حثَّ الله تعالى عِباده المؤمنين على الاشتغال بما ينفعُهم أكثرَ، وهو أداءُ الصَّلاة بحدودها وفروضها تامَّةً كما أمَر الله عزَّ وجلَّ، وإيتاء الزَّكاة كما شُرعت، ووعدهم بأنَّهم مهما فعَلوا من خير، فلن يَضيعَ، بل هو محفوظٌ ومدَّخرٌ لهم عند البصير العليم، الذي لا تَخفى عليه خافيةٌ من أعمالهم الظاهِرة والباطِنة.

كما قال تعالى: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ [النساء: 77].

وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (111).

---

(178) رواه البخاري (6207).

وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى.

أي: وقالت اليهودُ: لن يَدخُلَ الجنَّةَ إلَّا مَن كان يهوديًّا، وقالت النَّصارى: لن يَدخُل الجَنَّةَ إلَّا مَن كان نصرانيًّا.

تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ.

أي: إنَّ تلك الدَّعاوى التي يُطلقها اليهودُ والنَّصارى، إنَّما هي مجرَّدُ أباطيل وأمانيّ نفوسٍ كاذبة، يتمنَّونها على الله تعالى بغير حقّ.

كما قال تعالى: لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا [النساء: 123].

قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ.

أي: هذا أمرٌ من الله تعالى لرسوله محمَّدٍ – ﷺ – بدعاء أصحاب تلك الدَّعوى من اليهود والنَّصارى، إلى إحضار الحُجَّة على دَعواهم تلك، إنْ كانوا محقّين فيما يزعمون.

بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (112).

بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ.

أي: ليس الأمرُ كما قال الزَّاعمون بأمانيِّهم: لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى، ولكن مَن أخلص العملَ لله تعالى وحْدَه لا شريكَ له، وهو مع إخلاصه فيه مُتَّبع لشريعة النبيّ - ﷺ -.

فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ.

أي: إنَّ للمسلمِ وجهَه لله تعالى مُحسِنًا، ثوابَه على ذلك عند الله عزَّ وجلَّ، فهم أهل الجَنَّة وحْدهم، آمِنون؛ فلا خوفَ عليهم ممَّا يستقبلونه من أمور الآخِرة، وهم في سُرور دائم؛ فلا يَحزنون على ما فاتهم من أمور الدُّنيا، فحصَل لهم المرغوب، ونجَوْا من المرهوب.

وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (113).

وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ.

أي: ضلَّل وكفَّر بعضُهم بعضًا، فادَّعى أهلُ كلِّ دِينٍ منهم، أنَّ دِين الآخَر باطل، ليس فيه شيءٌ من الحقِّ مطلقًا.

وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ.

أي: والحال أنَّ هؤلاء المدَّعين من اليهود والنصارى، يَقرؤون كتُبَهم ويعلمون ما فيها من الحقِّ، فيقرأ اليهود التوراة، ويقرأ النَّصارى الإنجيل، وكِلا الكِتابينِ شاهدانِ عليهما؛ فهما يقولان بخِلاف ما يقولون؛ فالإنجيل يَتضمَّن صِدقَ موسى وتقريرَ التوراة، والتَّوراة تتضمَّن التبشيرَ بعيسى وصِحَّة نبوَّته، وكِلاهما يتضمَّنان صِدقَ محمَّدٍ - ﷺ -؛ فكيف يدَّعي كلٌّ منهما أنه ليس في دِين الآخر شيءٌ من الحقِّ مطلقًا؟!

كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ.

أي: أخبَرَ الله تعالى عن قوم نفَى عنهم العِلم بما كانت اليهودُ والنصارى به عالِمين، أنَّهم قالوا - بسبب جهلِهم- نظيرَ ما قاله اليهودُ والنَّصارى بعضُهم لبعض، من أنَّهم ليسوا على شيءٍ من الحقِّ، وهذا تعريضٌ من الله تعالى بهؤلاء اليهود والنَّصارى؛ زيادةً في التشنيع على ما قالوه لبعضهم، حيث اشترَكوا وهم أهلُ كتاب، مع أهلِ الجهالة في المقالة نفْسها.

فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ.

أي: إنَّ الحَكَم العدل سبحانه وتعالى، يتوعَّد هؤلاءِ المختلِفين- القائِلِ بعضُهم لبعض: لستُم على شيء من الحقّ- بأن يقضيَ ويَفصِل بينهم يومَ تقومُ الساعة، ويقومُ الناس من قُبورهم، وأنَّه سيَجزي كلَّ مبطل على باطله؛ فإنَّه لا نجاةَ لِمَن لم يؤمِن بجميع الأنبياء والمرسَلين عليهم الصَّلاة والسَّلام.

سُورةُ البَقَرَةِ

الآيات (114-119)

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ **(114)**

وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ **(115)**

وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ **(116)**

بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ **(117)**

وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ **(118)**

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ **(119)**

غريب الكلمات:

فَثَمَّ: أي: هنالك.

بَدِيعُ: مُبدِع، ومبتدئ، وأصله: ابتداء الشيء وصُنعه لا عن مِثال سابق.

بَشِيرًا: أي: مبشِّرًا، وأصل (بشر) يدلُّ على ظهور الشَّيء مع حُسن وجمال، ومنه البِشارة، ولا تكونُ البشارة عند إطلاق الكلام إلَّا بالخَير، وقد تُقيَّد وتُحمَل على الشرِّ.

نَذِيرًا: أي: مُنذِرًا، وأصل (نذر) يدلُّ على تخويف.

تفسير الآيات:

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (114).

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا.

أي: لا أحدَ من المانعين شيئًا، أشدُّ جَراءةً وتعدِّيًا على حدود الله عزَّ وجلَّ ممَّن منَعَ العبادة في بيوت الله تعالى، واجتهد وبذَل وُسعَه في إفسادها حسيًّا ومعنويًّا.[179]

---

(179) اختَلف المفسِّرون فيمَن عنى الله تعالى بهذه الآية الكريمة، وذلك على أقوال؛ منها: أنَّ المعنيّين بها، مشركو قريش الذين صدُّوا الرسول صلَّى الله عليه وسلَّمَ وصحابتَه رضي الله عنهم عن الدخول للمسجد الحرام، يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (193/1)، ((تفسير ابن كثير)) (388/1)، ((تفسير ابن عاشور)) (678/1).

وممَّن قال من السَّلف بهذا القول: ابن عبَّاس–في رواية عنه–وابن زيد.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (444/2)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (210/1).

وقيل: المعنيُّون بها: النصارى؛ وذلك أنَّهم سعَوْا في خراب بيت المقدس، وأعانوا بُخْتُنَصَّر على ذلك، ومنَعوا مؤمني بني إسرائيل من الصَّلاة فيه بعد مُنصرَف بُختنصَّر عنهم إلى بلادِه.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (444/2).

وممَّن ذهَب إلى هذا القول من السَّلف قتادة، والسُّدِّي، والحسن.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (442/2). و((تفسير ابن أبي حاتم)) (210/1).

وقيل: الآية على عمومها شاملة لجميع مَن اتَّصف بذلك.

يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (199/1)، ((تفسير السعدي)) (ص: 63).

أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ.

أي: قد منَع اللهُ تعالى أولئك الذين يسعَون في خراب بيوت الله تعالى حسيًّا ومعنويًّا، منْ أنْ يدخلوها إلَّا وقلوبهم وجِلة؛ خوفًا من عقوبة إلهيَّة تحلُّ بهم، أو خوفًا من المؤمنين أن يعاقبوهم تسليطًا من الله تعالى لهم.

لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ.

أي: لأولئك الذين تقدَّمت صِفتُهم في هذه الآية، ذلٌّ وعارٌ يحلُّ بهم في الدُّنيا، من قَتْلٍ، أو سَبيٍ، أو جزيةٍ، أو فضيحةٍ، أو غير ذلك، أمَّا في الآخرة فلهم عقوبةٌ عظيمة.

وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (115).

وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ.

أي: إنَّ لله تبارك وتعالى مُلكَ الجِهة التي تطلُع منها الشَّمس، ومُلك الجِهة التي تَغيب منها، وله مُلك جميع ما بينهما من الجِهات والمخلوقات.

فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ.

أي: إنَّكم حيثما كنتم وتوجَّهتم في صلاتكم نحو الجهة التي شرعها الله تعالى، فإنكم تتَّجهون إلى الله عزَّ وجلَّ في الحقيقة؛ لأنَّ المصلِّي إذا توجَّه إلى القبلة، فقد استقبل وجه الله سبحانه حقيقةً.

وقيل المعنى: إنَّكم مهما حوَّلتم وجوهَكم إلى ناحيةٍ ما، فهنالك وجهُ الله تعالى، وسواء كان ذلك لأجْل استقبال القِبلة في الصَّلاة أو لا، في الحضَر أو السَّفر، أو لغير ذلك من أحوال.

إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ.

أي: ختَم الله سبحانه هذه الآيةَ باسمين دالَّين على الإحاطة، فالله عزَّ وجلَّ واسعُ الرَّحمة والمغفرة والعِلم، واسع الجُود والعطاء، وغير ذلك من صِفاته الحُسنى، وهو ذو عِلمٍ محيطٍ بكلِّ شيء، لا يَغيب عن عِلمه شيء أبدًا.

وَقَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (116).

وَقَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا.

أي: قالت النصارى بزعمهم: المسيح ابن الله.[180]

سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ.

أي: يتنزَّه الله ويتعالى علوًّا كبيرًا عن أن يكون له ولد، وليس الأمر كما افتروا، فهو سبحانه مالك جميع ما في السموات وجميع ما في الأرض، وهو خالقهم ومصرفهم كيف شاء، هو الغني وهم الفقراء،

(180) قال ابن كثير: (اشتملت هذه الآية الكريمة، والتي تليها على الرد على النصارى–عليهم لعائن الله–وكذا من أشبههم من اليهود ومن مشركي العرب، ممن جعل الملائكة بنات الله) ((تفسير ابن كثير)) (396/1).

والجميع عبيد له بلا استثناء، فكيف يكون له ولد منهم؟! والولد إنما يكون متولدًا من شيئين متناسبين، كما أن الولد بعض الوالد وشريكه، فلا يكون مخلوقًا ومملوكًا له؛ لأن المخلوق مملوك مربوب، والابن نظير الأب، فكيف يكون مخلوقه ومملوكه بعضه ونظيره؟ والله تبارك وتعالى ليس له نظير، ولا مشارك في عظمته وكبريائه، فكيف يكون له ولد؟!

كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ.

أي: إنَّ كلَّ أحد لا يخرُج عن مشيئته وقُدرته ومُلكه سبحانه، بل الجميع- حتى مَن ادُّعِيت بُنوَّته لله تعالى كعيسى عليه السَّلام- عبيدٌ مقهورون مُدبَّرون، وهم منقادون وخاضِعون للنواميس الإلهيَّة في أبدانهم وغيرها، طوعًا أو كرهًا.

كما قال تعالى: قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ [يونس: 68-69].

وقال عزَّ وجلَّ: إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ [النساء: 171].

وقال سبحانه: تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا [الفرقان: 1-2].

بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (117).

بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ.

أي: إنَّ مَن أوجد هذه السَّمواتِ والأرضَ مِن العدم، وأحْسَن خلقهما على غيرِ مِثالٍ سابقٍ مع عِظمهما وآياتهما الباهِرة، فهو قادرٌ على خَلْق ما دونهما؛ فكيف يُخرجون عيسى عليه السَّلام عن قُدرته وإبداعه، ويجعلونه نظيرًا وشريكًا وجزءًا مِنه سُبحانه جلَّ شأنُه؟! فإنَّ مبدِع العالَم العُلويِّ والسُّفليِّ لا يُعجزه أن يخلُق عبدَه بقدرته، من غير أبٍ؛ فكيف يدَّعون أنَّه ولدُه؟!

كما قال تعالى: وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ [الأنعام: 100-101].

وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ.

أي: إنَّه سبحانه إذا أراد شيئًا، فحسبُه أن يقول له: كن، فيكون ذلك الشيء على وَفقِ ما يُريد الله تبارك وتعالى، ومن ذلك خَلْق المسيح عيسى عليه السَّلام، فقد خلَقَه بكلمة كن، وهذا منافٍ للتوليد؛ فمَن يدبِّر الأشياء بمجرَّد كلمته، ليس كمَن يحتاج إلى توليدِ الأشياء منه، فكيف يُوصَف بالتولُّد سبحانه، وهو في جميع ما يَقضيه إنَّما يقول له: كن، فيكون؟!

كما قال تعالى: ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ [مريم: 34-35].

وقال سبحانه: قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ [آل عمران: 47].

وقال عزَّ وجلَّ: إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ [آل عمران: 59].

وقال جلَّ وعلا: أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ [يس: 81-82].

وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (118).

وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ.

أي: قال مُشرِكو العرب: هلَّا أَوحى الله عزَّ وجلَّ إلينا كما أَوحى إلى رُسله؟ أو يكلِّمنا بتصديق رسوله محمَّد - ﷺ -؟ أو تأتينا معجزةٌ دالَّة على صِدق ما جاء به؟ وهذا الطَّلب قد صدَر منهم على سبيل التعنُّت والعِناد، وإلَّا فقد جاءتْهم آيات كثيرة دالَّة على صِدق بِعثة النبيِّ - ﷺ -، ومنها القرآن الكريم.

كما قال تعالى: وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ [الأنعام: 124].

وقال سبحانه: وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا [الإسراء: 90 – 93].

كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ.

أي: قولهم ذلِك مطابقٌ لقول مَن قَبلهم من الأُمم السابقة من اليَهود والنصارى وغيرِهم.(181)

قال الله تعالى: يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً [النساء: 153].

تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ.

---

(181) بَيَّنَ ابن عطية (١/٣٣٤) المراد بالذين من قبلهم، فقال: «﴿الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ اليهود والنصارى في قول مَن جعل ﴿الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ كفار العرب، وهم الأمم السالفة في قول مَن جعل ﴿الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ كفار العرب والنصارى واليهود، وهم اليهود في قول مَن جعل ﴿الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ النصارى».

أي: قلوبُ الكفَّار متشابِهَةٌ في ردِّ الحق، والعِناد والتعنُّت؛ ولذا جاءتْ أقوالهم متوافقةً، وإن اختلفت مذاهبُهم وأساليبهم في ذلك.

كما قال تعالى: كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ [الذاريات: 52–53].

قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ.

أي: قد أَظهَرْنا ووضَّحنا العلاماتِ الدالَّاتِ على صِدق الرُّسل عليهم السَّلام– ومنهم محمَّد – ﷺ – بما لا يُحتاج معها إلى سؤالٍ آخر، ولكنْ ذلك لِمَن كان اليقين من خِصالهم الدَّائمة؛ فهم يَتثبَّتون ويستوثقون، ويطلُبون معرفةَ حقائق الأشياء إلى درجة اليقين.

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (119).

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا.

أي: يُخاطب الله تعالى نبيَّه محمدًا – ﷺ –، مؤكِّدًا له بأنَّه قد أرسله بالحقِّ، فبِعثتُه حقٌّ، وما جاء به من عند الله عزَّ وجلَّ حقٌّ، وقد أرسله تعالى لعموم المكلَّفين من الإنس والجن، والحال أنَّه مبشِّر مَن أطاعه بنيل السَّعادة في الدنيا والآخِرة، ومحذِّر ومُخوِّف مَن عصاه بالشَّقاوة في الدُّنيا والآخرة.

وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ.

أي: إنَّك لستَ مؤاخَذًا يا محمَّد، على بقاء الكفَّار –أصحاب النار الملازِمين لها– على كُفرهم؛ فلن تُسألَ عنهم بعد أنْ بلَّغتَهم بالحقِّ؛ فإنَّما عليك البلاغ فحسبُ، وحِسابهم على الله عزَّ وجلَّ. ولا تَسأَلْ يا محمَّد، عمَّ لأولئك من العذاب؛ فإنَّهم في حالٍ من الفظاعة والشَّناعة لا يتصوَّرها عقلُ إنسان؛ وذلك لشدَّةِ ما أُعِدَّ لهم من العذاب العظيم.

كما قال تعالى: فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ [آل عمران: 20–21].

القراءات ذات الأثر في التفسير:

في قوله تعالى: تُسْأَلُ قِراءتان:

1– (تَسْأَلْ) بفتح التاء، وجزْم اللام، على النهي عن السُّؤال عن ذلك أي: لا تَسألْ يا محمَّدُ، عنهم؛ فقد بَلَغوا غاية العذاب.[182]

---

(182) قرَأَ بها نَافِعٌ وَيَعْقُوبُ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (221/2).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الكشف)) لمكي (262/1). ((تفسير أبي حيان)) (589/1).

ذكر ابن عطية (١/٣٣٥) هذه القراءة ثم قال معلِّقًا عليها: «وفي ذلك معنيان، أحدهما: لا تسأل على جهة التعظيم لحالهم من العذاب، كما تقول: فلان لا تسأل عنه، تعني أنه في نهاية تشهره من خير أو شر. والمعنى الثاني: روي فيه أن النبي ﷺ قال: «ليت شعري ما فعل أبواي» فنزلت ﴿ولا تسأل﴾».

2- (تُسْأَلُ) بضمِّ التاء والرَّفْع، أي: إنَّك لا تُسأل عن الكفَّار: ما لهم لم يُؤمنوا؛ لأنَّ ذلك ليس إليك.[183]

(183) قَرَأَ بها الْبَاقُونَ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (221/2).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الكشف)) لمكي (262/1). ((تفسير أبي حيان)) (589/1).

سُورةُ البَقَرَةِ

الآيات (120-123)

وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ
اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ **(120)**
الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ
الْخَاسِرُونَ **(121)**

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ **(122)**
وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ
يُنْصَرُونَ **(123)**

غريب الكلمات:

مِلَّتَهُمْ: أي: دينهم، وطريقتهم، ثم نُقِلت على أصول الشرائع، مشتقَّة من أمللت (أي أمليت)؛ لأنَّها تُبنَى على مسموع ومتلوٍّ، فإذا أريد الدين باعتبار الدُّعاء إليه قيل: ملة، وإذا أريد باعتبار الطاعة والانقياد له قيل (دين).

تفسير الآيات:

وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (120).

وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ.

أي: ولن تَرضى عنك اليهودُ، حتى تترُكَ دِينَ الإسلام وتعتنقَ دِينَهم، ولن ترضَى عنك النَّصارى، حتى تترُكَ دِينَ الإسلام وتعتنقَ دِينهم.

قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى.

أي: قل يا محمَّد- إجابةً لهم في عدَم اتِّباع ملَّتهم-: ليس الهُدى ما أنتم عليه كما تدَّعون، بل الذي أُرسلتُ به هو هُدَى الله الحقيقيُّ؛ فإنَّه الدِّينُ المستقيم، والصَّحيح، والكامِل.

وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ.

أي: يُخاطِب اللهُ تعالى نبيَّه محمَّدًا - ﷺ - والأمَّة تبَعٌ له في ذلِك- محذِّرًا من اتِّباع أهواء اليهود والنَّصارى، خاصَّةً من بعد إكرام النبيِّ - ﷺ - وأمَّته بالوحي المُنزَّل عليه، وفيه العِلمُ بطريق الحقِّ، والعلمُ بطُرق الضَّلالة والكُفر.

مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ.

أي: إنِ اتبعتَ أهواءَهم يا محمَّد، فاعلمْ بأنَّه ليس لك حينذاك أيُّ أحدٍ يتولَّى أمرَك؛ فيجلِب لك خيرًا، أو أيُّ نصيرٍ ينصرُك من الله تعالى؛ فيَدفَع عنك شرًّا.

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (121).

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ.

هذا مدحٌ لمن أقام كتابَه من أهل الكتاب، فآمن به واتَّبَعه حقَّ الاتباع،[184] ولم يجترئ على تحريفه، وإنكار ما يحمله من البشارة بمحمد – ﷺ –، المذكور فيه بصفته ونعته، فآمن به واتبعه.

وهو مدحٌ لمؤمني أهل الكتاب، في مقابل ذمِّ أولئك الذين يحرِّفون الكلم عن مواضعه منهم.

---

(184) حَكى الإجماعَ على أن يَتْلُونَهُ معناه: يتبعونه: ابنُ جرير.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (2/492-493).
ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جرير)) (2/487، 495)، ((تفسير ابن كثير)) (1/404)، ((تفسير السعدي)) (ص: 65)، ((تفسير ابن عاشور)) (1/697).
وممَّن قال من السَّلف بأنَّ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ معناه: يتَّبعونه حقَّ اتباعه: ابن عبَّاس، وعبدُ الله ابن مسعود، وقيس بن سعد، وعِكرمة، وعَطاء، ومجاهد، وأبو رَزين، وإبراهيم النَّخَعي، والحسن).
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (2/489)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (1/218).

قال تعالى: قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ [المائدة: 68].

وقال سبحانه: الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ [الأعراف: 157].

وقال عزَّ وجلَّ: الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا [القصص: 52–53].

وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ.

أي: إنَّ مَن يكفر من أهل الكتاب بكتابه(185) الذي أُوتيه من عند الله عزَّ وجلَّ– ومِن ذلك تحريفُه وتبديلُه، وجَحْد نبوَّة محمَّد – ﷺ – الثابتة فيه– فإنَّه قد بخَس نفسَه حظوظَها من رحمة الله عزَّ وجلَّ.

---

(185) ذكر ابن عطية (١/٣٣٨) في عود الضمير من قوله: ﴿به﴾ أقوال: الأول: أنه عائد على الكتاب.

الثاني: أنه عائد على محمد ﷺ، كما ورد في آثار السلف.

الثالث: أن يعود على الهدى في قوله: ﴿قل إن هدى الله هو الهدى﴾.

ووجّهه بقوله: «وذلك أنّه ذكر كفار اليهود والنصارى في أول الآية وحذر رسوله من اتباع أهوائهم، وأعلمه بأن هدى الله هو الهدى الذي أعطاه وبعثه به، ثم ذكر له أن المؤمنين التالين لكتاب الله هم المؤمنون بذاك الهدى المقتدون بأنواره».

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (122).

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ.

أي: يا بَنِي يعقوب كونوا مثلَ أبيكم في متابعة الحقّ، واذكُروا نِعمه تعالى على آبائكم ذِكرًا يحملكم على شُكرها بالخضوع لله تعالى، وذلك بالدُّخول في دِينه، واتِّباع رسولِه الكريم - ﷺ -، ومنها النِّعم المذكورة في هذه السُّورة الكريمة.

وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ.

أي: واذكُروا تفضيلي لكم على سائرِ الأمم من أهل زَمانِكم، بإرسال الرُّسُل منكم، وإنزال الكتُب عليكم، وغير ذلك من النِّعم الخاصَّة.[186]

كما قال تعالى: وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ [الدخان: 32].

وقال تعالى: وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ [المائدة: 20].

ثم بيّن ابن عطية أن الضمير في «به» من قوله: ﴿ومن يكفر به﴾ يحتمل أيضًا هذه الأوجه الثلاثة.

(186) قال ابنُ أبي حاتم: (عن أبي العالية: وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى العَالَمِينَ، قال: بما أُعطوا من المُلك والرُّسل والكتُب، على عالَم مَن كان في ذلك الزَّمان؛ فإنَّ لكلِّ زمان عالَمًا.

قال أبو محمد: ورُوي عن مجاهد، والرَّبيع بن أنس، وقتادة وإسماعيل بن أبي خالد نحو ذلك) ((تفسير ابن أبي حاتم)) (104/1).

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (629/1).

وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (123).

وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا.

أي: أمَرهم الله تعالى أن يعتقدوا ويفعلوا ما يكونُ حاجزًا يَقِيهم من عذابِه سبحانه، في يوم القِيامةِ الذي لا تَقضِي فيه نفْسٌ عن نفْسٍ حقًّا وجَب عليها لغيرها، ولا يُغني فيه أحدٌ -كائنًا من كان- عن أيِّ أحدٍ شيئًا، ولو كان من عَشيرته الأقرَبين، أو كان الشيءُ قليلًا ويسيرًا جدًّا.

كما قال تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا [لقمان: 33].

وَلَا يُقبَلُ مِنهَا عَدْلٌ.

أي: لا يُقبَل منها فِداءٌ.

كما قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ [آل عمران: 91].

وقال سبحانه: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ [المائدة: 36].

وقال تعالى: وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا [الأنعام: 70].

وقال عزَّ وجلَّ: فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا... الآية [الحديد: 15].

وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ.

أي: لا تنفعُ من أيِّ نفْسٍ شفاعةٌ لنفْسٍ أخرى إذا كانت كافرةً على الإطلاق.

كما قال تعالى: فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ [المدثر: 48].

وقال سبحانه عن أهل النار: فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ [الشعراء: 100–101].

أمَّا المؤمنة فتُقبل منها، إنْ كانت الشفاعةُ بإذن الله تعالى، مع رِضاه سبحانه عن المشفوعِ له.

كما قال تعالى: وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى [النجم: 26].

وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ.

أي: ليس لهم أحدٌ يُنقِذهم من عذابِ الله تعالى.(187)

كما قال تعالى: فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ [الطارق: 10].

وقال سبحانه: مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ [الصافات: 25–26].

---

(187) قال ابن كثير: (قد تقدَّم نظير هذه الآية في صدر السورة، وكُرِّرت هاهنا للتأكيد، والحثِّ على اتباع الرسول النبيِّ الأُميِّ الذي يجدون صفتَه في كتبهم، ونعْتَه واسمه وأمره وأمته) ((تفسير ابن كثير)) (404/1).

وقال عزَّ وجلَّ: فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ [الأحقاف: 28].

سُورةُ البَقَرَةِ

الآيات (124–134)

وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ **(124)**

وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ **(125)**

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ **(126)**

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ **(127)**

رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ

التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (128)

رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ

أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (129)

وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ

لَمِنَ الصَّالِحِينَ (130)

إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (131)

وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ

مُسْلِمُونَ (132)

أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ

إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (133)

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (134)

غريب الكلمات:

إِمَامًا: هو الذي يأتمُّ به الناس، فيتبعونه، ويأخذون عنه، من أَمَّ، وأصله: الأصل، والمرجع، والجماعة، والدِّين.

مَثَابَةً: أي: مرجعًا لهم، يرجعُون إليه في حجِّهم وعُمرتهم كلَّ عَام، وأصل الثوب: العَودُ والرجوع، وأصل المثابة: الموضِع الذي يُرجَع إليه مرَّةً بعدَ أخرى، ويُقال للمنزل: مثابة. وقيل: مَثابَةً من الثواب، أي: يَحجُّون فيُثابون عليه.

سَفِهَ: أصل السفه: ضد الحلم. والسفه، خِفَّة في البدن، واستُعمل في خِفَّة النفس؛ لنقصان العقل.

تفسير الآيات:

وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (124).

وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ.

أي: واذكُر يا محمَّد، ابتلاءَ الله تعالى لعبده وخليله إبراهيمَ عليه السَّلام بتكاليفَ فرَضها عليه ربُّه سبحانه، فأدَّاها إبراهيمُ عليه السَّلام على وجهٍ تامٍّ، موفِّيًا جميعَ ذلك.

قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا.

أي: إنِّي مُصيِّرك يا إبراهيم، إمامًا يأتمُّ بك الناسُ، ويَقتدون بك.

قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي.

أي: لَمَّا جعَل الله تعالى إبراهيم إمامًا، سأل ربَّه عزَّ وجلَّ أن تكون الأئمَّةُ من بعده من ذُريَّته.

قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ.

أي: أجاب الله تعالى عن سؤال خليله إبراهيمَ عليه السَّلام، بأنَّه لا يَمنح مرتبةَ الإمامة في الدِّين أحدًا من الظالِمين من ذريَّته؛ لأنَّ الإمامة تُعطَى لأوليائه، وأهلِ طاعته، دون أَعدائِه.(188)

قال تعالى: وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ [الصافات: 113].

وقال سبحانه: فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ [النساء: 54–55].

وقال عزَّ وجلَّ: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ [الحديد: 26].

لَمَّا كان من إمامة إبراهيمَ عليه السَّلام اتِّباع الناس له في حجِّ البيت، الذي شرَّفه الله سبحانه ببنائِه– قال سبحانه إثرَ ذلك ناعيًا على أهل الكتاب مخالفتَه وترْكَ دِينه، وموطِّئًا لأمر القِبلة:

وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (125).

---

(188) بيَّنَ ابنُ عطية (١/٣٤٢) أنّ معنى الظلم في الآية يختلف باختلاف الأقوال في معنى العهد، فقال: «إذا أوَّلنا العهدَ: الدين، أو الأمان، أو أن لا طاعة لظالم، فالظلم في الآية ظلم الكفر؛ لأن العاصي المؤمن ينال الدين والأمان من عذاب الله، وتلزم طاعته إذا كان ذا أمر وإذا أوَّلنا العهدَ: النبوءة، أو الإمامة في الدين، فالظلم ظلم المعاصي فما زاد».

وذَهَب ابن جرير: مِن أنّ هذه الآية –وإن كانت ظاهرةً في الخبر أنه لا ينال عهد الله بالإمامة ظالمًا– ففيها إعلام من الله لإبراهيم الخليل أنه سيوجد من ذريته مَن هو ظالم لنفسه.

وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا.

أي: واذكُر يا محمَّد، هذا الأمرَ؛ فقد جعل الله تعالى البيت الحرام محلًّا يَشتاقُ إليه الناسُ على الدوام، فيَرجعون إليه، ولو تردَّدوا إليه عِدَّةَ مرَّات، وهو معاذٌ لهم يأمنون فيه على أنفسهم وأموالهم، وحتى الحيوانات والجمادات تكون آمنةً فيه.

قال سبحانه: وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا [البقرة: 126].

وقال تعالى: أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ [العنكبوت: 67].

وقال سبحانه: وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا [آل عمران: 97].

وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى.

أي: اجعَلوا من مقامات إبراهيمَ عليه السَّلام، وهي شعائرُ الحجِّ، كعرفةَ ومزدلفةَ، ورمْي الجمرات، وغيرها- اجعلوها أماكنَ للعِبادة كالدُّعاء، وقد اتَّخذ الناسُ ذلك مقتدِين بإبراهيم عليه السَّلام، ويدخُل في ذلك، أداءُ ركعتَيِ الطَّواف خَلْفَ المقام المشهور بمقام إبراهيمَ عليه السَّلام.

قال عُمرُ بن الخطَّاب رضي الله عنه: ((وافقتُ ربي في ثَلاثٍ: فقلتُ: يا رسولَ الله، لو اتَّخذنا من مقامِ إبراهيمَ مُصلًّى، فأُنزِلتْ: واتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى...)).[189]

(189) رواه البخاري (402).

وفي حديثِ جابرٍ الطويل: (... حتى إذا أتَيْنا البيتَ معه، استلم الرُّكنَ فرمَل ثلاثًا ومشى أربعًا، ثم نفذ إلى مقامِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ. فقرأ: واتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى، فجعَل المقامَ بَينه وبين البيتِ– فكان أبي يقول: (ولا أعْلَمُه ذكَره إلَّا عن النبيِّ – ﷺ –) كان يقرأ في الرَّكعتَينِ: قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ، وقُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ)).[190]

القراءات ذات الأثر في التفسير:

في قوله تعالى: وَاتَّخِذُوا قراءتان:

1– (اتَّخَذوا) بفتح الخاء، على الخبَرَ عمَّن كان قبلنا من المؤمنين، أنَّهم اتخَذوا من مقام إبراهيم مصلًّى.[191]

2– (اتَّخِذوا) بكسر الخاء، والمعنى: اتَّخِذوا– أيُّها الناس– من مقام إبراهيم مصلًّى تُصلُّون عنده.[192]

---

(190) رواه مسلم (1218).

(191) قرأ بها نافعٌ وابنُ عامرٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (222/2).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (530/2)، ((الكشف)) لمكي (263/1).

(192) قَرَأَ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (222/2).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (530/2)، ((الكشف)) لمكي (263/1).

وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ.

أي: أوْحَيْنا إليهم بوصيةٍ مؤكَّدة، أمرناهما فيها بتطهير بيت الله تعالى من الشِّرك، والكُفر والأوثان، ومِن الرِّجس والنَّجاسات، وأنْ يَبْنِياه بِنيَّةٍ خالصةٍ لله عزَّ وجلَّ.

لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ.

أي: أمَر اللهُ عزَّ وجلَّ بتطهير البيت لأجْل مَن يطوفون بالكعبة، ومَن يُقيمون في البيت مجاورين للعِبادة- فيما يُعرف شرعًا بالاعتكاف- وللمُصلِّين فيه.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (126).

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا.

أي: واذكُروا دعوة إبراهيم عليه السَّلام بحلول الأمْن الدَّائم للبلد الأمين: مكَّةَ.

عن جابرِ بنِ عبد الله رضي الله عنهما، أنَّ رسولَ الله – ﷺ – قال: ((إِنَّ إبراهيمَ حرَّمَ مكةَ، وإِنِّي حَرَّمْتُ المدينةَ ما بينَ لابَتَيْها، لا يُقْطَعُ عِضاهُهَا،[193] ولا يُصادُ صيدُها)).[194]

وعن عبد الله بن زيد رضي الله عنه أن رسول الله – ﷺ – قال: ((إن إبراهيمَ حرَّم مكةَ ودعا لها، وحَرَّمت المدينةَ كما حرَّم إبراهيمُ مكةَ، ودعوت لها في مُدِّها وصاعِها مثلَ ما دعا إبراهيمُ عليه السَّلامُ لمكة)).[195]

وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ.

أي: سأل إبراهيمُ عليه السَّلام ربَّه سبحانه بأن يرزق مؤمني أهل مكة من أنواع الثمار المختلفة.

قال تعالى: أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا [القصص: 57].

لَمَّا خصَّ إبراهيم عليه السَّلام في دعائه بالرزق، المؤمنين، وكان رزق الله عزَّ وجلَّ شاملا للمؤمن والكافر، قال تعالى:

---

(193) العِضَاه: كلُّ شَجَرٍ عَظيمٍ له شَوْكٌ. ((النهاية)) لابن الأثير (3/255).

(194) رواه مسلم (1362).

(195) رواه البخاري (2129).

قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا.

أي: إنَّ الكافر ينال رزقه الدنيويَّ أيضًا لكنَّه قليلٌ زمنًا ووصفًا، بالنسبة لنعيم الآخرة الكامل، والدائم بلا انقطاعٍ ولا نهاية.(196)

ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ.

أي: أُلجئه وأَدفعه وهو مُكرَه إلى النار، وساء المصيرُ عذابُ النار بعدَ الذي كانوا فيه من متاعِ الدُّنيا.

كما قال تعالى: وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ [محمد: 12].

وقال عزَّ وجلَّ: وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ [لقمان: 23–24].

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (127).

---

(196) اختلف أهل التأويل في قوله تعالى: ﴿وَمَن كفر فأمتعه قليلًا﴾ مَن قائله؟ وما وجه قراءته؟ على قولين:
أحدهما: قائل هذا القول ربُّنا –تعالى ذِكْرُه–، وقرأ قائلو هذه المقالة ذلك: ﴿فَأُمَتِّعُه﴾ بتشديد التاء ورفع العين.
والآخر: قائل ذلك إبراهيم على وجه الدعاء، وقرأ قائلو هذه المقالة ذلك: (فَأَمْتِعْهُ) بتخفيف التاء وسكون العين، على الدّعاء.
ورجَّحَ ابنُ جرير (٢/٥٤٦) القولَ الأولَ.

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ.

أي: واذكر رفْعَ إبراهيم لقواعد الكعبةِ، وإسماعيلُ يُعاونه بنقْل الحجارة، ورفعُ القواعِد يكون بإبرازها من الأرض وإعلائها؛ لتصير جِدرًا، فالبِناء إذا اتَّصل بعضُه ببعض، صار كالشيء الواحد، والجدار إذا اتَّصل بالأساس صار الأساسُ مرتفعًا.(197)

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ.

أي: دعا كلٌّ من إبراهيمَ وإسماعيلَ عليهما السَّلام ربَّهما سبحانه وتعالى، بأنْ يَتلقَّى بِناءَهما البيتَ بالقَبول والرِّضا عنه؛ فهو الذي يَسمع أقوالهما، ويَعلم أعمالَهما ونيَّاتِهما.

قال عبد الله بن عبَّاس رضي الله عنهما: ((... ثم جاء بعدَ ذلك، وإسماعيلُ يَبْرِي نَبْلًا لهُ تحت دَوْحَةٍ قريبًا من زمزمَ، فلمَّا رآهُ قام إليهِ، فصنَعَا كما يصنعُ الوالدُ بالولدِ، والولدُ بالوالدِ، ثم قال: إنَّ

(197) اختلف أهل التأويل في القواعد التي رفعها إبراهيم وإسماعيل من البيت، أهما أحْدَثا ذلك، أم هي قواعدُ كانت للبيت قَبْلَهما؟

وذَهَبَ ابنُ جرير (٢/٥٥٦) إلى عدم ترجيح قول على آخر؛ لعدم ورود دليل يقطع بأحد الأقوال.

نقل ابنُ عطيَّة الإجماعَ على أنَّ المراد بالبيت هنا: الكعبة. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)).

علَّقَ ابن كثير (٢/٦٩-٧٠ بتصـــرف) على مرويات بناء الكعبة بقوله: «وقد اختلف الناس في أول من بنى الكعبة؛ فقيل: الملائكة قبل آدم. وروي هذا عن أبي جعفر الباقر محمد بن علي بن الحسين، ذكره القرطبي وحكى لفظه، وفيه غرابة.

وقيل: آدم. رواه عبد الرزاق، عن ابن جريج، عن عطاء وسعيد بن المسيب وغيرهم، وهذا غريب أيضًا.

وروي عن ابن عباس، وكعب الأحبار، وقتادة، وعن وهب بن منبه: أنّ أول من بناه شيث.

وغالب مَن يذكر هذا إنما يأخذه من كتب أهل الكتاب، وهي مما لا يُصَـدَّق ولا يُكَذَّب ولا يُعْتَمَد عليها بمجردها، وأما إذا صح حديث في ذلك فعلى الرأس والعين».

اللهَ أمرني بأمرٍ، قال: فاصنعْ ما أمَرَ ربُّك، قال: وتُعينني؟ قال: وأُعينُكَ، قال: فإنَّ اللهَ أمَرني أن أبنيَ هاهنا بيتًا، وأشار إلى أَكَمَةٍ مرتفعةٍ على ما حولها، قال: فعند ذلك رفعَا القواعدَ من البيتِ، فجعَل إسماعيلُ يأتي بالحجارةِ وإبراهيمُ يَبني، حتى إذا ارتفعَ البناءُ، جاء بهذا الحَجرِ، فوضعَهُ لهُ فقام عليهِ، وهو يَبني، وإسماعيلُ يُناوِلُه الحجارةَ، وهما يقولانِ: رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، قال: فجعلَا يَبنيانِ حتى يدورَا حول البيتِ وهما يقولانِ: رَبَّنَا تقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)).[198]

رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (128).

رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ.

أي: دعا كلٌّ من إبراهيمَ وإسماعيلَ عليهما السَّلام بأن يجعلهما على الدَّوام، خاضعَينِ له سبحانه بطاعته، ومنقادَينِ لحُكمه، ومستسلمَينِ لأمْره.

(198) رواه البخاري (3364).

وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ.

أي: دَعَوَا اللهَ ربَّهما أن يَجعلَ من بعض ذريَّتهم جماعةً مستسلمة لله تعالى، طائعةً لأمره، وخاضعةً لحُكمه جلَّ وعلا، وقد استُجِيبت هذه الدعوةُ في المسلمين من العرَب.(199)

وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا.

أي: بيِّن لنا مشاعرَ الحجِّ، ومواضعَ العبادة فيه، وعرِّفها لنا؛ فنراها.

وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ.

أي: وفِّقنا للتوبة، فنرجع من معصيتك إلى طاعتك؛ فأنت وحْدَك سبحانك التوَّاب؛ بتوفيقِ عبدك للتوبة أولًا، وقَبولها منه ثانيًا، وأنت وحْدَك الرَّحِيم؛ فتختصُّ برحمتك عبادَك المؤمنين.

كما قال تعالى: وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ [التوبة: 118].

---

(199) وممَّن قال بأنَّ المقصود بالذريَّة هنا: العرب: السُّدِّي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (2/565).

قال ابن كثير: (قال السدي: وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ يعنيان العرب.

قال ابن جرير: والصواب أنه يعم العرب وغيرهم؛ لأن من ذرية إبراهيم بني إسرائيل، وقد قال الله تعالى: وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ [الأعراف: 159].

رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (129).

رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ.

أي: دعا كلٌّ من إبراهيمَ وإسماعيلَ عليهما السَّلام ربَّهما، بأنْ يبعث رسولًا من ذُريتهما، أي: من العرَب.

وقد استجاب الله تعالى دُعاءَهما، فبعث محمَّدًا - ﷺ -.

كما قال تعالى: هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ [الجمعة: 2].

يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ.

أي: يقرأ عليهم كتابَك الذي تُوحيه إليه، ويُعلِّمهم معاني القرآن، ويُعلِّمهم السُّنة؛ فهي التي تبيّن معاني القرآن وأحكامَه، وتُعين على فَهمِه.

قال سبحانه وتعالى: وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ [النحل: 44].

وَيُزَكِّيهِمْ.

أي: ويُطهِّرهم من الشِّرك بالله، ويُنمِّيهم ويُكثِّرهم بتوحيد الله تعالى وطاعته.

إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ.

أي: أنت وحْدَك العزيز الذي لا يُعجِزه شيءٌ أراده، فأعطِنا وذُرِيِّتنا ما طلبناه منك، وأنت وحْدَك الحكيم، الذي يَضعُ كلَّ شيء في موضعه اللائِق به، فأعطِنا ما يَنفعُنا وينفع ذُريتنا.

وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (130).

وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ.

أي: لا أحدَ يعدِل عن الحنيفيَّة؛ دِينِ إبراهيم الخليل عليه السَّلام، إلَّا مَن كانت نفسُه سفيهةً، أي: جاهلة، طائشةً، غير راشدة.

قال تعالى: مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ [آل عمران: 67–68].

وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا.

أي: يؤكِّد الله تعالى اختيارَه واجتباءَه لإبراهيمَ عليه السَّلام في الدُّنيا؛ فقد هداه ووفَّقه للإيمانِ والأعمالِ التي صار بها خليلَ الرحمن، وإمامَ الحنيفيَّة للناس.

قال سبحانه: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ [النحل: 120–123].

وقال عزَّ وجلَّ: وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ [العنكبوت: 27].

وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ.

أي: إنَّ إبراهيمَ عليه السَّلام من الفائزين السُّعداء في الدار الآخِرة، وفي الرَّفيق الأعلى مع إخوانه المرسَلين والأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام.

كما دعَا إبراهيمُ عليه السَّلام بذلك، فقال: رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ [الشعراء: 83].

إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (131).

أي: أمَر الله تعالى خليلَه إبراهيمَ عليه السَّلام حين اصطفاه، بأن يُخلص دِينَه وتوحيدَه له سبحانه، وينقادَ إليه بكل ذلٍّ وخضوعٍ ومحبَّة، فأجاب إبراهيمُ إلى ذلك على الفور.

وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (132).

وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ.

أي: عهِد إبراهيمُ عليه السَّلام بهذه الكلمة أَسْلَمْتُ لِرَبِّ العَالَمِينَ،[200] والتي تمثِّل الملَّةَ الحنيفيَّة، عهِد بها إلى أبنائه، وكذلك فعَل حفيدُه يعقوب بن إسحاق، فعهِد بها إلى أبنائه.

كما قال تعالى: وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ [الزخرف: 26–28].

---

(200) قال ابنُ عطية (١/٣٥٥): «والضمير في ﴿بها﴾ عائد على كلمته التي هي: ﴿أسلمت لرب العالمين﴾.
وقيل: على الملة المتقدمة.
والأول أصوب؛ لأنه أقرب مذكور».

يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ.

أي: إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قد اجتبَى لكم هذا الدِّين الذي تعرِفونه، فلا تُفرِّطوا فيه، ولا تُفارقوه في حياتِكم، بل الْزَموه وقُوموا به؛ ليرزقَكم اللهُ تعالى الوفاةَ عليه، فمَن عاش على شيءٍ مات عليه.

لَمَّا قرَّر سبحانه لبني إسرائيل أنَّ أباهم يعقوبَ ممَّن أوصى بنيه بالإسلام، قال مبكِّتًا لهم:

أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (133).

أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ.

أي: هل كنتم يا معشرَ اليهود، المكَذِّبين بمحمَّدٍ - ﷺ -، شهودًا حاضرين حين أتتْ أباكم يعقوبَ عليه السَّلام مقدِّماتُ الموت.

إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي.

أي: هل شهدتُّم يعقوب، وهو يسأل أبناءَه مختبرًا لهم: أيَّ شيءٍ ستعبُدون من بعد وفاتي؟

قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا.

أي: أجاب أبناءُ يعقوبَ عليه السَّلام أباهم بأنَّهم يعبُدون معبودَه ومعبودَ آبائه- وهم: جَدُّه إبراهيم، وعمُّه إسماعيل، وأبوه إسحاق- وهو الذي لا مَعبودَ بحقٍّ سواه، لا يُشرِكون به في عبادته أحدًا من دونه.

وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ.

أي: مُستسلِمون ومنقادون لأمْره، خاضِعون لعبادتِه.

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (134).

أي: يا معشرَ اليهود والنَّصارى، دَعُوا ذِكر الآباء والأجداد، كإبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ، والمسلمين من أولادِهم؛ إذ لا يَنفعُكم الانتسابُ إليهم وإلى أعمالهم الصالحِة، فخيرُهم لا ينفعُكم إنْ كسبتم شرًّا؛ فإنَّهم جماعةٌ قد مضَتْ لسبيلها، وكلٌّ منكم له عملُه الذي يخصُّه، وتَبِعَتُه، من خيرٍ أو شر، ولا يَلحق الآخَر من ذلك شيءٌ، ولا السُّؤال عنه، فلا تُحاسَبون بأعمال سَلفِكم، وإنَّما تُحاسَبون بأعمالكم.

سُورةُ البَقَرَةِ

الآيات (135–141)

وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (135)

قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (136)

فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (137)

صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (138)

قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (139)

أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (140)

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (141)

غريب الكلمات:

حَنِيفًا: أي: مائلًا عن الدِّين الباطل إلى الدِّين الحقِّ، أي: مسلمًا مستقيمًا، وأصل الحنف: الميل.

الْأَسْبَاطِ: هم ولد يعقوب عليه السلام، سُمُّوا بالأسباط؛ لأنَّه كان من كلِّ واحد منهم سِبط، والسِّبط بمنزلة القبيلة. والسِّبط في اللُّغة: الجماعة يَرجِعون إلى أبٍ واحد، وأصل السِّبط يدلُّ على امتدادِ شيءٍ.

شِقَاقٍ: عَداوة ومباينة، ومخالفة، وأصل الشِّقاق: الانصِداع في الشيء.

صِبْغَةَ اللهِ: دِينه، وفِطرته لخلقه، وأصل الصِّبغة: تلوين الشيء بلونٍ ما.

تفسير الآيات:

وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ

(135).

وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا.

أي: قالت اليهود للمؤمنين: كونوا هودًا، تَهتدوا، وقالت النَّصارى لهم: كونوا نصارى، تَهتدوا؛ فكلٌّ منهم حصَر الهدى في دِينه، بزعم أنَّ مُعتنقَه يصيب طريقَ الحقّ.

قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ.

أي: يا محمَّد، قلْ لهؤلاء اليهود والنصارى: إنَّ الهداية ليستْ في دِينكم من اليهوديَّة، أو النصرانيَّة، وإنَّما الهداية الحقيقيَّة في اعتناق دِين إبراهيم عليه السَّلام، الذي حقيقتُه الاستقامةُ على طريق التوحيد، والميلُ عن طريق الشِّرك، أي: عِبادة الله وحده لا شريكَ له. وإبراهيمُ عليه السَّلام لم يكُن من عبَّاد الأصنام، ولم يكُن يهوديًّا ولا نصرانيًّا.[201]

---

(201) ذَهَبَ ابنُ جرير (٢/٥٨٧)، وابنُ عطية (١/٣٥٩)، وابنُ تيمية (١/٣٥٢) إلى أنّ الحنيف في الدين: هو الذي مال عن الأديان المكروهة إلى الحق، وأنّ الحنيفية: هي ملة إبراهيم، وأنَّها عبادةُ الله وحدَه والبراءة من الشرك.
وأنّ تنوّع عبارات المفسرين إنما هو من قبيل التفسير بجزء المعنى.

كما قال تعالى: مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ [آل عمران: 67].

وقال سبحانه: قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ [الأنعام: 161].

وقال عزَّ وجلَّ: ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ [النحل: 123].

قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (136).

قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا.

أي: أعْلِنوا– أيُّها المؤمنون– أنَّكم مُقرُّون بقلوبكم وجوارحكم بالله تعالى، وبكلامه، الذي أنزله إليكم.

عن أبي هُريرَةَ رضي الله عنه، أنَّ رسولَ الله – ﷺ – قال: ((كان أهلُ الكتابِ يَقرؤُون التوراةَ بالعَبرانيةِ، ويُفسِّرونها بالعَربيَّةِ لأهلِ الإسلامِ، فقال رسولُ اللهِ – ﷺ –: لا تُصدِّقوا أهلَ الكتابِ ولا تُكذِّبوهم، وقولوا: آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا)).[202]

وعن عبدِ الله بن عَبَّاس رضي الله عنهما، قال: ((كان رسولُ اللهِ – ﷺ – يقرأ في ركعَتي الفجرِ: قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا، والتي في آل عمرانَ: تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُم)).[203]

وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ.

أي: صَدَّقْنا وأقرَرْنا بألسنتنا وقلوبِنا بما أنزله الله تعالى على رُسله عليهم الصَّلاة والسَّلام– من قبلِ أن يُبدَّل ويُحرَّف–: إبراهيمَ، وإسماعيلَ، وإسحاقَ، ويعقوب، وعلى الأنبياء من ذريَّة يعقوب، وبما أعطاه اللهُ تعالى لموسى من التوراة والمعجِزات، وما أعطاه لعيسى من الإنجيل والمعجِزات كذلك، وما أُعطيَه بقيَّةُ الأنبياء عليهم السَّلام.

لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ.

أي: لا نُؤمِن ببعضٍ ونكفُر ببعض، بل نحن بالجميعِ مؤمنون.

---

(202) رواه البخاري (4458).

(203) رواه مسلم (727).

وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ.

أي: ونحن للهِ تعالى وحْدَه دون مَن سواه، مستسلِمون ظاهرًا وباطنًا، فله خاضِعون بالطَّاعة، ومذعِنون بالعبوديَّة.

فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (137).

فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا.

أي: فإنْ آمَن اليهودُ والنَّصارى إيمانًا مماثلًا من كلِّ الوجوه لإيمانكم- أيُّها المسلمون- ومِن ذلك الإيمانُ بجميعِ كتُب الله تعالى، وبجميع رُسله عليهم الصَّلاة والسَّلام- فقد رَشَدوا ووُفِّقوا للحقِّ والخير.

وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ.

أي: فإنْ أعرَض أولئك اليهودُ والنَّصارى عن الحقِّ بعد إقامة الحُجَّة عليهم، فلم يُؤمِنوا بمِثل إيمانكم، فاعلموا- أيُّها المؤمنون- أنَّهم يَقصِدون المخالفةَ والمنازعةَ والعداوةَ لكم.(204)

---

(204) قال ابنُ جرير (٢/٦٠٢) مستندًا إلى اللغةِ: «وأصل الشقاق عندنا –والله أعلم– مأخوذ من قول القائل: شَقَّ عليّ هذا الأمر. إذا كَرَثَه وآذاه.

ثم قيل: شاقَّ فلانٌ فلانًا، بمعنى: نال كلُّ واحد منهما من صاحبه ما كرثه وآذاه، وأثقلته مساءته، ومنه قول الله –تعالى ذكره–: ﴿وإن خفتم شقاق بينهما﴾، بمعنى: فراق بينهما».

فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ.

أي: فإنَّ الله تعالى سيَكفيك يا محمد أمْرَ أولئك اليهود والنصارى، الذين يقصدون عداوتَك؛ فإنَّ الله تعالى يَدفع أذاهم عنك وينصُرك عليهم؛ فهو سبحانه السميعُ لِمَا يقولون، والعالِمُ بما يُبطنون وما يُظهرون، من المكائدِ وأنواع الشُّرور.

صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (138).

صِبْغَةَ الله.

أي: اتَّبعوا الحَنيفيَّةَ مِلَّة إبراهيم عليه السَّلام، والْزَموا دِينَ الله تعالى الإسلام، وقوموا به خيرَ قِيام.

وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ الله صِبْغَةً.

أي: لا أحَدَ أحسنُ من الله تعالى دِينًا.

وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ.

أي: ونحن له سبحانه دون مَن سواه، مخلِصون، خاضِعون، ومتذلِّلون، مع المحبَّةِ الواجِبة له سبحانه.

قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (139).

قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ.

أي: قل يا محمَّد، لهؤلاء اليهودِ والنصارى –الذين يُجادِلونكم بغير حقٍّ– مُنكرًا عليهم صنيعَهم هذا: هل تُجادِلوننا وتُخاصموننا في توحيدِ الله تعالى لإبطالِ دِين الإسلام، بزعْم أنَّكم أَوْلَى بالله منَّا؟! وكيف تدَّعون ذلك وربُّ الجميعِ واحد؟!

وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ.

أي: وبالإضافةِ إلى أنَّ ربَّنا واحدٌ، ليس ربًّا لكم دُوننا، فلكلٍّ منا أعمالُه التي اكتسبها وسيُجازيه الله تعالى بها؛ فأنتم لستم بأفضلَ منَّا، بل نحن أَوْلى بالله منكم؛ لأنَّنا لا نُشرِك به شيئًا في عبادته، وأنتم تُشرِكون؛ فكيف تدَّعون زُورًا ما نحن أَوْلى به منكم؟!

أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (140).

أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى.

أي: يُوبِّخ الله تعالى ويُنكِر على اليهود والنَّصارى الذين يحاجُّون في رُسل الله عزَّ وجلَّ بعد محاجَّتهم في دِين الله تعالى، فيَزعُمون أنَّ الرسل المذكورين كانوا على مِلَّتهم، إمَّا اليهوديَّة وإمَّا النصرانيَّة، زاعمين

بذلك أنَّهم أَوْلى بأولئك الرُّسُل الكِرام من المسلمين، وهذا مِن سفَههم؛ فكيف يكون هؤلاء هودًا أو نصارى، واليهوديَّة والنصرانيَّة إنَّما حدَثتْ بعدَهم؟!

قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللهُ.

أي: قل لهم: يا محمَّد -إنِ ادَّعوا أنَّ إبراهيمَ، وإسماعيلَ، وإسحاقَ، ويعقوبَ، والأسباطَ كانوا هودًا أو نصارى-: هل أنتم أعلمُ بالدِّين الذي كانوا عليه، أم اللهُ؟!

كما قال الله تعالى: يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ [آل عمران: 65-68].

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللهِ.

أي: لا أحدَ أشدُّ ظلمًا في كتمان الشهادة، ممَّن كتَموا ما أنزله الله تعالى في كتُبه، من أنَّ إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ والأسباطَ كانوا مُسلِمين، فكتموا ذلك ونَحلوهم اليهوديَّةَ والنصرانيَّة.

وقيل: ما كتموه ممَّا جاء في كتُبهم من العِلم بصِفات رسول الله - ﷺ - وإثبات نبوَّته.

وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ.

أي: هذا تهديدٌ، ووعيدٌ شديدٌ لأولئك اليهود والنَّصارى، الذي يَكتُمون ما أُنزل إليهم من العِلم، بمجازاتِهم على ذلك؛ فاللهُ تعالى ليس بساهٍ عنهم، بل هو مُطَّلعٌ على أعمالِهم، وقد أحصاها صغيرَها وكبيرَها، لا تخفَى عليه منهم خافيةٌ.

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (141).

أي: يا معشرَ اليهود والنَّصارى، دَعُوا ذِكر الآباء والأجداد، كإبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ، والمسلمين من أولادِهم؛ إذ لا يَنفعُكم الانتسابُ إليهم وإلى أعمالهم الصالحِة، فخيرُهم لا ينفعُكم إنْ كسبتم شرًّا؛ فإنَّهم جماعة قد مضَتْ لسبيلها، وكلٌّ منكم له عملُه الذي يخصُّه، وتَبِعَتُهُ، من خيرٍ أو شر، ولا يَلحق الآخَر من ذلك شيءٌ، ولا السُّؤال عنه، فلا تُحاسَبون بأعمال سَلفِكم، وإنَّما تُحاسَبون بأعمالكم.

سُورةُ البَقَرَة

الآيات (142–150)

سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (142)

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (143)

قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (144)

وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا
بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ
الظَّالِمِينَ (145) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ
لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (146) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (147)

وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (148)

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ
عَمَّا تَعْمَلُونَ (149)

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ
شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ
نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (150)

غريب الكلمات:

السُّفَهَاءُ: أي: الجُهَّال، والسَّفه: الجهل، وخِفَّة العقل، والضَّعْف والحُمق.

وَلَّاهُمْ: صَرَفهم وحوَّلهم، وأصل الفِعل (ولي)، وإذا عُدِّي بـ(عن) اقتَضى معنى الإعراضِ والتركِ، وإذا عُدِّي بنَفْسه اقتَضَى معنى الولاية.

وَسَطًا: عدلًا خيارًا.

عَقِبَيْهِ: مثنَّى العقب: وهو مؤخَّر الرِّجل، وجمْعه: أَعقاب؛ يقال: انقلَب على عَقِبيه، مثل: رجع على حافرته، وارتدَّ على أدباره.

تَقَلُّبَ: التقلُّب: تحوُّل الشَّيءِ عن جِهته.

شَطْرَ: نحوَ، أو جِهَة.

الْمُمْتَرِينَ: المتردِّدين، من المِرية: وهي التردُّد في الأمْر، وهو أخصُّ من الشك.

مُوَلِّيهَا: مستقبِلُها.

فلا تَخْشَوْهُمْ: أي: فلا تخافوهم، والخَشْية: أكثر ما تكونُ عن عِلمٍ بما يُخشَى منه، وقيل: هي خوفٌ يشوبُه تعظيم.

تفسير الآيات:

سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (142).

لَمَّا تكرَّر في الآيات السابقةِ التنويهُ بإبراهيم عليه السلام وملَّته، والكعبةِ، وأنَّ مَن يرغب عنها قد سفِه نفْسه، فكانت مثارًا لأنْ يقول المشركون: ما ولَّى محمدًا وأتْباعَه عن قبلتهم التي كانوا عليها بمكَّةَ- أي: استقبال الكعبة- مع أنه يقول: إنَّه على مِلَّة إبراهيم، ويأبى اتِّباع اليهوديَّة والنصرانيَّة؛ فكَيف ترك قِبلةَ إبراهيم واستقبلَ بيت المقدس؟! وقد علم اللهُ تعالى ذلك منهم فأنبأَ رسولَه - ﷺ - بقولهم.

سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا.

أي: سيتساءل الجُهَّال وخِفاف العقول من النَّاس- وهم اليهود، وأهل النِّفاق، والمشركون- سيتساءلون عن المسلمين مُعترِضين، بحيرةٍ وارتياب: أيُّ شيء صرَفَهم عن التوجُّه إلى بيت المقدِس في صلاتهم؛ فحوَّلوا وجوههم عنه؟!

قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ.

أي: قلْ يا محمَّدُ، لهؤلاء المتسائلين: لله تعالى وحْده دون غيرِه مُلكُ المشرق والمغرب وما بينهما، فكلُّ الجِهات مخلوقةٌ ومملوكة له؛ فله أن يأمُرَ بالتوجُّه إلى أيِّ جِهةٍ شاء سبحانه.

يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

أي: إنَّ الله تعالى يُرشد ويوفِّق بحِكمته مَن يشاء مِن خَلْقه إلى الطَّريق القويم، وقد هدى اللهُ تعالى المؤمنين إلى قِبلة إبراهيمَ عليه السَّلام التي ضلَّ عنها غيرُهم.

سبب النُّزول:

عن البَراء بن عازبٍ رضي الله عنه، قال: ((كان رسولُ الله – ﷺ – صلَّى نحوَ بيت المقدِس ستَّة عشرَ، أو سبعةَ عَشرَ شهرًا، وكان رسولُ الله – ﷺ – يحبُّ أن يُوَجَّه إلى الكعبة، فأنزل الله قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فتوجَّه نحو الكعبة، وقال السفهاء من النَّاس– وهم اليهود –: مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، فصلَّى مع النبيِّ – ﷺ – رجلٌ، ثمَّ خرَج بعدما صلَّى، فمرَّ على قومٍ من الأنصار في صلاة العصر نحوَ بيت المقدس،

فقال: هو يَشهدُ أنَّه صلَّى مع رسولِ الله – ﷺ – وأنَّه توجَّه نحوَ الكعبة، فتَحرَّف القومُ حتى توجَّهوا نحوَ الكعبة)).[205]

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ (143).

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا.

أي: مثل هذا الجَعْل الذي جعلْنا لكم، وهو هدايتُكم إلى أفضلِ قِبلة، جعلناكم أيضًا خيرَ الأمم وأعدلَها، وسطًا بيْن الإفراط والتفريط، وبين الغلوّ والجفاء.

كما قال تعالى: كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ [آل عمران: 110].

وعن معاوية بن حَيْدَةَ القُشيريِّ رضي الله عنه، أنَّ رسولَ الله – ﷺ – قال: ((أنتُم تُوفُون سَبعينَ أُمَّةً، أنتُم خيرُها وأكرمُها على الله)).[206]

---

(205) رواه البخاري (399) واللفظ له، ومسلم (525).

(206) أخرجه الترمذي (3001) بلفظ: ((تُتمُّون)) بدلًا من ((تُوفون))، وابن ماجه (4288) بلفظ: ((إنَّكم وفيتم)) بدلًا من ((أنت وفيتم))، وأحمد (447/4) (20029) واللفظ له.

وعن أبي سَعيد الخُدريِّ رضي الله عنه، قال: ((قرأ رسولُ الله – ﷺ – وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا قال: عدلًا)).(207)

وعن أبي سعيدٍ الخُدريِّ رضي الله عنه، أنَّ النَّبيَّ – ﷺ – قال: ((يجيء النبيُّ يومَ القيامة، ومعه الرَّجل، والنبيُّ ومعه الرَّجُلان، وأكثرُ مِن ذلك، فيُدعى قومُه، فيُقال لهم: هل بلَّغكم هذا؟ فيقولون: لا! فيُقال له: هل بلَّغتَ قومَك؟ فيقول: نعم، فيُقال له: مَن يَشهد لك؟ فيقول: محمَّد وأمَّتُه، فيُدْعَى وأُمَّته، فيُقال لهم: هل بلَّغ هذا قومَه؟ فيقولون: نعم، فيقال: وما عِلمُكم؟ فيقولون: جاءَنا نبيُّنا، فأخبَرنا: أنَّ الرُّسل قد بلَّغوا، فذلك قوله: وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا [البقرة: 143] قال: يقول: عدلًا، لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا [البقرة: 143])).(208)

لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ.

أي: جعَل الله تعالى هذه الأمَّةَ المحمديَّةَ خيرَ الأُمم وأعدَلَها؛ ليشهدوا على الأُمم الأخرى بأنَّ رُسلَهم وأنبياءَهم عليهم الصَّلاة والسلام قد بلَّغوهم رِسالة ربِّهم عزَّ وجلَّ.

حسَّنه الترمذي، وصحَّحه ابن العربي في ((عارضة الأحوذي)) (112/6)، وابن باز في ((مجموع فتاواه)) (59/5)، والوادعي في ((الصحيح المسند)) (1132)، وحسَّنه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (3001).

(207) رواه البخاري (7349).

(208) أخرجه ابنُ ماجه (4284)، وأحمد (58/3) (11575) واللفظ له، والنَّسائي في ((السنن الكبرى)) (11007). صحَّحه الألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (4284)، وصحَّح إسنادَه على شرْط الشيخينِ شعيبٌ الأرناؤوط في تحقيق ((مسند أحمد)) (58/3).

كما قال تعالى: هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ [الحج: 78].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ – ﷺ – قال: ((يُدعَى نوحٌ يومَ القِيامة، فيقول: لبَّيْك وسَعديك يا ربِّ، فيقول: هل بلَّغتَ؟ فيقول: نعمْ، فيُقال لأمَّته: هل بلَّغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير! فيقول: مَن يشهد لك؟ فيقول: مُحمَّدٌ وأمَّتُه، فيَشهدون أنَّه قد بلَّغ، ويكون الرَّسولُ عليكم شهيدًا؛ فذلك قولُه جلَّ ذِكرُه: وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا، والوسط: العدْل)).[209]

وعن أنسِ بن مالكٍ رضي الله عنه، قال: ((مَرُّوا بجَنازةٍ فأثنَوْا عليها خيرًا، فقال النبيُّ – ﷺ –: وَجَبَتْ، ثم مَرُّوا بأخرى فأثنَوا عليها شرًّا، فقال: وَجَبَتْ، فقال عُمَرُ بنُ الخطابِ رضي الله عنه: ما وَجَبَتْ؟ قال: هذا أثنَيتُم عليه خيرًا، فوَجَبَتْ له الجنةُ، وهذا أثنَيتُم عليه شرًّا، فوَجَبَتْ له النارُ؛ أنتم شُهَداءُ اللهِ في الأرضِ)).[210]

---

(209) رواه البخاري (4487).
قال ابن حجر: (قوله: «والوَسَـط العَدْل» هو مرفوعٌ من نفس الخبر، وليس بمُدرَج من قول بعض الرُّواة، كما وهِم فيه بعضُـهم) ((فتح الباري)) (8/172).
(210) رواه البخاري (1367) واللفظ له، ورواه مسلم (949).

وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا.

قيل: أي: يَشهد محمَّدٌ – ﷺ – على صِدق الأمَّة فيما أخبَرت به عن تبليغ رُسُل الله تعالى رِسالتَه إلى أُممهم، وقيل: يَشهد محمَّدٌ – ﷺ – بأنَّه بلَّغ أمَّته رسالةَ ربِّه، وقيل: يشهد بأنَّهم آمنوا به وبما جاء به من عند الله عزَّ وجلَّ.

وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ.

أي: إنَّما شرَعْنا لك يا محمَّد التوجُّه أولًا إلى بيت المقدِس، ثمَّ صرَفْنا هذه القِبلة عنك إلى الكَعبة؛ امتحانًا؛ لنعلم–عِلمًا تقوم به الحجة على العبد، ويترتَّب عليه الثوابُ والعِقاب– من سيطيعك فيستقبل معك حيثما توجَّهت، ممن يَرتدُّ عن دِينه.

وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ.

أي: وإن كان الشَّأْن أنَّ واقعة صرْفِنا لك يا محمَّد عن التوجه إلى بيت المقدس، وتوليتنا إيَّاك للكعبة، أمرٌ عظيمٌ، شاقٌّ، وثقيلٌ على النُّفوس، عدَا مَن أرشده الله تعالى للحقِّ، ووفَّقه للعمل به، فصَدَّق الرسولَ – ﷺ –، وتأسَّى به في التحوُّل إلى الكعبة.

عن عبد الله بنِ عُمرَ رضي الله عنهما، قال: ((بَيْنا النَّاسُ بقُباءٍ في صلاةِ الصُّبحِ، إذ جاءهم آتٍ، فقال: إنَّ رسولَ اللهِ – ﷺ – قد أُنزِلَ عليه الليلةَ قرآنٌ، وقد أُمِرَ أن يَستقبِلَ الكعبةَ، فاستقبِلوها، وكانتْ وجوهُهم إلى الشَّأمِ، فاستَداروا إلى الكَعبةِ)).[211]

وعن أنسٍ رضي الله عنه: ((أنَّ رَسولَ الله – ﷺ – كان يُصلِّي نحو بيت المقدِس، فنزلت: قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ [البقرة: 144]، فمرَّ رجلٌ من بني سَلِمة وهم ركوعٌ في صلاة الفجر، وقد صلَّوا ركعةً، فنادى: ألَا إنَّ القِبلة قد حُوِّلت، فمالوا كما هم نحوَ القِبلة)).[212]

وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ.

أي: إنَّ الله تعالى يقول عن نفسه بأنَّه لا ينبغي له أن يُضيع ثوابَ صلاتكم إلى بيت المقدس قَبل ذلك، بل هو محفوظٌ عنده سبحانه وتعالى.

سبب النُّزول:

عن البَراء رضي الله عنه: ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم صلَّى إلى بيت المقدِس ستةَ عشرَ شهرًا، أو سبعةَ عَشرَ شهرًا، وكان يُعجبه أن تكونَ قِبلتُه قِبلَ البيت، وأنَّه صلَّى أوَّلَ صلاةٍ

(211) رواه البخاري (7251).
(212) رواه مسلم (527).

صلَّاها صَلاةَ العَصرِ، وصلَّى معه قومٌ، فخرج رجلٌ ممَّن كان صلَّى معه فمرَّ على أهل المسجد وهم راكعون، قال: أشهدُ بالله لقدْ صليتُ مع النبيِّ صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّمَ قِبَل مكةَ، فداروُا كما هم قِبلَ البيت... وفيه: أنَّه ماتَ على القِبْلة قَبلَ أنْ تُحوَّلَ، رِجالٌ قُتِلوا، فلمْ نَدرِ ما نقول فيهم، فأنزل الله: وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ)).(213)

إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ.

أي: إنَّ الله تعالى عظيم الرَّحمة بالنَّاس؛ ولذا لا يُمكن أن يُضيع أجرَ طاعة عمِلها عبادُه المؤمنون.

قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (144).

سبب النُّزول:

عن البَراء بن عازبٍ رضي الله عنه، قال: ((كان رسولُ الله - ﷺ - صلَّى نحوَ بيت المَقدِس سِتَّة عشرَ أو سَبعةَ عشرَ شهرًا، وكان رسولُ الله - ﷺ - يحبُّ أن يُوجَّه إلى الكعبة، فأنزل الله قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فتوجَّه نحو الكعبة، وقال السُّفهاء من النَّاس- وهم اليهود -: مَا وَلَّاهُمْ عَنْ

(213) رواه البخاري (4486) واللفظ له، ومسلم (525).

قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، فصلَّى مع النبيِّ - ﷺ - رجلٌ، ثم خرَج بعدما صلَّى، فمرَّ على قومٍ من الأنصار في صلاة العصر نحوَ بيت المقدس، فقال: هو يَشهدُ أنَّه صلَّى مع رسولِ الله - ﷺ -، وأنَّه توجَّه نحوَ الكعبة، فتحرَّف القوم حتى توجَّهوا نحوَ الكعبة)).[214]

قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ.

أي: يُؤكِّد الله تعالى لنبيِّه محمَّد - ﷺ - رُؤيتَه له وهو يتلفَّت محوِّلًا وجهَه في جِهات السماء؛ متلهِّفًا لنزول الوحي بخبَرَ تحويل القِبلة إلى الكعبة.

فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا.

أي: فلنوجهنَّك يا محمَّد، إلى قِبلةٍ عظيمةٍ تطمئنُّ إليها، وتحبُّها، وتقبلها.

فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ.

أي: أقبِلْ ببدنِكَ، واصْرِفْ وجهَكَ لأجْل الصَّلاة،[215] إلى جهةِ الكعبة من المسجد الحرام.

وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ.

---

(214) رواه البخاري (399) واللفظ له، ومسلم (525).

(215) قال ابنُ تيمية (١/٣٧٦): «قوله: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وجهَكَ شَطْرَ المَسْجِدِ الحَرَامِ﴾، أي: نحوه وتلقاءه بإجماع أهل العلم؛ لأنّ الشطر له معنيان هذا أحدهما، والآخر بمعنى: النِّصف. وذلك المعنى ليس مرادًا؛ فتعيَّن الأول».

أي: وفي أيِّ موضعٍ وَجِهةٍ كنتم- أيُّها المؤمنون- فعليكم أن تستقبلوا الكعبةَ وتتوجَّهوا ناحيتَها عند إرادة الصَّلاة.

وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ.

أي: إنَّ اليهود والنَّصارى يَعلمون مِن كتُبهم أنَّ استقبال النبيّ - ﷺ - والمؤمنين الكَعبةَ، أمرٌ حقٌّ، قد فرَضه الله سبحانه وتعالى.

وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ.

أي: إنَّ الله تعالى ليس بساهٍ عمَّا يعمل هؤلاء الذين يَعلمون الحقَّ، ويُنكرونه ولا يَتَّبعونه؛ فما يَعملونه من سوءٍ محفوظٌ عند الله تعالى؛ ليعاقبَهم عليه، وبالضدِّ؛ يَحفَظ للمؤمنين امتثالَهم لأوامره، فيُجازيهم بذلك.[216]

القراءات ذات الأثر في التفسير:

في قوله تعالى: يَعْمَلُونَ قراءتان:

---

(216) في المراد بقوله:﴿وما الله بغافل عما يعملون﴾ قولان،
الأول: المراد أمة النبي ﷺ. الثاني: المراد أهل الكتاب.
وقد ذكرهما ابن عطية (١/٣٧٥-٣٧٦)، ثم قال معلّقًا: «وعلى الوَجْهَيْن فهو إعلام بأن الله تعالى لا يُهمِل العباد ولا يغفل عنهم».

1- تَعْمَلُونَ بالخطاب.[217]

2- يَعْمَلُونَ بالغيبة.[218]

وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (145).

وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ.

أي: والله لئن جِئتَ يا محمَّدُ، اليهودَ والنَّصارى بكلِّ برهان، وأقمتَ عليهم كلَّ حُجَّةٍ تُثبت أنَّ الحقَّ هو ما جِئتَهم به، من وجوب التحوُّل من قِبلة بيت المقدِس في الصَّلاة إلى التوجُّه شَطرَ المسجد الحرام، فلن يَتركوا أهواءَهم، ويتَّبعوك في ذلك.

---

(217) قرأ بها ابن عامر وحمزة والكسائي.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (223/2).
وينظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 116-117)، ((الكشف)) لمكي (268/1).
(218) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (223/2).
وينظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 116-117)، ((الكشف)) لمكي (268/1).

وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ.

يُنزِّه الله تعالى نبيَّه – ﷺ – عن متابعة قِبلة اليهود أو النَّصارى، ويُخبر عن شدَّة متابعتِه لِمَا أمره الله تعالى به؛ فكما أنَّهم مستمسِكون بأهوائهم، فلا اليهوديُّ يتَّبع قِبلة النصرانِيّ، ولا النصرانيُّ يتَّبع قِبلة اليهوديِّ، فهو أيضًا مستمسِكٌ بأمر الله واتِّباع مرضاته، ولا يتَّبع أهواءهم في جميع أحواله، كما أنَّه لا يُمكنه إرضاؤهم بحالٍ؛ لأنَّ الاختلاف فيما بينهم، واقع؛ ولذا فليس بغريبٍ منهم أنْ لا يتَّبعوا كذلك قِبلةَ محمَّدٍ – ﷺ –.

وفي هذا تَسليةٌ للنبيِّ – ﷺ – والمؤمنين، وتثبيتٌ لهم على الحقِّ، وإنْ خالفهم مَن خالفَهم، وقطْعُ أطماع أهل الكتاب من متابعة النبيِّ – ﷺ – والمؤمنين لقِبلتهم.

وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ.

حذَّر الله تعالى نبيَّه – ﷺ – وأمَّته تبعٌ له في ذلك– مِن اتِّباع أهواء اليهود والنَّصارى، بالتوجُّه نحوَ قِبلتهم من بعد مجيء الحقِّ بالتوجُّه قِبل الكعبة؛ فإنَّه إنْ فعَل ذلك فهو معدودٌ مع الظَّالمين أنفسَهم بترْك الحقِّ، واتِّباع الباطل.

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (146).

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ.

أي: إنَّ اليهود والنَّصارى يَعرِفون من توراتهم وإنجيلهم أنَّ محمَّدًا - ﷺ - حقٌّ، وأنَّ ما جاء به- مِثل صِحَّة التوجُّه نحوَ الكعبة في الصَّلاة- حقٌّ؛ يعرفون ذلك عن يقين تامٍّ، يُماثل يقينَهم بأبنائهم؛ إذ لا يَشتبهون عليهم بغيرِهم.

وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ.

أي: ومع وضوح الحقِّ، وتيقُّن معرفتِه، إلَّا أنَّ طائفةً منهم يَكتُمون النَّاس عن عمْد، ما في كتُبهم من صِفة النبيِّ - ﷺ - وما جاء به من التوجُّه نحو الكعبة وهو الحق.

الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (147).

أي: اعلمْ يا محمَّد، أنَّ الحقَّ وحده هو الذي جاءك من ربِّك، لا ما يقوله اليهود أو النَّصارى، أو غيرهم؛ فلا يحصُل لك أدنى تردُّدٍ وريبةٍ فيه.

وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (148).

وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا.

أي: إنَّ لكلِّ أهل مِلَّةٍ قِبلةً يستقبلونها في صلاتهم، سواء كانت ممَّا ابتدعوه من تِلقاء أنفسهم، أو كانت ممَّا شرَعَ الله تعالى لهم.

القراءات ذات الأثر في التفسير:

في مُوَلِّيهَا قراءتان:

1- (مُوَلَّاهَا) بمعنى موجَّهٌ ومصروفٌ إليها.(219)

2- (مُوَلِّيهَا) بمعنى متوجِّهٌ إليها ومستقبلها.(220)

لَمَّا كانت توليتُهم وجوهَهم نحوَ القِبلة إنما هو لأجْل تزكيةِ النفس وخلاصِها، وكان ذلك لا يحصُل إلَّا بفعل الخير واجتنابِ الشرِّ؛ قال تعالى:

فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ.

أي: بادِروا وسارعوا باغتِنام الطاعات، ومن ذلك استقبال القِبلة التي أمَر الله تعالى بها.

(219) قرأ بها ابن عامر. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: 140).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحُجَّة)) لابن خالويه (ص:90).
(220) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: 140).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحُجَّة)) لابن خالويه (ص:90).

أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللهُ جَمِيعًا إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير.

أي: يحثُّ الله تعالى عبادَه على المسارعة إلى الأعمال الصَّالحات قبل الممات، بإعلامهم أنَّ مرجعهم جميعًا إليه، وسيُحشَرون إليه من أي جِهة ماتوا فيها؛ فهو سبحانه القادِر الذي لا يُعجِزه ذلك، ولا أيُّ شيءٍ سواه.

كما قال تعالى: وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ [المائدة: 48].

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (149).

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ.

أي: ومِن أيِّ موضعٍ خرجتَ يا محمَّد، في سفرٍ كان أو غيره، فتوجَّهْ نحوَ الكعبة للصَّلاة.

وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ.

أي: إنَّ توجُّهك نحو الكعبة يا محمَّد، حقٌّ ثابت لا شكَّ فيه.

وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ.

أي: إنَّ الله تعالى ليس بساهٍ عن عمَل أحد، بل هو مطَّلعٌ على الأعمال جميعِها، وسيُجازي صاحب كلِّ عملٍ بحسب ما قدَّمه، إنْ خيرًا فخير، وإنْ شرًّا فشر.

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (150).

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ.

أي: ومِن أيِّ موضعٍ خرجتَ يا محمَّد، في سفرٍ كان أو غيره، فتوجَّهْ نحوَ الكعبة للصَّلاة، وفي أيِّ موضعٍ وَجِهةٍ كنتم- أيُّها المؤمنون- فعليكم أيضًا أن تستقبلوا الكعبةَ وتتوجَّهوا ناحيتَها عند إرادة الصَّلاة.

لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ.

أي: حوَّلنا قِبلتَكم إلى الكَعبة؛ كي لا يحتجَّ اليهودُ عليكم قائلين: إنكم ما دُمتم قد وافقتمونا في قِبلتنا نحو بيت المقدس، فلِمَ تَعيبون دِيننا، ولِمَ لا تتبعون ملَّتنا؟ لكن ستبقى حُجَّة الظالمين- وهم

مشركو قريش- الذين يحتجُّون عليكم بالباطل قائلين: إنكم ما دُمتم قد عُدتم إلى قِبلتنا، فلا بدَّ أن تتَّبعوا دِيننا.

فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي.

أي: لا تخشَوا هؤلاء الظلمةَ المتعنتين، ولا حُجَجهم الباطلة، وأفرِدوا الخشية لي؛ فإنِّي وحْدي المستحقُّ لذلك.

وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ.

أي: شرَعت لكم استقبال الكعبة؛ لأُكمل لكم شرائعَ ملَّتكم الحَنيفيَّة.

وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ.

أي: ومن أسباب تحويل القبلة إلى الكعبة أنْ ترجُوا بامتثال أوامر الله تعالى نيلَ هُداه، فتَعلموا الحق وتعملوا به؛ ابتغاءَ رِضاه.

سُورةُ البَقَرَةِ

الآيات (151-157)

كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ
وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (151) فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ (152)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (153)

وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ (154)

وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ
الصَّابِرِينَ (155)

الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (156)

أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (157)

غريب الكلمات:

يُزَكِّيكُمْ: يطهِّركم، وأصل الزَّكاة: النَّماء والزِّيادة مع التَّطهيرِ.

الْحِكْمَةَ: إصابة الحقِّ بالعلم والعقل، وأصل (حَكَم): المنْع، وأوَّل ذلك الحَكْم، وهو المنع من الظُّلم. والإحكام هو الفصل والتمييز، والفرق والتحديد الذي به يتحقَّق الشيء ويحصُل إتقانه؛ ولهذا دخل فيه معنى المنْع كما دخَل في الحدِّ، فالمنع جزءُ معناه لا جميع معناه. والحِكمة اسمٌ للعَقل، وإنَّما سُمِّي حِكمة؛ لأنَّه يمنع صاحبه من الجَهل، وقيل: المقصود بها هنا: السُّنة.

وَاشْكُرُوا لِي: الشُّكر: ظهورُ أثَر نِعمة الله على لسانِ عبده: ثناءً واعترافًا، وعلى قلبه: شهودًا ومحبَّةً، وعلى جوارحِه: انقيادًا وطاعةً، وأصلُه: الثناءُ على صانعِ المعروف، وهو ضدُّ الكُفر.

وَلَا تَكْفُرُونِ: الكُفْر: السِّتر والتَّغطية، وهو ضدُّ الشُّكر، وكُفر النِّعمة: سترُها بترك أداء شُكرها، ونسيانُها.

صَلواتٌ: أي: ثناء، وأصل الصَّلَاة: الدُّعاء.

تفسير الآيات:

كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (151).

كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنكُمْ.

أي: بيَّنَّا لكم شرائعَ ملَّة إبراهيم الحنيفيَّة، فأمرْناكم باستقبال الكَعبة؛ نِعمةً من الله تعالى عليكم، مِثل ما أنعم عليكم أيضًا أوَّلَ مرَّة، بإرسال محمَّدٍ - ﷺ - منكم- أيُّها العربُ-؛ إذ يتحدَّث بلِسانكم، وتَعرِفون نَسبَه وخُلُقه؛ وذلك إجابةً لدعوة إبراهيمَ عليه السَّلام.

وكان إبراهيم عليه السلام قد دعا ربَّهُ قائلًا: رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [البقرة: 129].

يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ.

أي: هذا الرَّسول الذي أنعمْنا عليكم بإرساله فيكم، أتَى ليقرأ عليكم القُرآن، ويُطهِّركم من دَنَس الشِّرك والكُفران، ورَذائل الأخلاق والعِصيان، ويبيِّن لكم السُّنَّة ومعاني كلامِ الرَّحمن.

وَيُعَلِّمُكُم مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ.

أي: ويُنبِّئكم بأخبار مَن سلَف، وأخبار ما يأتي من الغُيوب.

فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ (152).

فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ.

أي: عليكم بذِكري في مقابل تلك النعم التي تقدَّم ذكرها. وهذا الذِّكر المأمور به عامٌّ يَشمل ذِكر الله قولًا باللِّسان، وعملًا بالقلب وبالجوارح، ورتَّب الله عزَّ وجلَّ على هذا الذِّكر جزاءً عظيمًا، وهو أن يَذكُر هو سبحانَه مَن ذكَره.

فعن أبي هُرَيرَة رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ - ﷺ - قال: ((يقول اللهُ تعالَى: أنا عندَ ظنِّ عَبْدي بي، وأنا معه إذا ذَكَرني، فإنْ ذَكَرني في نفسِه ذَكرتُه في نفْسي، وإنْ ذَكَرني في ملأٍ ذَكرتُه في ملأٍ خيرٍ منهم)).[221]

وعن أبي هُرَيرَة رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ - ﷺ - قال: ((وما اجتَمعَ قومٌ في بيتٍ مِن بيوتِ اللهِ، يتْلون كتابَ اللهِ، ويَتدارسونه بينهم، إلَّا نَزلتْ عليهم السَّكينةُ، وغَشِيتْهم الرحمةُ، وحفَّتْهم الملائكةُ، وذَكَرهم اللهُ فيمَن عِنده)).[222]

---

(221) رواه البخاري (7405)، واللَّفْظ له، ومسلم (2675).

(222) رواه مسلم (2699).

وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ.

أي: اشكُروني على ما مَنحتُكم من نِعمٍ باللِّسانِ وبالقلب والجوارح، ولا تجحدوا إحساني إليكم.

ومن أعظمِ ذلك: نِعمةُ الإسلام، وإرسالُ محمَّدٍ عليه الصَّلاة والسلام، والهدايةُ إلى الشَّرائع الصَّحيحة، ومنها استقبالُ الكعبة الشريفة.

كما قال تعالى: وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ [إبراهيم: 7].

لَمَّا فرَغ تعالى من بيان الأمر بالشُّكر، شَرَعَ في بيان الصَّبر، والإرشادِ إلى الاستعانة بالصَّبر والصَّلاة؛ فإنَّ العبدَ إمَّا أن يكونَ في نِعمةٍ فيَشكرَ عليها، وإمَّا في نِقمةٍ فيَصبرَ عليها فقال تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (153).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ.

أي: يا مَعشرَ المؤمنين، عليكم بالْتزامِ الصَّبر وأداءِ الصَّلاة؛ فهُما عونٌ لكم على عظيمِ الأعمال.

وذلك مِثل تحمُّل الطاعات كالقِتال في سبيل الله، وترْك المحظورات، وعلى ما يُصيب العبدَ من مصيبات.

إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ.

أي: إنَّه سبحانه وتعالى مع الصَّابرين معيَّةً خاصَّةً تَقتضي قُربَه منهم، ومحبَّتَه لهم، ونصْرهم وتأييدَهم، وإعانتهم.

وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ (154).

وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ.

أي: ولا تقولوا: إنَّ مَن قُتل في سبيل الله عزَّ وجلَّ، فهو ميِّت.

كما قال تعالى: وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ [آل عمران: 169 – 171].

بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ.

أي: ليس الأمرُ كما ظننتم، فالحقُّ أنَّ الشُّهداءَ من بعد مقتلهم، وحتى قِيامِ السَّاعة، أحياءٌ عند الله تعالى، حياةً برزخيَّةً يتمتَّعون فيها في الجَنَّة، ويُصاحبهم الفرحُ العظيم بما أعطاهم الله تعالى من فضْله، ولكن لا يَشعُر النَّاسُ بهذا الأمر في الدُّنيا؛ فليس لديهم أيُّ إدراكٍ لرؤية ذلك، أو الشُّعور به.(223)

---

(223) قال ابنُ جرير (٢/٧٠٠) بعد ما ساق العديد من الآثار الدالة على تنعيم الشهداء وكرامتهم بعد موتهم، مُوَجِّهًا إياها:
«المقصود بذكر الخبر عن حياتهم إنّما هو الخبر عَمّا هُمْ فيه من النعمة، ولكنه –تعالى ذِكْرُه– لَمّا كان قد أنبأَ عباده عَمّا قد خَصَّ به الشهداءَ في قوله: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتًا بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾، وعلِموا حالهم بخبره ذلك، ثم كان المرادُ من الله –تعالى ذِكْرُه– في قوله: ﴿ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء﴾ نَهْيَ خلقه عن أن يقولوا للشهداء: إنهم موتى، تَرْكَ إعادةَ ذِكْرِ ما قد بُيِّنَ لهم من خبرهم».

عن مَسروق بن الأَجدع، قال: ((سألْنا عبدَ اللهِ (هو ابنُ مسعودٍ) عن هذه الآيةِ: وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ قال: أمَا إنَّا سألْنا عن ذلك، فقال: أرواحُهم في جوفِ طيرٍ خُضرٍ، لها قناديلُ مُعلَّقةٌ بالعرشِ، تَسرحُ من الجنةِ حيث شاءت، ثمَّ تأوي إلى تِلك القَناديلِ، فاطَّلع إليهم ربُّهم اطِّلاعةً، فقال: هل تَشتهون شيئًا؟ قالوا: أيَّ شيءٍ نَشتهي، ونحن نسرحُ من الجنةِ حيثُ شِئْنا؟! ففعَل ذلك بهم ثلاثَ مراتٍ، فلمَّا رأَوا أنَّهم لن يُتركوا من أن يَسألوا، قالوا: يا ربِّ، نُريد أن تردَّ أرواحَنا في أجسادِنا حتى نُقتَلَ في سبيلِك مرةً أخرى، فلمَّا رأى أنْ ليس لهم حاجةٌ تُرِكوا)).[224]

وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (155).

وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ.

أي: ولَنَختبرنَّكم بشَيءٍ يَسيرٍ يقَع في قلوبِكم من الخوف، وفي أَجسادِكم من الجُوع، ولَنَبتلينَّكم بذَهاب بعض أموالِكم، وموتِ بعضِكم، كأبنائِكم وأَهلِيكم وأقارِبكم، وحُصولِ النَّقْص في ثِمارِكم.

وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ.

أي: أخبِر الصَّابرين يا محمَّد، خبرًا يَسرُّهم لم يسبقْ أنْ أخبرَهم به أحدٌ من قبلُ.

(224) رواه مسلم (1887).

الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (156).

بيَّن سبحانه هنا مَن الصَّابرون الذين أمَر نبيَّه – ﷺ – ببِشارتهم، فأخبَرَ أنَّهم الذين يقولون– عن اعتقاد ويقين –:

إنَّهم عبيدٌ مملوكون لله الذي له مُطلَق التصرُّف فيهم بحِكمته ورحمته، وإنَّهم منتقِلون من هذه الدُّنيا الفانية وممَّا فيها من مصائب، وصائِرون إليه وحْدَه يومَ المعاد، فيُجازي كلَّ عاملٍ بعمله.

عن أمِّ سَلمةَ رضي الله عنها، أنَّ رسولَ الله – ﷺ – قال: ((ما من مُسلمٍ تُصيبُه مُصيبةٌ فيقولُ ما أمره اللهُ: إنَّا للهِ وإنَّا إليه راجِعون! اللَّهمَّ أْجُرْني في مُصيبتي وأَخْلِفْ لي خيرًا منها– إلَّا أخلف اللهُ له خيرًا منها. قالت: فلمَّا مات أبو سَلمةَ قلتُ: أيُّ المسلمين خيرٌ من أبي سلمةَ؟! أوَّلُ بيتٍ هاجر إلى رَسولِ اللهِ – ﷺ –!

ثمَّ إنِّي قلتُها، فأخلف اللهُ لي رسولَ اللهِ – ﷺ –؛ قالت: أرسل إليَّ رسولُ اللهِ – ﷺ – حَاطب بنَ أبي بَلْتَعةَ يَخطُبُني له، فقلتُ: إنَّ لي بنتًا وأنا غيورٌ، فقال: أمَّا ابنتُها فندعو اللهَ أن يُغنيَها عنها، وأَدْعو اللهَ أن يَذْهَبَ بالغيْرةِ)).[225]

أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (157).

---

(225) رواه مسلم (1887).

أي: إنَّ هؤلاءِ الصَّابرين المبشَّرين الذين يقولون: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، لهم من الله تعالى ثناءٌ عليهم وتنويهٌ بشأنهم، وتتنزَّل عليهم منه سبحانه الرَّحمات، وهؤلاء هم الذين أرْشدَهم الله تعالى للحقِّ، ووفَّقهم للعمل به.

سُورةُ البَقَرَةِ

الآيات (158-163)

إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا
وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ (158)

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ
يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (159)

إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (160)

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (161)
خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (162)

وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (163)

غريب الكلمات:

شَعَائِرِ: جمْع شَعيرَة، وهي مَا جعَله الله تعالى عَلَمًا لطاعتِه.

لا جُناحَ: لَا بأْس، والجُناحَ: الإثم، وأصل الجنوح: المَيل والعدوان.

تَطَوَّعَ: فَعَل خيرًا غيرَ واجب عليه.

يُنْظَرُونَ: يُنتَظرون، ويُؤخَّرون.

تفسير الآيات:

إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ (158).

سبب النُّزول:

عن عُروةَ بن الزُّبَير قال: ((سألتُ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها، فقلتُ لها: أَرأيتِ قَوْلَ اللهِ تعالى: إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا؛ فواللهِ ما على أَحَدٍ جُنَاحٌ أنْ لا يطوفَ بالصَّفا والمروة، قالت: بِئْسَ ما قلتَ يا ابنَ أختي! إنَّ هذهِ لو كانت كَمَا أَوَّلْتَهَا عليه، كانت: لا جُنَاحَ عليهِ أنْ لا يَتطَوَّفَ بهما، ولكنَّها أُنْزِلَتْ في الأنصارِ، كانوا قبلَ أن يُسلِموا، يُهِلُّونَ لمَناةَ الطَّاغية، التي كانوا يَعبُدونها عندَ المُشلَّلِ، فكان مَن أَهَلَّ يَتحَرَّجُ أنْ يطوف بالصَّفا والمروةِ، فلمَّا أسلموا، سألوا رسولَ اللهِ – ﷺ – عن ذلكَ، قالوا: يا رَسولَ اللهِ، إنَّا كُنَّا نتحرَّجُ أن نطوفَ بينَ الصَّفا والمروةِ، فأنزَلَ اللهُ تعالى: إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ الآية، قالت عائشةُ رضيَ اللهُ عنها: وقد سَنَّ رسولُ اللهِ – ﷺ – الطَّوافَ بينهما، فليس لِأَحَدٍ أن يترُكَ الطوافَ بينهما، ثم أَخْبَرْتُ أبا بكرِ بنَ عبدِ الرَّحمنِ فقال: إنَّ هذا لَعِلْمٌ ما كنتُ سمعتُهُ، ولقد سمعتُ رِجالًا من أهلِ العِلم يَذكرونَ: أنَّ النَّاسَ– إلَّا مَن ذكرتْ عائشةُ– ممَّن كان يُهِلُّ بمناةَ، كانوا يطوفونَ كلُّهم بالصَّفا والمروةِ، فلمَّا ذكرَ اللهُ تعالى الطَّوافَ بالبيتِ، ولم يذكرِ الصَّفا والمروةَ في القرآنِ، قالوا: يا رسولَ اللهِ، كُنَّا نطوفُ

بالصَّفا والمروةِ، وإنَّ اللهَ أنزَلَ الطوافَ بالبيتِ فلمْ يذكُرِ الصَّفا، فهل علينا من حَرَجٍ أن نطوفَ بالصَّفا والمروةِ، فأنزلَ اللهُ تعالى: إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ الآيةُ. قال أبو بكرٍ: فأسمعُ هذهِ الآيةَ نزلتْ في الفَريقيْنِ كِلَيهما، في الَّذين كانوا يَتحرَّجونَ أن يَطوفوا بالجاهليةِ بالصَّفا والمروةِ، والذينَ يَطوفونَ ثم تَحرَّجوا أن يَطوفوا بهما في الإسلامِ؛ من أَجْلِ أنَّ اللهَ تعالى أَمَرَ بالطَّوافِ بالبيتِ، ولم يذكُرِ الصَّفا، حتى ذَكَرَ ذلكَ بعدَما ذكرَ الطَّوافَ بالبيتِ)).[226]

لَمَّا بيَّن الله تعالى أنه إنما حوَّل القبلة إلى الكعبة، وكان في ذلك إحياءٌ لشرائع إبراهيم ودِينه، وكان السعيُ بين الصفا والمروة من شعائر إبراهيم على ما ذُكِر في قصة بناء الكعبة، وسعي هاجر بين الجبلين- فلما كان الأمر كذلك ذكَر الله تعالى هذا الحُكم.

لأنَّه تعالى لَمَّا قال: وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ...، إلى قوله: وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ، قال: إنَّ الصَّفا والمروة من شعائر الله؛ وإنَّما جعلهما كذلك لأنَّهما من آثار هاجر وإسماعيل ممَّا جرى عليهما مِن البلوى.

(226) رواه البخاريُّ (1643)، واللَّفظ له، وروى مسلمٌ بعضَه (1277).

إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ.

أي: إنَّ السَّعي بين الصَّفا والمروة من معالم الدِّين الظاهِرة، التي شرَعها الله تعالى لعباده في الحجِّ.[227]

وفي حديث جابرٍ الطويلِ في صِفة حَجَّة النبيِّ - ﷺ -، قال رضي الله عنه: ((ثمَّ خرَج من الباب إلى الصَّفا، فلمَّا دنا مِن الصَّفا قرأ: إنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ أبدأُ بما بدأَ اللهُ به، فبدأ بالصَّفا، فرقِيَ عليه)).[228]

فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا.

أي: مَن قصَد البيت الحرام لأداء مناسك الحجِّ، أو العمرة، فلا يَتحرَّجَنَّ من الطواف بين الصَّفا والمروة؛ لشُبهة أنَّه من أفعال الجاهليَّة وأنَّهم كانوا يُعظِّمونهما، ويطوفون بينهما.

---

(227) اختُلِف في السَّعْي بين الصفا والمروة؛ فقال قوم: ذلك واجب، ولا يجزئ تاركُه أو ناسيه إلا العودة.
ورأى قومٌ أنّ الدَّم يُجْزِئه، وليس عليه عَوْدٌ لقضائه.
وقال آخرون: الطواف بينهما تَطَوُّعٌ، ولا شيء على من تركه.
ورَجَّح ابنُ جرير (٢/٧٢٤-٧٢٧) القول الأول الذي قال به عائشة، ومالك، والشافعي، مُسْتَنِدًا إلى السنة، والإجماع، والقياس، بما مفاده الآتي:
١- تظاهر الأخبار، وإجماع الجميع على طواف النبي ﷺ بينهما، وأنّ ذلك مِمّا عَلّمه لأمته.
٢- أنه كالطواف بالبيت، لا تجزي منه فدية، ولا بدل، ولا يجزي تاركه إلا العود لقضائه؛ إذ كانا كلاهما طوافين.
وبنحوه عند ابن كثير (١٣٥/٢) وابن تيمية (٣٨٥/١-٣٨٩ بتصرف) استنادًا إلى دلالة العقل.
(228) رواه مسلم (1218).

وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ.

أي: مَن أتى بالطَّاعات المفروضة والمستحبَّة وازداد منها، فلْيعلمْ بأنَّ الله تعالى سيُجازيه بإحسانه؛ لأنَّ الله شاكِر لا يُضيع أجْرَ محسِن، عليمٌ لا يَخفى عنه إحسانُه.

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (159).

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ.

أي: إنَّ عُلماءَ اليهود والنَّصارى[229] الذين أخْفَوا عن النَّاس ما في التَّوراة والإنجيل، من دَلائل إثبات مَبعث النبيِّ – ﷺ – وبيان صِفاته، الذي بيَّنه الله تعالى فيهما بوضوحٍ تامٍّ.

وهذه الآية تعمُّ كلَّ مَن كتَم عن النَّاس ما أوْضحَه الله تعالى في القرآن من البيِّنات، وهي الأدلَّةُ والبَراهين الواضِحة التي تُظهر الحقَّ وتُثبِته، والهدى– وهو العلمُ النَّافع المرشِد لطريق الحقِّ.

(229) ذكر ابنُ عطية (١/٣٩٤) ما ورد في أقوال السلف أنّ المراد بالآية أهل الكتاب، ثم علّق قائلًا: «وتتناول الآية بعدُ كل من كتم علمًا من دين الله يُحتاج إلى بثِّه، وذلك مُفسَّر في قول النبي ﷺ: «مَن سُئِل عن علم فكتمه أُلجم يوم القيامة بلجام من نار».

وهذا إذا كان لا يخاف، ولا ضرر عليه في بثه».

أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ.

أي: يطردُهم الله عزَّ وجلَّ من رحمته، ويطلُب اللاعنون من الله تعالى أن يلعنَهم، واللاعنون قيل: هم الملائكة والمؤمنون، وقيل: هم جميعُ الخلائق، حتى البَهائم تلعنهم.[230]

عن أبي هُرَيرَة رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ - ﷺ - قال: ((مَن سُئِلَ عن علْمٍ علِمَهُ، ثُمَّ كتَمَه، أُلجِمَ يومَ القِيامَة بلِجامٍ من نارٍ)).[231]

وعن أبي هُرَيرَة رضي الله عنه، قال: ((يقولون: إنَّ أبا هريرةَ يُكْثِرُ الحديثَ، واللهُ الموعدُ! ويقولون: ما لِلمُهاجرين والأنصارِ لا يُحدِّثون مثلَ أحاديثِه؟! وإنَّ إخوتي مِن المهاجرين كان يَشْغَلُهم الصَّفْقُ بالأسواقِ، وإنَّ إخوتي مِن الأنصارِ كان يَشْغَلُهم عملُ أموالِهم، وكنتُ امرأً مسكينًا، أَلْزَمُ رسولَ اللهِ -

---

(230) اختُلِف في اللاعِنين؛ فذهب قوم إلى أنهم دواب الأرض وهوامها.
وقال آخرون: هم كل ما عدا بني آدم والجن.
وقال غيرهم: هم الملائكة والمؤمنون.
ورجَّح ابنُ جرير (٢/٧٣٥) القول الأخير، فقال: «لأنّ الله -تعالى ذِكْرُه- قد وصف الكفار بأنّ اللعنة التي تحل بهم إنما هي من الله والملائكة والناس أجمعين، فقال -تعالى ثناؤه-: ﴿إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين﴾ [البقرة:١٦١]، فكذلك اللعنة التي أخبر الله -جَلَّ ذِكْرُه- أنها نازلة بالفريق الآخر الذين يكتمون ما أنزل الله من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس، هي لعنة الله التي أخبر أنّ لعنتهم حالَّةٌ بالذين كفروا وماتوا وهم كفار، وهم اللاعنون؛ لأن الفريقين جميعًا أهلُ كفر».

(231) أخرجه أبو داود (3658)، والترمذي (2649)، وابن ماجه (266)، وأحمد (7561).
حسَّنه الترمذيُّ، وقال ابن القطان في ((الوهم والإيهام)) (218/5): رُواته كلُّهم ثِقات، وحسَّنه مِن هذا الوجه ابنُ كثير في ((طبقات الشافعية)) (441/1)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (3658)، وحسَّنه الوادعي في ((الصحيح المسند)) (1377)، وقال: رجاله رجال الصحيح.

ﷺ - على مِلءِ بطني، فأَحْضُرُ حينَ يَغِيبون، وأَعِي حين يَنْسَوْن، وقال النبيُّ - ﷺ - يومًا: لن يَبْسُطَ أحدٌ منكم ثوبَه، حتى أَقْضِيَ مقالتي هذه، ثم يَجْمَعَه إلى صَدرِه فيَنْسى من مقالتي شيئًا أبدًا، فبَسَطْتُ نَمِرَةً ليس عليَّ ثوبٌ غيرَها، حتى قضى النبيُّ - ﷺ - مقالتَه، ثم جَمَعْتُها إلى صدْري، فوالذي بعَثَه بالحقِّ، ما نَسِيتُ مِن مقالتِه تلك إلى يومي هذا، واللهِ لولا آيتانِ في كتابِ اللهِ، ما حدَّثْتُكم شيئًا أبدًا: إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ إلى قوله: الرَّحِيمُ)).[232]

وعن حِمران، قال: ((فلمَّا توضَّأ عثمانُ قال: واللهِ لَأُحَدِّثَنَّكم حديثًا، واللهِ لولا آيةٌ في كتابِ اللهِ ما حَدَّثْتُكُموه! إني سمِعتُ رسولَ اللهِ - ﷺ - يقولُ: لا يتوضأُ رجلٌ فيُحسِنُ وُضوءَه، ثم يُصلِّي الصَّلاةَ، إلا غُفِرَ له ما بينَه وبينَ الصَّلاةِ التي تَلِيها، قال عُروةُ: الآية: إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى، إلى قوله: اللَّاعِنُونَ)).[233]

إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (160).

إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا.

أي: استثنى الله عزَّ وجلَّ منهم مَن رجَع عن كِتمانه، معترفًا لله تعالى بذنبه، مُصلحًا حالَ نفْسه، مبيِّنًا للنَّاس ما كتَمَه.

---

(232) رواه البخاري (2350).

(233) رواه مسلم (227).

فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ.

أي: هؤلاء الذين فعَلوا هذا الذي وصفتُ منهم، هم الذين أَقبل توبتَهم؛ فأنا التوَّاب- أي: كثير التوب- الذي يوفِّق عباده للتوبة أولًا، ويَقبلها منهم ثانيًا، فضلًا منِّي ورحمة، فبِتَوبتي أغفِر لهم المعاصي والسيِّئات، وبِرَحمتي أُيسِّر لهم الطَّاعات والخيرات.

لَمَّا لعَن الله الكاتمين؛ واستثنى منهم التائبين، ذكَر المُصرِّين، معبِّرًا عن كتمانهم بالكُفر؛ لتعمَّ العبارةُ كلَّ كُفر، فقال:

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (161).

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ.

أي: إنَّ الكفار الذين ظلُّوا على كفرهم حتَّى مماتِهم، ولم يتوبوا.

أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ.

أي: إنَّ الله تعالى يطردُ أولئك الكفَّار من رحمته، وأمَّا الملائكة وجميع النَّاس فيَسألون الله عزَّ وجلَّ أن يُبعدَهم ويطردَهم من رحمته.(234)

---

(234) اختُلِف في قوله: ﴿والناس أجمعين﴾ وهم لا يلعنون أنفسهم؛
فقال قوم: المراد بالناس: المؤمنون خاصة.
وقال آخرون: معنى ذلك: أنّ الكفرة يقولون في الدنيا: لعن الله الكافرين. فيلعنون أنفسهم من حيث لا يشعرون.
وقال غيرهم: بل ذلك في الآخرة حيث يلعن الكافر نفسه.

خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (162).

خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ.

أي: هم خالدون أبدًا في هذه اللَّعنة[235] المستَتْبِعةِ للخلود الأَبديّ في نار جهنَّمَ، التي لا يَنقُص فيها عذابُهم زمنًا ولا مِقدارًا؛ فهُم في عذابٍ دائمٍ وشديد.

كما قال تعالى: وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ [فاطر: 36].

وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ.

أي: لا يُمهلون فيُؤخَّر عنهم العذاب.[236]

ورجَّح ابنُ جرير (٢/٧٤٢) القولَ الثاني فقال: «وأَوْلى هذه الأقوال بالصـــواب عندنا قولُ مَن قال: عنى الله بذلك جميعَ الناس بمعنى لعنهم إياهم بقولهم: لعن الله الظالم أو الظالمين، فإن كلَّ أحد من بني آدم لا يمتنع من قِيلِ ذلك كائنًا من كان، ومن أي أهل ملة كان، فيدخل بذلك في لعنته كل كافر كائنًا من كان، وذلك بمعنى ما قاله أبو العالية؛ لأن الله –جل ثناؤه– أخبر عمن شهدهم يوم القيامة أنهم يلعنونهم، فقال –جل ثناؤه–: ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذبًا أولئك يعرضون على ربهم ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين﴾ [هود:١٨]».

(235) وقيل الضمير يعود على اللعنة والمراد لازمها وأثرها وجزاؤها،
وممن ذهب إلى هذا القول: ابن جرير في ((تفسيره)) (744/2)، والقرطبي في((تفسيره)) (190/2).
واختار ابن عاشور في ((تفسيره)) (73/2): أنَّ الضمير يعود على جهنم، وجوَّز القول السابق.

(236) ذكر ابنُ عطية (٣٩٧/١) أنّ معنى ﴿ينظرون﴾: يؤخرون.
ثم ذكَر أنه يحتمل أن يكون من النظر نحو قوله تعالى: ﴿ولا ينظر إليهم يوم القيامة﴾ [آل عمران:٧٧].
ورجَّح المعنى الأول مستندًا إلى اللغة، فقال: «والأول أظهر؛ لأن النَّظر بالعين إنَّما يُعَدّى بـ(إلى)، إلا شاذًّا في الشعر».

وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ (163).

أي: إنَّ معبودَكم واحدٌ، لا معبود بحقٍّ سواه، فهو المنفرِد في ذاته وأسمائِه وصِفاتِه وأفعالِه جلَّ وعلا، وهو الذي وسعتْ رحمتُه كلَّ شيء، ومن رحمته: أنْ أَوجَد عباده، وعرَّفهم على نفْسه بآياته وآلائِه.

سُورةُ البَقَرَةِ

الآيات (164–167)

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا
يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ
دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ
(164) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ
حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ
(165) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ
(166) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ
أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (167)

غريب الكلمات:

الْفُلْكِ: السُّفن، وواحده وجمْعه بلفظٍ واحد، وأصل الفَلَك: الاستدارةُ في الشَّيء، ولعلَّ السُّفن سُمِّيت فُلكًا؛ لأنَّها تُدار في الماء.

بَثَّ: فرَّق ونشَر.

الْمُسَخَّرِ: المُذلَّل، وَالمُيسَّر.

أَنْدَادًا: أمثالًا، ونُظراء مُناوئين، وشركاء.

تَبَرَّأَ: تَباعَد وفارَق، ولـ(بَرَأ) أصلانِ ترجع إليهما فروع معانيه؛ الأوَّل: التقصِّي ممَّا يُكره مجاورتُه، والتباعُدُ من الشيءِ ومزايلتُه، ومنه: البُرء والبَراء والتَّبرِّي والتبرُّؤ. الثاني: الخَلْقُ؛ يُقالُ: بَرَأَ اللهُ الخَلْقَ يَبرؤُهمْ بَرْءًا.

الْأَسْبَابُ: أي: الوصلاتُ، وأصل (سَبَب): الحَبْل يشدُّ بالشَّيْء فيجذب به، ثمَّ جُعِل كلُّ ما جرَّ شَيْئًا (سَببًا)، وسُمِّي كلُّ ما يُتوصَّل به إلى شيءٍ (سببًا).

كَرَّةً: رَجْعَة إلى الدُّنيا، والكَرُّ: الرُّجوع إلى الشَّيءِ بعدَ المرَّة الأولى، والعطف عليه بالذَّات أو بالفِعل.

حَسَرَاتٍ: الحسراتُ جمْع حَسْرة، وهي أشدُّ النَّدامة على ما فاتَ ولا يُمكن ارتجاعُه؛ والغمُّ عليه، وأصل (حسر): كَشْف الشَّيْء؛ ومِنه الحَسرة، كأنَّه انحسرَ– انكشَف– عنه الجهلُ الذي حمَله على ما ارتكبَه، أو انحسَر قواه من فَرط غمٍّ، أو أدركه إعياءٌ مِن تدارُك ما فرط منه.

تفسير الآيات:

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (164).

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ.

أي: إنَّ في إنشاء السَّموات والأرض وابتداعهما، وما أودَع الله تعالى فيهما من العَجائب.

وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ.

أي: تعاقبِها الدَّائم، بحيث يَجيء أحدُهما، ثم يذهب، ويخلُفه الآخَر مباشرةً دون أن يتأخَّر عنه لحظة، وكذا اختلافهما في الضِّياء والظُّلمة، والحرِّ والبَرد، والطُّول والقِصَر.

كما قال تعالى: وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا [الفرقان: 62].

وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ.

أي: السُّفن التي تَسير في البحر، فيَنتفع النَّاسُ بالتنقُّل عبْرَها من مكان لآخَر، وبجلْب البضائع، وصَيد الأسماك، وغير ذلك.

وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا.

أي: المطر الذي أنزله الله تعالى من السَّحاب، فأنبتتْ بسببه الأرضُ بعدَ أن كانت قاحلةً مُجدِبةً.

وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ.

أي: نشَر في أقطارِ الأرض جميعها، كلَّ ما يمشي على وجهها من مختلف أنواعِ الحيوان.

وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ.

أي: تَنويعِها في الركود والهُبوب، وفي الاتِّجاه، والشِّدَّة والنَّفع، فتهبُّ من عِدَّة اتجاهات، وتختلف شِدَّةً وضعفًا، ونفعًا للنَّاس، أو هلاكًا وضرًّا.

وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ.

أي: السَّحاب الواقِع في جوِّ السَّماء، المذلَّل بأمْر الله تعالى لمصالح الخَلْق.

لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ.

أي: في تِلك الأمور المذكورة، علاماتٌ ودَلالات واضحةٌ على وَحدانية الله تعالى، وعلى كمال صِفاته، وعظيم أفعاله، ولكن لِمَن لديه عقلٌ رشيد، يتدبَّر به، ويَفهم عن الله تعالى مقصودَه.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (165).

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ.

أي: إنَّ بعض النَّاس يجعَلون من بعض الخَلق نُظَراءَ لله سبحانه، بمساواتهم معه في المحبَّة، فيحبُّونهم كما يحبُّون الله تعالى.

وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ.

أي: إنَّ المؤمنين أشدُّ حبًّا للهِ عزَّ وجلَّ من محبَّةِ أولئك لله تعالى ولأندادهم.

وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ.

أي: لو عاينتَ يا محمَّدُ، حالَ هؤلاء الَّذين نَقَصوا اللهَ تعالى حقَّه، ونَقَصوا أنفسهم حقَّها باتِّخاذهم أندادًا يُحبُّونهم كحبِّهم لله، وعاينوا هم أيضًا حالهم تلك، حين يرون عذابَ الله عزَّ وجلَّ يومَ القيامة فيَعلمون حينها يقينًا أنَّ القوة والقدرة كلَّها لله تعالى وحده، ويَعلمون شِدَّة عذابه لِمَن كفَر أو أشرك

به، وأنه ليس للأنداد التي اتَّخذوها شيءٌ من تلك القدرة الإلهيَّة؛ فيتبيَّن لهم عندئذٍ عَجزُها وضعفُها، وأنَّها لا تدفع عنهم ضرًّا، ولا تجلب لهم نفعًا.

القراءات ذات الأثر في التفسير:

في قوله تعالى: يرى قراءتان:

1- (تَرَى) ومعناها: ولو ترَى يا محمَّد هؤلاء المشركين عند رُؤيتهم العذابَ.(237)

2- (يَرَى) ومعناها: ولو رأى الذين كانوا يُشركون في الدنيا عذابَ الآخرة.(238)

إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (166).

إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا.

أي: أخبر اللهُ عزَّ وجلَّ أنَّ المتبوعين على الكفر والشرك والضلال، يتبرَّؤُون حين يعاينون عذاب الآخرة ممَّن اتبعهم واتخذهم أندادًا يحبهم كحبه لله تعالى، ويتنصَّلون منهم ومن عبادتهم لهم.(239)

---

(237) قرأ بها ابنُ عامر ونافع.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: 146).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زَنْجلَة (ص: 119، 120)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (212/2).

(238) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: 146).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زَنْجلَة (ص: 119، 120)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (212/2).

(239) اختُلِف فيمن عُنِي بهذه الآية؛ فقال قوم: هم الرؤساء والقادة، يتبرؤون ممن اتبعوهم.

وقال آخرون: هم الشياطين، يتبرؤون من الإنس الذين اتبعوهم.

كما قال الله عزَّ وجلَّ: وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا [مريم: 81–82].

وقال تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام: وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ [العنكبوت: 25].

وقال جلَّ وعلا: وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [سبأ: 31–33].

وقال تعالى: وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا [الكهف: 53].

وجَمَع ابنُ جرير (٣/٢٤) بين القولين لاندراجهما تحت العموم الذي أفادته الآية، فقال: «والصــواب من القول عندي في ذلك: أنّ الله –جَلَّ ثناؤه– أخبَرَ أنّ المُتَّبِعِين على الشرك بالله يَتَبَرَّؤُون من أتباعهم حين يُعايِنُون عذاب الله، ولم يُخَصِّص بذلك منهم بعضًـــا دون بعض، بل عَمَّ جميعَهم، فداخلٌ في ذلك كُلُّ متبوع على الكفر بالله والضــلال أنّه يتبرأ من أتباعه الذين كانوا يتبعونه على الضلال في الدنيا إذا عاينوا عذاب الله في الآخرة».

وبنحوه قال ابنُ عطية (١/٤٠٤).

وقال سبحانه: وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ [الأنعام: 94].

وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ.

أي: عايَن الأتباعُ عذابَ جهنَّم، وأيقَنوا أنهم وارِدوها، لكن لا حيلةَ لهم للفرار منها، وانقطعت كلُّ وسيلةٍ تشبَّثوا بها من قبلُ للنجاة؛ كاتخاذِهم أندادًا يساوونهم بالله تعالى في محبَّتِه، انقطعت بهم انقطاعًا شديدًا، فسقط الجميعُ– أتباعًا ومتبوعين– هالكينَ في النَّار.(240)

كما قال تعالى: وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا [الكهف:53].

---

(240) اختُلِف في معنى الأسباب؛ فقال قوم: هي المودة.

وقال آخرون: هي المنازل التي كانت لهم من أهل الدنيا.

وقال غيرهم: هي الأرحام.

وذهب قوم إلى أنها الأعمال التي يعملونها في الدنيا.

وجَمَعَ ابنُ جرير (٣/٣٠بتصرف) بين الأقوال الواردة، فقال بعد ذِكْرِها: «وكُلُّ هذه المعاني أسبابٌ يُتَسَبَّبُ في الدنيا بها إلى مطالب، فقطع اللهُ منافعها في الآخرة عن الكافرين به؛ لأنّها كانت بخلاف طاعته ورضاه؛ فهي مُنقَطِعَةٌ بأهلها. ومن ادّعى أن المعنى بذلك خاصٌّ من الأسباب سُئِل عن البيان على دعواه مِن أصل لا مُنازِع فيه، وعُورِض بقول مخالفه فيه، فلن يقول في شيء من ذلك قولًا إلا أُلْزِم في الآخر مثله».

وقال سبحانه: وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ [الأنعام: 94].

وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (167).

وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُوا مِنَّا.

أي: تمنَّى أتباعُ الضَّلالة نادمينَ أنْ لو كانت لهم فرصةٌ أخرى للرُّجوع إلى الدُّنيا دارِ العمل؛ لِيتمكَّنوا فيها من التبرُّؤ ممن اتَّخذوهم أندادًا، ولِيُخلِصوا المحبَّةَ والعملَ لله تعالى وحده، ولِيَشْفوا غيظَ قلوبهم من مَتْبوعيهم الذين تبرَّؤوا منهم وخذلوهم.

كما قال سبحانه: وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ تَاللهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ [الشعراء: 91–102].

وقال تعالى: وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ [الأنعام: 27–28].

كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ.

أي: أخبرَ الله تعالى عن شُعورِهم بالنَّدم الشَّديد حين انكشف لهم خُبثُ أعمالِهم،[241] وتفريطُهم في جَنْبِ الله تعالى، وقد تبيَّن لهم يقينًا أنَّ ما رأَوْه مِن عملِهم في الدنيا خيرًا قد تلاشى واضمحلَّ هباءً منثورًا، كسرابٍ من الأوهام تعلَّقوا به للنَّجاة، وحين أتَوْه لم يرَوْا من أعمالهم شيئًا، عدا أثرها مِن الحسَرات والعقوبات.

---

(241) اختُلِف في تفسير ﴿أعمالهم﴾؛

فقال قوم: المعنى: الفاسدة التي ارتكبوها، فوجبت لهم بها النار.

وقال آخرون: هي الصالحة التي تركوها، ففاتتهم الجنة.

ورجَّح ابنُ جرير (٣/٣٥–٣٦) مُسْتَنِدًا لظاهر القرآن القولَ الأول الذي قاله الربيع، وابن زيد، فقال: «لأنّ الله أخبر أنّه يُريهم أعمالهم نَدمًا عليهم؛ فالذي هو أولى بتأويل الآية ما دلّ عليه الظاهرُ دون ما احتمله الباطن الذي لا دلالة على أنه المَعْنِيُّ بها».

ووجَّه ابنُ عطية (١/٤٠٥) إضافة الأعمال الفاسدة إليهم، فقال: «وأما إضافة الفاسدة إليهم فمن حيث عَمِلُوها».

وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ.

أي: إنَّ هؤلاء الذين وصَف الله تعالى حالَهم، لا يَنفعُهم تحسُّرُهم وندمُهم؛ فهم باقون في النَّار، غيرُ خارجينَ منها إلى غيرِ حدٍّ ولا نهاية.

سُورةُ البَقَرَةِ

الآيات (168-173)

يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (168) إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (169)

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (170) وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (171)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (172) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (173)

غريب الكلمات:

الْفَحْشَاءِ: ما عظُم قبْحه وفحُش، مِن الأفعال والأقوال.

أَلْفَيْنَا: وجْدنا.

يَنْعِقُ: يَصيح؛ يقال: نعَق بالغنمِ ينعِق بها إذا صاح بها، فلا تَدري ما يقول لها، إلَّا أنَّها تنزجر بالصَّوت عمَّا هي فيه.

اضْطُرَّ: أُلْجِئَ، والاضْطِرَارُ: يُطلق على حمْل الإنسانِ على ما يَضُرُّهُ وما يكرهه، إمَّا بسببٍ خارج؛ كمَن يُضرَب، أو يُهدَّد، حتى يفعلَ منقادًا، ويُؤْخَذ قهرًا، وإمَّا بسببٍ داخل؛ كالقهر بقوَّةٍ يناله بدفعها الهلاك، كمَن اشتدَّ به الجوعُ فَاضْطُرَّ إلى أكْل ميتة.

غير بَاغٍ: غير طالبٍ ما ليس له طلبُه.

وَلَا عَادٍ: وَلَا متجاوزٍ الحَدَّ.

تفسير الآيات:

يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (168).

يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا.

يُخاطب اللهُ تعالى جميع النَّاس؛ مؤمنهم وكافرهم، آذِنًا لهم بأن يأكلوا مِن جميع ما في الأرض من نباتاتٍ وحيوانات، بشرْط أنْ يكونَ حلالًا، وطاهرًا غيرَ ضارٍّ.

وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ.

أي: لا تسلكوا طريقَ الشَّيطان، ولا تَقتفوا أثرَه الذي أضلَّ فيه أتْباعه، وهو ما دعا إليه ممَّا هو خلاف طاعة الله عزَّ وجلَّ، ومن ذلك: تحريمُ ما أحلَّ اللهُ تعالى من المآكل، وتحليلُ ما حرَّم منها، والدَّعوة إلى تناوُل خبيثها، وترْك طيِّبها، لا تُطيعوا هذا العدوَّ الظاهر العدواة، الذي يُريد أنْ يقودَكم شيئًا فشيئًا إلى التَّهلُكة.[242]

---

(242) اختُلِف في تفسير خطوات الشيطان؛
فقال قوم: هي عمله.
وقال غيرهم: خطاياه.
وذهب قوم إلى أنها: طاعته.
وذهب آخرون إلى أنها: النذور في المعاصي.

كما قال تعالى: قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللهُ افْتِرَاءً عَلَى اللهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ [الأنعام: 140–142].

إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (169).

إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ.

أي: إنَّ الشيطانَ يأمُرُ بالأعمال السيِّئة الآثِمة التي تسُوءُ عاقبتُها، وتسُوء صاحبَها، كما يأمُرُ أيضًا بما هو أغلظ من ذلك مما يتناهى قُبحُه، ويتجاوزُ حدَّه كالزِّنا.(243)

وجَمَع ابنُ جرير (٣/٣٩بتصرف) بين هذه الأقوال بأنّ بعضها قريب من بعض، فقال: «وهذه الأقوال قريبٌ معنى بعضِها من بعض؛ لأن كلَّ قائلٍ منهم قولًا في ذلك فإنّه أشار إلى نهي اتِّباع الشيطان في آثاره وأعماله. غير أن حقيقة تأويل الكلمة هو أنها: بُعْدُ ما بين قدميه. ثم تستعمل في جميع آثاره وطُرُقِه».

وبنحوه قال ابنُ عطية (١/٤٠٧)، حيث قال: «وكلُّ ما عدا السنن والشرائع من البدع والمعاصي فهي خطوات الشيطان».

(243) وجَّه ابنُ جرير (٣/٤٠) تفسيرَ الفحشاء بالزنا، فقال: «إنّما سُمِّي بذلك لقُبْح مسموعِه، ومكروه ما يُذْكَر به فاعِلُه».

وقال ابنُ عطية (١/٤٠٨بتصرف) مُعلِّقًا: «وأصل الفحش: قُبْحُ المنظر. ثُمَّ استُعْمِلَت اللفظةُ فيما يُسْتَقْبَحُ من المعاني. فكلُّ ما نَهَتْ عنه الشريعة فهو من الفَحْشاء».

وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ.

أي: يأمُرُ الشَّيطانُ النَّاسَ أيضًا باختلاقِ أعمالٍ باطلة تُنسب مشروعيَّتُها إلى الله عزَّ وجلَّ، كذبًا وافتراءً عليه جلَّ وعلا، وإلا فليس لهم مستنَدٌ مِن علمٍ صحيحٍ يُثبتُ أمرَ اللهِ تعالى بها، ومن ذلك تحريمُ ما أحلَّ الله تعالى، أو تحليل ما حرَّمه مِن المأكولات.

كما قال سبحانه: فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ [النحل: 114–116].

وقال تعالى: يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ [الأعراف: 27–28].

وقال عزَّ وجلَّ: قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا

ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ [الأعراف: 32-33].

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (170).

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ.

أي: إذا قيل للمشركين: التزِموا باتّباع الوحيِ الإلهيّ فحسبُ؛ فأحِلُّوا حلالَه، وحرِّموا حرامَه، دون التَّقوُّلِ على الله تعالى بلا عِلمٍ واتِّباعِ الأوهام.

قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا.

أي: أعرَضوا عن الوحي، وهو العلم النَّافع حقًّا، وأخَذوا بما وجَدوا عليه أسلافهم، فقلَّدوهم فيه، ومن ذلك تحريمُ ما أحلَّ اللهُ تعالى، وتحليلُ ما حرَّمه.

أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ.

أي: أيتَّبعون آباءَهم حتى لو كانوا على هذه الحالِ التي لا يستحقُّون أنْ يُتَّبعوا فيها؛ إذ ليس لديهم عقلٌ سليم يُرشِدهم إلى اتِّباع الحقِّ، ويزجُرُهم عن اتِّباع الباطل، ولا يحمِلون عِلمًا نافعًا يعمَلون على وَفْقِه عملًا صالحًا؛ فكيف يتَّبعون هؤلاء ومِثْلُهم لا يصلُحُ أنْ يُقتدى بهم؟!

كما قال سبحانه: مَا جَعَلَ اللهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ [المائدة: 103–104].

وقال تعالى: وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ [لقمان: 20–21].

وقال جلّ وعلا: إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ [الصافات: 69–70].

وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (171).

وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً.

أي: شبَّه اللهُ تعالى الكفَّارَ عند دعوة الدَّاعي لهم إلى الإيمان –كالنبيِّ – ﷺ – شبَّههم بالبهائمِ التي يصوِّت لها راعيها، فتسمَعُ الصَّوت ولا تفهَمُ المعنى، فكذلك حالُ الكفَّارِ الَّذين لا ينتفعون مِن تلك الدَّعوة بشيء، لكنَّهم يسمعون ما تُقام عليهم به الحجَّة.

صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ.

أي: إنَّ قلوبهم لَمَّا لم تؤمن، تعطَّل انتفاعهم الحقيقي بحواسِّهم تبعًا لذلك، فلا يسمعون الحق سماع فَهمٍ وقَبول، ولا ينطقون به، ولا يبصرون طريقه، فقلوبهم لا تعقل شيئًا من الحق.

كما قال تعالى: وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ [الأنعام: 110].

وقال عزَّ وجلَّ: أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا [الفرقان: 44].

وقال جلَّ وعلا: وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ [الأعراف: 179].

وقال أيضًا: أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ [الحج: 46].

وقال سبحانه: وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ [يونس: 42-43].

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (172).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ.

أي: يأمُرُ اللهُ تعالى عبادَه المؤمنين بالأكل ممَّا أحلَّ اللهُ تعالى لهم؛ من أنواع المطعوماتِ الطَّاهرة النَّافعة، التي رزَقهم إيَّاها، كما أمَرهم أيضًا بالقيام بشُكره؛ بقلوبهم، وألسنتِهم، وجوارحهم.

كما قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ [المائدة: 87–88].

وعن أبي هُريرَة رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ – ﷺ – قال: ((أيها النَّاسُ، إنَّ اللهَ طيِّبٌ لا يقبلُ إلا طيِّبًا، وإنَّ اللهَ أمر المؤمنين بما أمَر به المرسلين، فقال: يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ [المؤمنون: 51] ، وقال: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ [البقرة: 172] ، ثم ذكَر الرجلَ يُطيلُ السَّفرَ، أشعثَ أغبرَ، يمدُّ يدَيه إلى السَّماءِ، يا ربِّ، يا ربِّ، ومطعَمُه حرامٌ، ومشرَبُه حرامٌ، وملبَسُه حرامٌ، وغُذِيَ بالحرام، فأنَّى يُستجابُ لذلك؟!)).(244)

وعن أنسٍ رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ – ﷺ – قال: ((إن اللهَ لَيرضَى عن العبدِ أنْ يأكلَ الأَكْلةَ فيحمَدَه عليها، أو يشرَبَ الشَّربةَ فيحمَدَه عليها)).(245)

---

(244) رواه مسلم (1015).
(245) رواه مسلم (2734).

إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ.

أي: إنْ كنتم تُطيعون الله تعالى حقًّا، وتخضَعون له ممتثلينَ لأوامرِه، ومجتنبين لنواهيه، فكُلوا ممَّا رزَقكم اللهُ تعالى، واشكروه على ما أنعَم به عليكم.

إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (173).

إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ.

أي: قد حرَّم الله تعالى عليكم- أيُّها المؤمنون- الميتةَ التي ماتت حتْفَ أنفها دون ذكاةٍ شرعيَّة، والدَّم المسفوح، ولحم الخنزير- ويدخُل فيه شحمُه- وما ذُبح على غير اسم الله عزَّ وجلَّ، كالذي يُذبَح للأصنام، ويُسمَّى عليه بغير اسمه سبحانه، مع رفْع الصَّوت بذلك.

فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْه.

أي: مَن ألجأتْه الضرورةُ إلى الأكْل من تلك المحرَّمات وهو غير مبتغٍ لتناولِها مع قدرته على الحلال، أو مع عدم جوعه، وغير متجاوزٍ قدْرَ الضَّرورة، فلا يتناول منها إلَّا بمقدارِ ما يسدُّ جوعه، فمَن كانت حاله كذلك فليس عليه إثمٌ مِن تناولِ تلك المحرَّمات.(246)

ثم ذكَر تعالى تعليلَ الحُكمِ بانتفاءِ الإثم، فقال:

إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

أي: إنَّ الله سبحانه وتعالى يَغفِر ذنوبَ عباده، فيسترها ويتجاوز عن المؤاخذةِ بها، ومن ذلك أنَّه رفَع بمغفرته الإثمَ عنهم في تناوُل ما حرَّمه؛ تجاوزًا منه سبحانه، وهو الرَّحيم بعباده، ومن رحمته أنْ شرَع لهم ذلك توسعةً منه.

(246) اخْتُلِف في تفسير قوله: ﴿غير باغٍ ولا عادٍ﴾؛
فقال قوم: ﴿غير باغٍ﴾ غير خارج على الأمة بسيفه.
وقال آخرون: بل تأويل ذلك: فمن اضطر غير باغٍ في أكله شهوة، ولا عادٍ فوق ما لا بُدَّ له منه.
وقال غيرهم: غير باغٍ الحرام في أكله، ولا مُعْتَدٍ الذي أبيح له منه.
ورجَّح ابنُ جرير (٣/٦٢-٦٣بتصرف) القولَ الأخير وانتقَدَ القولَ الأوَّلَ فقال: «وذلك أنّ الله لم يُرَخِّص لأحد في قتل نفسه بحال، فالواجب على قُطّاع الطريق التَّوْبَةُ من معاصي الله، لا قتل أنفسهما بالمجاعة، فيزدادان إلى إثمهما إثمًا».

سُورةُ البَقَرَةِ

الآيات (174–176)

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (174)

أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ (175)

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (176)

غريب الكلمات:

شِقَاقٍ: أي: عداوةٍ واختلاف، ومباينةٍ ومباعدة، وأصل (شقّ) يدُلُّ على انصداعٍ في الشَّيْءِ، ومنه الشِّقاقُ؛ لأنَّه يؤدِّي إلى انصِداع الجماعَة وتفرُّقها.

تفسير الآيات:

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (174).

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا.

أي: إنَّ اليهود الَّذين كتَموا أمر نبوَّةِ محمدٍ - ﷺ - الثابتةِ في توراتهم، وكتَموا بعض أحكام الله تعالى فيها، وبدَّلوها -كتحريمهم ما أحلَّ اللهُ عزَّ وجلَّ- يبتغون بهذا الكتمانِ نَيْلَ عَرَضٍ من حُطام الدُّنيا الفاني؛ من الأموال، والرِّئاسات، وغيرها.[247]

أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ.

أي: إنَّ جزاءَهم في الآخرة مِن جِنس ما عمِلوه في الدُّنيا، فكما أكَلوا في بطونهم ما حرَّم الله تعالى بما اكتَسَبوه من مالٍ حرامٍ؛ لكتمانِهم العِلمَ- فكذلك يُطعَمون يومَ القيامة نارًا في بطونهم؛ جزاءً وِفاقًا.

---

(247) قال ابنُ عطية (١/٤١٥) مُعلِّقًا بعد ذكره للأقوال التي قالت بنزول الآية في أحبار اليهود: «وهذه الآية وإن كانت نزلت في الأحبار؛ فإنها تتناول من علماء المسلمين من كتَم الحق مُختارًا لذلك لِسَبب دُنيا يُصيبُها».

وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ.

أي: لا يُكلِّمهم الله عزَّ وجلَّ يوم القيامة بكلامِ إكرامٍ ورضًا يسُرُّهم؛ لأنَّه غاضبٌ عليهم، ولا يطهِّرهم من ذنوبهم، ولا يثني عليهم خيرًا؛ لأنَّ قلوبَهم وأعمالَهم دَنِسة، لا تستحقُّ المدحَ والثناء، ولهم مع ذلك كلِّه عذابٌ موجِعٌ، فجمَع الله تعالى لهم بين الألَمِ النَّفسانيِّ والجُسماني.

ولَمَّا ذكَر سبحانه وتعالى جزاءهم، أتبَعه بترجمةِ حالهم، فقال:

أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ (175).

أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ.

أي: إنَّ أولئك الَّذين وصَفهم الله تعالى بكتمانِ العلم، قد استبدلوا- بفِعلهم هذا- بطريقِ الهُدى الذي يقودُهم إلى رضوان الله عزَّ وجلَّ ونعيمِ الآخرة؛ استبدلوه به طُرُقَ الهوَى التي أضلَّتهم عن الصِّراط المستقيم، وبفِعلهم هذا قد استبدَلوا أيضًا بنَيْلِ مغفرةِ الله تعالى استحقاقَ عذابِه.

فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ.

أي: تعجَّب اللهُ سبحانه وتعالى من أولئك القوم الَّذين كتموا وحيَ الله تعالى، كيف حبَسوا أنفسَهم ووطَّنوها على ارتكاب هذا العمل المودِي بهم إلى عذابٍ شديد، وكيف تجرَّؤوا على هذا الصَّنيع وهم يعلَمون سوء عاقبته؟![248]

لَمَّا ذكَر جلَّ وعلا جزاءهم، ذكَر السَّبب الموجِبَ لهذا العقاب العظيم، فقال:

ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (176).

---

(248) اختلف في تفسير ﴿ما﴾؛ فقال قوم: استفهام،

والمعنى: أيُّ شيء صبّرهم على النار؟!.

وقال آخرون: هو تعجب، بمعنى: فما أشدّ جراءتهم على النار لعملهم أعمال أهل النار.

ورَجَّح ابن جرير (٣/٧١) القولَ الثانيَ فقال: «وذلك أنه مسموع من العرب: ما أصبر فلانًا على الله، بمعنى: ما أجْرَأ فلانًا على الله، وإنما يُعجِّب اللهُ –جل ثناؤه– خلقَه بإظهار الخبر عن القوم الذين يكتمون ما أنزل الله –تبارك وتعالى– من أمر محمد ﷺ ونبوته، باشترائهم بكتمان ذلك ثمنًا قليلًا من السُّحْت والرُّشا التي أُعْطُوها، على وجه التَّعَجُّب من تَقَدُّمِهم على ذلك، مع علمهم بأنّ ذلك موجبٌ لهم سخطَ الله وأليمَ عقابه. وإنما معنى ذلك: فما أجرأهم على عذاب النار. ولكن اجْتُزِئ بذكر النار من ذكر عذابها، كما يُقال: ما أشبه سخاءك بحاتم، بمعنى: ما أشبه سخاءك بسخاء حاتم، وما أشبه شجاعتك بعنترة».

ووجَّهه ابنُ جرير (٣/٧٠) فقال: «فمَن قال: هو تعجُّبٌ. وجّه تأويل الكلام إلى: أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما أشد جرأتهم بفعلهم ما فعلوا من ذلك على ما يوجب لهم النار، كما قال –تعالى ذكره–: ﴿قتل الإنسان ما أكفره﴾ [عبس:١٧] تعجبًا من كفره بالذي خلقه وسوّى خلقه».

وبنحوه قال ابنُ عطية (١/٤١٨).

ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ.

أي: إنَّهم استحقُّوا العذابَ على كتمانهم؛ بسبب أنَّ الله عزَّ وجلَّ أنزل كتابَه عليهم بالحقِّ، فحقُّه ألَّا يُكتَم، بل يبيَّن ما يحويه، وكتمانُهم شيئًا من الكتاب كتمانٌ للحقِّ، وذلك مخالِفٌ لمراد الله تعالى؛ لأنَّ ما يُكتَم مِن الحق يخلُفه الباطلُ، فحقَّ عليهم العذابُ.

وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ.

أي: إنَّ الَّذين آمنوا ببعض الكتاب وكفَروا ببعض؛ فكتَموا منه أشياءَ، وأظهَروا أشياءَ- قد فارَقوا الحقَّ، وجانَبوا طريقَ الصواب.

سُورةُ البَقَرَةِ

الآيات (177–179)

لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (177)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (178) وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (179)

غريب الكلمات:

البِرَّ: التوسُّع في فِعل الخير، والاتِّساع فِي الْإِحْسَان، ومن أصوله: الصِّدْقُ.

بِعَهْدِهِمْ عَاهَدُوا: العَهد: حِفظُ الشيء ومراعاتُه، حالًا بعد حال، والمِيثاقُ، فَسمِّي الشيءُ الموثَّقُ الذي يلزم مراعاتُه عهدًا.

عُفِيَ: تُرِك، والعَفْوُ: هو ترْك العقوبة، والتَّجافي عن الذَّنب؛ يُقال: عفوتُ عنه، أي: قصدتُ إزالة ذنبِه صارفًا عنه.

الْقِصَاصُ: مُقابلةُ الفِعل بمثلِه، وتتبُّع الدَّم بالقَوَدِ (أي: قتْل القاتِلِ بالقتيل)، وأصل (قصَّ) يدلُّ على تتبُّع الشيءِ، ومن ذلك اشتقاق القِصاص في الجراح؛ لأنَّه يُفعل به مِثل فعله بالأوَّل، فكأنَّه اقتصَّ أثره.

أُولِي الْأَلْبَابِ: أصحابِ العقول الزَّكيَّة؛ واللُّبُّ: العقل الخالص من الشَّوائب؛ وسمِّي بذلك لكونه خالصَ ما في الإنسان من معانيه.

تفسير الآيات:

لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ

(177).

لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ.

أي: ليس الشَّأن في حصول الخير[249] بلزوم التوجه في الصلاة نحو هذه الجهة أو تلك.

وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ.

أي: مَن اتَّصفَ بهذه الأمورِ الآتيةِ من الاعتقادات والأعمال والأخلاق، فقد أخَذَ بمجامعِ الخيرِ كلِّه، فأمَّا الاعتقادات فهي الإيمانُ بالله تعالى، ومن ذلك: الإيمانُ بوجوده وربوبيَّته، وأُلوهيَّته، وأسمائه وصفاتِه، والإيمانُ باليومِ الآخر، ومنه: الإيمانُ بالبَعث والحساب، والجنة والنار، وغير ذلك من أمور

---

(249) قال ابنُ تيمية (١/٤١٠): «لفظ البِرّ إذا أُطلِق تناولَ جميعَ ما أمَرَ اللهُ به... وكان مُسَـمّاه مُسَـمّى التقوى، والتقوى إذا أُطلِقَت كان مُسَمّاها مُسَمّى البِرَّ، ثُمَّ قد يُجْمَع بينهما كما في قوله تعالى: ﴿وتعاونوا على البر والتقوى﴾ [المائدة:٢]».

الآخرة، والإيمانُ بملائكة الرحمن، كالإيمان بوجودِهم وأعمالهم وصِفاتهم، والإيمانُ بالكتب، كالإيمانِ بأنَّ نزولها من عند الله عزَّ وجلَّ، والإيمانُ بأنبيائه عليهم السَّلام، ومن ذلك: الإيمان بأنَّ رسالتهم حقٌّ من عند الله تبارك وتعالى.(250)

وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ.

أي: ومِن الأعمال الدَّاخلةِ في مسمَّى البِرّ: أنْ يُعطيَ العبدُ المالَ وهو محبٌّ له وراغبٌ فيه،(251) فيدفعه صدقةً لأقارِبه، وللصِّغار الَّذين فقدوا آباءهم وهم دون البلوغ ولا كاسبَ لهم، وللمساكين

---

(250) اختلف أهل التأويل في معنى الآية، والمخاطب بها، على قولين:

أحدهما: المسلمون، والمعنى: ليس البرَّ كله في الصلاة، ولكن البر ما في هذه الآية.

والثاني: أهل الكتابَيْن، والمعنى: ليس البر صلاة اليهود إلى المغرب وصلاة النصارى إلى المشرق، ولكن البر ما في هذه الآية.

ورَجَّحَ ابنُ جرير (٣/٧٦) القولَ الثاني، فقال: «الآيات قبلها مَضَتْ بتوبيخهم ولَومهم، والخبر عنهم وعما أُعِدَّ لهم من أليم العذاب، وهذا في سياق ما قبلها».

وذَهَبَ ابنُ كثير (٢/١٥٥) أنّها نزلت في «طائفة من أهل الكتاب وبعض المسلمين، شَقَّ عليهم التحول إلى الكعبة؛ فأنزل الله تعالى بيان حكمته في ذلك، وهو أنّ المراد إنما هو طاعة الله».

(251) ذكر ابنُ عطية (١/٤٢٠) أن الضمير في ﴿حُبِّهِ﴾ عائد على المال، ثم قال: «ويحتمل أن يعود الضمير على الإيتاء، أي: في وقت حاجة من الناس وفاقة، فإيتاء المال حبيب إليهم،

ويحتمل أن يعود الضمير على اسم الله تعالى من قوله: ﴿مَن آمَنَ بِاللَّهِ﴾ أي: مَن تَصَدَّقَ محبة في الله تعالى وطاعاته.

ويحتمل أن يعود على الضمير المستكن في ﴿آتى﴾ أي: على حبه المال، فالمصدر مضاف إلى الفاعل، والمعنى المقصود: أن يتصدق المرء في هذه الوجوه وهو شحيح صحيح يخشى الفقر ويأمل الغنى، كما قال ﷺ».

الَّذين لا يجِدون ما يَكفيهم ويُغْنيهم، وللمسافر المجتاز يريد نفقةً تُوصلُه لموطنه،[252] وللطَّالبين حاجةً ممَّا يعرِضُ لهم مِن سوء، ولعِتْق الرِّقاب ونحوها.

وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا.

أي: وأتَوْا بالصَّلاة تامَّةً ومستقيمة، وأعطَوُا الزَّكاة التي فرَضها اللهُ تعالى عليهم إلى مستحقِّيها، وأتمُّوا ما التزموا به من عهودٍ مع الله عزَّ وجلَّ ومع الخَلْق، فلم يَنقُضوها من بعدِ ميثاقها.

وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ.

أي: الَّذين حبَسوا أنفسهم عن الجزَع والتسخُّطِ وعمَّا يكرَهُه الله عزَّ وجلَّ، في حال فقرِهم، ومرَضِهم، وفي وقت اشتداد القتال في حربِ الأعداء.[253]

أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ.

أي: إنَّ أولئك المتَّصِفين بما سبَق ذِكرُه من عقائدَ وأعمالٍ وأخلاق، هم الصَّادقون في إيمانهم؛ لأنَّ أعمالَهم قد صدَّقت إيمانَهم، وهم المتَّقون؛ لأنَّهم فعَلوا ما أُمروا به، واجتنَبوا ما نُهوا عنه.

---

(252) قال ابنُ كثير (٢/١٥٩): «﴿وابن السبيل﴾: هو المسافر المجتازُ الذي قد فرغت نفقته، فيُعْطى ما يُوصِله إلى بلده، وكذا الذي يريد سفرًا في طاعة فيُعْطى ما يكفيه في ذهابه وإيابه، ويدخل في ذلك الضيف».

(253) ذَهَبَ ابنُ جرير (٣/٩١)، وابنُ عطية (١/٤٢١)، وابنُ كثير (٢/١٦١) إلى أنّ المراد بقوله: ﴿وحين البأس﴾: وقت شدة القتال في الحرب.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (178).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى.

أي: فُرِض عليكم– أيُّها المؤمنون– تحقيقُ المساواة واعتبارُ المماثَلة في القِصاص بين القتلى، فيُقتَل الحرُّ بالحرِّ، والعبدُ بالعبد، والذَّكَرُ بالذَّكَر، والأُنثى بالأُنثى، فلا تتعدوا بالقصاص إلى غير القاتل والجاني (كما لو قَتلت الأُنثى أُنثى أُخرى، فإنَّ الأنثى الجانية هي التي تُقتل، ولا يَحِلُّ أن يُقتل بهذه الأنثى المقتولة رجلٌ لم يقتلها، ومثل ذلك: الحرُّ بالحرِّ، والعبدُ بالعبد، والذَّكَرُ بالذَّكَر).

فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ.

أي: إذا عفا أولياءُ المقتول فلم يُطالِبوا بدَمِه، سقَط القِصاصُ عن القاتل، ووجبت عليه الدِّيَةُ، والواجب على العافي عند قَبضِ الدِّيَة ألَّا يكلِّفَ القاتلَ ما لم يوجِبْه الله تعالى عليه، ولا يشُقَّ عليه بما لا طاقةَ له به، وعلى القاتل أداءُ ما لزِمه لأولياء المقتولِ من غيرِ مماطَلةٍ ولا إنقاصٍ للدِّيَة، ولا صدورِ إساءةٍ فِعليَّةٍ أو قوليَّةٍ منه لهم، فعلى أولياء المقتول حُسنُ الاقتضاء، وعلى القاتل حُسنُ القضاء.

ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ.

أي: إنَّ ما شرَعه اللهُ عزَّ وجلَّ من إباحةِ العفوِ عن القاتل وأخْذِ الدِّيَة عوضًا عن القِصاص- حُكْمٌ فيه تخفيفٌ من الله تعالى لهذه الأمَّة، ورحمةٌ منه بعباده.

فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ.

أي: مَن تجاوَز ما حدَّه الله تعالى مِن الأحكام السَّابقة للقِصاص- كأنْ يَقتلَ وليُّ المقتولِ القاتلَ بعد العفوِ عنه، أو يعودَ القاتلُ إلى جِنايتِه مرة أخرى- فإنَّ له عقابًا موجعًا، قيل: هو قتلُه في الدنيا، وقيل: عقوبتُه في الآخرة.

وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (179).

أي: إنَّ في مشروعيةِ القِصاص حياةً، لِمَن أعمَل عقلَه؛ ليتدبَّرَ ويفهمَ عن الله تعالى مرادَه من هذا الحُكم، فينزجِر ويجتنِب القتل؛ فإنَّ مَن أراد القتل إذا علِم أنَّه يُقتَل قِصاصًا بمن قتَله، كفَّ عن القتل؛ فكان في ذلك حياةٌ له ولِمَن أراد قَتْلَه، وإذا رُئي القاتلُ مقتولًا انزجر بذلك غيرُه،

كما أنَّه كان في أهل الجاهليَّةِ مَن إذا قُتل الرَّجلُ مِن قومهم قتَلوا به أكثرَ مِن واحد من عشيرةِ القاتل؛ فشرَع اللهُ تعالى القِصاص، فلا يُقتَلُ بالمقتولِ غيرُ قاتلِه، وفي ذلك حياةٌ لقومِه.

سُورةُ البَقَرةِ

الآيات (180-182)

كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (180)

فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (181)

فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (182)

غريب الكلمات:

جَنَفًا: ميلًا ظاهرًا، وعدولًا؛ يقال: جنَف، إذا عدَل وجار.

تفسير الآيات:

لَمَّا كان في الخِطاب السَّابق ذِكْرُ القَتْلِ، والقِصاص الذي هو حالُ حضور الموتِ، انتظَم به ذِكرُ الوصيَّة؛ لأنَّه حالُ مَن حضَره الموتُ، فقال تعالى:

كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (180).

أي: فُرِضَ عليكم- أيُّها المؤمنون- إذا أتَتْكم أسبابُ الموت ومقدِّماتُه، وكان لديكم مالٌ:(254) أنْ تعهَدوا ببعضِ هذا المال إلى الوالدينِ اللَّذيْن لا يرثان لمانع، وإلى الأقارب الذين لا يرثون، وذلك مِن غير إسرافٍ ولا تقتير، ولا اقتصارٍ على الأبعدِ دون الأقرب، بل يُرتِّبون على القُربِ والحاجة،

---

(254) ذَهَب ابنُ جرير (٣/١٣٤) وابنُ كثير (٣/١٦٩) مِن أنَّ الخير في الآية: المال؛ وكذا اختاره ابنُ عطية (١/٤٣٠).
حَكَى الماورديُّ والقرطبيُّ: الإجماعَ على أنَّ الخير هنا بمعنى المال.
يُنظر: ((النكت والعيون)) (231/1)، ((تفسير القرطبي)) (259/2).
وذهب إلى أنَّ الآيةَ غير منسوخة: ابن جرير في ((تفسيره)) (124/3)، والنَّحَّاس في ((الناسخ والمنسوخ)) (ص: 88)، والسعدي في ((تفسيره)) (ص: 85).
وذهب إلى ذلك أيضًا: الحسن البصري، وطاوس، وقَتادة، والعلاء بن زيد، ومُسلِم بن يَسار. يُنظر: ((الناسخ والمنسوخ)) لهبة الله بن سلامة (ص: 41).
وممَّن قال بأنَّ الآية منسوخة بآية المواريث: الواحدي في ((التفسير الوسيط)) (268/1-269)، وابن كثير في ((تفسيره)) (492/1)، وابن عاشور في ((تفسيره)) (149/2).
ورُوي ذلك عن ابن عمر، وأبي موسى الأشعري، وسعيد بن المسيَّب، والحسن، ومجاهد، وعطاء، وسعيد بن جُبير، ومحمد بن سيرين، وزيد بن أسلم، والربيع بن أنس، وقتادة، والسُّدِّي، ومقاتل بن حيَّان، وإبراهيم النَّخَعي، والضَّحَّاك، والزهري. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (299/1).

ودون إجحافٍ بالوَرَثةِ، فلا تُتجاوَزُ الوصيةُ لأولئك بأكثرَ من ثُلُث المال، وهذا أمرٌ ثابتٌ ومؤكَّدٌ على المتَّصفين بالتَّقوى.

عن أبي أمامةَ الباهليِّ رضي الله عنه، قال: ((سمعتُ رسولَ اللهِ – ﷺ – في خطبتهِ عامَ حجةِ الوداعِ: إنَّ اللهَ تباركَ وتعالى، قد أعطَى كلَّ ذي حقٍّ حقَّهُ، فلا وصيةَ لوارثٍ)).[255]

وعن سعد بن أبي وقَّاصٍ رضي الله عنه، قال: ((تشكَّيتُ بمكةَ شكوى شديدةً، فجاءني النبيُّ – ﷺ – يعودني، فقلتُ: يا نبيَّ اللهِ، إني أترك مالًا، وإني لم أترك إلا ابنةً واحدةً، فأوصي بثُلثَيْ مالي وأتركُ الثُّلثَ؟ فقال: لا. قلتُ: فأُوصي بالنِّصفِ وأترك النصفَ؟ قال: لا. قلتُ: فأوصي بالثلثِ وأترك لها الثُّلثين؟ قال: الثُّلثُ، والثُّلثُ كثيرٌ)).[256]

لَمَّا ذكَر اللهُ سبحانه وتعالى أمرَ الوصيةِ ووجوبها، وعظَّم أمرها، أتبَعه بما يَجري مجرى الوعيد في تغييرها، فقال تعالى:

﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (181)﴾.

أي: فمَن غيَّر الوصية بعدَما سمعها من الموصي بأنْ زاد فيها أو أنقَص أو غير ذلك، فقد تعلَّق الإثمُ به، أمَّا الموصي من غير جَنَفٍ ولا إثم فقد برِئَتْ ذمَّته،

---

(255) أخرجه أبو داود (2870)، والترمذي (2120) واللفظ له، وابن ماجه (2713)، وأحمد (22348) حسَّـنه الإمام أحمد كما في ((بلوغ المرام)) لابن حجر (286)، وقال الترمذيُّ: حسن صحيح.

(256) رواه البخاري (5659) واللفظ له، ومسلم (1628).

والله تعالى يسمع ويعلَمُ حالَ الاثنينِ، الموصي والمبدِّلِ وصيَّته، ويجازي كلًّا بما يستحقُّ.

فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (182).

أي: فَمَنْ خاف أنْ يَحيد الموصي في وصيَّته عن الحقِّ، سواءٌ عن غير قصدٍ منه، أو متعمدًا؛[257] وذلك كأن يوصيَ لغير الورثة بأكثرَ من ثُلث ماله، فهذا لا إثمَ عليه إنْ نصَح الموصي في حياتِه بتبديل الوصيةِ، فبدَّلها، أو قام المصلحُ بتبديلها بعد موته، فعدَّلها على الوجهِ الشَّرعي، وبهذا يزول فسادُ الوصية، ويزول معه أيُّ شِقاقٍ وقَع بين الموصِي والورَثة، أو بين الوَرَثة والموصَى لهم.

---

(257) حمَل ابنُ جرير (٣/١٤٧)، وابنُ تيمية (١/٤٢٣)، وابنُ كثير (١/١٧١) الجنفَ على الخطأ، والإثمَ على العمد. وفسَّر ابنُ عطية (١/٤٣٣) الجنفَ بالمَيْل مطلقًا، فإن كان «دون تعمد فهو الجنف دون إثم، وإذا تعمد فهو الجنف في إثم».

سُورةُ البَقَرَةِ

الآيات (183–188)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ
(183)

أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (184)

شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ
(185)

وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ **(186)**

أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ **(187)**

غريب الكلمات:

فِدْيَةٌ: عِوض؛ وأصل (فدي): جَعْلُ شَيْءٍ مكانَ شَيْءٍ حِمًى له.

الْفُرْقَانِ: المُخرِج من الشُّبهة، والمميِّز بيْن الحقِّ والباطل، وأصلُه من الفَرْق، وهو الانفصال، والتمييز والتزييل بين شيئين.

الرَّفَثُ: المقصود به هنا الجِماع، والرَّفث في الأصل: هو التصريحُ بِمَا يجب أَن يُكنى عَنهُ من ذِكر النِّكَاح، وكلِّ كلامٍ يُستحيا مِن إظهارِه والإفصاح عنه؛ فيشمل الجماعَ ومُقدِّماتِه، وما يتَّصل به من قولٍ وفِعل.

هُنَّ لِبَاسٌ لَكُم: أي: بمنزلة اللِّباس، وهو كنايةٌ عن شِدَّة المخالطة التي تُوجِبُ قِلَّةَ الصبر عنهنَّ، أو لأنَّ كلًّا منهما يستُر حالَ صاحبِه، ويمنعُه من الفجور؛ فأصلُ اللِّباس: المخالطة والمداخلة، والسِّتر كذلك.

تَخْتَانُونَ: تخونون بارتكابِ ما حُرِّم عليكم، وهو افتِعالٌ من الخِيانة، وهي مخالفة الحقّ بنقض العهد في السِّرِّ.

عَاكِفُونَ: مُقِيمون، جمْع عاكِف؛ يقال: عكَف على كذا إذا أقام عليه.

تُدْلُوا بِهَا: تُصانِعوا، وتدْفَعوا بها، وأصل (دلي) يدلُّ على مُقاربةِ الشَّيءِ ومُداناتِه بِسُهولةٍ ورِفقٍ.

تفسير الآيات:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (183).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ.

أي: يُخبِر اللهُ تعالى المؤمنينَ به وبرسولِه[(258)] مِن هذه الأمَّةِ بفَرْض عِبادةِ الصِّيام عليهم.

والصِّيام: هو التعبُّدُ لله تعالى بالإمساكِ عن الأكْلِ والشُّرب والجِماع من طلوع الفجر إلى غروب الشمس.

كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ.

أي: فُرِضَت عليكم عِبادةُ الصِّيام كما فُرِضت أيضًا على الأُممِ السَّابِقة.

لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ.

أي: من أجل الوصولِ بصِيامِكم إلى مَرتبةِ التَّقوى.

(258) حمَل ابنُ جرير (٣/١٤٧)، وابنُ تيمية (١/٤٢٣)، وابنُ كثير (١/١٧١) الجنفَ على الخطأ، والإثمَ على العمد. وفسَّر ابنُ عطية (١/٤٣٣) الجنفَ بالمَيْل مطلقًا، فإن كان «دون تعمد فهو الجنف دون إثم، وإذا تعمد فهو الجنف في إثم».

أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (184).

أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ.

أي: إنَّ هذا الصِّيامَ مفروضٌ عليكم في أيَّامٍ قليلةٍ، مُحصيَّة ساعاتُها، وهي أيَّامُ شهرِ رَمضانَ.

فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ.

أي: مَن كان مِن المؤمنين في حالِ مرضٍ أو سَفَر، فأفطَر، فعليه أنْ يَقضيَ صيامَ الأيَّام الَّتي أفطَرها في أيَّامٍ أخرى.

وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ

أي: يجبُ على مَن استطاع الصِّيامَ ولم يصُمْ، أنْ يُقدِّمَ عن كلِّ يومٍ أفطَره طعامًا لمسكينٍ.

هذا الحُكمُ المذكور في الآية منسوخٌ؛ إذ لَمَّا فرَض الله تعالى الصَّومَ في صدْر الإسلام، كان المسلِمُ يُخيَّرُ بين الصَّوم وإطعامِ مسكينٍ عن كلِّ يوم أفْطَره، فإنِ اختار الصيامَ كان خيرًا له، ثمَّ نَسَخ اللهُ عزَّ وجلَّ هذا التخييرَ في حقِّ القادِر على الصيام بقوله: فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ، فأوجب عليه الصومَ، وبقِي الفطرُ والإطعامُ للعاجز عنه.

فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ.

أي: مَن أطعَم أكثرَ مِن مسكين، فذلك أفضلُ من إطعامِ مسكينٍ واحدٍ عن كلِّ يومٍ أفطرَه.

وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ.

أي: صيامُ ما كُتِبَ لكم، خيرٌ لكم مِن أنْ تُفطِروا وتُطعِموا.

إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ.

أي: إذا عرَفتُم ما في الصَّومِ مِن الخيرِ لكم، فإنَّكم لن تتهاونوا في الصِّيام.

شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ

وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (185).

شَهْرُ رَمَضَانَ.

أي: الأيَّامُ المعدودات هي شهرُ رمضانَ.(259)

الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ.

قيل: المعنى: أنَّ القرآنَ نزَل جُملةً واحدة- أي:كاملًا- مِن اللَّوحِ المحفوظ إلى السَّماء الدُّنيا في ليلة القَدْر مِن شَهرِ رمضان، وقيل: المعنى: أنَّ ابتداءَ نزولِ القُرآنِ على النَّبيّ - ﷺ - كان في ليلةِ القَدْر من شهرِ رَمضانَ.(260)

هُدًى لِلنَّاسِ.

أي: إنَّ القرآنَ يُرشد النَّاسَ، ويدُلُّهم على طريقِ الحقِّ.

(259) ذَهَبَ ابنُ كثير (٢/١٨١) إلى جواز أن يقال: رمضان؛ استنادًا إلى ما ورد في السُّنَّة، كما عند البخاري في الصحيح باب: يقال رمضان.

وفيه أحاديث منها: «مَن صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غُفِر له ما تَقَدَّم من ذنبه».

ونقل إنكارَ العلماء أن يكون حديث النهي مرفوعًا.

(260) ذهب ابنُ جرير (٣/١٨٨) إلى أنّ القرآن «نزل في ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا، في ليلة القدر من شهر رمضان، ثم أنزل إلى محمد ﷺ على ما أراد الله إنزاله إليه».

واستند في ذلك إلى السنّة، وأقوال أهل التأويل.

وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ.

أي: إنَّ القرآنَ مشتمِلٌ على آياتٍ واضحات، وهي دَلائلُ وبراهينُ جليَّةٌ، تبيِّن الحقَّ، وتُرشِد إليه، وتُثبِت صِدقَ ما في القرآن مِن أخبارٍ، وعَدْلَ ما فيه من أحكامٍ، وتَفصِل بين الحقِّ والباطل.(261)

فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ.

أي: فمَن كان حاضرًا مُقِيمًا في بلدِه، فقد وجَب عليه صيامُ ما حضَرَه من أيَّام الشَّهر.(262)

وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ.

أي: إنَّ مَن كان في حالِ المرَض أو السَّفر، فأفطَر، فعليه أنْ يقضيَ الصِّيامَ في أيَّامٍ أخرى، بعدَد الأيَّام الَّتي أفطَرها.

(261) بيّن ابنُ جرير (٣/١٩٢) المراد بقوله تعالى: ﴿والفرقان﴾، فقال: «يعني: والفصل بين الحق والباطل».
وقال ابنُ تيمية (١/٤٣١): «الفرقان: المفرق بين الحق والباطل، والخير والشر، والصدق والكذب، والمأمور والمحظور، والحلال والحرام».

(262) اختُلِف أهل التأويل في معنى شهود الشهر على أقوال:
أوّلها: هو مُقامُ المقيمِ في داره، فمَن دخل عليه شهر رمضان وهو مقيم في داره فعليه صومُ الشهر كلّه، سافر بعد ذلك أو لم يسافر.
الثاني: من شهده عاقلًا بالغًا مكلفًا فليصمه.
الثالث: مَن شهد منكم الشهر فليصم ما شهد منه وهو مقيم، فإن سافر بعد ذلك فهو بالخيار؛ إن شاء أفطر، وإن شاء لم يفطر.
ورَجَّحَ ابنُ جرير (٣/٢٠١) القولَ الثالثَ.

يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ.

أي: إنَّما رخَّص اللهُ تعالى في الإفطار لِمَن كان مريضًا، أو مسافرًا، وشرَعَ قضاءَ ما أفطَره؛ لأنَّه يحبُّ أنْ يُخفِّف عن المؤمنين، ويُسهِّل عليهم أحكامَه.

وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ.

أي: ويُريد اللهُ تعالى أنْ تُكمِلوا العِدَّة، والمعنى: يريدُ اللهُ شرعًا – أي: يُحِبُّ – أنْ تُكمِلوا عدَّةَ شهر رمضان بقضاءِ الأيَّام الَّتي أفطَرْتموها منه.

وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ.

أي: ويُريد اللهُ عزَّ وجلَّ أنْ تُكبِّرُوه، والمعنى: يُريد اللهُ شرعًا – أي: يُحبُّ – أنْ تُعظِّموه بقول: اللهُ أكبَرُ، وذلك بعد انقضاءِ شهرِ رمضانَ؛ لِمَا أنعَم به عليكم من إرشادكم إلى هذا الشَّهرِ، وتشريع صومه وأحكامه، وتوفيقكم لتحقيق صيامه وإتمامِه.

وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ.

أي: من أجْل أنْ تكونوا بتكبيرِكم اللهَ عزَّ وجلَّ، وبالقيام بغير ذلك من أنواع شكره كأداء فرائضه وترك محارمه، مِن الشَّاكرين لِنعمة اللهِ تعالى عليكم بصِيام شهرِ رمضانَ، وتيسيرِه أحكامَه عليكم.

وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (186).

وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ.

أي: إذا سألك المؤمنون عن قُرْبي يا محمَّدُ، فأنا قريبٌ منهم، وأستجيبُ لدعاءِ مَن دعاني منهم، سواءٌ كان دعاءَ عبادةٍ فأُثيبهم عليها، أو دعاءَ مسألةٍ فأُعطيهم ما طلبوا.(263)

---

(263) قال ابنُ جرير (٣/٢٢٧-٢٢٨): «فإن قال لنا قائل: فأنت ترى كثيرًا من البشر يدعون الله فلا يُجاب لهم دعاء! قيل: إنّ لذلك وجهين من المعنى: أحدهما: أن يكون معنيًّا بالدعوة: العملُ بما ندب الله إليه وأمر به. فيكون تأويل الكلام: وإذا سألك عبادي عني فإنِّي قريب ممن أطاعني وعمل بما أمرته به، أجيبه بالثواب على طاعته إيّاي إذا أطاعني. فيكون معنى الدعاء: مسألة العبد ربه ما وعد أولياءه على طاعتهم بعملهم بطاعته. ومعنى الإجابة من الله التي ضمنها له: الوفاء له بما وعد العاملين له بما أمرهم به. كما رُوي عن النبي ﷺ من قوله: «إنّ الدعاء هو العبادة».

ثم قرأ: ﴿وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾ [غافر:٦٠].

فأخبر ﷺ أنّ دعاء الله إنّما هو عبادته ومسألته بالعمل له والطاعة. والوجه الآخر: أن يكون معناه: أجيب دعوة الداع إذا دعانِ إن شئت.

فيكون ذلك -وإن كان عامًّا مخرجه في التلاوة- خاصًّا معناه».

وقال ابنُ عطية (١/٤٤٦): «وقال قومٌ: إنّ الله تعالى يجيب كُلَّ الدعاء؛ فإما أن تظهر الإجابة في الدنيا، وإما أن يُكَفَّر عنه، وإما أن يُدَّخر له أجر في الآخرة، وهذا بحسب حديث: «ما من مسلم يدعو الله بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم، إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث خصال: إما أن يُعَجِّل له دعوته، وإما أن يَدَّخِرَها له في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها».

قالوا: إذًا نُكْثِر. قال: «الله أكثر»».

وقال ابنُ تيمية (١/٤٣٥): «قوله: ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان﴾ يتناول نَوْعَيِ الدعاء، وبكلٍّ منهما فُسِّرَت الآية. قيل: أُعطِيه إذا سألني. وقيل: أُثيبُه إذا عبدني. وليس هذا من استعمال اللفظ المشترك في معنييه كليهما، أو استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه؛ بل هذا استعماله في حقيقته المتضمنة للأمرين جميعًا، فتأمّله فإنه موضوع عظيم النفع، وقلّ ما يُفطَن له».

فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ.

أي: فلينقادوا لي، ممتثِلين أوامري، ومجتَنِبين نواهيَّ، وليؤمنوا بأنِّي أُثيبهم على انقيادِهم لي، وأُجِيب دعاءَهم وتضرُّعَهم لي، من أجل إصابةَ الحقِّ بذلك، والتَّوفيقَ للعِلم النَّافع والعملِ الصالح.

أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (187)

سبب النُّزول:

عن البَراءِ رضي الله عنه، قال: ((كان أصحابُ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم إذا كان الرجلُ صائمًا، فحضَرَ الإفطارُ، فنام قبل أنْ يُفطِر، لَم يأكُلْ ليلتَه ولا يومَه حتى يُمسِيَ، وإنَّ قيسَ بنَ صِرْمَةَ الأنصاريَّ كان صائمًا، فلمَّا حضَرَ الإفطارُ أتى امرأتَه فقال لها: أعندكِ طعامٌ؟ قالت: لا، ولكن أنطلِقُ فأطلُب لك، وكان يومَه يعملُ فغلبتْه عيناه، فقالت: خيبةً لكَ، فلمَّا انتصَف النَّهارُ، غُشِي عليه، فذُكِر ذلك للنبيِّ صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم، فنزَلَتْ هذه الآيةُ: أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ

الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ، ففرِحوا بها فرَحًا شديدًا، ونزلت: وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ)). [264]

وعن البَرَاءِ رضي الله عنه، قال: ((لَمَّا نزَل صومُ شهر رمضان، كانوا لا يقربون النِّساءَ رمضانَ كلَّه، فكان رجالٌ يخُونون أنفسَهم، فأنزَل اللهُ: عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ الآية)). [265]

وعن سَهْلِ بن سعدٍ رضي الله عنه، قال: ((أُنزِلت: كُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ، ولم ينزل: مِنَ الْفَجْرِ، فكان رِجالٌ إذا أرادوا الصومَ ربَط أحدُهم في رِجْليه الخيطَ الأبيضَ والخيطَ الأسود، فلا يزال يأكل ويشرَبُ حتى يتبيَّنَ له رؤيتُهما، فأنزَل الله بعدُ: مِنَ الْفَجْرِ، فعلِموا أنَّه إنَّما يعني اللَّيلَ والنَّهارَ)). [266]

أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ.

أي: أُبيح لكم في ليالي الصِّيام الإفضاءُ إلى نسائِكم، أي: مجامعتُهنَّ. [267]

---

(264) رواه البخاري (1915).

(265) رواه البخاري (4508).

(266) رواه البخاري (1917)، ومسلم (1091).

(267) وممَّن قال من السَّلَف: إنَّ الرَّفَث معناه الجِماع: ابن عبَّاس، وعطاء، ومجاهد، وسعيد بن جُبَير، وطاوس، والحسن، والضَّحَّاك، وإبراهيم النَّخَعي، وسالم بن عبد الله، والسُّدِّي، وعمرو بن دينار، وقتادة، والزُّهري، ومقاتل بن حَيَّان، وعطاء الخراساني.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (229/3)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (315/1).

﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾.

أي: إنَّ كلًّا مِن الزَّوجِ والزَّوجة بمثابةِ اللِّباس للآخَر، وذلك تعبيرٌ عن انضمامِهما متجرِّدَيْنِ، وشدةِ امتزاجِهما ببعضِهما حال الجِماعِ.[268]

قال ابنُ عطية (١/٤٤٩): «والرفث: كناية عن الجماع، وفي غير هذا: ما فحش من القول.

وقال أبو إسحاق: الرفث: كل ما يأتيه الرجل مع المرأة من قُبَل ولمس وجماع.

قال القاضي أبو محمد: أو كلام في هذه المعاني، ومنه قول النبي ﷺ: «مَن حجّ هذا البيت فلم يَرْفُثْ ولم يفسق خرج من خطاياه كيوم ولدته أمه»».

(268) وقيل المعنى: هُنَّ سكنٌ لهم، وأنتم سكنٌ لهنَّ. يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (286/1).

قال ابنُ أبي حاتم: (عن الرَّبيع بن أنس هنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ قال: هنَّ لحافٌ لكم، وأنتم لحافٌ لهنَّ) ((تفسير ابن أبي حاتم)) (316/1).

وقال ابن أبي حاتم أيضًا: (عن ابن عبَّاس هنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ قال: هنَّ سكنٌ لكم، وأنتم سكنٌ لهنَّ. ورُوي عن مجاهد، وسعيد بن جُبَير، وقَتادة، والسُّدِّي، ومقاتل بن حَيَّان، نحوُ ذلك) ((تفسير ابن أبي حاتم)) (316/1).

قال ابنُ جرير (٣/٢٣١-٢٣٣): «فإن قال قائل: وكيف يكون نساؤنا لباسًا لنا، ونحن لهن لباسًا، واللباس إنما هو ما لُبِس؟ قيل: لذلك وجهان من المعاني: أحدهما: أن يكون كل واحد منهما جعل لصاحبه لباسًا، لتجردهما عند النوم، واجتماعهما في ثوب واحد، وانضمام جسد كل واحد منهما لصاحبه بمنزلة ما يلبسه على جسده من ثيابه، وقد يُقال لِما ستر الشيء وواراه عن أبصار الناظرين إليه: هو لباسه، وغشاؤه. فجائزٌ أن يكون قيل: ﴿هن لباس لكم وأنتم لباس لهن﴾ بمعنى: أنّ كل واحد منكم سِترٌ لصاحبه -فيما يكون بينكم من الجماع- عن أبصار سائر الناس. والوجه الآخر: أن يكون جعل كل واحد منهما لصاحبه لِباسًا؛ لأنه سَكَنٌ له، كما قال -جلَّ ثناؤه-: ﴿جعل لكم الليل لباسًا﴾ [الفرقان:٤٧]، يعني بذلك: سكنًا تسكنون فيه».

عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ.

أي: عَلِم اللهُ عزَّ وجلَّ أنَّكم كنتم- أيُّها المؤمنون- تخُونون أنفسَكم بمعصيةِ الله سبحانه، فلا تَفُون بأمرِ الله تعالى لكم بالامتناعِ عن الجِماعِ لياليَ الصِّيام، إلَّا أنَّه قد تاب عليكم بأنْ أحلَّ لكم هذا الَّذي حرَّم عليكم من قبلُ، وتجاوَز عنكم ما سلَف من التخوُّنِ.(269)

فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ.

أي: فالآنَ بعد هذه السَّعةِ بإباحة جِماعِ نسائكم، لكم أنْ تُجامِعوهنَّ، واطلُبوا بجِماعِهنَّ ما قدَّر اللهُ تعالى لكم مِن الولد، وممَّا كتَب الله تعالى لكم أيضًا ليلة القَدْرِ، مِن ليالي شهرِ رمضانَ، فلا ينبغي لكم أنْ تشتغلوا بلذَّةِ الجِماعِ عنها، فتُفوِّتوا أجرها.(270)

---

(269) ذكر ابنُ جرير (٣/٢٣٣) أن خيانتهم أنفسهم التي ذكرها الله كانت في شيئين:
أحدهما: جماع النساء، والآخر: المطعم والمشرب في الوقت الذي كان حرامًا ذلك عليهم.
وذكر ابنُ عطية (١/٤٥١) أن قوله: ﴿عَفَا عَنْكُمْ﴾ يحتمل احتمالين:
الأول: أن يريد عن المعصية بعينها فيكون ذلك تأكيدًا، وتأنيسًا بزيادة على التوبة.
الثاني: أن يريد عفا عما كان ألزمكم من اجتناب النساء فيما يُؤْتَنَف بمعنى تركه لكم، كما تقول: شيء معفو عنه، أي: متروك.

(270) والقول بأن المراد هو طلب الولد، قولُ جمهور المفسِّرين. يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (286/1)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (557/3).
وممَّن قال من السَّلَف: إنَّ المباشرةَ هنا الجِماع: ابن عبَّاس، ومجاهد، وعطاء، والضَّحَّاك، ومقاتل ابن حَيَّان، والسُّدِّي، والربيع بن أنس، وزيد بن أسلم).
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (242/3)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (317/1).

وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ.

أي: أباح تعالى الأكلَ والشُّرب في أيِّ وقتٍ من الليل شاءه الصائمُ، حتى يظهَر ويتميَّز بياضُ النَّهار من سواد اللَّيل، وحينها يجبُ الإمساكُ عن الأكل والشُّربِ والجِماع إلى غروب الشمس.

عن عمرَ بنِ الخطَّابِ، رضي الله عنه، قال: قال رسولُ الله – ﷺ –: ((إذا أقبَل اللَّيلُ مِن هاهنا، وأَدبَر النَّهار مِن هاهنا، وغربتِ الشَّمسُ، فقد أفطَر الصَّائمُ)).[271]

وعن عَديِّ بن حاتمٍ رضي الله عنه، قال: ((لَمَّا نزلتْ: حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمْ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنْ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ. عَمَدْتُ إلى عِقَالٍ أسودَ وإلى عِقَالٍ أبيضَ، فجَعلتُهما تحتَ وسَادتي، فجعلتُ أنظرُ في الليلِ

وممَّن قال من السَّـــلَف: إنَّ المقصـــودَ بقوله تعالى: وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ هو طلبُ الولد: ابن عبَّاس–في أحَد قوليه–وأنس، وشُـرَيح، والحسـن، ومجاهد، وعطاء، والضَّـحَّاك، وسـعيد بن جُبَير، وعِكْرمة، والسُّـدِّي، والربيع بن أنس، والحَكَم بن عُتبة، وقتادة، وزيد بن أسلم، ومقاتل بن حَيَّان، وابن زيد.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (244/3)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (317/1).

وممَّن جمَع بين هذا القول وسابقه: ابن جرير في ((تفسيره)) (247/3)، وابن القيِّم في ((تحفة المودود)) (8/1–10).

وقيل: المعنى: ابتُغوا الرخصةَ والتوسعة. واستحسنه ابنُ عطية في ((تفسيره)) (257/1–258).

وقيل: ما كتبه اللهُ: هو ما أباحه من مباشرةِ النِّساء في غير وقت الصيام.

واختاره ابن عاشور في ((تفسيره)) (183/2).

(271) رواه البخاري (1954) واللفظ له، ومسلم (1100).

فلا يَسْتَبِينُ لي، فَغَدَوتُ على رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فذكرتُ لهُ ذلكَ، فقالَ: إنَّما ذاكَ سوادُ الليلِ وبياضُ النهارِ)).[272]

وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ.

نَهى اللهُ تعالى المؤمنين عن الجماعِ حالَ اعتكافهم للعبادة في بيوتِ اللهِ تبارك وتعالى.[273]

---

(272) رواه البخاري (1916) واللفظ له، ومسلم (1090).

(273) قال ابن أبي حاتم: (عن ابن عبَّاس، قوله: وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ، هذا في الرجل يعتكفُ في المسجد في رمضانَ أو غيره، فحرَّم الله عليه أن ينكحَ النساء ليلًا ونهارًا، حتى يقضي اعتكافه) ((تفسير ابن أبي حاتم)) (319/1).

اختلف أهل التأويل في معنى المباشرة التي عنى الله بقوله: ﴿ولا تُباشروهن﴾ على قولين:

أولهما: المقصود بذلك الجماعُ دون غيره من معاني المباشرة.

والآخر: المقصود بذلك جميع معاني المباشرة: من لَمْس وقُبلة وجماع.

ورَجَّحَ ابنُ جرير (٣/٢٧٢-٢٧٤ بتصرُّف) أنّ يكون المقصود: الجماع، وكلّ ما قام مقامَ الجماع في الالتذاذ، مستندًا إلى السُّنَّة، والدلالة العقلية، فقال: «أَوْلى القولين عندي بالصـواب قولُ من قال: معنى ذلك: الجماعُ، أو ما قام مقامَ الجماع مِمّا أوجبَ غُسـلًا إيجابَه. وذلك أنه لا قول في ذلك إلا أحد قولين: إما جعل حكم الآية عامًّا، أو جَعل حكمها في خاصٍّ من معاني المباشرة. وقد تظاهرت الأخبار عن رسول الله ﷺ: أن نساءَه كنّ يُرجِّلنه وهو معتكف، فلما صـحّ ذلك عنه عُلِم أنّ الذي عُنِي به من معاني المباشـرة البعضُ دون الجميع ...، فإذا كان ذلك كذلك، وكان مُجْمَعًا على أنّ الجماع مما عُني به؛ كان واجبًا تحريمُ الجماع على المعتكف وما أشبهه، وذلك كلُّ ما قام في الالتذاذ مقامه منَ المباشرة».

وهذا الذي رجّحه ابنُ جرير نسبه ابنُ عطية (٤٥٥/١) إلى الجمهور.

وقال ابنُ تيمية (٤٤٧/١-٤٤٨): «وقوله: ﴿في المساجد﴾ يتعلق بقوله: ﴿عاكفون﴾، لا بقوله: ﴿تباشـروهن﴾؛ فإنّ المباشرة في المسجد لا تجوز للمعتكف ولا لغيره، بل المعتكف في المسجد ليس له أن يُباشِر إذا خرج منه لِما لا بُدَّ منه».

وقال ابنُ كثير (٢/ ٢٠٨-٢٠٩بتصـرُّف): «الأمرُ المتَّفَقُ عليه عند العلماء: أنّ المعتكف يحرُم عليه النســاء ما دام معتكفًا في مســجده، ولو ذهب إلى منزله لحاجة لا بُدَّ منها فلا يَحِلُّ له أن يَتَلَبَّث فيه إلا بمقدار ما يفرغ من حاجته تلك من قضـــاء الغائط أو الأكل، وليس له أن يُقَبِّل امرأته، ولا أن يَضُــمَّها إليه، ولا يشــتغل بشــيء ســوى اعتكافه، ولا يعود المريض لكن يســأل عنه، وهو مارٌّ في طريقه ...، والمراد بالمباشــرة: إنما هو الجماع ودواعيه؛ من تقبيل، ومعانقة، ونحو ذلك، فأما مُعاطاة الشيء ونحوه فلا بأس به».

تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا.

أي: هذا الَّذي بيَّنه اللهُ تعالى مِن الأحكامِ في هذه الآيةِ- كتحريمِ الأكلِ، والشُّرب، والجِماعِ في نهار الصِّيام، وغير ذلك مِن محرَّمات- قد عرَّفها اللهُ تعالى لعباده، وبيَّنها، لتفصلها عن الحلالِ، وتتميَّزَ لهم، وعليهم أنْ يُبقُوا أنفسَهم بعيدةً عنها.

كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ.

أي: كما بيَّن اللهُ تعالى لعباده أحكامَ الصِّيام أتمَّ تبيينٍ، فكذلك يُبيِّن أيضًا سائرَ الأحكام الأخرى في كتابِه أو على لسانِ رسولِه عليه الصَّلاة والسَّلامُ، ويوضِّحُها لهم أكملَ إيضاح؛ كي يقوموا بأحكامِه؛ فِعلًا لِما أمَر، واجتنابًا لِما نهى.

لَمَّا حذَّر الله تعالى من الجُرأة على مخالفة حُكم الصِّيام غيرِ المأذون فيه في قوله: تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا، وهو ضربٌ من الأكْل الحرام- عطَف عليه أكلًا آخرَ محُرَّمًا، وهو أكلُ المال بالباطل. وأيضًا لَمَّا سبَق في آيات الصِّيام تحريمٌ لأشياءَ خاصَّة في زمانٍ خاصٍّ- ذكَر عَقِبَه ما تحريمُه عامٌّ في زمانه، وهو أكْل أموال النَّاس بالباطل، فقال:

وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (188).

وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ.

أي: لايأخُذْ بعضُكم أموالَ بعضٍ بغير الطُّرق التي أباحها اللهُ تعالى لذلك.

ثم أفرد الله تعالى بالذِّكر أحدَ أنواع أكْل أموال الناس بالباطل، فقال:

وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ.

أي: لا تتوصَّلوا بحُكم الحاكم إلى أكلِ الأموال بغير حقٍّ؛ وذلك كأن يجحَدَ امرؤٌ الحقَّ الذي عليه، وليس عليه بيِّنة، ثمَّ يُخاصمه عند القاضي، فيطلُب القاضي من المدَّعِي بيّنةً،

فإن لم تكُنْ له بيّنة طلَب من المدَّعَى عليه اليمينَ،

فإذا حلَف برِئ، فتوصَّل إلى جَحدِ مالِ غيره بالمحاكمة، أو يتوصَّل إلى ذلك برِشْوة الحاكم بالمالِ؛ ليحكمَ له بتلك الأموالِ بغير حقٍّ.(274)

---

(274) قال ابن أبي حاتم: (عن ابن عبَّاس قوله: وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ قال: هذا في الرجُل يكون عليه مالٌ وليس عليه فيه بيِّنة، فيجحد المالَ ويُخاصمهم إلى الحُكَّام، وهو يعرِف أنَّ الحقَّ عليه، وقد علِم أنَّه آثمٌ آكِلٌ حرامًا.

ورُوي عن مجاهد، وسعيد بن جُبَير، والحسن، وقَتادة، ومقاتل بن حَيَّان، قالوا: لا تُخاصِم وأنت تَعلم أنَّك ظالم) ((تفسير ابن أبي حاتم)) (321/1).

وقيل: إنَّ قوله: وَتُدْلُوا مرتبطٌ بالجملةِ السابقة: وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ؛ فيكون النَّهيُ عن مجموع الأمرين، أي يكون أكلُ أموال النَّاس بالباطلِ خاصًّا في هذه الآيةِ، بأكلِها فقط عبر الحُكَّام، بالرِّشوةِ أو بغيرها، كما سبَق ذِكره.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (279/3)، ((تفسير ابن عاشور)) (190/2، 191).

لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ.

أي: فتكونون بذلك آكِلينَ طائفةً مِن أموال النَّاس بالحرامِ، وأنتم تعلَمون أنَّكم واقِعونَ في الحرام.

سُورةُ البَقَرَةِ

الآيات (189–195)

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ
ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (189)
وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (190)
وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا
تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ
الْكَافِرِينَ (191)

فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (192)

وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ
(193)

الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (194)

وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (195)

غريب الكلمات:

مَوَاقِيتُ: جمْع مِيقات، وهو مِفْعالٌ من الوقت، وهو الوقتُ المضروبُ للشيء، والوعدُ الذي جُعِل له وَقْتٌ، وقد يُقال المِيقَاتُ للمكان الذي يُجعَل وَقْتًا للشيء، كمِيقَاتِ الحجِّ.

ثَقِفْتُمُوهُمْ: وجدتُموهم، وظفِرتم بهم، وأصل ثقِف: الحِذق في إدراك الشَّيء وفِعله، وإقامة عِوَج الشيء.

التَّهْلُكَةِ: الهَلَاك، وهو مصير الشيء بحيث لا يُدرى أين هو.

تفسير الآيات:

لَمَّا أتمَّ اللهُ سبحانه وتعالى البيانَ لِمَا أراده ممَّا شرَعه في شهر الصَّوم ليلًا ونهارًا، وبعض ما تبع ذلك، وكان كثيرٌ من الأحكام يدور على الهلال، لا سيَّما الحجُّ، وكانت الأهلَّة كالحُكَّام تُوجب أشياءَ وتَنفي غيرها؛ كالصِّيام والدُّيون والزَّكوات، قال سبحانه:

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (189).

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ.

أي: يسألُك أصحابُك يا محمَّد عن القمرِ حين يبدو هلالًا في بدايات الشَّهر ونهاياته: ما حِكمةُ هذا التغيُّر، خلافًا للشمس الباقية على هَيئةٍ ثابتة؟ فلقَّنه الله تعالى الإجابةَ بأنَّها خُلِقت؛ ليعرفَ النَّاسُ بها أوقاتَ حَجِّهم، وشهر صومهم، ويوم فِطرهم، وعِدَد نِسائهم، وغير ذلك من أحكامهم.

وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا.

سبب النُّزول:

عن أبي إسحاقَ قال: سمعتُ البَراء رضي الله عنه يقول: ((نزلت هذه الآيةُ فينا، كانت الأنصارُ إذا حجُّوا فجاؤوا لم يدخلوا من قِبَل أبواب بيوتهم، ولكن مِن ظهورها، فجاء رجل من الأنصار فدخَل

من قِبَل بابه، فكأنَّه عُيِّر بذلك فنزلت: وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا)).[275]

أي: إنَّ هذا العملَ مع اعتقاده قُربةً، ليس مِن الخير في شيء، فنفَى الله تعالى مشروعيَّتَه؛ وذلك أنَّ أهلَ الجاهلية من سوى القُرشيِّين، كانوا إذا أحرَموا بحجٍّ أو عُمرة لم يدخلوا البيوتَ من أبوابها؛ تعبُّدًا لله عزَّ وجلَّ، فإذا احتاجوا منها شيئًا دخلوا من خلفِها، يظنُّون ذلك خيرًا يتقرَّبون به إلى الله عزَّ وجلَّ.

وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا.

أي: إنَّ البِرَّ الحقيقيَّ هو أنَّ يتَّقيَ العبدُ ربَّه عزَّ وجلَّ؛ بامتثال أوامره، واجتنابِ نواهيه، لا التعبُّد بما لم يشرَعْه الله جل وعلا؛ ولذا أمَر بإتيان البيوتِ مِن أبوابها كما هو الأصلُ الَّذي جرَتْ به العادة؛ إذ لا دليلَ يمنَعُ مِن ذلك حال الإحرام.

وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ.

أي: افعَلوا ما أمَركم الله تعالى به، واجتنِبوا ما نهاكم عنه، ومن ذلك: تَرْكُ الابتداع، والالتزام بالاتباع، من أجل أنْ تظفَروا بما تطلُبون، وتنجُوا ممَّا تحذَرون.

وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (190).

---

(275) رواه البخاري (1803)، ومسلم (3026).

وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ.

أي: قاتِلوا– أيُّها المؤمنون–؛ لأجلِ الله تعالى وحْده، وإعلاءً لدِينه، وبالطريقة الَّتي شرَعها سبحانه، من يُقاتِلونكم من الكفَّار دون مَن سواهم.

وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ.

أي: لا تتجاوَزوا ما حدَّه اللهُ تعالى لكم ممَّا شرَعه مِن أحكام القتال، ومن ذلك عدمُ قتلِ النِّساء والأطفال والشيوخ، وغيرهم ممَّن لم يُعاونوا بأيِّ وسيلةٍ على قتالِ المؤمنين؛ وذلك لأنَّ الله عزَّ وجلَّ لا يحبُّ مَن تجاوَز حدودَ ما شرعه، فوقَع في المحرَّمات، سواءٌ في القتال أو غيره.[276]

عن بُرَيدةَ بن الحُصَيب رضي الله عنه: ((أنَّ الرسولَ – ﷺ – كان إذا أمَّرَ أميرًا على جيشٍ أو سَريَّةٍ، أوصاه في خاصَّتِه بتقوَى اللهِ، ومن معه من المسلمين خيرًا، ثم قال: اغْزُوا باسمِ اللهِ في سبيلِ اللهِ، قاتِلوا مَن كفَر باللهِ، اغزوا، ولا تَغُلُّوا، ولا تغدِروا، ولا تُمثِّلوا، ولا تقتُلوا وليدًا، وإذا لقِيتَ عدوَّك مِن المشركين فادعُهم إلى ثلاثِ خِصالٍ– أو خِلالٍ–، فأيَّتهنَّ ما أجابوك، فاقبَلْ منهم، وكُفَّ عنهم)).[277]

---

(276) اختُلِف هل هذه الآية منسوخة أم لا؟
ورجَّح ابنُ جرير (٣/٢٩١) القولَ بعدم النسخ فقال: «لأنّ دَعْوى المُدَّعِي نسخَ آية –يحتمل أن تكون غير منسوخة– بغير دلالة على صِحَّة دعواه تَحَكُّمٌ، والتَّحَكُّم لا يعجز عنه أحد».
(277) رواه مسلم (1731).

وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (191).

وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ.

أي: اقتُلوا الكفَّارَ الَّذين يُقاتِلون المؤمنين، في أيِّ مكانٍ ظفِرْتم فيه بهم، وإن لم يكونوا في ساحةِ القتال.

وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ.

أي: أخرِجوا هؤلاء الَّذين يقاتلونكم مِن دياركم الَّتي أخرَجوكم منها من قبلُ.

وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ.

أي: إنَّ ما هم عليه من الشِّرك بالله تعالى والكفر به،(278) أمرٌ أعظمُ من إزهاق نفوسهم، كما أنَّ محاولاتهم لصدِّ المؤمنين عن دِينهم؛ ليصيروا مِثلهم من المشركين، أشدُّ مِن أنْ يُقتلوا وهم مستمسِكون

---

(278) وممَّن قال من السَّلَف: إنَّ الفِتنة هاهنا تَعني الشِّرك: أبو العالية ومجاهد، وسعيد بن جُبَير، وعِكْرِمة، والحسن، وأبو مالك، وقَتادة، والضَّحَّاك، والرَّبيع بن أنس.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (3/294)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (1/326).

ذكر ابنُ عطية (١/٢٦٤) أنّه يُحتمل أن يكون المعنى: والفتنة -أي: الكفر والضلال، الذي هم فيه- أشَدُّ في الحرَم وأعظم جُرْمًا من القتل الذي عيَّروكُم به في شأن ابن الحضرمي.

بدِينهم؛ فالفتنة تتكرَّر أضرارُها، بينما يحدُث ألَمُ القتلِ مرَّةً واحدة، والقتل يقطَع عن الدُّنيا، لكن الفِتنة قد تقطَع عن نعيم الآخرة.

وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ.

أي: نهى اللهُ تعالى عِبادَه المؤمنين عن ابتداءِ الكفَّار بقتلٍ أو قتالٍ في المسجد الحرام حتى يكونوا هم الَّذين يبدَؤون بذلك، فإن قاتَلوكم أو قتَلوكم، فاقتُلوهم دَفْعًا لعُدوانهم عليكم.

القراءات ذات الأثر في التفسير:

في قوله تعالى: وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ، يُقَاتِلُوكُمْ، قَاتَلُوكُمْ قراءتان لكلٍّ منها:

1- وَلَا تَقْتُلُوهُمْ، يَقْتُلُوكُمْ، قَتَلُوكُمْ أي وَلَا تَقْتُلُوهُمْ عِنْد الْمَسْجِد الْحَرَام حَتَّى يقتلُوا بَعْضكُم، فإنْ قتلوا بَعْضكُم فاقتلوهم.(279)

2- وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ، يُقَاتِلُوكُمْ، قَاتَلُوكُمْ أي لا تحاربوهم حَتَّى يحاربوكم فَإِن حاربوكم فاقتلوهم، والمراد النهي عن قصدِهم بالقتال حتى يكون الابتداء منهم، والقِتَال من اثنين، والقَتْل من الواحد.(280)

(279) قرأ بها حمزة والكسائي. يُنظر: ((النَّشر)) لابن الجزري (ص: 154).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: 94)، ((معاني القراءات)) للأزهري (195/1)، ((حجة القراءات)) لابن زَنْجَلَة (ص: 127، 128)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (274/2).

(280) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النَّشر)) لابن الجزري (ص: 154).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: 94)، ((معاني القراءات)) للأزهري (195/1)، ((حجة القراءات)) لابن زَنْجَلَة (ص: 127، 128)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (274/2).

كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ.

أي: كما قرّرنا القتل جزاءً على من قاتلكم أو قتلكم، فجزاء الكافرين (المعتدين) أيضًا القتلُ، وفي هذا تهديدٌ لهم.

فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

أي: فإنْ تركوا القتال وأسلَموا، فإنَّ الله تعالى يتجاوَزُ عن كلِّ ما سلَف منهم من سيِّئات، وبرحمته يوفِّقُهم للخير الَّذي يُثِيبهم عليه حسنات.

وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ (193).

وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ للهِ.

أي: قاتِلوا المشركِين الَّذين يقاتِلونكم حتى لا يكونَ ثَمَّ شِركٌ بالله تعالى، فتكون العبادة والطَّاعة لله عزَّ وجلَّ وحده دون غيره، فهذا هو المقصودُ مِن القتال.

عن أبي موسى الأشعريّ رضي الله عنه، قال: ((جاء رجلٌ إلى النبيّ – ﷺ – فقال: الرجلُ يُقاتِلُ حَمِيَّةً، ويُقاتِلُ شَجاعَةً، ويُقاتِلُ رِياءً، فأيُّ ذلك في سبيلِ اللهِ؟ قال: مَن قاتَل لتكونَ كلمةُ اللهِ هي العُليا، فهو في سبيلِ اللهِ)).[281]

فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ.

أي: فإنْ توقَّفوا عن قتالكم وأسلَموا، وأخلَصوا العبادةَ لله تعالى وحده، فقد تخلَّصوا من الظُّلم، فكُفُّوا عنهم؛ فإنَّه لا تحلُّ معاقَبة أحدٍ بقتاله أو قتله، إلَّا لِمَا وقَع منه من ظلمٍ بشِرك أو كُفر أو قَتْل أو مقاتَلة.[282]

---

(281) رواه البخاري (7458) واللفظ له، ومسلم (1904).

(282) قال ابنُ أبي حاتم: (عن أبي العالية قوله فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ يعني: على مَن أبَى أن يقول: لا إله إلا الله. ورُوِي عن عِكرمة، وقَتادة، والرَّبيع بن أنس، نحوُ ذلك) ((تفسير ابن أبي حاتم)) (327/1).

وممَّن قال من السَّلف إنَّ المراد بالظالم: الظالم بالمقاتلة: مجاهد، والسُّدِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (303/3).

اختُلِفَ هل هذه الآية منسوخة أم لا؟

ووجَّه ابنُ عطية (١/٤٦٥) القولَ بالنسخ بأنّ قوله تعالى: ﴿وقاتِلُوهُمْ حَتّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أمرٌ بالقتال لِكُلّ مُشْرِك في كل موضع.

ووجَّه القولَ بعدم النسخ بأنّ المعنى: قاتِلُوا هؤلاء الذين قال الله فيهم: ﴿فَإنْ قاتَلُوكُمْ﴾.

ثُمَّ رَجَّح (١/٤٦٥) القولَ الأول مُستَنِدًا إلى سياق الآية، فقال: «والأَوَّلُ أظهرُ، وهو أمرٌ بقتال مطلقٍ، لا بشرط أن يبدأ الكفار، دليل ذلك قوله: ﴿ويَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾».

ذكر ابنُ عطية (١/٤٦٥) أن الظالمين على أحد التأويلين: مَن بَدَأ بقتال، وعلى التأويل الآخر: مَن بَقِي على كفر وفتنة.

عن أبي هُرَيرَة رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ – ﷺ – قال: ((أُمرتُ أنْ أقاتِلَ النَّاسَ حتى يقولوا: لا إلهَ إلا اللهُ، فمن قال: لا إلهَ إلا اللهُ، فقدْ عصَم منِّي نفسَه ومالَه إلَّا بحقِّه، وحسابُه على اللهِ)).[283]

الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (194).

الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ.

أي: إنْ قاتَلوكم في أَحدِ الأشهر الحُرُم، فقاتِلوهم فيه، وقيل: المراد أنَّ الشهرَ الحرام الذي قضى فيه النبيُّ – ﷺ – والمسلمين معه العُمرةَ (وهو شهر ذي القَعدة) أيضًا، جاء في مُقابِل الشَّهر الحرام (شهر ذي القَعدة) الذي صدَّهم فيه المشرِكون عن العُمرة في العام الَّذي سبَق عمرةَ القضاء.

وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ.

أي: كما انتهكوا لكم حُرمةَ شهرِكم، فقد انتهكتم منهم حرمةَ شهرهم أيضًا، سواءً بسواءٍ، جزاءً عادلًا، وكذا كلُّ شيء يُحترم كالبلدِ الحرام، وغيره من جميع ما أمَر الشرعُ باحترامه، فمن تجرَّأ عليه وانتهك حُرمته، فإنَّه يُقتصُّ منه بمِثله.[284]

---

(283) رواه البخاري (2946)، ومسلم (21).

(284) ذكر ابنُ عطية (١/٤٦٦-٤٦٧) قوْلَيْن في قوله: ﴿والحرمات قصاص﴾.

الأول: أنه مقطوع مما قبله، وهو ابتداء أمْرٍ كان في أول الإســلام أنَّ من انتهك حُرْمَتَك نِلْتَ منه مثل ما اعتدى عليك به، ثم نُسِخ ذلك بالقتال.

فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ.

أي: هذا أمرٌ من الله تعالى بالعدلِ حتى في شأنِ المعاقَبة، فيُقتصُّ مِن المعتدي بمِثل عُدوانه، دون زيادة.

وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ.

أي: أمَر تعالى بلزوم تقواه، بعدمِ تجاوزِ ما وجب لهم من القِصاص، ولْيعلَموا معتقدين جازمين بأن اللهَ عزَّ وجلَّ مع عباده المتَّقين الَّذين يمتثلون أوامرَه، ويجتنبون نواهيَه، فيؤيِّدهم وينصُرُهم ويوفِّقهم.

وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ

(195).

الثاني: أن ما تناول من الآية التعدِّي بين أمة محمد والجنايات ونحوها لم ينسخ، وجائز لمن تُعُدِّيَ عليه في مال أو جرح أن يَتَعَدّى بمثل ما تُعُدِّي عليه به إذا خَفِيَ ذلك له، وليس بينه وبين الله في ذلك شيء، ونسبه للشافعي وغيره.

رجَّح ابنُ جرير (٣/٣١١) القولَ بالنسخ مُسْتَنِدًا إلى قول أهل التأويل، فقال: «وهذه الآية منسوخةٌ بإذن الله لنبيّه بقتال أهل الحرم ابتداءً في الحرم، وقولِه: ﴿وقاتلوا المشركين كافة﴾ [التوبة:٣٦]».

سبب النُّزول:

عن حُذَيْفَةَ رضي الله عنه: ((وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ؛ قال: نَزَلَتْ في النَّفَقَةِ)).(285)

وعن أبي أيُّوبَ الأنصاريِّ رضي الله عنه، قال: ((كنَّا بمدينةِ الرُّومِ، فأَخْرَجوا إلينا صَفًّا عظيمًا من الرُّومِ، فخرج إليهم من المسلمينَ مِثْلُهم أو أكثرُ، وعلى أهلِ مصرَ عُقْبَةُ بنُ عامرٍ، وعلى الجماعةِ فَضَالَةُ بنُ عُبَيدٍ، فحمل رجلٌ من المسلمينَ على صَفِّ الرُّومِ، حتى دخل عليهم، فصاح النَّاسُ وقالوا: سبحانَ اللهِ! يُلْقِي بيَدَيْهِ إلى التهلُكةِ، فقام أبو أيوبَ الأنصاريُّ فقال: يا أَيُّها النَّاسُ، إنَّكم لَتُؤَوِّلُونَ هذه الآيةَ هذا التأويلَ، وإنما نَزَلَت هذه الآيةُ فينا مَعْشَرَ الأنصارِ، لَمَّا أَعَزَّ اللهُ الإسلامَ وكَثُرَ ناصِرُوه، فقال بعضُنا لبعضٍ سِرًّا دون رسولِ اللهِ - ﷺ -: إنَّ أموالَنا قد ضاعَت، وإنَّ اللهَ قد أَعَزَّ الإسلامَ وكَثُرَ ناصِرُوه، فلو أَقَمْنا في أموالِنا فأَصْلَحْنا ما ضاع منها، فأنزل اللهُ تبارك وتعالى على نَبِيِّه - ﷺ - يَرُدُّ علينا ما قُلْنا؛ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ [البقرة: 195] ، فكانت التَّهْلُكَةُ الإقامةَ على الأموالِ وإصلاحِها، وتَرْكَنا الغَزْوَ، فما زال أبو أيوبَ شاخصًا في سبيلِ اللهِ حتى دُفِنَ بأرضِ الرُّومِ)).(286)

---

(285) رواه البخاري (4516).

(286) أخرَجه الترمذي (2972) واللفظ له، والنَّسائي في ((السنن الكبرى)) (11029) (299/6)، وابن حِبَّان (9/11) (4711).

ولا تعارضَ بين الرِّوايتين، بل إنَّ رِواية أبي أيُّوبَ رضي الله عنه هي مُبيِّنة ومفسِّرة للإجمالِ الوارد في رِواية حُذيفةَ بن اليمان رضي الله عنه السَّابقة.

وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ.

أي: أَنفِقوا قُربةً لله عزَّ وجلَّ في وجوه الطاعات- ومن ذلك: الإنفاق في جهاد أعداء الدِّين؛ لإعلاءِ كلمة الله تعالى- واجتَنِبوا إلْقاءَ أنفُسِكم فيما فيه هلاكُها وعذابُها، وذلك بترْك ما أمَر الله تعالى به، أو فِعْل ما نَهى عنه، ومن ذلك: تَرْك الإنفاق في الجهاد؛ فليستِ التَّهلكةُ أن يُقتَل الرَّجُلُ في سبيل الله تعالى، ولكنَّ التَّهلكةَ في ترْك الإنفاق في سبيله سبحانه.(287)

قال الترمذيُّ: حسنٌ صحيحٌ غريب، وصحَّح إسناده الشوكاني في ((نيل الأوطار)) (319/5)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (2972).

(287) ذكر المفسرون تفسيرات عدة للتهلكة.

وأفاد ابنُ جرير (٣/٣٢٥) دخولَ جميع الأقوال في التهلكة، فقال: «فإذا كانت هذه المعاني كلها يحتملها قوله: ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾، ولم يكن الله خصَّ منها شيئًا دون شيء؛ فالصوابُ من القول في ذلك أن يُقال: إنّ الله -تعالى ذِكْرُه- نَهى عن الإلقاء بأيدينا لِما فيه هلاكُنا، والاستسلامِ للهلكة -وهي العذاب- بتَرْكِ ما لَزِمَنا من فرائضه، فغير جائزٍ لأحد مِنّا الدخولُ في شيء يكره الله مِنّا ممّا نَسْتَوْجِبُ بدخولنا فيه عذابَه».

ثم رَجَّح القولَ الذي قاله ابنُ عباس من طريق علي، مُسْتَنِدًا إلى قول ابن عباس، فقال: «غير أنّ الأمر وإن كان كذلك، فإنّ الأغلب من تأويل الآية: وأنفقوا -أيها المؤمنون- في سبيل الله، ولا تتركوا النفقة فيها فتهلكوا باستحقاقكم بترككم ذلك عذابي».

قال ابنُ جرير (٣/٣٢٤) «والتاركُ النفقةَ في سبيل الله عند وجوب ذلك عليه مُسْتَسْلِمٌ للهَلَكَة بتركه أداء فرض الله عليه في ماله، وذلك أنّ الله -جَلَّ ثناؤه- جعل أحد سهام الصدقات المفروضات الثمانية في سبيله، فقال: ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين﴾ إلى قوله: ﴿وفي سبيل الله وابن السبيل﴾ [التوبة:٦٠]، فمَن تركَ إنفاق ما لزمه من ذلك في سبيل الله على ما لزمه كان للهَلَكَة مُسْتَسْلِمًا، وبيديه للتَّهْلُكَة مُلْقِيًا».

وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ.

أي: أمَر اللهُ تعالى عبادَه بأن يُحسنوا في كل شيء؛ في معاملتِهم للخالق عزَّ وجلَّ بعبادته كأنَّهم يرَوْنه، وفي معاملتِهم للمخلوقين؛ بذلًا للمعروف، وكفًّا للأذى؛ وذلك لأنَّ الله تعالى يحبُّ المحسنين.

عن شدَّاد بن أوسٍ رضي الله عنه، أنَّ رسولَ اللهِ – ﷺ – قال: ((إنَّ اللهَ كتَب الإحسانَ على كلِّ شيءٍ، فإذا قتلتم فأحسِنُوا القِتْلَةَ، وإذا ذبحتم فأحسِنُوا الذَّبحَ، ولْيُحِدَّ أحدُكم شفرتَه، فليُرِحْ ذبيحتَه)).(288)

(288) رواه مسلم (1955).

سُورةُ البَقَرَةِ

الآيات (196–203)

وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ **(196)**

الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ **(197)**

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ **(198)**

ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (199)

فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا

آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ (200)

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (201)

أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (202)

وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ

لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (203)

غريب الكلمات:

أُحْصِرْتُمْ: مُنِعتُم، وأصل الحصْر: الجمْع والحبْس والمنع.

اسْتَيْسَرَ: تَيَسَّرَ، وَسَهُلَ.

الْهَدْيِ: مُختصٌّ- في هذا الموضِع- بما يُهْدَى إلى البيتِ من الأنعام؛ قربةً إلى الله، وواحدتُه: هديَّة، وهي: كلُّ ما يُهدَى إلى ذِي مَوَدَّةٍ.

مَحِلَّهُ: المَحِلُّ: الموضِع الذي يَحِلُّ فيه نَحْر الهدْي.

أَذًى: مَا يُكره ويُغتمُّ به.

نُسُكٍ: جَمْع نسيكة، وهي الذَّبيحة التي تُوزَّع على فُقراء الحرم، وأصل (نسك): يدُلُّ على عبادةٍ وتقرُّبٍ إلى اللهِ تعالى؛ ومنه قيل للعابد: ناسِك، واختصَّ بأعمال الحجِّ.

جُنَاحَ: إثْمَ، سمِّي بذلك لِمَيله عن طريق الحقِّ؛ فأصله: جَنَح، إذا مال وتعدَّى.

أَفَضْتُمْ: دَفعتُم بِكَثْرَة، وأصل الفيض: جَريانُ الشيء بسُهولة.

خَلَاقٍ: نصيبٌ، وحظٌّ في الخير.

تفسير الآيات:

وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (196).

وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ.

أي: يا مَن شرَعتم في أعمال الحجِّ والعمرة، عليكم إتمامَهما بأركانِهما وواجباتهما، بإخلاصٍ لله تبارك وتعالى.(289)

---

(289) ذكر ابنُ تيمية (١/٤٧٢) إجماع المفسرين على أن هذه الآية نزلت عام الحديبية.

قال ابنُ كثير: (اتَّفق العلماء على أنَّ الشــروع في الحجِّ والعُمرة ملزمٌ، ســواء قيل بوجوب العُمرة أو باســتحبابها، كما هما قولانِ للعُلماء) ((تفسير ابن كثير)) (530/1).

وحكَى ابنُ تيميَّة وابنُ عاشور الاتِّفاقَ على أنَّ آية: وَأَتِمُّوا الحَجَّ وَالعُمْرَةَ لِلهِ نزلت عام الحُديبية سَنَة ست).

ينظر: ((مجموع فتاوى ابن تيميَّة)) (193/17)، ((تفسير ابن عاشور)) (216/2).

فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ.

أي: فإنْ منَعكم وحبسكم خوفُ عدوٍّ، أو إصابةٌ بمرض، أو وقوع علَّةٍ أخرى، عن الوصول إلى البيت الحرام، فاذبحوا ما تيسَّر من بهيمة الأنعام، من الإبل أو البقر أو الغنم.

وَلَا تَحْلِقُوا رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ.

أي: لا تَحِلُّوا من إحرامِكم إذا أُحصِرْتم عن حجٍّ أو عُمرة، حتى يبلغَ الهديُ- الذي أوجبتُه عليكم- محلَّ ذَبْحه، وهو موضع الإحصار.

وحُكم الآية عامٌّ يَشمل غيرَ المُحصَر كذلك، فمحلُّ نَحْره في الحجِّ: في الحَرَم يومَ النَّحر، وأمَّا في العُمرة ففي الحرم أيضًا.

فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ.

سبب النُّزول:

عن عبد الرَّحمن بنِ أبي لَيلى أنَّ كعبَ بن عُجْرة حدَّثه قال: ((وقفتُ على رسول الله صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم بالحُديبيَة ورأسي يتهافت قملًا، فقال: يؤذيك هوامُّكَ، قلت: نعم، قال: فاحلِقْ رأسَك، أو احلِقْ، قال: فيَّ نزلت هذه الآيةُ: فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ إلى آخرِها،

فقال النبيُّ صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم: صُمْ ثلاثةَ أيَّامٍ، أو تصدَّق بفَرَقٍ[290] بين سِتَّةٍ، أو انسُكْ مِمَّا تيسَّر)).[291]

وعن عبد الله بن مَعقِل قال: ((قعدْتُ إلى كعبِ بنِ عُجْرَةَ في هذا المسجدِ- يعني مسجد الكوفة- فسألتُه عن فديةٍ من صيام، فقال: حُمِلْتُ إلى النبيِّ - ﷺ - والقَمْلُ يَتَناثَرُ على وجهي، فقال: ما كنتُ أرى أنَّ الجَهْدَ قد بلَغَ بك هذا، أمَا تَجِدُ شاةً؟ قلتُ: لا، قال: صُمْ ثلاثةَ أيَّامٍ، أو أَطْعِمْ ستَّةَ مساكينَ، لكلِّ مسكينٍ نصفُ صاعٍ مِن طعامٍ، واحلِقْ رأسَك، فنزلت فيَّ خاصَّةً، وهي لكم عامَّة)).[292]

فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ.

أي: إنَّ مَن مرض فاحتاج إلى حلق رأسه، أو كان برأسه أذًى كالقمل فحلَق رأسه، فعليه أن يقومَ- عِوضًا عن هذا الفعل- بصِيام ثلاثة أيَّام، أو إطعام سِتَّة مساكين لكلِّ مسكين نصف صاع، أو ذبح شاة، فهو مخيَّرٌ بين هذه الثلاثة.[293]

---

(290) الفَرَق-بفتحتين -: مكيالٌ ضَخمٌ بالمدينة، واختُلف في مقداره؛ فقيل: يَسَع سِتَّة عشر رطلًا (اثنا عشر مدًّا، أو ثلاثة آصع).
وقيل: خمسة أقساط، والقسط: نِصف صاع. فأمَّا الفرْق بالسكون فمِئة وعشرون رطلًا، وهو ما يُعادِل (10كغ) تقريبًا.
((النهاية)) لابن الأثير (437/3)، ((تاج العروس)) للزبيدي (281/26)، ((الفقه الإسلامي وأدلته)) للزحيلي (143/1).
(291) رواه البخاري (1815)، ومسلم (1201).
(292) رواه البخاري (4517)، ومسلم (1201).
(293) ونقَل إجماعَ العلماء على أنَّ المراد بالنسك في هذه الآية، الشاة: ابنُ عطية في ((تفسيره)) (268/1).
وقال ابنُ عبد البر: (كلُّ مَن ذكر النسك في هذا الحديث مفسِّرًا فإنما ذكَره بشاة، وهو أمرٌ لا خلاف فيه بين العلماء).
((التمهيد)) (237/2).

فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ.

أي: إذا زالتِ الموانعُ وقدَرتُم على الوصولِ إلى البيت الحرام، فمَن أتى منكم بالعمرة متمتِّعًا بحِلِّه منها بما أحلَّه الله تعالى له من محظوراتِ الإحرامِ- إلى أنْ يَشْرَعَ في أعمال الحج- ومِثل ذلك مَن كان قارنًا بين الحجِّ والعُمرة- فعليه ذبحُ ما قدَر عليه من بهيمةِ الأنعام؛ من الإبل، أو البقر، أو الغنم.

فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ.

أي: إنْ لم يَجِد المتمتِّعُ هديًا أو لم يجِدْ ثمنَه، فعليه أن يصوم عوضًا عن ذلك ثلاثةَ أيَّام في أثناءِ الحج، وسبعةً إذا فرَغ من أعمال الحجِّ ورجَع إلى أهلِه وموطنِه، ثمَّ أكَّد الله تعالى صيامَ هذه الأيام بذِكر كامِلِ عددِها.

ونقَل إجماعَ العلماء على أنَّ الكفَّارة هنا على التخيير بين الصيام والإطعام والذبح: ابن جرير في ((تفسيره)) (8/704).

وقال ابن عبد البرِّ: (أجمَعوا أنَّ الفدية ما جاءت به السُّنة في كعب بن عجرة من التخيير في الصيام أو الصدقة أو النسك). ((الاستذكار)) (4/184).

والرَّاجح من أقوال أهل العلم أنَّ الصدقة توزَّع على مساكين الحرم.

ونقَل بعضُ أهل العِلم الإجماعَ على أنَّ الصوم يجوزُ أن يكون مفرَّقًا، وأن يكون متتابعًا، وأنَّ له أن يصوم في أيِّ مكانٍ شاءه. يُنظر: ((مختصر فقه الحج)) إعداد القِسم العِلمي بالدُّرر السَّنية (ص: 108-109).

ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ.

أي: إنَّ وجوب الهدي وبدله من الصيام، إنَّما هو للمتمتّع إنْ كان أهله من غيرِ حاضري المسجد الحرام، وقد قِيل بأنَّ حاضري المسجد الحرام هم مَن حوله ممَّن بينهم وبينه من المسافةِ ما لا تُقصر إليه الصلوات، وقيل: هم أهلُ الحرم فقط.

وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ.

أي: امتثِلوا أوامرَ الله عزَّ وجلَّ، واجتنبوا نواهيَه، ومن ذلك: امتثالُ المأموراتِ، واجتنابُ المحظورات المذكورة في هذه الآية، واعتقِدوا جازمين بأنَّه سبحانه شديدُ العقوبةِ لِمَن خالَف أمْرَه، وارتكب نَهْيَه.

الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ (197).

الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ.

أي: إنَّ وقتَ الحجِّ واقعٌ في أشهُرٍ معلومات، وهي: شوَّال، وذو القَعدة، وعشرٌ من ذي الحجَّة.

فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ.

أي: إنَّ مَن أحرَم بالحجِّ (ذلك لأن الشُّروعَ فيه يُصيِّره فرضًا ولو كان تطوُّعًا في حقِّه)، فعليه أنْ يجتنبَ جِماعَ النِّساء ومقدِّماته، ولا يتحدَّث بذلك في حَضرتِهنَّ،[294]

وعليه اجتنابُ جميع المعاصي، ومن ذلك: محظورات الإحرام، وسِباب المسلِم،[295] ويجتنب الجدالَ بالباطل، ومن ذلك: المجادَلة في وقت الحجِّ وأحكامِه؛ فقد بيَّنها اللهُ عزَّ وجلَّ أتمَّ بيانٍ، وعليه أنْ يترُكَ المِراءَ والمنازَعة والمخاصَمة.[296]

---

(294) رَجَّح ابنُ جرير (٣/٤٦٨-٤٦٩) مستندًا إلى دلالة العموم أنّ النهيَ عن الرفث يَعُمُّ جميع معانيه لا بعضها، فقال: «والرَّفَثُ في كلام العرب أصلُه: الإفحاشُ في المنطق، ثم تستعمله في الكناية عن الجماع، فإذ كان ذلك كذلك، وكان أهل العلم مختلفين في تأويله، وفي: هل النهي من الله عن بعض معاني الرفث، أم عن جميع معانيه؟؛ وجَب أن يكون على جميع معانيه؛ إذ لم يأتِ خبرٌ بخصوص الرَّفث الذي هو بالمنطق عند النساء من سائر معاني الرفث يجب التسليم له، إذ كان غير جائزٍ نقلُ حكم ظاهر آيةٍ إلى تأويلٍ باطنٍ إلا بحجة ثابتة».

(295) رَجَّح ابنُ جرير (٣/٤٧٦-٤٧٧): أنّ الفسوق هو ما نُهي عنه المُحْرِم؛ من قتل الصيد، وحلق الشعر، ونحو ذلك، وعلَّل ذلك بقوله: «وذلك أنّ الله قد حرَّم معاصيَه على كل أحد، مُحْرِمًا كان أو غير محرم، وكذلك حَرَّم التنابز بالألقاب وسباب المسلم في حال الإحرام وغيرها، فإذا كان ذلك كذلك فلا شكَّ أن الذي نهى الله عنه العبدَ من الفسوق في حال إحرامه وفرضه الحج هو ما لم يكن فسوقًا في حال إحلاله وقبل إحرامه بحجة؛ كما أنّ الرَّفَثَ الذي نهاه عنه في حال فرضه الحج هو الذي كان له مطلقًا قبل إحرامه؛ لأنه لا معنى لأن يُقال -فيما قد حَرَّم الله على خلقه في كل الأحوال-: لا يفعلنَّ أحدُكم في حال الإحرام ما هو حرامٌ عليه فعلُه في كل حال؛ لأنّ خصوص حال الإحرام به لا وجه له وقد عمَّ به جميع الأحوال من الإحلال والإحرام».

(296) اختلف السلف في تفسير قوله: ﴿ولا جدال في الحج﴾ وقد رَجَّح ابنُ جرير (٣/٤٨٧-٤٩٣) أنّ معنى قوله: ﴿لا جدال في الحج﴾ أي: لا جدال في وقته؛ فإنه قد استقام أمره، وزال النَّسيءُ عنه.

عن أبي هُرَيرَة رضي الله عنه، قال: سَمعتُ النَّبيَّ - ﷺ - يقولُ: ((مَن حجَّ للهِ، فلم يَرفُثْ ولم يَفسُقْ، رجَع كيومَ ولدَتْه أمُّه)).[297]

القراءات ذات الأثر في التفسير:

في قوله تعالى: فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ قراءتان:

1- فَلَا رَفَثٌ وَلَا فُسُوقٌ على أنَّ لا هنا ناهية، أي يحرم وقوع ذلك.[298]

2- فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ على أنَّ لا هنا نافية، تدلُّ على النفي العام لجميع الرَّفث وجميع الفسوق، وهذا النفي بمعنى النهي.[299]

لَمَّا نهاهم اللهُ عزَّ وجلَّ عن فِعل الرَّذائل والمنكَرات، حثَّهم على فِعْل الفضائل والخيرات بقوله:

وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ.

أي: كل ما يُقدِّمه العبادُ من الخيرِ من كثيرٍ أو قليل، فالله عزَّ وجلَّ عالمٌ به فيُحصيه لهم، ويَجزيهم عليه بالثَّوابِ الجزيل.

---

(297) رواه البخاريُّ (1521) واللَّفظ له، ومسلم (1350).

(298) قرَأ بها ابنُ كَثير وأبو عَمرٍو وأبو جعفر والبصريان.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (211/2).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 128-129)، ((الكشف)) لمكِّي (285/1، 286).

(299) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (211/2).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 128-129)، ((الكشف)) لمكِّي (285/1 ، 286).

وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى.

سبب النُّزول:

عن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما، قال: ((كان أهلُ اليمن يحجُّون ولا يتزوَّدون، يقولون: نحن المتوكِّلون، فإذا قدِموا مكَّةَ سألوا النَّاس؛ فأنزَل الله عزَّ وجلَّ: وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى)).[300]

أي: تزوَّدوا مِن أقواتكم بما يُعِينكم على الوصولِ للبيت الحرام، وأداءِ مناسِكِ الحجِّ؛ فإنَّ في التزوُّدِ استغناءً عن المخلوقين، وإعانةً للمحتاجين، ولَمَّا أمَرهم الله عزَّ وجلَّ بأخذِ الزَّاد الدُّنيويِّ غذاءً لأجسادهم، أرشَدهم إلى الزَّاد الأخرويِّ الموصل لدار النَّعيم الأبديِّ، غذاءً لقلوبهم، وهو استصحابُ التَّقوى؛ بامتثالِ أوامرِه، واجتنابِ نواهيه.

وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ.

أي: واتَّقونِ يا أصحابَ العُقولِ الصَّحيحة والأفهام السَّليمة، التي تُدركون بها حقيقةَ التَّقوى وثَمرتَها، وتُميِّزون بها بين الحقِّ والباطل.

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ (198).

---

(300) رواه البخاري (1523).

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ.

أي: إنَّه لا حرَجَ على المؤمنين في التكسُّب من التِّجارةِ في مواسم الحجِّ.

سبب النُّزول:

عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما، قال: ((كانت عُكاظٌ ومَجَنَّةُ وذو المجاز أسواقًا في الجاهليَّة، فلمَّا كان الإسلامُ تأثَّموا من التِّجارة؛ فأنزَل اللهُ تعالى: «لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِي مَوَاسِمِ الْحَجِّ» قرأ ابنُ عبَّاس هكذا)).(301)

فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ.

أي: إذا دفَعْتُم مِن عرفاتٍ إلى مزدلفة، فاذكروا اللّهَ تعالى عند مزدَلِفة، ويدخُلُ في ذلك الصَّلاةُ والدُّعاء عندها.

وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ.

أي: اذكُروا اللّهَ عزَّ وجلَّ شُكرًا على هِدايتِه لكم، ومِن ذلك: الإرشادُ إلى مناسِكِ الحجِّ الصَّحيحةِ، واذكروه على الصِّفة الَّتي هداكم لها، أي: وَفْق ما شرَعه سبحانه، وقد كنتم مِن قبلِ هذا الهُدى في

---

(301) رواه البخاري (2050).

ضلالٍ عن الطَّريق المستقيم، كأداءِ مَناسِكِ الحجّ في الجاهليَّة خلافًا لِما جاء به إبراهيمُ الخليلُ عليه الصَّلاة والسَّلام.

ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (199).

ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ.

أي: أمر الله عزَّ وجلَّ عباده من الحُمْس، وهم قريش الذين كانوا لا يقفون بعرفات، بأن يُفيضوا منها كما كانتِ العربُ كلُّها تُفيض منها.

عن هشام بن عروة، عن أبيه، قال: ((كانت العربُ تطوف بالبيتِ عُراةً، إلَّا الحُمْسَ، والحُمْسُ قريشٌ وما ولَدَتْ، كانوا يطوفون عُراةً، إلَّا أنْ تعطيَهم الحُمْسُ ثيابًا، فيُعطي الرِّجالُ الرِّجالَ، والنِّساء النِّساء، وكانت الحُمْسُ لا يخرُجون من المزدَلِفة، وكان النَّاس كلُّهم يبلغون عرفاتٍ، قال هشام: فحدَّثني أبي، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: الحُمْسُ هم الَّذين أنزَل الله عزَّ وجلَّ فيهم: ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ، قالت: كان النَّاسُ يُفِيضون من عرفاتٍ، وكان الحُمْس يُفيضون من المزدلفة، يقولون: لا نُفِيض إلَّا من الحرَم، فلمَّا نزلت: أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ، رجَعوا إلى عرفاتٍ)).[302]

---

(302) رواه البخاري (1665)، ومسلم (1219).

وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

أي: أمَرَ اللهُ تعالى حُجَّاج بيته أنْ يطلبوا المغفرةَ منه سبحانه، أي: سترَ ذنوبهم، والتجاوز عنها؛ فهو سبحانه وتعالى أهلٌ لأنْ يُطلَبَ منه ذلك؛ لأنَّه غفورٌ ورحيمٌ بعباده المؤمنين.

فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ (200).

فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا.

أي: فإذا أتممتُم أداءَ مناسكِ الحجِّ، وتحلَّلتُم من النُّسك،[303] فأكْثِروا مِن ذِكْر الله عزَّ وجلَّ؛ شُكرًا له سُبحانه على إنعامِه بالتَّوفيق لأداء هذه العبادةِ العظيمة، وليكُن ذِكرُكم لله تعالى لا يقلُّ عن ذِكركم لآبائِكم، وذِكرِ مآثرِهم، بل عليكم أنْ تَذكروه بأشدَّ من ذلك.

لَمَّا أمَر اللهُ تعالى بذِكره، أرشدَ إلى دُعائه؛ فإنَّه مظنَّةُ الإجابة، فقال:

فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ.

---

(303) فَسَّر ابنُ جرير (٣/٥٣٤) المناسك بالذَّبْحِ وبالحَجِّ، فقال: «يعني بقوله –جل ثناؤه–: ﴿فإذا قضيتم مناسككم﴾: فإذا فرغتم من حَجِّكم، فذبحتم نسائِكَكُم؛ فاذكروا الله. يُقال منه: نَسَكَ الرجلُ ينسك نسْكًا، ونُسُكًا، ونسيكة، ومنسكًا: إذا ذبح نُسُكَه. والمنسك: اسم مثل المشرق والمغرب. فأما النُّسُك في الدين فإنه يُقال منه ما كان الرجل ناسكًا، ولقد نسَك ونسُك نَسْكا ونِسْكا ونساكة، وذلك إذا تقرَّأ».

وذكر ابنُ عطية (١/٤٩١): «والمناسك عندي: العباداتُ في معالم الحج ومواضع النسك فيه، والمعنى: إذا فرغتم من حجكم الذي هو الوقوف بعرفة فاذكروا الله بمحامده، وأَثْنُوا عليه بآلائه عندكم».

أي: فمِن الناس مَن لا يَسألُ اللهَ تعالى إلَّا مصالحَ دُنياه، فيَسأله متاعَها وزِينتَها، ولا نَصيبَ له في ثواب الآخِرة؛ لرغبتِه عنها، وقُصورِ همَّته على الدُّنيا.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (201).

أي: ومن النَّاس مؤمِنون يسألون اللهَ تعالى من خيريِ الدُّنيا والآخرة- سواءٌ في مناسِك الحجِّ، أو بعدَ أدائها، أو في غيرِ ذلك من الأوقات- وهذا شاملٌ للعِلم النَّافِع والعمَل الصالح، والرِّزق الحسَن، والعافية، وغير ذلك، وأما حسنةُ الآخرةِ الَّتي يطلُبونها فهي نعيمُ الجنَّة، كما أنَّهم يسأَلون ربَّهم عزَّ وجلَّ أنْ يصرِفَ عنهم عذابَ النَّار.[304]

---

(304) اختلف السلف في حسنة الدنيا التي ذكر الله على أقوال كثيرة، وقد جمع ابنُ جرير وابنُ عطية وابنُ كثير بين كل تلك الأقوال، وبيَّنوا أنّه لا منافاة بينها، وأنّها مُندَرِجَةٌ تحت عموم معنى الحسنة، وأنّ حسنة الآخرة الجنة بإجماع.

قال ابنُ جرير (٣/٥٤٧): «والصواب من القول في ذلك عندي أن يُقال: إنّ الله -جل ثناؤه- أخبر عن قومٍ من أهل الإيمان به وبرسوله مِمَّن حج بيته، يسألون ربهم الحسنةَ في الدنيا، والحسنةَ في الآخرة، وأن يقيهم عذاب النار. وقد تجمع الحسنة من الله العافيةَ في الجسم، والمعاش، والرزق، وغير ذلك، والعلم، والعبادة. وأما في الآخرة فلا شك أنها الجنة؛ لأنّ مَن لم ينلها يومئذ فقد حرم جميع الحسنات، وفارق جميع معاني العافية. وإنما قلنا إن ذلك أولى التأويلات بالآية؛ لأنّ الله ﷺ لم يُخَصِّص بقوله مُخْبِرًا عن قائل ذلك من معاني الحسنة شيئًا، ولا نَصَبَ على خصوصه دلالة دالَّةً على أنّ المراد من ذلك بعضٌ دون بعض، فالواجب من القول فيه ما قُلْنا من أنّه لا يجوز أن يُخَصَّ من معاني ذلك شيء، وأن يحكم بعمومه على ما عَمَّه الله».

وقال ابنُ عطية (١/٤٩٢) مُعَلِّقًا على الأقوال الواردة في تفسير الحسنة: «واللفظة تقتضي هذا كله [يعني: جميع ما أورده المفسرون]، وجميع محابّ الدنيا، وحسنة الآخرة الجنة بإجماع».

وعَلَّق ابنُ كثير (١/٥٥٨)، فقال: «ولا منافاة بينها؛ فإنها كلها مندرجة في الحسنة في الدنيا».

ولا ينافي قول السدي وابن حيان أنّ حسنة الآخرة المغفرة والثواب الإجماع على أنّها الجنة،

فقد قال ابنُ كثير (١/٥٥٨): «وأما الحسنة في الآخرة فأعلى ذلك دخول الجنة، وتوابعه من الأمن من الفزع الأكبر في العرصات، وتيسير الحساب، وغير ذلك من أمور الآخرة الصالحة».

كما قال تعالى حكايةً عن موسى عليه السَّلام: وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ [الأعراف: 156].

وعن أنسِ بن مالكٍ رضي الله عنه: ((أنَّ رسولَ اللهِ – ﷺ – عاد رجلًا من المسلمينِ قد خَفَت فصار مِثلَ الفرْخِ، فقال له رسولُ اللهِ – ﷺ –: هل كنتَ تدعو بشيءٍ أو تسأله إياه؟ قال: نعم، كنتُ أقولُ: اللهم ما كنتَ مُعاقِبي به في الآخرةِ، فعَجِّلْه لي في الدُّنيا، فقال رسولُ اللهِ – ﷺ –: سبحان اللهِ! لا تُطيقُه– أو لا تستطيعُه– أفلا قلتَ: اللهمَّ آتِنا في الدُّنيا حسنةً، وفي الآخرةِ حسنةً، وقِنا عذابَ النارِ؟ قال: فدعا اللهَ له، فشفاه)).(305)

وسأل قَتادةُ أنسًا رضي الله عنه: ((أيُّ دعوةٍ كان يدعو بها النبيُّ – ﷺ – أكثرُ؟ قال: كان أكثرُ دعوةٍ يدعو بها يقولُ: اللهمَّ آتِنا في الدُّنيا حسنةً، وفي الآخرةِ حسنةً، وقِنا عذابَ النارِ، قال: وكان أنسٌ إذا أراد أنْ يدعوَ بدعوةٍ، دعا بها، فإذا أراد أنْ يدعوَ بدعاءٍ، دعا بها فيهِ)).(306)

ذكَر ابنُ عطية (١/٤٩٣) أنّ قوله: ﴿وقنا عذاب النار﴾ دعاء في أنْ لا يكون المرء ممن يدخلها بمعاصيه، وتُخْرِجه الشفاعة.

ثم ســـاق احتمالًا آخر، فقال: «ويُحتمل أن يكون دعاءً مؤكدًا لطلب دخول الجنة، لتكون الرغبة في معنى النجاة، والفوز من الطرفين، كما قال أحد الصـــحابة للنبي ﷺ: أنا إنما أقول في دعائي: اللهم، أدخلني الجنة، وعافني من النار، ولا أدري ما دَنْدَنَتك، ولا دَنْدَنة معاذ؟ فقال له رسول الله ﷺ: «حولها نُدَندِن»».

(305) رواه مسلم (2688).

(306) رواه البخاري (6389)، ومسلم (2690) واللفظ له.

وعن عبد الله بن السَّائبِ رضي الله عنه، قال: ((سمعتُ رسولَ الله – ﷺ – يقول ما بين الرُّكنين: ربَّنا آتِنا في الدُّنيا حسنةً، وفي الآخرةِ حسنةً، وقِنا عذابَ النَّارِ)).[307]

أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (202).

أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا.

أي: إنَّ أُولئك الَّذين يقولون: رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ – لهم ثوابٌ جَزيل على حَجِّهم الَّذي باشَروا معاناتَه بأنفسهم وأموالهم، وسيؤتيهم اللهُ تعالى حظًّا مِمَّا سألوه من خيرَيِ الدنيا والآخرة، وذلك بحسَب أحوالهم، وما تقتضيه حِكمة الله عزَّ وجلَّ.

وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ.

أي: إنَّه سبحانه يُحصي أعمالَ العباد بسرعة، دون الحاجة إلى عقد أصابع، أو استخدام آلةٍ، وبلا حاجةٍ إلى فِكرٍ أو رَوِيَّة، كما يفعَلُ الخَلق، وهو سريع المحاسَبة للخَلْق يوم القيامة دون أنْ يظلِمَ أحَدًا شيئًا، ودون الحاجةِ إلى تذكُّرٍ أو تأمُّلٍ، كما أنَّه سبحانه سريعُ المجازاة لعباده.

---

(307) رواه ابنُ أبي شَيبة (443/3)، وأبو داود (1892)، والنَّسائي في ((السنن الكبرى)) (403/2، رقم 3934)، والحاكم (304/2)، والبيهقي (84/5) (9557).

والحديث قال عنه الحاكم: صحيحُ الإسناد ولم يُخرجاه. وحسَّنه الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (1892).

وَاذْكُرُوا اللهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (203).

وَاذْكُرُوا اللهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ.

أي: أمَر اللهُ تعالى عبادَه- مِن حُجَّاج بيته وغيرِهم- بتكبيرِه في أيَّام منًى، وهي أيَّامُ التَّشريق الَّتي تشمَل ثلاثةَ أيَّام بعد يوم النَّحر، ويتعلَّقُ بذلك التكبيرُ عند ذَبْح الهدي والأضاحيِّ، والتكبير المطلَق في سائر الأحوال، والتكبير المقيَّد بعد الصلوات الخمسِ المفروضة، والتكبير عند رَمْيِ الجِمار.[308]

فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى.

---

(308) نقَل إجماعَ المفسِّرين على أنَّ المراد بالأيَّام المعدودات أيَّامُ مِنًى: الماورديُّ ((النكت والعيون)) (263/1)، والقرطبي في ((تفسيره)) (1/3).

ونقَل الإجماعَ على أنَّ المراد بالذِّكر في هذه الآية، التَّكبير، وعلى أنَّ الحاجَّ مخاطَب بهذه الآية: ابنُ العربي في ((أحكام القرآن)) (197/1، 199)،

ونقَل الإجماعَ على الثاني القرطبيُّ في ((تفسيره)) (3/3).

وقال ابنُ العربي: (فأمَّا غير الحاجِّ؛ فهل يدخُل فيه أم لا؟.

فنقول: أجمَع فقهاءُ الأمصار والمشاهير من الصَّحابة والتابعين رضِي الله عنهم، على أنَّ المراد به التَّكبير لكلِّ أحد، وخصوصًا في أوقات الصَّلوات؛ فيُكبِّر عند انقضاء كلِّ صلاة، كان المصلِّي في جماعةٍ، أو وحْده، يُكبِّر تكبيرًا ظاهرًا في هذه الأيام) ((أحكام القرآن)) (199/1).

ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (549/3-553)، ((تفسير ابن كثير)) (561/1-562)، ((تفسير السعدي)) (ص: 93).

وممَّن فسَّر مِن السَّلَف الأيَّام المعدودة بمِثل ما ذُكر: ابنُ عبَّاس، وابنُ عُمر، وابن الزُّبير، وأبو موسى، ومجاهد، وعطاء، والحسن، وإبراهيم، والضَّحَّاك، وأبو مالك، وعِكْرمة، وسعيد بن جُبَير، والسُّدِّي، والزُّهري، وقَتادة، والرَّبيع بن أنس، ومقاتل بن حيَّان، وعطاء الخراساني، ويَحيى بن أبي كثير.

يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (361/2).

أي: إنَّه لاحرَج على الحاجِّ، سواءٌ خرَج من منًى قبل غروب شمس اليوم الثَّاني مِن أيَّام التَّشريق، أو بقِي فيها إلى اليومِ الثَّالث لرَمْيِ الجمَرات، فله أنْ يختارَ ما شاء، ما دام أنَّه ممتثلٌ ما أمَر اللهُ تعالى به، ومجتنبٌ ما نهى عنه، وخاصَّةً فيما يتعلَّقُ بالحجِّ من مأموراتٍ ومحظورات، كما أنَّ كُلًّا من المتعجِّلين والمتأخِّرين إذا اتَّقَوُا اللهَ تعالى في حجِّهم فلم يرفُثوا أو يفسُقوا، خرَجوا من حَجِّهم بلا إثمٍ، طاهرينَ من الذُّنوب كيوم ولَدَتْهم أمَّهاتهم.(309)

وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ.

أي: امتثِلوا أوامرَ الله عزَّ وجلَّ، واجتنبوا نواهيَه في الحجِّ وغيرِه، واعْلَموا أنَّكم تُجمَعون إلى الله تعالى يومَ القيامة، فتُجازَوْن بأعمالِكم؛ إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنْ شرًّا فشَرٌّ.

---

(309) اختلف السلف في المراد من قوله تعالى: ﴿فلا إثم عليه لمن اتقى﴾ على أقوال؛
الأول: مَن تعجل فلا حرج عليه في تعجله، ومَن تأخر فلا حرج عليه في تأخره.
الثاني: ليس عليه إثمٌ إن تعجل أو تأخر فيما بينه وبين السنة التي بعدها.
الثالث: فلا إثم عليه إن اتَّقى قتل الصيد.
الرابع: فلا إثم عليه إن اتّقى فيما بقي من عمره.
الخامس: مَن تعجل أو تأخر فلا إثم عليه إن اتَّقى الله في حجه.
وقد رجّح ابنُ جرير (٣/٥٦٦) القولَ الأخير.

سُورةُ البَقَرَةِ

الآيات (204–207)

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (204)

وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ (205)

وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ (206)

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (207)

غريب الكلمات:

أَلَدُّ الخِصَامِ: أي: شديد الخُصومة، أو أشَدُّهم خصومةً؛ أصل اللَّدد: الشِدَّة؛ والْأَلَدُّ: الخَصيم الشَّديد التَّأبِّي، والخِصام: جمْع خَصم، أو مصدَر خاصَم.

الحَرْثَ: الزَّرع، والبساتين والمزارع، وأصْلُه: إلقاء البَذر في الأرض وتهيئتها للزَّرع، والكَسبُ والجَمْعُ.

النَّسْلَ: الوَلد والنَّجْل، وهو في الأصل: الانفصالُ عن الشَّيءِ.

المِهَادُ: الفِراش، والقَرار، وأصل مَهَد: من توطئة الشيء وتسهيله.

يَشْرِي: يَبِيع.

تفسير الآيات:

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (204).

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

أي: إنَّ بعضَ النَّاس، مِن المنافقين،[310] مَن تستحسنُ يا محمَّد، مَنطقَه وظاهرَ قوله، فتُعجِبك فصاحتُه، لكنه يتحدَّث في شؤون الدُّنيا بعيدًا عمَّا يتعلَّقُ بأمور الآخرة، أو يُعجِبُك ظاهرُ حديثِه عن أمور الدِّين؛ كنُصرةِ الإسلام والمسلمين، وحبِّ الرَّسول عليه الصَّلاةُ والسلام، وغير ذلك، لكنه حديثٌ ينفعُه في الدنيا فحسب، أما في الآخرة فلا ينتفع به البتَّةَ.

وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ.

أي: ويُقرنُ حُسنَ كلامِه ويؤكِّد ظاهرَ حديثِه بأنْ يُخبِرَ أنَّ اللهَ تعالى يعلَمُ بأنَّ ما في قلبه موافقٌ لِما نطَق به، وهو كاذبٌ في ذلك؛ فهو في الحقيقةِ يُبارِزُ اللهَ عزَّ وجلَّ بما ينطوي عليه قلبُه من الكفرِ.

---

(310) اختُلِف فيمَن نزلت هذه الآية؛ فقال قوم: نزلت في الأخنس بن شَرِيق.
وقال آخرون بنزولها في نفر من المنافقين.
وقال غيرهم بعمومها.
ورجَّح ابنُ كثير (٢/٢٦٩) القولَ الأخير فقال: «وقيل: بل ذلك عامٌّ في المنافقين كلهم ... وهو الصحيح».
وكذا رَجَّحه ابنُ عطية (١/٥٠٢) مُسْتَنِدًا إلى الدلالات العقلية، وهي مجيء قوله تعالى: ﴿ومِنَ النّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ﴾ العام في كل مجاهد في سبيل الله بعد هذه الآية؛ فدَلَّ ذلك على عموم ما قبلها في الكافر، بدليل الوعيد بالنار.

كما قال تعالى: إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ [المنافقون: 1 – 4].

وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ.

أي: يُشْهِد اللهَ تعالى على أنَّه محقٌّ في قولِه ذلك؛ لشِدَّة خصومتِه، وتجدُه– لاعتمادِه على فصاحتِه– مُجادِلًا بالباطل، وناطقًا بالزُّور مِن القول، كاذبًا في حديثِه، وفاجرًا في خِصامِه؛ فالمُنافِق أسوأُ المخاصِمينَ، وأعوجُهم، وأشدُّهم عداوةً.(311)

---

(311) تَعدَّدت الألفاظ التي وردَت عن السَّلف في معنى وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ، وكلُّها داخلة في المعاني التي ذُكرت، وممَّن ورد عنه من السَّلَف في ذلك: ابن عبَّاس، والحسن، ومحمَّد بن كَعْب، ومجاهد، وعطاء الخُراساني، وقَتادة، والسُّدِّي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (578/3)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (365/2).

اختُلِف في تفسير هذه الآية؛ فقال قوم: تفسيره: أنّه ذو جدال.

وقال آخرون: معناه: أنّه غير مستقيم الخصومة.

وقال غيرهم: هو كاذب في قوله.

وذكَر ابنُ جرير (٣/٥٨٠) أنّ القولين الأولين متقاربي المعنى، فقال: «وكِلا هذين القولين متقاربُ المعنى؛ لأنّ الاعوجاج في الخصومة من الجِدال واللَّجَج».

ثم ذكر أنّ القول الثالث الذي قاله الحسن يحتمل أن يكون معناه معنى القولين الأولين إن كان أراد به قائلُه: أنّه يخاصم بالباطل من القول والكذب منه جدلًا واعوجاجًا عن الحق.

عن عائشةَ رضي الله عنها، أنَّ النبيَّ - ﷺ - قال: ((إنَّ أبغضَ الرِّجالِ إلى اللهِ الألدُّ الخَصِمُ)).[312]

وعن عبدِ الله بن عمرٍو رضي الله عنهما، أنَّ رسولَ الله - ﷺ - قال: ((أربعُ خلالٍ مَن كُنَّ فيه كان مُنافِقًا خالصًا: مَن إذا حدَّث كذَب، وإذا وعَد أخلَفَ، وإذا عاهَد غدَرَ، وإذا خاصَمَ فجَر، ومَن كانت فيه خَصلةٌ منهنَّ كانت فيه خَصلةٌ منَ النِّفاقِ حتَّى يدَعَها)).[313]

وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ

(205)

وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا.

أي: كما أنَّ مقالَه مُعْوجٌّ، واعتقاده فاسدٌ، فأفعاله كذلك سيِّئةٌ وقبيحة، فإذا خرَج وانصرف عنك هذا الذي يُعجِبُك قولُه، سار في الأرض مجتهدًا في إفسادِها بالكفر، والظُّلم، وعمَل المعاصي؛ كقَطْعِ الطَّريق، وإخافة السَّبيل، وغير ذلك.[314]

---

(312) رواه البخاري (3178)، ومسلم (58).
(313) رواه البخاري (2457) واللفظ له، ومسلم (2668).
(314) اختُلِف في معنى هذه الآية؛ فذهب بعضهم إلى أنّ المعنى: إذا أدْبَرَ منصرفًا.
وقال آخرون: إذا غضب.
ووجَّه ابنُ عطية (١/٤٩٩ بتصرف) كِلا القولين بقوله: «﴿تَوَلَّى﴾ و﴿سَعَى﴾ تحتمل جميعًا معنيين:

وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ.

أي: هِمَّتُه في إتلاف الحَرْث، وهو: محلُّ نَماء الزُّروع والثِّمار، وإتلاف النسل، وهو: نتاجُ الحيوانات؛ فهذانِ لا قِوام للنَّاس إلا بهما، وبإتلافِهما يختلُّ نظامُ الحياة، كما أنَّه إذا سعى في الأرض فسادًا بالكفرِ والظُّلم والمعاصي، منَع اللهُ تعالى القطرَ من السَّماءِ عقوبةً؛ فتَتْلَف الزُّروع، وتموت الحيوانات.

كما قال تعالى: ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ [الروم: 41].

أحدهما: أن تكون فعل قلب، فيجيء ﴿تَوَلَّى﴾ بمعنى: ضَلَّ وغَضِب وأَنِف في نفسه، فسعى بحِيَله وإرادته الدوائرَ على الإسلام، ومِن هذا السعي قول الله تعالى: ﴿وأَنْ لَيسَ لِلْإنسانِ إلّا ما سَعى﴾ [النجم:٣٩].

والمعنى الثاني: أن يكونا فعل شخصٍ، فيجيء ﴿تَوَلَّى﴾ بمعنى: أدْبَر ونَهَضَ عنك، يا محمد، و﴿سَعى﴾ يجيء معناها: بقدميه، فقطع الطريق وأفسدها.

واختُلِف في معنى الإفساد الذي أضافه الله للمذكور في الآية؛ فقال قوم: هو قطعه الطريقَ، وإخافته السبيلَ. وقال آخرون: قطعُ الرَّحِم، وسَفْكُ الدماء.

وجَمَعَ ابنُ جرير (٣/٥٨٢) بين القولين، فقال: «والصواب من القول في ذلك أن يُقال: إنّ الله -تبارك وتعالى- وصَف هذا المنافقَ بأنّه إذا تولى مُدْبِرًا عن رسول الله ﷺ عمل في أرض الله بالفساد. وقد يدخل في الإفساد جميعُ المعاصي، وذلك أنّ العمل بالمعاصي إفسادٌ في الأرض، فلم يُخَصِّص اللهُ وصفَه ببعض معاني الإفساد دون بعض».

ثم قوّى القولَ الأول مستندًا إلى السياق، فقال: «لأنّ الله -تعالى ذِكْرُه- وصَفَه في سياق الآية بأنّه سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل، وذلك بفعل مُخِيفِ السبيل أشبهُ منه بفعل قُطّاع الرَّحِم».

وذكر ابنُ تيمية (١/٤٨٥) أن الإفساد فُسِّر بالظلم، وبالكفر، ثم علّق بقوله: «وكلاهما صحيح».

واختُلِف في صفة إهلاك من ذَكَرَتْه الآيةُ للحرث والنسل؛ فقال السدي: كان ذلك بإحراقه الزرعَ، وقتله الحُمُرَ.

وقال مجاهد: المراد: أنّ الظالم يُفْسِد؛ فيحبسُ الله المطرَ؛ فيهلَكُ الحرثُ والنسلُ.

وقال عزَّ وجلَّ: وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ [الأعراف: 96].

وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ.

أي: إنَّ الله تعالى لا يحبُّ تلك الأفعالَ، ولا مَن قام بها، وإنْ قال بلسانه قولًا يُعجِب النَّاسَ.

وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ (206).

وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ.

أي: إذا أُمِر هذا المنافقُ بتقوى الله عزَّ وجلَّ؛ بامتثالِ ما أمَر به، واجتنابِ ما نهى عنه، ومِن ذلك: تَرْكُ الإفساد في الأرض بالكفر والظُّلم والمعاصي، وإهلاكِ الزُّروع والحيوانات، إذا أُمر بذلك، استكبَر، وأخذَتْه حميَّةٌ بسبب وقوعِه في الآثام، وحملَتْه هذه الأَنَفةُ على ارتكاب المزيدِ من السَّيِّئاتِ.(315)

(315) ذكر ابنُ عطية (١/٥٠١) أنّ العِزَّة هنا تحتمل احتمالين:

الأول: أن تكون بمعنى: المنعة وشدَّة النفس، أي: اعتزَّ في نفسه وانتخى، فأوقعته تلك العزة في الإثم حين أخذته به، وألزمته أباه.

الثاني: أن يكون أخذته العزة مع الإثم. ثم علَّق بقوله: «فمعنى الباء يختلِف بحسب التأويلين».

فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ.

أي: كفاه عقوبةً مِن غيِّه وضلالِه، صَلْيُه نارَ جهنَّمَ، ولبئس الفِراشُ والوِطاءُ جهنَّمُ، الَّتي وطَّأها لنفسِه بنِفاقِه وفُجوره.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ وَاللهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ (207).

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ.

أي: إنَّ هناك صِنفًا من النَّاس يبيعون أنفسَهم، ويبذلونها ثمنًا لنيلِ مرضاةِ الله عزَّ وجلَّ.

وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ.

أي: واللهُ ذو رحمةٍ عظيمة بعباده، ولعبوديَّتِهم له يرأَفُ بهم، وخاصةً مَن يبيعون أنفسَهم له سبحانه، ومِن رأفته بهؤلاء أنْ يوفِّقَهم لذلك، ويرضى عنهم.(316)

(316) اختُلِف فيمن عُنِي بهذه الآية؛ فقال قوم: المهاجرون والأنصار.

وقال آخرون: رجال من المهاجرين بأعيانهم.

وقال غيرهم: بل عني بذلك كلّ شارٍ نفسَه في طاعة الله، أو أمر بمعروف.

ورجَّح ابنُ جرير (٣/٥٩٤) القول الأخير فقال: «وذلك أنّ الله –جل ثناؤه– وصف صفة فريقين: أحدهما: منافق يقول بلسانه خلاف ما في نفسه، وإذا اقتدر على معصية الله ركبها، وإذا لم يقتدر رامها، وإذا نُهِي أخذته العزة بالإثم بما هو به آثم. والآخر منهما: بائعٌ نفسَه، طالِبٌ من الله رضا الله. فكان الظاهر من التأويل أنّ الفريق الموصوف بأنه شرى نفسه لله وطلب رضاه إنّما شراها للوثوب بالفريق الفاجر طلب رضا الله. فهذا هو الأغلب الأظهر من تأويل الآية. وأمّا ما رُوِي من نزول الآية في أمر صهيب فإنّ ذلك غيرُ مستنكر، إذ كان غيرَ مدفوع جوازُ نزول آية من عند الله على رسوله ﷺ بسبب من الأسباب والمعنيُّ بها كلُّ من شمله ظاهرها».

وكذا ابنُ تيمية (١/٤٨٦).

وذكر ابنُ عطية (١/٥٠٢–٥٠٣) أنّ من قال بنزول الآيات السابقة في الأخنس جعل هذه في المهاجرين والأنصار، ومن جعلها عامَّة جعل هذه كذلك. وبيَّن أن ﴿يشري﴾ معناه: يبيع، ومنه قوله:﴿وشروه بثمن بخس﴾ [يوسف:٢٠]، ثم نقل عن قوم أنهم قالوا: شرى بمعنى: اشترى، ثم علَّق، بقوله: «ويحتاج إلى هذا من تأوَّل الآية في صُهيب، لأنه اشترى نفسه بماله ولم يبعها، اللهم إلا أن يقال: إن عزْم صُهيب على قتالهم بيْعٌ لنفسه من الله تعالى فتستقيم اللفظة على معنى باع».

سُورةُ البَقَرَةِ

الآيات (208–214)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (208)

فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (209)

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (210)

سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (211)

زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (212)

كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ **(213)**

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ **(214)**

غريب الكلمات:

السِّلْمِ: أي: الإسلام. وأصلُ السِّلم: الصُّلح، والسِّلم ضِدُّ الحرْب، والتَّعرّي من الآفات الظاهرة والباطنة، والاستسلام والانقياد.

خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ: أي: سَبيلَه ومَسْلكَه، وآثارَه وعملَه، وخُطوات جمْع خُطْوَة، والخُطْوَة: ما بين القدمين.

زَلَلْتُمْ: الزَّلَّةُ: استرسال الرِّجْلِ من غير قصْد، يقال: زَلَّتْ رِجله تَزِلُّ، والمَزِلَّةُ: المكان الزَّلق، وقيل للذَّنب من غير قصد: زَلَّةٌ؛ تشبيهًا بزلَّة الرِّجل.

يَنْظُرُونَ: ينتظرون.

الْغَمَامِ: جمع غمامة، وهو سحابٌ أبيضُ يُواري وجْهَ السماء، لكنَّه يُبقيها مستنيرة؛ سُمِّي بذلك لأنَّه يغمُّ السَّماء، أي يَسترُها ويُواريها، وأصل الغَمّ: ستر الشيءِ.

بَغْيًا: طُغيانًا وتعديًا بالباطِل، وظلمًا وعدوانًا، وحسدًا، أو نتيجةً للحسد، وأصل البَغْي: طلَب الشيءِ، وجِنس من الفَساد، والظُّلم، والترفُّع والعلو، ومنه قيل للحَسَد: بغي؛ لأنَّ الباغي طالبُ الظلم، والحاسد يظلم المحسودَ جَهدَه؛ طلبًا لإزالة نِعمة الله تعالى عنه.

تفسير الآيات:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (208).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً.

أي: يا مَعشرَ المؤمنينَ اعْمَلوا بجميع شَرائعِ الإسلام.(317)

لَمَّا أمَر الله تعالى بالعملِ بجميع شرائعِ الإسلام، حذَّر سبحانه ممَّا يمنَعُ مِن الالتزام بذلك، فقال:

وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ.

---

(317) اختُلِف في مَن المخاطب بذلك؛

فقال قوم: جميع المؤمنين بمحمد.

وقال آخرون: المخاطب مَن آمن بالنبي من بني إسرائيل.

وقال غيرهم: هم أهل الكتاب.

وجَمع ابنُ جرير (٣/٦٠٠) بين الأقوال باندراجها تحت عموم الآية، فقال: «والصــواب من القول في ذلك عندي أن يُقال: إنّ الله –جَلَّ ثناؤه– أمَر الذين آمنوا بالدخول في العمل بشــرائع الإســلام كلها، وقد يدخل في الذين آمنوا المُصَـدِّقون بمحمد ﷺ وبما جاء به، والمصدقون بمَن قبله من الأنبياء والرسل وما جاءوا به، وقد دعا الله كِلا الفريقين إلى العمل بشرائع الإسلام وحدوده، والمحافظة على فرائضه التي فرضها، ونهاهم عن تضييع شيء من ذلك؛ فالآية عامَّةٌ لِكُلِّ مَن شَمِلَه اسمُ الإيمان، فلا وجه لخصوص بعض بها دون بعض».

وكذا ذكر ابنُ تيمية (٤٨٧/١) أنّه لا منافاة بين الأقوال؛ إذ الجميع مأمورون بما في الآية.

واختُلِف في المراد بالسلم؛ فقال قوم: معناه: الإسلام.

وقال آخرون: بل معناه: ادخلوا في الطاعة. واختلف القراء في قراءة ﴿السـلم﴾؛ فمنهم من قرأ بالكسـر، ومنهم من قرأ بالفتح بمعنى: المسالمة والصلح، ومن قرأوا بالكسر اختلفوا؛ فمنهم مَن وجَّه المعنى إلى الإسلام، ومنهم مَن وجَّهه إلى الصلح.

أي: لا تُطِيعوا الشَّيطان؛ فتَسلُكوا طُرقَه، فيقودَكم شيئًا فشيئًا إلى التَّهلُكةِ؛ فهو لكم عَدوٌّ ظاهِرُ العَدواة.(318)

فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (209).

أي: فإن أخطَأْتم وخالَفْتم شرائعَ الإسلام عن عمدٍ، وضلَلْتُم عن الحقِّ عن عِلمٍ، من بعدِ قيام الحُجَجِ والبراهين عليه، فاعلَموا أنَّ اللهَ تعالى لا يُعجِزُه شيءٌ عن الانتقام منكم؛ إذ يقهَر مَن يشاءُ بقوَّتِه، ويُعذِّبُ مَن يشاء بمقتضى حِكمته؛ فإنَّ مِن حِكمته معاقبةَ العُصاةِ بما يُناسب معصيتَهم له سبحانه.

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنَّ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (210).

أي: ما ينتظر هؤلاء الذين زلُّوا من بعد ما جاءتهم البينات، فكذَّبوا بمحمَّدٍ - ﷺ - وما جاء به، إلَّا إتيان الرَّبِّ عزَّ وجلَّ يوم القيامة في ظُلَلٍ من الغمام، وإتيان الملائكة، فيقضي الله تعالى بين

---

(318) ذكر ابن عطية (٥٠٦/١) أن قوله:﴿مبين﴾ يحتمل احتمالين:

الأول: أن يكون بمعنى: أبان عداوته.

الثاني: وأن يكون بمعنى بان في نفسه أنه عدوّ، لأن العرب تقول: بان الأمر وأبان بمعنى واحد.

عباده، ويجازي كل عامل بعمله، فجميع أمور الدنيا والآخرة تؤول إلى الله عزَّ وجلَّ وحده، وحيئذ يكونُ الأمرُ قد انتهى وحقَّ عليهم الهلاك؟![319]

قال تعالى: وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا [الفرقان: 25–26].

وقال سبحانه: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ [الأنعام: 158].

وقال عزَّ وجلَّ: كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى [الفجر: 21 – 23].

---

(319) اختُلِف في قوله: ﴿في ظلل من الغمام﴾؛

فقال قوم: هو من صِلة فعل الله، والمعنى: هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة.

وقال آخرون: هو من صِلَة فعل الملائكة، وهي التي تأتي فيها، وأما الرب فيأتي فيما يشاء.

ورَجَّح ابنُ جرير (٣/٦٠٩ بتصرف) القولَ الأول فقال: «وأَوْلى التأويلين بالصواب في ذلك تأويلُ مَن وجَّه قولَه: ﴿في ظُلل من الغمام﴾ إلى أنه من صِلةِ فعلِ الرَّبِّ، وأنّ معناه: هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظُللٍ من الغمام وتأتيَهم الملائكة؛ لِما حَدَّثنا ... أنّ النبي ﷺ قال: «إنّ من الغمام طاقات، يأتي الله فيها محفوفًا».

وذلك قوله: ﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وقضي الأمر﴾».

وعن عبدِ اللهِ بن مسعودٍ رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ - ﷺ -، قال: ((يجمعُ اللهُ الأوَّلين والآخِرين لميقاتِ يومٍ معلومٍ أربعين سَنةً، شاخصةً أبصارُهم إلى السماءِ ينظرون إلى فصلِ القضاءِ، فينزلُ اللهُ من العرشِ إلى الكرسيِّ في ظُلَلٍ من الغمامِ)).[320]

سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (211).

سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ.

أي: أمَرَ اللهُ تعالى محمَّدًا - ﷺ - أنْ يسأَلَ اليهودَ عمَّا أعطاهم اللهُ تعالى مِن قبلِ مجيئِه عليه الصَّلاة والسَّلام، من دلائلَ ومُعجزاتٍ، وحُجَجٍ واضحات، شاهَدوها على أيدي أنبيائِه ورُسلِه عليهم السَّلام، دالَّات على صِدقهم وصِدْقِ ما جاؤوهم به، ومن ذلك: الإيمانُ بمحمَّدٍ - ﷺ -، ووجوبُ متابعته على دِينه، لكنَّهم مع ذلك كلِّه أعرَضوا، وكفَروا، وكذَّبوا.

---

(320) أخرجه ابنُ أبي الدنيا في ((صفة الجنة)) (31)، ومحمد بن نصر المروزي في ((تعظيم قدر الصلاة)) (278)، والطبراني (417/9) (9763)، والدارقطني في ((رؤية الله)) (163).
حسَّنه الذهبي في ((العرش)) (76)، وابن القيم في ((حادي الأرواح)) (262)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح الترغيب)) (3591).

وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ.

أي: مَن يترُكْ نعمةَ الإسلام، فيمتنعْ عن قَبولِها بالدُّخول فيه، والعملِ بجميع شرائعه، ويختار عِوضًا عن ذلك الكفرَ به- فإنَّ اللهَ تعالى سيُعاقبه عِقابًا شديدًا.(321)

كما قال تعالى: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذين بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ [إبراهيم: 28-29].

زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (212).

زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا.

أي: زُيِّنت الدُّنيا بزُخرفِها ومباهجِها للكفَّار، فتغلغل حبُّها في شغافِ قلوبهم، وقصَروا أنظارَهم عليها، وآثَروها على نعيمِ الآخرة، فعليها يتكالَبون، وفيها يطلُبونَ ما يشتهون، وهم مع ذلك بالمؤمنين

---

(321) ذَكَرَ ابنُ جرير (٦١٧/٣) مستندًا إلى أقوال السلف أنّ النعمة هنا: الإسلام، وما فَرَضَ من شرائع دينه.
وأفاد ابنُ عطية (٥٠٨/١) عموم اللفظة لكل النِّعَم، وبيَّن أنّ كلام ابن جرير قريبٌ منه، ثم قَوّى كون النعمة المشـــار إليها هنا: النبي، فقال: «و﴿نِعْمَةَ اللَّهِ﴾ لفظ عامٌّ لجميع أنعامه، ولكن يُقَوّي مِن حال النبي معهم أنّ المشار إليه هنا محمد ﷺ، فالمعنى: ومَن يبدل من بني إسرائيل صفةَ نعمة الله. ثم جاء اللفظ مُنسحِبًا على كل مُبَدِّل نعمةٍ لله تعالى ... ويدخل في اللفظ أيضًا كفارُ قريش الذين بُعِث محمدٌ منهم نعمةً عليهم، فبَدَّلوا قبولها والشكر عليها كفرًا، والتوراة أيضًا نعمة على بني إسرائيل أرشدتهم وهدتهم، فبدَّلوها بالتحريف لها، وجحد أمر محمد ﷺ».

يستهزئون، ومنهم يضحكون؛ وذلك لزُهدِهم في الدُّنيا، وعزوفِهم عن مناصبِها، وتَرْكِهم المفاخرةَ بزينتِها، والاستزادةَ منها.

وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

أي: إنَّ الَّذين امتثلوا ما أمَر اللهُ تعالى به، واجتنبوا ما نهى عنه، هم الأَعْلَوْن في دار الخلودِ، وسيكونون فوقَ الَّذين كفروا يوم القيامة، بدخولِهم الجنَّةَ، يتمتَّعون فيها ويبتهِجون، ولهم فيها ما يشتهونُ.(322)

قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ [المطففين: 29-36].

---

(322) ذَكَرَ ابنُ جرير (٣/٦١٧) مستندًا إلى أقوال السلف أنّ النعمة هنا: الإسلام، وما فَرَضَ من شرائع دينه. وأفاد ابنُ عطية (١/٥٠٨) عموم اللفظة لكل النِّعَم، وبيَّن أنّ كلام ابن جرير قريبٌ منه، ثم قَوّى كون النعمة المشار إليها هنا: النبي، فقال: «و﴿نِعْمَةَ اللَّهِ﴾ لفظ عامٌّ لجميع أنعامه، ولكن يُقَوّي مِن حال النبي معهم أنّ المشار إليه هنا محمد ﷺ، فالمعنى: ومَن يبدل من بني إسرائيل صفةَ نعمة الله. ثم جاء اللفظ مُنسحِبًا على كل مُبَدِّل نعمةٍ لله تعالى ... ويدخل في اللفظ أيضًا كفارُ قريش الذين بُعِث محمدٌ منهم نعمةً عليهم، فبَدَّلوا قبولها والشكر عليها كفرًا، والتوراة أيضًا نعمة على بني إسرائيل أرشدتهم وهدتهم، فبدَّلوها بالتحريف لها، وجحد أمر محمد ﷺ».

وقال سبحانه: أَهَؤُلَاءِ الَّذين أَقْسَمْتُمْ لَا يَنالُهُمُ اللهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ [الأعراف: 49].

وَاللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ.

أي: إنَّ اللهَ تعالى يُعطي المتَّقين في الجنَّةِ مِن نِعَمه وعطاياه الَّتي لا تنتهي، مِن غير أنْ يخشى نفادَ خزائنه، أو وقوعَ نقصٍ من مُلكه، فلا يحتاج إلى حسابِ ما يُعطي، وإحصاءِ ما يُبقي، بل يُعطيهم ما يشتهون بلا حصرٍ ولا تَعداد؛ فرِزقُه واسعٌ لا نهايةَ له ولا نَفادَ.

كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (213).

كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ.

أي: إنَّ النَّاس كانوا مجتمعين منذ عهدِ آدمَ عليه السَّلام على دِينٍ واحد، هو دينُ الإسلام، وظلُّوا على ذلك مدَّةَ عشرةِ قرونٍ، فاختلَفوا في دِينهم حتى عبَدوا الأصنام، فبعَث الله النَّبيِّين ينهَوْن عن ذلك الكفرِ، مُبشِّرين مَن أطاعهم بالجنَّةِ، ومُنذِرين مَن عصاهم بالنَّارِ، وكان أوَّلهم نوحٌ عليه السَّلام.

قال سبحانه: وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ [يونس: 19].

وقال عزَّ وجلَّ: إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ [النساء: 163].

وقال تعالى: وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا [الإسراء: 17].

وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ.

أي: إنَّ اللهَ تعالى أنزَل مع النَّبِيّين عليهم السَّلام كُتبًا مِن عنده، مشتملةً على الأخبارِ الصادقة، والأوامرِ العادلة؛ أنزَلها لتفصِلَ بين النَّاس في كلِّ ما اختلَفوا فيه، فيتبيَّن لهم الحقُّ مِن الضَّلال، والصَّواب مِن الخطأ، وتُقامُ بذلك حُجَّةُ اللهِ تعالى على عبادِه.

كما قال تعالى: وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ [النحل: 64].

وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ.

أي: إنهم اختلَفوا في تلك الكتب المنزلة، وكان ينبغي أنْ يكونوا أَوْلى النَّاسِ بالاجتماع عليها، والتَّحاكُم إليها، وذلك مِن بعدِ ما علِموا بالأدلَّةِ القاطعات، والحُجَج الباهرات: أنَّ ما فيها هو الحقُّ، وإنَّما حمَلهم على ذلك تعدِّي بعضِهم على بعضٍ بالباطل، ووقوع النِّزاعاتِ والخصومات فيما بينهم.

كما قال تعالى: وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ [الجاثية: 17].

وقال عزَّ وجلَّ: وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ [يونس: 93].

وقال سبحانه: وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ [البينة: 4].

فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ.

أي: إنَّ اللهَ تعالى أرشَدَ المؤمنين للحقِّ الَّذي جاءت به كتبُ أولئك الأنبياءِ عليهم السَّلام، واختلَف فيه غيرُهم، ووفَّقهم أيضًا إلى الانقيادِ إلى هذا الحقّ، والتمسُّك به، بعِلمِه وإرادتِه وتيسيره، ويدخُلُ في هؤلاء المؤمنين أمَّةُ محمَّدٍ – ﷺ – قطعًا، ويدخلُ فيهم أيضًا كلُّ مَن آمَن مِن الأمم السَّابقة؛ كمَن آمَن مِن قوم نوحٍ عليه السلام.

وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

أي: إنَّ اللهَ تبارك وتعالى يُرشِد لطريق الحقِّ الواضح الَّذي لا اعوجاجَ فيه، ويوفِّق للسَّيرِ عليه: مَن يشاء مِن خَلْقه، وهو سبحانه لا يشاءُ إلا ما تقتضيه حِكمتُه البالغة.

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنَّ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ (214).

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنَّ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ.

أي: أظننتم– أيُّها المؤمنون– أن تَصِلوا إلى الجنَّةِ دون أنْ تُصيبَكم في الطريق إليها شدائد؟ كلَّا، لا تظنُّوا ذلك، بل لا بدَّ أنْ تعترضَ طريقَكم هذا عوائقُ، وتُصيبَكم فيه مِحَنٌ وبلايا، تُبتلَوْن بها وتمحَّصُون، كما وقَع للَّذين مضَوْا من قبلكم.

كما قال تعالى: أَمْ حَسِبْتُمْ أَنَّ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ [آل عمران: 142].

وقال عزَّ وجلَّ: أَحَسِبَ النَّاسُ أَنَّ يُتْرَكُوا أَنَّ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ [العنكبوت: 2–3].

مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ.

أي: إنَّ مَن مَضى مِن مُؤمِني الأممِ السابقة قد أصابهم الفقرُ وشدَّةُ الحاجة، وأصابتهم الأمراضُ والأوجاعُ، وخُوِّفُوا ورُعِبُوا مِن قِبَل أعدائِهم بأنواع المخاوفِ، فأُصيبوا في أموالهم بالبأساءِ، وفي أبدانهم

بالضَّرَّاء، وفي قلوبهم بالخوفِ، حتى وصَلَتْ بهم الحال إلى أنْ يتساءَلَ رسلُ اللهِ ومَن آمَن معهم: متى يأتي نصرُ الله تعالى؟ ليخرُجوا ممَّا هم فيه مِن ضيقٍ وكربٍ وشدَّة.

قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا إِذْ جَاؤُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا [الأحزاب: 9–11].

وعن خبَّاب بن الأَرتِّ رضي الله عنه، قال: ((شكَونا إلى رسولِ اللهِ – ﷺ –، وهو مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً له في ظلِّ الكعبةِ، قلنا له: ألا تستنصرُ لنا؟ ألا تدعو اللهَ لنا؟ قال: كان الرجلُ فيمَن قبلكم يُحْفَرُ له في الأرضِ، فيُجْعَلُ فيه، فيُجاءُ بالمنشارِ فيُوضَعُ على رأسِهِ فيُشَقُّ باثنتيْنِ، وما يصدُّهُ ذلك عن دِينِهِ ويُمْشَطُ بأمشاطِ الحديدِ ما دونَ لَحمِهِ من عظمٍ أو عصبٍ، وما يصدُّهُ ذلك عن دِينِهِ، واللهِ لَيَتِمَّنَّ هذا الأمرُ، حتى يَسيرَ الراكبُ من صَنعاءَ إلى حضرموتٍ، لا يخافُ إلا اللهَ، أو الذئبَ على غنمِهِ، ولكنكم تستعجلونَ)).[323]

---

(323) رواه البخاري (3612).

أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ.

أي: أكَّد الله تعالى على أنَّ نصرَه قريب، وأنَّ فرجَه عاجلٌ، فمع العسر يأتي اليُسر، وكلَّما ضاق الأمر اتَّسَع.

كما قال تعالى: فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا [الشرح: 5-6].

وعن أبي رَزِينٍ العُقيليِّ رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ - ﷺ - قال: ((ضحِك ربُّنا من قُنوطِ عبادهِ وقُربِ غِيَرِهِ)).[324]

(324) أخرجه ابن ماجه (181)، وأحمد (16232).

قال أبو عُبيد القاسم بن سَلَّام لَمَّا سُئل عن هذا الحديث وبعضِ أحاديث الصِّفات الأخرى: (هذه الأحاديثُ حقٌّ لا شكَّ فيها، رواها الثقات بعضُهم عن بعض) ((التمهيد)) لابن عبدالبر (7/150).

وحسنه ابن تيمية في ((مجموع الفتاوى)) (3/139)، والألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (181).

وقوله: ((وقُرْب غِيَرِه)): الغِيَر: بمعنى تغيُّر الحال، وهو الاسْم مِن قولكَ: غَيَّرْت الشَّيءَ فتَغَيَّر، والمراد هنا: قُرْب تغيُّر الحال الذي هم عليه من القُنوط إلى خِلافه من الإغاثة.

ينظر: ((النهاية)) لابن الأثير (3/401)، ((حاشية السِّندي على ابن ماجه)) (1/77)، ((التنوير شرح الجامع الصغير)) للصنعاني (7/98).

سُورةُ البَقَرَةِ

الآيات (215–220)

يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ
وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (215)
كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا
شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (216)
يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ
وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ
يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ
كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ
(217)

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ
رَحِيمٌ **(218)**

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا
وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ **(219)**
فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ
وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ **(220)**

غريب الكلمات:

حَبِطَتْ: أي: بطَلَت؛ فالحبط: البُطلان والألم، وأصلُه: أن تُكثِرَ الدابَّةُ أكلًا حتى ينتفخَ بطنُها.

الْمَيْسِرِ: القِمارُ، وأصله مِن يَسرت: إذا ضربت بالقِداح.

الْعَفْوَ: الفَضل، يعني: فضْل المال، يُقال: عفا الشَّيء: إذا كثُر.

لَأَعْنَتَكُمْ: ضيَّق عليكم وشدَّد، أي: لأهلكَكم، وأصل العنَت: العَسْف، والحَمْل على المكروه.

تفسير الآيات:

يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ (215).

يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ.

أي: يسألك أصحابُك يا محمَّد، عمَّا يُنفَق جنسًا ومقدارًا وكيفيَّةً، فأجابهم الله تعالى عن ذلك بأنَّ ما تنفقونه من الأموال لا يُشترط فيه شيء معيَّن، ولا مقدار محدَّد، بل يشمل أيَّ مال، وسواء كان قليلًا أم كثيرًا، وأنَّ أولى وأحقَّ مَن تُنفق عليه الأموال هم أقرب النَّاس رحمًا وهم الوالدان، ثم بقيَّة الأقارب، الأقرب فالأقرب، ثم تصرف إلى أشدِّ النَّاس حاجةً من بعدهم، وهم الصِّغار الذين فقدوا آباءهم قبل بلوغهم ولا كاسب لهم، ثم للمساكين الذين لا يجدون ما يكفيهم ويُغنِيهم، وكذا للمسافرِ المجتاز الذي يحتاج نفقةً تُوصِله لموطنِه.

وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ.

أي: إنَّ كل ما تُقدِّمونه من معروفٍ وبرٍّ وإحسان وطاعة وقربة لله تعالى، فإنَّه لا يخفَى عليه، بل مطَّلِع على أعمالكم، يُحصِيها لكم، ويُجازِيكم عليها.

كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (216).

كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ.

أي: فُرِض عليكم– أيُّها المؤمنون– قتال الأعداء من الكفَّار والمشركين، مع أنَّه مكروهٌ لكم، لا تحبُّونه؛ لِمَا فيه من شدَّة ومشقَّة بالغة، ولِمَا يحدُث فيه من التعرُّض للقتل والإصابة بالجراح ووقوع المخاوف.[325]

وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ.

---

(325) اختُلِف فيمن عُنِي بفرض الجهاد؛

فقال قوم: عُنِي بذلك: أصحاب النبي دون غيرهم.

وقال غيرهم بوجوبه على المسلمين إلى قيام الساعة.

وقال آخرون: هو على كل أحد حتى يقوم به مَن في قيامه به الكفاية.

ورَجَّح ابنُ جرير (٣/٦٤٥) القولَ الأخير مستندًا إلى القرآن، والإجماع، فقال: «وذلك هو الصواب عندنا؛ لإجماع الحجة على ذلك، ولقول الله: ﴿فضل الله المجاهدين بأموالهم، وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى﴾ [النساء:٩٥]، فأخبر –جَلَّ ثناؤه– أنّ الفضل للمجاهدين، وأنّ لهم وللقاعدين الحسنى، ولو كان القاعدون مُضَيِّعين فرضًا لكان لهم السوأى لا الحسنى».

وقال ابنُ عطية (١/٥١٩) بعد ذِكْرِه لهذا القول: «واستمر الإجماع على أنّ الجهاد على أمة محمد فرض كفاية، فإذا قام به مَن قام مِن المسلمين سقط عن الباقين، إلا أن ينزل العدوُّ بساحةٍ للإسلام، فهو حينئذ فرض عين».

وذكر أنّ المهدوي وغيره نقلوا عن الثوري أنّه قال: الجهاد تطوع.

ووجَّهه بقوله: «وهذه العبارة عندي إنما هي على سؤال سائل وقد قيم بالجهاد، فقيل له: ذلك تطوع».

أي: إنَّه مع وقوعِ هذه الكراهيةِ في النفوسِ للقتال، إلَّا أنَّ الحقيقة بخلاف ذلك؛ إذ فيه من الخير والمنافع ما هو أكثرُ وأعظمُ ممَّا يقع فيه من أضرار، ومن ذلك ما يَحصُل بسببِه من النَّصرِ على الأعداء، والتمكُّن من البلدان والأموال، وما تقع فيه من الشَّهادة لمن مات منهم محتسبًا، وحصول الحسنات العظيمة لهم، وغير ذلك، فأمَّا ترك القتال الذي هو محبوبٌ للنفوس ففيه من الشرور ما يَزيدُ على مصلحة قعودِهم، ومنها تسلُّط الأعداء، وفوات الأجور العظيمة، وهكذا الأمرُ في جميع أفعال الخير وإنْ كرِهتها النفوس، وأفعال الشرِّ، وإن أحبَّتها النُّفوس.

وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ.

أي: إنَّ الله عزَّ وجلَّ يعلم ما هو خيرٌ لكم ممَّا هو شرٌّ لكم، وأعلم منكم بما ينفعكم وما يضرُّكم، فاستجِيبوا له في جميع الأحوال.

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ

(217).

سبب النُّزول:

عن جُندُب بن عبد الله رضي الله عنه: ((أنَّ رسول الله – ﷺ – بعث رهطًا، وبعَث عليهم عبدَ الله بن جحش، فلقُوا ابن الحضرمي فقتلوه، ولم يَدرُوا أنَّ ذلك اليوم من رجب، أو من جُمادى، فقال المشركون للمسلمين: قتلتُم في الشهر الحرام، فأنزل الله تعالى: يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ. الآية، فقال بعضهم: إنْ لم يكونوا أصابوا وزرًا فليس لهم أجْر، فأنزل الله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللهِ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)).[326]

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ.

أي: يسألك المؤمنون يا محمَّد، عن القِتال في شهرٍ حرام (الأشهر الحرم هي: ذو القعدة، وذو الحِجَّة، ومحرَّم، ورجب)، وقيل: السؤال وقع من المشركين للنبيِّ – ﷺ – تعييرًا وتشنيعًا على المؤمنين الذين قتَلوا أحد المشركين في شهرٍ حرام، فأمره الله تعالى أن يُجيب عن ذلك بأنَّ القتال فيه عظيم؛ لعَظمة تلك الأشهر وحُرمتها.[327]

---

(326) أخرجه النَّسائي في ((السنن الكبرى)) (249/5) (8803)، وأبو يعلى (102/3) (1534)، والطبراني (162/2) (1670).

وثَّق رجالَه الهيثميُّ في ((مجمع الزوائد)) (201/6)، وحسَّن إسنادَه ابنُ حجر في ((العجاب)) (538/1)، وصحَّح سندَه الشوكانيُّ في ((فتح القدير)) (324/1)، وأحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (261/1).

(327) اختُلِف هل القتال في الأشهر الحرم منسوخ أم لا؟

ورجَّح ابنُ جرير (٣/٦٦٣–٦٦٤) القولَ بالنسخ مستندًا لتظاهر الأخبار عن النبي ﷺ بغزوه في الأشهر الحرم، بما مفاده الآتي:

١- تظاهر الأخبار عن النبي ﷺ أنه غزا هوازن بحنين، وثقيفًا بالطائف، وأرسل أبا عامر إلى أوطاس لحرب مَن بها من

وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ.

أي: ولكنْ ما يقومون به مِن مَنْع النَّاس من سُلوكِ طريق الحقّ، أو من الاستمرار عليه لمن آمَن، وكفرهم بالله تعالى، ومنعِهم النَّاس عن الوصول إلى البيت الحرام لحجٍّ أو عمرة، وإخراج أهله المؤمنين منه، وهم عُمَّارُه والأحقُّ به من المشركين- أعظمُ إثمًا وجرمًا عند الله تعالى؛ فكلُّ واحدٍ منها فِتنة، والفِتنة أعظمُ وأشدُّ من القتل الذي وقع من المسلمين في شهرٍ حرام.(328)

المشركين في شوال وبعض ذي القعدة، وهو من الأشهر الحرم، فلو كان القتال فيهنَّ حرامًا كان أبعد الناس من فعله ﷺ.

٢- إجماع أهل السِّيَر على أنّ بَيْعَة الرضوان على قتال قريش كانت في أول ذي القعدة، وهو من الأشهر الحرم. ثم قال (٣/٦٦٤-٦٦٥): «فإذا ظَنَّ ظانٌّ أنّ النهي عن القتال في الأشهر الحرم كان بعد استحلال النبي ﷺ إيّاهن لِما وصَفْنا مِن حروبه فقد ظنَّ جَهْلًا؛ وذلك أنّ هذه الآية -أعني: قوله: ﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه﴾- في أمر عبد الله بن جحش وأصحابه، وما كان من أمرهم وأمر القتيل الذي قتلوه، فأنزل الله في أمره هذه الآية في آخر جمادى الآخرة من السنة الثانية من مَقْدَم رسول الله ﷺ المدينة وهجرته إليها، وكانت وقعة حنين والطائف في شوال من سنة ثمان من مقدمه المدينة وهجرته إليها، وبينهما من المُدَّة ما لا يخفى على أحد».

واختُلِفَ هل كان لقاء سرية عبد الله بن جحش بابن الحضرمي ومن معه في آخر يوم من رجب؟ أم في آخر يوم من جمادى الآخرة؟ أم كان في أول ليلة من رجب؟ ذكر ذلك ابنُ عطية (١/٥٢٠) وقال: إنّ «القول الأول أشهر».

(328) ذكر ابنُ عطية (١/٥٢٥) أنّ المعنى على هذا القول: كفرُكم أشدُّ من قتلِنا أولئك.

وذكر أنّ هناك من قال: والفتنةُ أكبرُ مِن أن لو قتلوا ذلك المفتون. وعلَّق عليه بقوله: «أي: فعلُكم على كل إنسان أشدُّ مِن فعلِنا».

علَّق ابنُ القيم (١/١٧٣) على تفسير الفتنة بالشرك مُسْتَدِلًّا بالقرآن بقوله: «ويدُلُّ عليه قولُه: ﴿ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين﴾ [الأنعام:٢٣]، أي: لم يكن مآلُ شركهم وعاقبتُه وآخرُ أمرِهم إلا أن تبَرَّءوا منه وأنكروه».

ثُمَّ قال: «وحقيقتُها: أنها الشرك الذي يدعو صاحبُه إليه، ويُقاتِل عليه، ويُعاقِب من لم يَفْتَتِن به، ولهذا يُقال لهم وقت عذابهم بالنار وفتنتهم بها: ﴿ذوقوا فتنتكم﴾ [الذاريات:١٤]».

وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا.

أي: سيظلُّ الكفَّار والمشركون على قتالكم، لا يَهدأ لهم بال، ولا يتوقَّفون عن قتال، لا لغرضٍ دنيويٍّ كالمال؛ بل لأجْل أن ترجِعوا عن دينكم فتُصبِحوا كفَّارًا مثلهم، هذا إن قدروا، لكنَّهم لن يقدروا، فهم عاجزون حقًّا عن ذلك.

قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ [الأنفال: 36].

وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ.

أي: كلُّ مَن يرجِعْ منكم عن دِين الإسلام، فيختار الكفر ويستمرُّ عليه، حتى مماته، ولم يتُب من كفره، فقد بطَلت أعماله واضمحلَّت، فلم يبقَ له عملٌ صالح يُؤجَر عليه في الدُّنيا والآخرة، وهو من أهل النَّار الملازمينَ لها على الدوام.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللهِ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (218).

سبب النُّزول:

عن جُندُبِ بن عبد الله رضي الله عنه: ((أنَّ رسول الله - ﷺ - بعث رهطًا، وبعَث عليهم عبدَ الله بن جحش، فلقُوا ابن الحضرمي فقتلوه، ولم يَدرُوا أنَّ ذلك اليوم من رجب، أو من جُمادى، فقال المشركون للمسلمين: قتلتُم في الشهر الحرام، فأنزل الله تعالى: يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ. الآية، فقال بعضُهم: إنْ لم يكونوا أصابوا وزرًا فليس لهم أجْر، فأنزل الله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللهِ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)).[329]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللهِ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (218).

أي: إنَّ الذين صدَّقوا وأقرُّوا بالحقِّ منقادينَ إليه، والذين انتقَلوا من موضعٍ إلى آخَرَ فرارًا من مخالطة المشركين ومساكنتِهم، وربَّما فارَقوا بذلك عشائرهم وأوطانَهم؛ حفاظًا على دِينهم، والذين بذلوا جهدَهم في مقاتلة الأعداء نصرًا لدين الله تعالى، وإعلاءً لكلمته، فهؤلاء- ذَوُو الطبقة العالية الرفيعة- لائقون وجديرون حقًّا بأن يطمعوا في نَيل رحمة الله تعالى لهم، وأنْ يُدخِلَهم دار كرامته، وسيَحظَون بما أمَّلوا وطمِعوا فيه؛ ذلك أنَّ الله تعالى غفورٌ رحيم؛ فبمغفرته ستَر ذنوبهم وتجاوز عنها، وأذهب آثارها

---

(329) أخرجه أبو داود (2871) واللفظ له، وأحمد (325/1) (3002)، والحاكم (113/2).
احتجَّ به ابن حزم في ((المحلى)) (326/8)، وحسَّن إسنادَه أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (5/5)، وحسَّنه الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (2871).

وعقوباتها في الدنيا والآخرة، وبرحمته وفَّقهم لتلك الأعمال الجليلة، ويمنحهم في الدَّارين الخيراتِ والمراتبَ النَّبيلة.

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (219).

سبب النُّزول:

عن عُمر بن الخطَّاب رضي الله عنه، قال: ((لَمَّا نزل تحريم الخمر قال: اللهمَّ بيِّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا. فنزلت هذه الآية التي في سورة البقرة: يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ قال: فدُعي عمر فقُرئت عليه، فقال: اللهمَّ بيِّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا. فنزلت الآية التي في سورة النساء: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى فكان منادي رسول الله – ﷺ – إذا أقام الصَّلاة نادى أن لا يقربنَّ الصَّلاة سكرانُ، فدُعِي عمر فقُرئت عليه، فقال: اللهمَّ بيِّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا، فنزلت الآية التي في المائدة، فدُعيَ عمر فقُرِئَت عليه، فلما بلغ: فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ قال: فقال عمر: انتهينا، انتهينا)).[330]

(330) أخرجه أبو داود (2871) واللفظ له، وأحمد (325/1) (3002)، والحاكم (113/2).
احتجَّ به ابن حزم في ((المحلى)) (326/8)، وحسَّن إسنادَه أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (5/5)، وحسَّنه الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (2871).

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ.

أي: يسألك المؤمنون يا محمَّد، عن حُكم الخمر– وهي: كلُّ شرابٍ مسكِرٍ يُغطِّي عقل صاحبه– وعن حُكم القِمار.

قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا.

أي: قلْ لهم يا محمَّد، بأنَّ في شُرب المسكرات وتعاطِي القِمار إثمًا كبيرًا؛ إذ يُحدِثان عداوةً وبغضاءَ وصدًّا عن ذِكر الله تعالى وعن الصَّلاة، وغير ذلك من آثامٍ ومنكرات، هي أعظم ممَّا يتأتَّى منهما من منافع قد تحصُل في النفس والبدن والمال، كالذي تُحدِثه الخمر لشاربها من طربٍ ولذَّةٍ ونشوةٍ، وتشحيذٍ للذِّهن وغير ذلك، وما يأتي به القمار لصاحبه من مكاسبَ وأموال، ولذَّةٍ في اللعب والمغالبة، وقد ذكر الله تعالى آثامهما قبل منافعهما؛ ليقع في نفس المؤمن الاشمئزاز منهما أوَّلًا.

كما قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ [المائدة: 90–91].

وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ.

أي: يسألك المؤمنون يا محمَّد: أيَّ شيء يُنفقون من أموالهم، فيتصدَّقون به؟ فأجبْهم بأنَّ مَن أراد منهم أن يُنفِق في سبيل الله تعالى، فليتصدَّق ممَّا زاد عن حاجاته الضروريَّة.(331)

كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

أي: كما فصَّل الله تعالى هذه الأحكامَ كحُكم الخمر وغيره، وأوضحها غايةَ الإيضاح، فكذلك يُوضِّح الله جلَّ وعلا لنا بمِثل ذلك البيان سائر آياته وأحكامه الشرعيَّة؛ كي نتفكَّر من خلالها فيما شرَعه الله تعالى من أحكام تتعلَّق بشؤون الدارينِ، ولأجْل أن يقودَنا ما جاء فيها من وعدٍ ووعيد وثوابٍ وعقاب، إلى التفكُّر في الدنيا وسرعة انقضائها، وفي إقبال الآخِرة وبقائها، فنزهَد في الأولى، ونُعمِّر الثانية؛ عملًا بطاعة الله تعالى، وتركًا لشهوات يسيرة فانية.

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (220).

---

(331) اخْتُلِف في هذه الآية هل هي منسوخة أم لا؟
فرَجَّح ابنُ جرير (٣/٦٩٥) وابنُ كثير (٢/٢٩٤) عدمَ النسخ.

سبب النُّزول:

عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما، قال: ((لَمَّا نزلت: وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ وإِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى [النساء: 10] الآية انطلق مَن كان عنده يتيم فعَزل طعامَه من طعامه، وشرابَه من شرابه، فجعل يفضُل له الشيء من طعامه، فيحبس له حتى يأكلَه، أو يفسد، فاشتدَّ ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله – ﷺ –، فأنزل الله وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ، فخلطوا طعامهم بطعامه، وشرابهم بشرابه)).[332]

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ.

أي: يسألُك المؤمنون يا محمَّد، عمَّا اشتدَّ عليهم فعله مع اليتامى؛ إذ كانوا يعزلون لهم طعامَهم؛ خوفًا من تناوله معهم، فإذا فضَل منه شيءٌ حبسوه لهم حتى يأكلوه أو يتغيَّر، فأخبَر الله تعالى نبيَّه محمَّدًا – ﷺ – أن يُجيبهم بأنَّ المقصودَ إنَّما هو إصلاحُ أموال اليتامى، بحفظها، واستثمارها، والاتِّجار فيها لهم، فإنْ لم تأخذوا أجرًا على قيامكم بذلك فذلك خيرٌ لكم وأعظمُ أجرًا، وإن أصبتم من أموالهم شيئًا في مقابل قيامكم بشؤونهم، كأنْ خالطتموهم في طعامٍ أو غيره من الأموال فجائز– على وجهٍ لا يضرُّ باليتامى–؛ لأنَّهم إخوانكم في الدِّين، ومن شأن الأخ مخالطة أخيه.

---

(332) أخرجه أبو داود (2871) واللفظ له، وأحمد (325/1) (3002)، والحاكم (113/2).
احتجَّ به ابن حزم في ((المحلى)) (326/8)، وحسَّن إسنادَه أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (5/5)، وحسَّنه الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (2871).

وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ.

أي: إنَّ الله تعالى وإنْ أذِن للمؤمنين في مخالطة اليتامى على ما سبق ذِكرُه، إلَّا أنَّه خوَّفهم وحذَّرهم من أن تُسوِّل لهم أنفسُهم شيئًا من الخداع لأكل أموال اليتامى بالباطل، فالمعوَّل في ذلك على النيَّة، فمَن خلط مال اليتيم بماله يريد مصلحته، فالله يعلم نيَّته وسيُثِيبه على ذلك، وإنْ حصَل أنْ دخل عليه شيءٌ من ماله من غير قصْدٍ، ولا طمعٍ، فلا حرج عليه؛ لأنَّ الله تعالى يعلم نيَّته، وأمَّا مَن قصد بتلك المخالطة التوصُّل بها إلى أكلِ ماله خديعةً، فالله عزَّ وجلَّ يعلم نيَّته، وسيعاقبه على ذلك.

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ.

أي: إنَّ هذا الحُكم إنَّما شُرِع رخصةً من الله تعالى وتوسعةً على عباده؛ وإلَّا فإنَّ الله تعالى قادرٌ على أن يشقَّ عليهم بنَهيِهم عن خلط أموالهم بأموال اليتامى؛ وأمْرِهم بتقدير طعامهم تقديرًا دقيقًا، بحيث لا يَزيد عن حاجتهم، ولا ينقص عنها، فيقعوا بذلك في ضيقٍ وحرج؛ ويعاقبهم ربُّهم إنْ تركوا أمره، أو ارتكبوا نهيه؛ ذلك بأنَّ الله تعالى لا يعجزه شيء، وهو قاهرٌ لكلِّ شيء، وَفْق ما تقتضيه حِكمته؛ إذ يضَعُ كلَّ شيءٍ في موضعه اللائق به، فيعاقب مَن يستحقُّ ذلك لعناده، ويشرِّع ما فيه الخير والرحمة لعباده.

سُورةُ البَقَرَةِ

الآيات (221–224)

وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (221) وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (222) نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (223) وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (224)

غريب الكلمات:

عُرْضَةً: مانعًا.

أَنْ تَبَرُّوا: أي: ألَّا تبرُّوا، وأصل البِر: الصِّدقُ في المَحَبَّة.

تفسير الآيات:

وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (221).

وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ.

أي: حرَّم الله تعالى على المؤمنين أن يتزوَّجوا بالنِّساء المشركات إلَّا إذا آمنَّ ووحَّدْنَ الله تعالى بدخولهنَّ في الإسلام، ولَأَنْ يتزوَّج المؤمن بأمَة مملوكة لكنَّها مؤمنة، خيرٌ له من أن يتزوَّج امرأة حرَّة مشركة، وإن بلَغ الإعجاب بها مبلغًا؛ لشدَّة حُسنِها، أو عِظَم حسَبِها، أو شَرَفِ نَسبِها، أو كثرةِ مالها.

وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ.

أي: حرَّم الله تعالى على المؤمنين أن يُزوِّجوا نساءَهم المؤمنات لرجالٍ مشركين، إلَّا إذا آمنوا ووحَّدوا الله تعالى بدخولهم في الإسلام، ولَأَنْ تزوجوهنَّ بعبدٍ مملوك لكنه مؤمنٌ بالله تعالى، خيرٌ من أن تزوجوهنَّ برجلٍ حرٍّ مشرك، ولو بلغ إعجابكم به ما بلغ لحُسنه، أو حسبه، أو نسبه، أو ماله.

أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ.

أي: إنَّما حرَّمتُ عليكم- أيُّها المؤمنون- تزوُّجَ المشركات وتزويجَ المشركين بالمؤمنات؛ لأنَّهم في حقيقة الأمر يقودونكم عبر معاشرتهم ومخالطتهم بسماع أقوالهم، ورؤية أفعالهم، ومعايشة أحوالهم إلى حبِّ الدُّنيا، وإيثارها على الآخرة، وإلى العمل بما يُدخِلكم النار؛ فلا تغترُّوا بهم، فيردوكم في التهلُكة، والشقاء الأبدي.

وَاللهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ.

أي: إنَّ الله تعالى يدعوكم بما يُعلِّمكم مِن شَرْعه من أوامرَ ونواهٍ للعمل بها؛ لتقودَكم لدخول الجنة، وتوجبَ لكم النَّجاةَ من النار بما يمحو من خَطاياكم، التي من آثارها دفْعُ العقوبات، وذلك بالحثِّ على التوبة والاستغفار، ولزومِ العمل الصَّالح الذي يُكفِّر الآثام، فيتجاوز عنها ربُّكم، ويسترها عليكم.

وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ.

أي: يوضِّح براهينه وحُججَه ويُظهِر أحكامه وحِكَمها؛ فيُوجِب لهم ذلك التذكُّر لِمَا نَسُوه من الحقِّ فيعتبروا ويتَّعظوا، ويميِّزوا بين الدعاء إلى النيران، والدعاء إلى الجنَّة ونَيْل الغفران.

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (222).

سبب النُّزول:

عن أنسٍ رضي الله عنه: ((أنَّ اليهود كانوا إذا حاضت المرأةُ فيهم لم يواكلوها ولم يجامعوهنَّ في البيوت، فسأل أصحابُ النبيِّ صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم، فأنزل الله تعالى: يَسْأَلونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ فقال رسولُ الله صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم: اصنَعوا كلَّ شيء إلَّا النِّكاح، فبلغ ذلك اليهودَ، فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدَع من أمرنا شيئًا إلَّا خالَفَنا فيه؟! فجاء أُسَيد بن حُضَير وعبَّاد بن بِشْر، فقالَا: يا رسول الله، إنَّ اليهود تقول كذا وكذا، فلا نجامعهنَّ؟ فتغيَّر وجهُ رسول الله صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم، حتى ظننَّا أنْ قد وجد عليهما فخرجَا فاستقبلهما هديَّةٌ من لبن إلى النبيِّ صلى الله عليه وعلى آله وسلَّم، فأرسل في آثارهما، فسقاهما، فعرَفَا أن لم يجدْ عليهما)).(333)

(333) رواه مسلِم (302).

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ.

أي: يسألُك المؤمنون– يا محمَّد– عن شأنِهم مع زوجاتهم حال حيضهنَّ، هل يجتنبونهنَّ مطلقًا، كما يفعل اليهود، أو يجامعونهنَّ؟

قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ.

أي: أجابهم الله تعالى بأنَّ الحيض دمٌ قذر، ونجس، وإذا كان كذلك، فمن الحِكمة أن يمنع عباده عنه؛ ولذا نهاهم سبحانه عن جِماع النِّساء في فروجهنَّ.

وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ.

أي: لا تجامعوا نساءَكم حال حيضهنَّ إلى أنْ ينقطع دم الحيض ويغتسلن، فإذا فعلن ذلك، فحينها لكم أن تُجامعوهنَّ في الموضِع الذي أباحَ الله تعالى فيه ذلِك، وهو القُبُل.[334]

(334) اختُلِف في تفسير هذه الآية؛

فذهب قومٌ إلى أنّ المعنى: فأتوهن من حيث أمركم الله باعتزالهنَّ في حال الحيض، وهو الفَرْج.

وذهب آخرون إلى أنّ المعنى: فأتوهن من قُبُل الطُّهْرِ، لا من قُبُلِ الحيض.

وذكر قوم أنّ المعنى: فأتوهن من قِبَل الحلال، لا الزّنا.

وذكر آخرون أنّ المعنى: فأتوهن من قِبَل حال الإباحة، لا صائمات ولا محرمات ولا نحو ذلك.

ورَجَّحَ ابنُ جرير (٣/٧٤٠–٧٤١) القولَ الثاني مستندًا إلى الإجماع، والدلالات العقلية، فقال: «وذلك أنّ كل أمر بمعنًى فنهْيٌ عن خلافه وضِدِّه، وكذلك النَّهْيُ عن الشيء أمرٌ بضده وخلافه. فلو كان معنى قوله: ﴿فأتوهن من حيث أمركم الله﴾: فأتوهن من قبل مخرج الدم الذي نهيتكم أن تأتوهنَّ من قبله في حال حيضهن؛ لَوَجَبَ أن يكون قوله: ﴿ولا تقربوهن حتى يطهرن﴾ تأويله: ولا تقربوهن في مخرج الدم دون ما عدا ذلك من أماكن جسدها، فيكون مطلقًا في حال حيضها إتيانهن في أدبارهن.

القراءات ذات الأثر في التفسير:

في قوله تعالى: يَطْهُرْنَ قراءتان:

1- يَطَّهَّرْنَ أي: حتى يَغتسِلْنَ بالماء بعد انقطاع الدم.(335)

2- يَطْهُرْنَ أي: حتى ينقطعَ الدَّمُ عنهن.(336)

إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ.

أي: يأمركم الله تعالى بذلك، ويحثُّكم عليه؛ لأنَّه يحبُّ مَن يُطهِّرون بواطنَهم بالمواظبة على كثرة التَّوبة من جميع الذنوب، وإن تكرَّر منهم غشيانها، ويحب مَن يُطهِّرون ظواهرهم بالماء من الأنجاس والأحداث.(337)

وفي إجماع الجميع على أنّ الله -تعالى ذِكْرُه- لم يُطْلِق في حال الحيض من إتيانهن في أدبارهن شيئًا حَرَّمه في حال الطُّهْرِ، ولا حَرَّم من ذلك في حال الطُّهْرِ شيئًا أحلَّه في حال الحيض، ما يعلم به فساد هذا القول».

(335) قرأ بها حمزةُ، والكِسائيُّ، وأبو بكر. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: 156).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 134-135).

(336) قرأ بها الباقون يَطْهُرْنَ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: 156).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 134-135).

(337) اختُلِف في معنى قوله: ﴿ويحب المتطهرين﴾؛

فقال بعضهم: هم المتطهرون بالماء.

وقال غيرهم: المعنى: من الذنوب، وإتيان النساء في أدبارِهِنَّ.

وقال آخرون: المعنى: من الذنوب أن يعودوا فيها بعد التوبة منها.

ورجَّحَ ابنُ جرير (٣/٧٤٤) القولَ الأول الذي قال به عطاء مستندًا إلى الأغلب من اللغة، فقال: «لأنّ ذلك هو الأغلب من ظاهر معانيه، وذلك أنّ الله -تعالى ذِكْرُه- ذَكَر أمر المحيض، فنهاهم عن أمورٍ كانوا يفعلونها في جاهليتهم؛ مِن تَرْكِهم مُساكنَة

نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (223).

سبب النُّزول:

عن ابن المُنكَدِر قال: سمعتُ جابر بن عبد الله قال: ((كانتِ اليهودُ تقول: إذا جامَعها من ورائِها جاءَ الولدُ أحولَ، فنزلت: نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ)). وزاد في حديث النُّعمان عن الزهري: ((إنْ شاءَ مُجَبِّيَة،[338] وإن شاء غير مُجَبِّية، غير أنَّ ذلك في صِمامٍ واحد)).[339]

وعن أبي النَّضر أنَّه قال لنافع مولى ابن عمر: ((قد أُكثر عليك القول: إنَّك تقول عن ابن عُمر: (إنَّه أفْتى بأنْ يؤتى النساء في أدبارهنَّ)! قال نافع: لقدْ كذبوا عليَّ! ولكن سأخبرك كيف كان الأمر: إنَّ ابن عُمر عرَض عليَّ المصحف يومًا وأنا عنده حتى بلغ: نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ، قال نافع: هل تدري ما أمر هذه الآية؟ إنَّا كنَّا معشر قريش نُجَبِّي النِّساء، فلمَّا دخلنا المدينة ونكحنا نساء الأنصار أردْنا

الحائض، ومُؤاكلَتها، ومُشارَبَتها، وأشياء غير ذلك مما كان –تعالى ذِكْرُه– يكرهها من عباده. فلما استفتى أصحابُ رسول الله ﷺ عن ذلك أوحى الله تعالى إليه في ذلك، فبَيَّن لهم ما يكرهه مِمّا يرضاه ويحبه، وأخبرهم أنّه يُحِبُّ مِن خلقه مَن أناب إلى رضاه ومحبته، تائبًا مما يكرهه. وكان مما بيَّن لهم من ذلك أنّه قد حَرَّم عليهم إتيان نسائهم وإن طَهُرْن من حيضهنَّ حتى يغتسلن، ثم قال: ﴿ولا تقربوهن حتى يطهرن فإذا تطهرن فأتوهن﴾ فإن الله يحب المتطهرين، يعني بذلك: المتطهرين من الجنابة والأحداث للصلاة، والمتطهرات بالماء من الحيض، والنفاس، والجنابة، والأحداث من النساء».

(338) مُجَبِّية: أي: مُنكَبَّة على وجْهها، تَشبيهًا بهيْئة السُّجودِ. ((النهاية)) لابن الأثير (238/1).

(339) رواه مسلم (1435).

منهنَّ ما كنا نُريد من نسائنا، فإذا هنَّ قد كرهن ذلك وأعظمْنه، وكان نساء الأنصار إنَّما يؤتَين على جنوبِهنَّ، فأنزل الله سبحانه: نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ)).[340]

نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ.

أي: إنَّ نساءكم مُزدرَعٌ لأولادكم، مثلما تكون الأرض حرثًا للزارع حيث يبثُّ فيها الحَب؛ فينمو ويخرج نباتًا، فكذلك النِّساء حرث يضع فيه الرجال الماء الدافق (المَنِيَّ)،

فينزرع في الرَّحم حتى ينمو ويخرج بشرًا سويًّا بإذن الله تعالى. ولكم يا معاشرَ الرِّجال، أن تجامعوا نساءكم على أيِّ جهة، وبأي كيفيَّة شِئتم، شريطةَ أن يكون جماعهنَّ دومًا في موضع الحرث، وهو القُبُل.[341]

---

(340) أخرجه النَّسائي في ((السنن الكبرى)) (315/5) (8978)، والطحاوي في ((شرح معاني الآثار)) (42/3) (4067).
صحَّح إسنادَه ابنُ كثير في ((تفسير القرآن)) (383/1)، والوادعيُّ في ((صحيح أسباب النزول)) (43).

(341) اختُلِف في معنى قوله: ﴿أنى شئتم﴾؛ فقال بعضهم: معنى ﴿أنى﴾: كيف.
وقال آخرون: معناها: من حيث شئتم، وأي وجه أحببتم.
وذهب قوم إلى أنّ معناها: متى شئتم.
وذهب آخرون إلى أنّ معناها: أين وحيث شئتم.
وذكر قوم أنّ المعنى: ائتوا حرثكم كيف شئتم، إن شئتم فاعزلوا، وإلا فلا.
ورَجَّح ابنُ جرير (٣/٧٥٩-٧٦٠) القولَ الثانيَ فقال: «وذلك أنّ أنّى في كلام العرب كلمة تَدُلُّ -إذا ابتُدِئ بها في الكلام- على المسألة عن الوجوه والمذاهب، فكأنّ القائل إذا قال لرجل: أنّى لك هذا المال؟ يريد: مِن أيِّ الوجوه لك. ولذلك يجيب المجيبُ فيه بأن يقول: مِن كذا وكذا. كما قال الله -تعالى ذِكْرُه- مخبرًا عن زكريا في مسألته مريم: ﴿أنى لك هذا قالت هو من عند الله﴾ [آل عمران:٣٧]».
وانتقد ابن عطية (٥٤٦/١) ما نُسِب للإمام مالك من إباحة إتيان المرأة في الدُّبُر فقال: «وروي عن مالك شيء في نحوه، ... وقد كذب ذلك على مالك».

وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ.

وبنحوه ابنُ كثير (١ / ٥٩٨-٥٩٩ بتصرف) فقال: «وقد حُكِي في هذا شيء عن بعض فقهاء المدينة، حتى حكَوْه عن الإمام مالك، وفي صِحَّته عنه نظر...وقد روى الحاكم، والدارقطني، والخطيب البغدادي، عن الإمام مالك من طرق ما يقتضي إباحة ذلك. ولكن في الأسانيد ضعف شديد».

وجَّه ابنُ عطية (١/٥٤٦) ما ورد عن ابن عمر، فقال بعدما ذكر قولَ من يُبِيح إتيانَ المرأة في الدُّبُر: «روي ذلك عن عبد الله بن عمر، ورُوِيَ عنه خلافُه وتكفيرُ مَن فَعَلَه، وهذا هو اللائق به».

وبَيَّنَ ابنُ تيمية (١/٥١٤ بتصرف) أنّ ما نقله نافع عن ابن عمر اختلفت أنظارُ الناس فيه، فقال: «فمِن الناس من يقول: غَلِط نافعٌ على ابن عمر، أو لم يَفْهَم مرادَه، وكان مراده: أنها نزلت في إتيان النساء من جهة الدُّبُرِ في القبل؛ فإنّ الآية نزلت في ذلك باتفاق العلماء، وكانت اليهود تنهى عن ذلك، وتقول: إذا أتى الرجل المرأة في قُبُلِها من دُبُرِها جاء الولد أحول. فأنزل الله هذه الآية. وكان سالم بن عبد الله بن عمر يقول: كذب العَبْدُ على أبي. وهذا مما يُقَوِّي غلطَ نافع على ابن عمر؛ فإنّ الكذب كانوا يطلقونه بإزاء الخطأ. ومن الناس من يقول: ابن عمر هو الذي غلط في فهم الآية. والله أعلم أي ذلك كان؛ لكن نُقِل عن ابن عمر أنه قال: أو يفعل هذا مسلم؟!».

وأمّا ابنُ كثير (١/٥٩٧) فذكر قولَ ابن عمر لما سُئِل عن تحميض الجواري: وهل يفعل ذلك أحدٌ من المسلمين؟!، ثم قال: «وهذا إسناد صحيح، ونصٌّ صريحٌ منه بتحريم ذلك، فكلُّ ما ورد عنه مما يحتمل ويحتمل فهو مردود إلى هذا المحكم».

يقول ابنُ عطية (١/٥٤٦-٥٤٧ بتصرف) بعد توجيهه السابق لما ورد عن ابن عمر: «وقد ورد عن رسول ﷺ ...أنه قال: «إتيان النساء في أدبارهن حرام» ... وهذا هو الحقُّ المُتَّبَع، ولا ينبغي لمؤمن بالله واليوم الآخر أن يعرج في هذه النازلة على زَلَّةِ عالم بعد أن تَصِحَّ عنه».

وقال ابن تيمية (١/٥١٥) أيضًا: «لكن بكُلِّ حال معنى الآية هو ما فسرها به الصحابة والتابعون، وسببُ النزول يدلُّ على ذلك؛ فإنّ الله قال في كتابه: ﴿نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾.

وقد ثبت في الصحيح: أنّ اليهود كانوا يقولون إذا أتى الرجل امرأته في قُبُلها من دُبُرها: جاء الولدُ أحول. فسأل المسلمون عن ذلك النبيَّ ﷺ؛ فأنزل الله هذه الآية: ﴿نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾، والحرثُ: موضع الزرع، والولدُ إنّما يزرع في الفَرْجِ لا في الدُّبُر، ﴿فأتوا حرثكم﴾ وهو موضع الولد ﴿أنى شئتم﴾ أي: مِن أين شئتم؛ من قُبُلِها، ومن دُبُرِها، وعن يمينها، وعن شمالها. فالله تعالى سَمّى النساء حرثًا؛ وإنما رَخَّص في إتيان الحروث، والحرث إنما يكون في الفرج. وقد جاء في غير أثر: أنّ الوطءَ في الدُّبُرِ هو اللُّوطِيَّةُ الصُّغْرى. وقد ثبت عن النبي ﷺ أنّه قال: «إنّ الله لا يستحيي من الحق؛ لا تأتوا النساء في حُشُوشِهِنّ».

والحُشُّ هو: الدُّبُر، وهو موضع القَذَر. والله سبحانه حَرَّم إتيان الحائض مع أنّ النجاسة عارضة في فرجها، فكيف بالموضع الذي تكون فيه النجاسة المُغَلَّظة؟!».

وذكَر ابنُ القيِّم (١/١٧٦) أن من نَسَب إلى بعض السلف جواز وطء الزوجة في دُبُرها، فقد غَلِط عليه.

أي: أعدُّوا الخيراتِ والحسناتِ لأجْل نفع أنفسكم في الآخرة، واجعلوا بينكم وبين غضب الله تعالى وعذابه حاجزًا يَقِيكم ذلك بتجنُّب الشرور والسيِّئات، وكونوا على يقين تامٍّ من أنكم ستلاقون الله تعالى يوم القيامة، وأنه مُجازٍ كلًّا منكم بعمله، إنْ خيرًا فخير وإنْ شرًّا فشر، وبشِّر المؤمنين يا محمَّد بما يسرُّهم فالمؤمنون الذين يحبُّون لقاء الله تعالى، ويُعِدُّون للأمر عُدَّتَه، سيهنَؤون بلقائه سبحانه، وما يُقدِّموا لأنفسهم من خيرٍ سيجدونه عند الله عزَّ وجلَّ، ويُكرِمهم بدخول جنَّته.

كما قال تعالى: وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا [المزمل: 20].

وعن عُبادة بن الصَّامت رضي الله عنه، أنَّ رسولَ الله – ﷺ – قال: ((من أحبَّ لقاءَ اللهِ أحبَّ اللهُ لقاءَه، ومن كرِه لقاءَ اللهِ كرِه اللهُ لقاءَه. قالت عائشةُ أو بعضُ أزواجِه: إنَّا لنكرهُ الموتَ، قال: ليس ذاك، ولكنَّ المؤمنَ إذا حضره الموتُ بُشِّر برضوانِ اللهِ وكرامتِه،

فليس شيءٌ أحبَّ إليه ممَّا أمامه، فأحبَّ لقاءَ اللهِ وأحبَّ اللهُ لقاءَه، وإنَّ الكافرَ إذا حُضِر بُشِّر بعذابِ اللهِ وعقوبتِه، فليس شيءٌ أكرهَ إليه ممَّا أمامه، فكرِه لقاءَ اللهِ وكرِه اللهُ لقاءَه)).[342]

وَلَا تَجْعَلُوا اللهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (224).

(342) رواه البخاري (6507).

وَلَا تَجْعَلُوا اللهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ.

أي: لا تجعلوا الحَلِفَ بالله تعالى حُجَّةً لكم تمنعُكم من القيام بفِعل الخيرات، كبرِّ الوالدين وذِي القربى، أو تمنعكم من تحقيقِ التَّقوى بامتثال ما أمر الله تعالى به واجتناب ما نهى عنه، أو تمنعكم من السَّعي في الإصلاح بين النَّاس بالمعروف، وذلك كأنْ يحلفَ امرؤٌ بالله تعالى على ألَّا يصل رحِمَه، فإذا طُلب منه أن يَفعل ما أمر الله تعالى به من صِلة الرَّحِم، قال: قد حلفتُ ألَّا أفعل ذلك، فيجعل الحلفَ بالله عزَّ وجلَّ حجَّة يتقوَّى بها على ترك الخيرات، فنهى الله تعالى عباده عن ذلك، فإذا حلف أحدُهم فليس له الامتناعُ من ذلك والتعلُّل باليمين، بل عليه أن يَحنثَ، ويكفِّر عن يمينه، ويأتي الذي هو خير.(343)

---

(343) اختُلِف في تفسير قوله: ﴿ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم﴾؛ فقال بعضهم: المعنى: لا تجعلوه عِلَّة لأيمانكم، وذلك إذا سُئِل أحدكم الشيءَ من الخير قال: حلفتُ بالله ألّا أفعله. فيعتلُّ في تركه فعل الخير بالحلف بالله.

وقال آخرون: معنى ذلك: ولا تعترضوا بالحلف بالله في كلامكم فيما بينكم، فتجعلوا ذلك حُجَّة لأنفسكم في ترك فعل الخير.

ورجَّحَ ابنُ جرير (٤/١١) القولَ الثاني فقال: «وذلك أنّ العرضة في كلام العرب: القوة والشدة، يقال منه: هذا الأمر عرضة له. يعني بذلك: قوة لك على أسبابك، ويقال: فلانة عُرْضَة للنكاح. أي: قوة».

واختُلِف في تفسير البِرِّ الذي عناه الله بقوله: ﴿أن تبروا﴾؛

فقال قوم: هو فعل الخير كله.

وقال آخرون: هو البِرُّ بذي رحمه.

ورجَّحَ ابنُ جرير القولَ الأول لدلالة العموم، فقال (٤/١٢): «وذلك أنّ أفعال الخير كلَّها من البر، ولم يخصص الله في قوله: ﴿أن تبروا﴾ معنًى دون معنًى من معاني البر؛ فهو على عمومه».

ثُمَّ ذَكَرَ اندراج القولِ الثاني في الأول، فقال: «والبِرُّ بذوي القرابة أحد معاني البِرّ».

قال تعالى: وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ [النور: 22].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت -كما في حديث الإفك الطويل-: ((... فأنزل الله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ الآيات، فلمَّا أنزل الله هذا في براءتي، قال أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه، وكان يُنفِق على مِسْطَح بن أُثَاثة؛ لقَرابتِه منه: والله لا أُنفق على مِسطحٍ شيئًا أبدًا، بعد ما قال لعائشة. فأنزل الله تعالى: وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ إلى قوله: أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ. فقال أبو بكر: بلى والله، إنِّي لأحبُّ أن يغفر الله لي! فرجع إلى مسطحٍ الذي كان يُجْرِي عليه)).(344)

وعن زَهْدَمٍ الجَرْميِّ، قال: ((كنَّا عندَ أبي موسى، وكان بيننا وبين هذا الحَيِّ من جَرْمٍ إخاءٌ ومعروفٌ، قال: فقدَّمَ طعامَه، قال: وقَدَّمَ في طعامه لَحْمَ دَجاجٍ، قال: وفي القوم رجلٌ من بني تَيْمِ اللهِ، أحمرُ كأنَّه

وبيَّن ابنُ عطية (١/٥٤٨) أن المهدوي قدَّر الآية: بكراهة أن تبروا، وذكر أن قومًا قالوا: المعنى: ولا تحلفوا بالله كاذبين إذا أردتم البر والتقوى والإصلاح. وبيَّن أنه على هذا القول لا يحتاج إلى تقدير «لا» بعد ﴿أن﴾، ثم ذكر أن هذا التأويل له معنيان:
الأول: أن يكون في الذي يريد الإصلاح بين الناس، فيحلف حانثًا ليكمل غرضه.
الثاني: أن يكون على ما رُوي عن عائشة أنها قالت: «نزلت في تكثير اليمين بالله نهيًا أن يحلف الرجل به برًّا فكيف فاجرًا»، فالمعنى: إذا أردتم لأنفسكم البر.
ونقل عن الزجاج وغيره أنهم قالوا: معنى الآية: أن يكون الرجل إذا طلب منه فعل خير ونحوه اعتلَّ بالله تعالى، فقال: عليّ يمين. وهو لم يحلف.

(344) رواه البخاري (2661).

مَوْلًى، قال: فلمْ يَدْنُ، فقال له أبو موسى: ادْنُ؛ فإنِّي قد رأيتُ رسولَ الله - ﷺ - يأكلُ منه، قال: إنِّي رأيتُه يأكلُ شيئًا قَذِرْتُه، فحلَفْتُ أنْ لا أَطْعَمَه أبدًا، فقال: ادْنُ أُخْبِرْكَ عن ذلك، أَتَيْنا رسولَ الله - ﷺ - في رَهْطٍ من الأَشْعريّينَ أَستحمِلُه، وهو يَقْسِمُ نَعَمًا من نَعَمِ الصدقة، قال أيُّوبُ: أَحسبُه قال: وهو غضْبانُ، قال: واللهِ لا أَحْمِلُكم، وما عندي ما أَحمِلُكم عليه. قال: فانطلقْنا، فأُتِيَ رسولُ الله - ﷺ - بنَهْبِ إبلٍ، فقيل: أين هؤلاءِ الأشعَريُّونَ؟ فأَتَيْنا، فأَمَر لنا بخَمْسِ ذَوْدٍ غُرِّ الذُّرى،[345] قال: فانْدَفَعْنا، فقلتُ لأصحابي: أَتَيْنا رسولَ الله - ﷺ - نَستحمِلُه، فحلف أنْ لا يحمِلَنا، ثم أرسل إلينا فحَمَلنا، نَسِيَ رسولُ اللهِ - ﷺ - يمينَه، واللهِ لَئِنْ تَغَفَّلْنا رسولَ الله - ﷺ - يمينَه لا نُفلحُ أبدًا، ارجِعوا بنا إلى رسولِ اللهِ - ﷺ - فلْنُذَكِّرْه يمينَه، فرجَعْنا فقلنا: يا رسولَ الله، أَتَيْناكَ نَستحمِلُكَ فحَلَفْتَ أنْ لا تحمِلَنا، ثم حَمَلْتَنا، فظَنَنَّا، أو: فعَرَفْنا أنَّك نَسِيتَ يَمينَك، قال: انطَلِقوا، فإنَّما حَمَلكم اللهُ، إنِّي واللهِ -إنْ شاء اللهُ- لا أَحْلِفُ على يَمينٍ، فأَرَى غيرَها خيرًا منها، إلَّا أَتَيْتُ الذي هو خيرٌ وتَحَلَّلْتُها)).[346]

وعن أبي هُرَيرَة رضي الله عنه، قال: ((أعتَمَ رجلٌ عند النبيِّ - ﷺ -، ثم رجع إلى أهلِه فوجد الصِّبيةَ قد ناموا، فأتاه أهلُه بطعامِه، فحلَف لا يأكلُ من أجلِ صِبيتِه، ثم بدَا له فأكل، فأتى رسولَ

(345) قوله: ((بخَمسِ ذَود غُرِّ الذُّرى)): أي: بخمس إبل بيضِ الأَسْنِمَة سِمانِها، والذُّرى: جمعُ ذِرْوَةٍ، وهي أعلى سَنام البَعير. ينظر: ((النهاية)) لابن الأثير (159/2).

(346) رواه البخاري (6721) واللفظ له، ومسلم (1649).

اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فذكر ذلك له. فقال رسولُ اللهِ: مَن حلف على يمينٍ، فرأى غيرَها خيرًا منها، فلْيأتِها، وليكفِّرْ عن يمينِه)).[347]

وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ.

أي: إنَّ الله تعالى يسمعُ جميع الأصوات ومن ذلك سماعه لأقوال الحالفين، وهو عزَّ وجلَّ عالِمٍ بجميع المقاصد والنيَّات، ومن ذلك علمُه بمقاصد الحالفين هل يقصدون خيرًا أم شرًّا، وفي ذلك تحذيرٌ للعباد من أن يُظهِروا بألسنتهم، أو يُضمِروا في أنفسهم ما فيه مخالفةٌ لأمر الله تعالى أو ارتكابٌ لنهيه؛ فإنَّ الله عزَّ وجلَّ مطلعٌ على ما ظهر وما بطن، لا يَخفى عليه شيء سبحانه.

(347) رواه مسلم (1650).

سُورةُ البَقَرَةِ

الآيات (225-232)

لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (225)

لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (226)

وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (227)

وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (228)

الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا

فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ

(229)

فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ
يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (230)

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ
ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ
اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ
بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (231)

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ
بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ
وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (232)

غريب الكلمات:

بِاللَّغْوِ: اللغو: هو ما يَجري في الكلامِ على غيرِ عَقْد ولا قصْد، ويُعبَّر باللَّغو أيضًا عن الباطِلِ من الكلام.

يُؤْلُونَ: يَحلِفون- من الأَلية، وهي اليَمين.

تَرَبُّصُ: التَّرَبُّص: الانتِظار والتَّمكُّث.

فَاؤُوا: أي: رجَعوا إلى جِماعِ نِسائهم.

قُرُوءٍ: جمع قُرء، وهو الطُّهر- عند أهل الحْجاز- والحَيْض- عند أهل العِرَاق- وهو من الأضدادِ.

وَبُعُولَتُهُنَّ: أزواجهنَّ، جمْع بَعْل، وبَعْل المَرْأةِ زوجُها.

تَسْرِيحٌ: التسريح: ما يدلُّ على الانطلاق؛ يقال: أمْر سريح، إذا لم يكُن فيه تعويقٌ ولا مطل.

افْتَدَتْ بِهِ: بذَلتِ الشيءَ لزوجِها عن نفْسِها، وأصل (فدي): جَعْلُ شَيْءٍ مكانَ شَيْءٍ حِمًى له.

أَجَلَهُنَّ: الأجَل: غايةُ الوقت، في الموتِ وغيرِه؛ ومنه: انقضاءُ العِدَّة.

تَعْضُلُوهُنَّ: العَضْل: الحبْس والمنع؛ يقال: عضَل الرجل أيِّمَه؛ إذا منعَها من التَّزويج.

تفسير الآيات:

لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ

.(225)

لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ.

أي: لا يُعاقب اللهُ تعالى عِبادَه- فلا تلزمهم كفَّارة في الدُّنيا ولا عقوبة تحلُّ بهم في الآخرة- لِما يَجري على ألسنتهم من الحَلِف على أمورٍ معتادةٍ لديهم، دون قصدٍ منهم إلى عَقد اليمين عليها، وكذا ما يَحلِفون عليه جازمين بصِدقه أو تحقُّق وقوعه، ويكون الأمرُ في الحقيقة على خلاف ما اعتقدوه.[348]

(348) وممَّن نصَّ من السَّلَف على المعنى الأوَّل في كلمة اللَّغْو: عائشةُ -في أحد قوليها- وابنُ عمر، وابن عبَّاس - في أحد أقواله - والشَّعبي، وعِكْرمة - في أحد قوليه - وعَطاء، والقاسم بن محمَّد، وعُروة بن الزبير، وأبو قِلابة، والضَّحَّاك -في أحد قوليه - وأبو صالح، والزُّهري. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (14/4)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (408/2).

وممَّن نصَّ على المعنى الثاني: عائشة - في أحد قوليها - وأبو هريرة، وابن عبَّاس - في أحد أقواله - وسُليمان بن يَسار، وسعيد بن جُبَير، ومجاهد - في أحد قوليه - والحسن، وإبراهيم، وزُرارة بن أَوْفى، وأبو مالك، وعَطاء الخُراساني، وبَكْر بن عبد الله، وهو أحَد قولي عِكرمة، وحبيب بن أبي ثابت، والسُّدِّي، ومكحول، ومقاتل، وطاوس، وقَتادة، والرَّبيع بن أنس، ويَحيى بن سعيد.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (19/4)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (408/2).

وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ.

أي: إنَّ العقوبة تقعُ على مَن قصد بقلبِه تعمُّد الحلف بالله تعالى كاذبًا، وأما مَن حلف على شيءٍ ثم حنث في يمينه فعليه أن يُكفِّر عنها في الدنيا، فإن لم يفعل فهو مُعرَّضٌ كذلك للعقوبة في الآخرة.(349)

وَاللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ.

أي: إنَّ الله تعالى يسترُ على عِبادِه، ويتجاوزُ عنهم فيما لغَوا فيه من أَيْمان، فلا يُؤاخذهم بها في الدنيا بكفَّارةٍ، ولا في الآخرة بعقوبة، وكذا ما وجَبَ في الحِنث ببعضِ الأيمان من كفَّارة، جعَلَها الله تعالى مُغنِيةً عن عقوبة الآخرة. ولَمَّا كانت تلك الأيمانُ الواردةُ على سبيل اللَّغو من قبيل التقصيرِ في الأدبِ مع الله تعالى، جاءَ اقترانُ وصف الله عزَّ وجلَّ بمغفرة الذنوب مع وصفه بالحِلم؛ إذ لم يُعاجِلهم بعقوبة؛ جرَّاءَ تقصيرِهم في التأدُّب معه، أو يغضب لغفلتهم عنه في ذلك.

لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاؤُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (226).

لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ.

أي: إنَّ مَن حلف ألَّا يجامع زوجته أكثر مِن أربعة أشهرٍ، فإنَّ أقصى ما يُمكنه انتظارُه أربعة أشهر دونَ جِماعِها.

---

(349) ونقَل ابنُ جرير الإجماعَ على أنَّ معنى قوله: بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ: ما تعمَّدت.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (36/4).

فَإِنْ فَاؤُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

أي: إنْ رجع الزَّوج إلى زوجته فجامعها، فسواء وقع ذلك قبل انتهاء الأربعة أشهر أو فور انتهائها، فإنَّ له ذلك، ويغفر الله تعالى له حرمان امرأته من الوطء تلك المدَّة، فمغفرته سبحانه تُوجِب رفْعَ الإثم عنه، ورحمته عزَّ وجلَّ تُوجِب له بقاء امرأته، وأن تُفرَض عليه الكفَّارة، كما هي الحال في سائر الأيمان التي يُحنَث بها، والجزاءُ من جِنس العمل؛ فكما عاد إلى إرضاءِ زوجتِه، والإحسانِ إليها، عادَ اللهُ تعالى عليه بمغفرتِه ورحمتِه.

وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (227).

وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ.

أي: خيَّر الله تعالى المُولِي من زوجته بين شيئَيْن: إمَّا أن يفيء إليها وإما أن يطلِّقها. ولَمَّا كان الرُّجوع إليها، أحبَّ إلى الله تعالى، بدأ به، فإذا قصد الزَّوج طلاقَها بعزمٍ تامٍّ، أي: بعد تأمُّلٍ فيه، واستقرار رأيه على مفارقة امرأته، فإنَّه يجب عليه أن يُطلِّقها مباشرةً، ولْيعلم أنَّ الله تعالى يسمع طلاقه حين يُطلِّق، وأنه مطَّلعٌ على ما في قلبه، فلْيحذر من المخادعة والتلاعب بأمر الله تعالى، بإرادة تعليقها والإضرار بها؛ فإنَّ الله تعالى لا يَخفى عليه شيءٌ، وسيُجازي عباده بأعمالهم، وليس منه مهربٌ جلَّ وعلا.

وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (228).

وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ.

أي: إنَّ النِّساء الحرائر المدخول بهنَّ إذا كنَّ ذوات حيض وطهرٍ، ولسن بحوامل، وطلقهنَّ أزواجُهنَّ، فعليهنَّ ألَّا يعجلْنَ إلى الزواج، بل يحبسنَ أنفسهنَّ عنه مدَّة ثلاثة قروء. والقُرء قيل: هو الطُّهر، وقيل: هو الحيض.[350]

---

(350) اختُلِف في معنى القرء؛ فقال قوم: هو الحيض.

وقال آخرون: هو الطُّهْر.

ووجّه ابنُ جرير (٤/١٠١-١٠٢) هذا الاختلافَ، فقال: «وأصل القُرْءِ في كلام العرب: الوقتُ لمجيء الشيء المعتاد مجيئه لوَقْتٍ معلوم، ولإدبار الشيء المعتاد إدباره لوقت معلوم. ولِما وصفنا من معنى القُرْءِ أشكل تأويلُ قول الله: ﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء﴾ على أهل التأويل، فرأى بعضُهم أنّ الذي أُمِرَت به المرأة المطلقة ذاتُ الأقراءِ من الأقراءِ أقراءُ الحيض وذلك وقتُ مجيئه لعادته التي تجيء فيه، فأوجب عليها تَرَبُّصَ ثلاث حِيَضٍ بنفسها عن خطبة الأزواج. ورأى آخرون أنّ الذي أُمِرَت به من ذلك إنّما هو أقْراء الطُّهْرِ، وذلك وقت مجيئه لعادته التي تجيء فيه، فأوجب عليها تَرَبُّصَ ثلاث أطهار».

ورَجّح ابنُ تيمية (١/٥٢٢) القولَ بأنّه الحيض مستندًا إلى اللغة، وأقوال السلف، والدّلالات العقلية، فقال: «والقُرْءُ: هو الدم؛ لظهوره وخروجه، وكذلك الوقت؛ فإنّ التوقيت إنما يكون بالأمر الظاهر. ثُمَّ الطهر يدخل في اسم القُرْءِ تَبَعًا كما يدخل الليلُ في اسم اليوم، قال النبي ﷺ للمستحاضة: «دَعِي الصلاة أيام أقْرائِك».

والطُّهْرُ الذي يَتَعَقَّبُهُ حيض هو قُرْءٌ، فالقُرْءُ اسمٌ للجميع. وأما الطُّهْرُ المُجَرَّدُ فلا يُسَمّى قُرْءًا؛ ولهذا إذا طلقت في أثناء حيضة لم تعتد بذلك قُرْءًا؛ لأن عليها أن تَعْتَدَّ بثلاثة قُرُوء، وإذا طُلِّقَتْ في أثناء طُهْرٍ كان القُرْءُ الحيضة مع ما تَقَدَّمها من الطُّهْر؛ ولهذا كان أكابرُ الصحابة على أنّ الأقراءَ الحِيَضُ؛ كعمر، وعثمان، وعلي، وأبي موسى، وغيرهم؛ لأنها مأمورة بتَرَبُّصِ ثلاثة قروء، فلو كان القرءُ هو الطُّهْرُ لكانت العدة قُرْأين وبعضَ الثالث، فإنّ النِّزاع من الطائفتين في الحيضة الثالثة، فإنّ أكابر

﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

أي: الذي نُهيت المرأةُ المطلَّقة عن كتمانِه مِن مُطلِّقها ممَّا خلَق الله في رحِمها: الحيض، والحمل؛ فكتمان ذلك، يقود إلى شرور كثيرة؛ فإنَّها إذا كتمت حملها، أدَّى ذلك إلى إلحاق الجنين بغير مَن هو له، رغبة فيه، أو استعجالًا لانقضاء العدَّة، فإذا ألحقته بغير أبيه، حصلَتْ مفاسدُ أخرى كقطْع الرَّحِم، والإرث، واحتجاب محارمِه عنه، وربَّما يتزوَّج ذواتِ محارمه، وغير ذلك من المفاسِد. وكتمانُ الحيض، يكون بإخبارِها كذبًا بوجوده، وهذا يؤدِّي إلى انقطاع حق الزَّوج عنها، وإباحتِها لغيره ويتفرَّعُ عن ذلك من الشُّرور مثلُ ما سبَق، أو يكون بإخبارِها كذبًا بعدم وجود الحيض؛ كي تطول العِدَّة، فتأخذ منه نفقةً غير واجبة عليه، وقد يُراجعها مُطلِّقُها بعد انقضاء العِدَّة، فيكون ذلك زنًا؛ لأنَّها لا تحلُّ له في هذه الحال؛ فنهاهنَّ الله عزَّ وجلَّ عن كتمانِ الحيض والحمْل، فهذا فِعلُ مَن لا يؤمن بالله، ولا باليوم الآخِر، ولا من أخلاقه،

الصحابة ومَن وافقهم يقولون: هو أحقُّ بها ما لم تغتسل من الحيضة الثالثة. وصغار الصحابة إذا طعنت في الحيضة الثالثة فقد حلَّتْ. فقد ثبت بالنص والإجماع أنّ السُّنَّة أن يُطَلِّقها طاهرًا من غير جماع، وقد مضى بعض الطُّهْرِ، والله أمر أن يطلق لاستقبال العِدَّة لا في أثناء العدة. وقوله: ﴿ثلاثة قروء﴾ عددٌ ليس هو كقوله: أشهر؛ فإنّ ذاك صيغة جمع لا عدد، فلا بُدَّ مِن ثلاثة قروء كما أمر الله، لا يكفي بعض الثالث».

وإلى نحوه ذَهَبَ ابنُ جرير (٤/١٠٢).

وفي هذا تهديدٌ لهنَّ على قول خلاف الحقِّ، فمَن آمَنت بالله تعالى واليوم الآخِر، وعرَفت أنَّها مجزيَّةٌ عن أعمالها، لم يصدُر عنها شيءٌ من ذلك؛ لأنَّ الإيمان بهما يحمِل الإنسان على فعل المأمورات، واجتناب المحظورات.(351)

وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا.

أي: إنَّ زوج المطلَّقة أحقُّ وأولى بإرجاعها إلى عصمتِه، ما دامتْ في عِدَّتها، أي: حال تربُّصها ثلاثة قروء، أو في أيَّام حملها إن كانت حاملًا، إذا قصد برجعتِها أن يُحدِث ائتلافًا والتئامًا بينه وبينها.

(وهذا في المطلَّقة طلاقًا رجعيًّا، أمَّا البائن فلا رجعةَ له عليها).

---

(351) اختُلِف في تفسير ما نُهِيَت المرأةُ المطلقةُ عن كتمانِه زوجَها المُطَلِّقَها؛

فقال بعضهم: هو الحيض.

وقال غيرهم: إنه الحمل.

وقال آخرون: هو الحيض والحمل معًا.

ووجَّه ابنُ تيمية (١/٥٢٧) تخصيصَ الآية بالحيض فقط أو الحمل فقط، فقال: «مَن أطْلَقَ القولَ بأحدهما [يعني: الحيض، أو الحمل] فقد يكون مرادُه التمثيلَ لا الحصر، فإنّ مثل هذا كثيرٌ فاشٍ في كلام السلف، يذكرون في تفسير الآية ما يُمَثِّلُون به المرادَ من ذكر بعض الأنواع، لا يقصدون تخصيصها بذلك».

وانتَقَدَ ذلك ابنُ جرير (١١٣/٤) مستندًا إلى الدلالات العقلية، وهي أنّ الحيض والحمل جميعًا مما خلق الله في أرحامهن، وأنّ في كل واحد منهما من معنى بطُولِ حقِّ الزوج بانتهائه إلى غايةٍ مثل ما في الآخر.

ثُمَّ قال: «ويُسْأَلُ مَن خَصَّ ذلك فجعله لأحد المعنيين دون الآخر عن البرهان على صِحَّة دَعْواه من أصل، أو حُجَّةٍ يجب التسليم لها، ثم يعكس عليه القول في ذلك، فلن يقول في أحدهما قولًا إلا أُلْزِمَ في الآخر مثله».

وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ.

أي: إنَّ للزَّوجاتِ- سواء كنَّ مُمْسَكات أو مُطلَّقات- حقوقًا، وعلى أزواجهنَّ القيام بها تجاههنَّ، مثلما أنَّ عليهن تُجاه أزواجهن حقوقًا أيضًا، والقيام بها من قِبل الطرفين يكون بما جرت به العادة، من غير وقوع ظلمٍ، أو مخالفةٍ لأمر الله تعالى، ولكنْ للرِّجال عليهن زيادة في الحقوق لِمَا للرجل من فضلٍ على المرأة؛ بسبب الإنفاق عليها وغير ذلك.

وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ.

بعد أنْ بيَّن الله تعالى بعض أحكامه، بيَّن أنَّ له الغلبة التامَّة والقهر، ومن ذلك انتقامه ممَّن خالف العمل بتلك الأحكام، وهو سبحانه حكيمٌ فيما شرع وقدَّر، إذ يضع كلَّ شيءٍ في موضعه اللَّائق به.

لَمَّا ذكر اللهُ تعالى حقَّ الرجعة الذي يُمكن الزَّوجَ، ذَكَر بعدَه غايةَ الطَّلاق الذي يملكه الزوجُ من امرأته، فقال سبحانه:

الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ

(229).

الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ.

أي: إنَّ عدد الطَّلَقات التي يحلُّ للزَّوج بعدها رجعة زوجته، مرَّتان، فإذا طلق الرَّجُل زوجته، فإنَّه يُخيَّر بين أمريْن ما دامت عدَّتها باقية، إما أن يردَّها إليه ويعاشرها بما جرت به عادة النَّاس من غير ظلمٍ لها، وإمَّا أن يتركها حتى تنقضي عدَّتها، ويُطلِق سراحها محسنًا إليها، دون أن يظلمها أو يضارَّ بها.(352)

وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ.

---

(352) اختُلِف في تفسير هذه الآية؛ فقال بعضهم: هو دلالة على عدد الطلاق الذي يكون للرجل فيه الرجعة على زوجته، والعدد الذي تَبِينُ به زوجته منه.

وقال آخرون: إنما أُنزِلت هذه الآية على النبي ﷺ تعريفًا من الله عبادَه سُنَّةَ طلاقهم نساءَهم، لا دلالة على العدد الذي تَبِينُ به المرأة من زوجها.

ورَجَّح ابنُ جرير (٤/١٢٩) القولَ الأولَ الذي قال به عروة، وقتادة، وابن زيد، والسُّدِّيُّ، وعكرمة مُسْتَنِدًا إلى القرآن، فقال: «وذلك أنّ الله –تعالى ذكره– قال في الآية التي تتلوها: ﴿فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره﴾، فعَرَّف عبادَه القَدْرَ الذي به تَحْرُمُ المرأةُ على زوجها إلا بعد زوج، ولم يُبَيِّن فيها الوقتَ الذي يجوز الطلاق فيه والوقت الذي لا يجوز ذلك فيه».

وعَلَّق ابنُ عطية (١/٥٦١) بعد ذكره لكلا القولين، فقال: «والآيةُ تتضمنُ هذين المعنيين».

واختُلِف في معنى التَّسْرِيح؛ فقال قوم: هو ترك المطلقة تَتِمُّ عِدَّتُها من الثانية، وتكون أمْلَكَ لنفسها.

وقال آخرون: هو أن يطلقها ثالثة فَيُسَرِّحها بذلك.

ورجَّح ابنُ عطية (١/٥٦١–٥٦٢) القول الثاني فقال: «ويَقْوى عندي هذا القول من ثلاثة وجوه: أولها: أنّه رُوِي أنّ رجلًا قال للنبي ﷺ: يا رسول الله، هذا ذِكْرُ الطلقتين، فأين الثالثة؟ فقال النبي ﷺ: «هي قوله: ﴿أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسانٍ﴾».

والوجه الثاني: أنّ التسريح من ألفاظ الطلاق، ألا ترى أنه قد قُرِىء: (وإنْ عَزَمُوا السَّراحَ).

والوجه الثالث: أنّ فَعَّل تَفْعِيلًا بهذا التضعيف يُعْطِي أنّه أحْدَثَ فِعْلًا مُكَرَّرًا على الطلقة الثانية، وليس في الترك إحداث فعل يعبر عنه بالتفعيل».

وإلى نحوه ذَهَبَ ابنُ جرير (٤/١٣٢).

أي: إنَّه لا يحِلُّ لكم– أيُّها الرِّجال– إذا أردتم طلاق زَوجاتكم أنْ تأخذوا ممَّا أعطيتموهنَّ شيئًا من المهر أو غيره، إلَّا في حالة واحدة وهي أن يَخشَى الزَّوجانِ، أو أولياؤهما كأقاربهما، من عدمِ قِيام كلِّ واحدٍ منهما بما له على الآخَر من حقوق، وذلك كأنْ تُبغِضَ الزوجةُ زوجَها، ولا تَقدِرَ على مُعاشرتِه؛ لسوء خُلُقه، أو لغير ذلك من أسباب، فتَخشى هي أو غيرها من عدم القيام بحقوق زوجها على الوجه المأمورِ به شرعًا، ويخشى الزَّوج أو غيره من عدم القيام بحقوق زوجته؛ بسبب نُفورِها منه، وبُغضها له، أو تَقصيرِها نتيجةَ ذلك في حقوقه– فلها حينئذٍ أن تُخالعه، أي: تطلُب منه فراقَها مُقابلَ عِوَض تُقدِّمه له، ولا حرجَ عليها في دفْعه، ولا حرجَ عليه في قَبوله وأخْذه.(353)

---

(353) اختُلِف في معنى الخوف منهما ألّا يقيما حدود الله؛
فقال قوم: هو أن يظهر من المرأة سوءُ الخلق والعشرة لزوجها.
وقال آخرون: هو قول المرأة لزوجها: لا أطيع لك أمرًا.
وقال غيرهم: بل الخوف من ذلك أن تبدي له بلسانها أنها له كارهة. وقال آخرون: بل ذلك منهما جميعًا لكراهة كل واحد منهما صحبة الآخر.
ورَجَّح ابنُ جرير (٤/١٤٦-١٤٧) القول الأخير فقال: «لأنّ الله –تعالى ذكره– إنّما أباح للزوج أخذ الفدية من امرأته عند خوف المسلمين عليهما أن لا يُقيما حدودَ الله. فإن قال قائل: فإن كان الأمر على ما وصفتَ فالواجب أن يكون حرامًا على الرجل قَبول الفدية منها إذا كان النشوز منها دونه، حتى يكون منه من الكراهة لها مثل الذي يكون منها له؟ قيل له: إنّ الأمر في ذلك بخلاف ما ظننت، وذلك أنّ في نشوزها عليه داعية له إلى التقصير في واجبها ومجازاتها بسوء فعلها به، وذلك هو المعنى الذي يوجب للمسلمين الخوف عليهما أن لا يقيما حدود الله. فأمّا إذا كان التفريط من كل واحد منهما في واجب حق صاحبه قد وجد، وسوء الصحبة والعشرة قد ظهر للمسلمين؛ فليس هناك للخوف موضع، إذ كان المخوف قد وُجد، وإنما يخاف وقوع الشيء قبل حدوثه، فأما بعد حدوثه فلا وجه للخوف منه، ولا الزيادة في مكروهه».
واختُلِف في تفسير الحدود التي إذا خيف من الزوجين ألا يُقيماها حَلَّت له الفِدْيَةُ من أجل الخوف عليهما تضييعَها؛
فقال قوم: هو استخفافُ المرأة بحقِّ زوجها، وأذاها له بالكلام.
وقال آخرون: معنى ذلك: فإن خِفْتُم ألّا يُطِيعا.

القراءات ذات الأثر في التفسير:

في قوله تعالى: يَخَافَا قراءتان:

1- يُخَافَا بالبناء للمفعول، وتعني: أنَّ الخوف صادرٌ من غيرهما.(354)

2- يَخَافَا بالبِناء للفاعل، وتعني: أنَّ الخوف صادرٌ من الزوجين.(355)

ورَجَّح ابنُ جرير (٤/١٤٨-١٤٩) عمومَ هذه الحدود لكل الفرائض الواجبة على كليهما نحو بعضهما البعض مستندًا لِما رُوِي عن السلف في ذلك، فقال: «والصَّوابُ من القول في ذلك: فإن خفتم ألّا يُقيما حدودَ الله ما أوجب اللهُ عليهما من الفرائض فيما أُلْزِمَ كُلُّ واحد منهما مِن الحق لصاحبه من العشرة بالمعروف، والصحبة بالجميل؛ فلا جناح عليهما فيما افتدت به».

ثم بَيَّنَ دخولَ القولين الوارِدَيْن فيما ذَكَرَ، فقال: «وقد يدخل في ذلك ما رويناه عن ابن عباس، والشعبي، وما رويناه عن الحسن، والزهري؛ لأنّ من الواجب للزوج على المرأة إطاعته فيما أوجب اللهُ طاعتَه فيه، وأن لا تُؤْذِيَه بقولٍ، ولا تَمْتَنعَ عليه إذا دعاها لحاجته، فإذا خالفت ما أمرها اللهُ به من ذلك كانت قد ضَيَّعَتْ حدود الله التي أمرها بإقامتها».

واختُلِف في مقدار ما يأخذ الزوج من المرأة في الفدية؛

فقال قوم: لا يجوز له أن يزيد على المهر الذي أعطاها.

وقال آخرون: مباحٌ له أن يأخذ ما يشاء من قليل أو كثير.

وقال غيرهم: الآية منسوخة.

ورَجَّح ابنُ جرير (٤/١٦٢) القولَ الثاني فقال: «لأنّ الله -تعالى ذِكْرُه- لم يَخُصَّ ما أباح لهما من ذلك على حَدٍّ لا يُجاوَز، بل أطلق ذلك في كلِّ ما افتدت به، غير أنِّي أختارُ للرجل استحبابًا لا تحتيمًا إذا تَبَيَّنَ من امرأته أنّ افتداءها منه لغير معصية لله، بل خوفًا منها على دينها أن يفارقها بغير فدية، ولا جُعْل، فإن شَحَّت نفسُه بذلك فلا يبلغ بما يأخذ منها جميع ما آتاها».

وقال مُبَيِّنًا (٤/١٥٧) حُجَّةَ القائلين بهذا القول: «واحتجوا لقولهم ذلك بعموم الآية، وأنّه غير جائز إحالةُ ظاهرٍ عامٍّ إلى باطن خاصٍّ إلا بحُجَّةٍ يجب التسليم لها، قالوا: ولا حُجَّة يجب التسليمُ لها بأنّ الآية مرادٌ بها بعضُ الفِدْيَة دون بعضٍ من أصلٍ، أو قياس؛ فهي على ظاهرها وعمومها».

(354) قرأ بها أبو جعفر، ويعقوب، وحمزةُ.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: 156).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 135).

(355) قرأ بها الباقون.

تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ.

أي: إنَّ ما تقدَّم من الأحكام التي شرَعها الله تعالى لعباده، فعرَّفها لهم، وبيَّنها، قد أمرهم سبحانه بالوقوف عندها، وعدم تجاوزها إلى نواهيه، فإنَّ مَن تخطَّى أمره ووقع في نهيه، فإنَّه هو الظالِمُ حقيقةً؛ إذ فَعَل ما لا ينبغي له فعلُه، وتعامل مع أوامر الله عزَّ وجلَّ بما لا تستحقُّه.

فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (230).

فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ.

أي: إذا طلَّق الرَّجُل امرأتَه الطلقة الثالثة، فإنَّها تحرُم عليه، وليس في مقدوره إرجاعُها، إلَّا أنَّها لو تزوَّجت بآخر، بعقدِ نكاحٍ صحيح، وجامعها الزوج الثاني، وكان هذا الزواج واقعًا عن رغبةٍ حقيقية، لا بقصد تحليل المرأة إلى زوجها الأوَّل، فلو طلَّقها زوجُها الثاني وانقضَتْ عِدَّتها،

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: 156).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 135).

فلا حرجَ حينئذٍ أن يُنشِئَا– الزَّوج الأوَّل والمرأة– عَقْدَ نِكاحٍ جديدًا بينهما، شريطةَ أن يُوقِنا أو يغلب على ظنِّهما أن يتعاشرَا بالمعروف، وأن يقوم كلٌّ منهما بحقوق الآخَر كما ينبغي.(356)

عن عائشة رضي الله عنها: ((أنَّ رِفاعَةَ القُرَظِيَّ طلَّق امرأتَه فبَتَّ طلاقَها، فتزوَّجها بعدَه عبدُ الرحمنِ بنُ الزَّبِيرِ، فجاءتِ النبيَّ – ﷺ – فقالتْ: يا رسولَ اللهِ، إنها كانتْ عِندَ رِفاعَةَ فطلَّقها آخرَ ثلاثَ تطليقاتٍ، فتزوَّجها بعدَه عبدُ الرحمنِ بنُ الزَّبِيرِ، وإنَّه واللهِ ما معَه يا رسولَ اللهِ إلَّا مثلُ هذه

---

(356) اختُلِف في دلالة هذه الآية؛

فقال قوم: إنّه إن طلَّق امرأتَه التطْلِيقةَ الثالثةَ فلا تَحِلُّ له إلا بعد نكاحها زوجًا غيره.

وذكر آخرون: أنّها بيانُ ما يلزم مُسَرِّح امرأتِه بعد التطليقتين.

والتَّسْرِيحُ: هو الطلقة الثالثة.

ورجَّح ابنُ جرير (٤/١٦٨) القولَ الثانيَ فقال: «والذي قاله مجاهد في ذلك عندنا أوْلى بالصواب؛ لِلَّذِي ذَكَرْنا عن رسول الله ﷺ في الخبر الذي رويناه عنه أنّه قال –أو سئل فقيل:– هذا قول الله –تعالى ذكره–: ﴿الطلاق مرتان﴾، فأين الثالثة؟ قال: «فإمساك بمعروف، أو تسريح بإحسان»».

فأخبر ﷺ أنّ الثالثة إنما هي قوله: ﴿أو تسريح بإحسان﴾، فإذا كان التسريح بالإحسان هو الثالثة فمعلومٌ أنّ قوله: ﴿فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره﴾ من الدلالة على التطليقة الثالثة بمَعْزِل، وأنه إنّما هو بيانٌ عن الذي يَحِلُّ لِلْمُسَرِّحِ بالإحسان إن سَرَّح زوجتَه بعد التطليقتين، والذي يحرم عليه منها، والحال التي يجوز له نكاحها فيها، وإعلام عباده أنّ بعد التسريح على ما وصفتُ لا رجعة للرجل على امرأته».

وعلَّق ابنُ عطية (١/٥٦٦) بعد ذكره لكِلا القولين بقوله: «وقوله تعالى: ﴿أَوْ تَسْرِيحٌ﴾ يحتمل الوجهين: إمّا تركُها تُتِمُّ العِدَّة، وإمّا إرداف الثالثة. ثُمَّ بَيَّن في هذه الآية حكمَ الاحتمال الواحد؛ إذ الاحتمال الثاني قد عُلِم منه أنّه لا حُكْمَ له عليها بعد انقضاء العِدَّة».

وذكر ابنُ عطية (١/٥٦٧) أن العلماء على أنّ النكاح المُحِلّ إنما هو الدخول والوطء، وأن كلهم على أن مغيب الحشفة يُحِلّ، إلا الحسن بن أبي الحسن فإنه قال: لا يحل إلا الإنزال، وهو ذوق العسيلة، وبيَّن أن بعض الفقهاء قال: التقاء الختانين يُحِل.

ثم علَّق بقوله: «والمعنى واحد، إذْ لا يلتقي الختانان إلا مع المغيب الذي عليه الجمهور».

الهُدبَة،[357] لهُدبَةٍ أخذَتْها من جلبابِها، قال: وأبو بكرٍ جالسٌ عِندَ النبيِّ – ﷺ –، وابنُ سعيدِ بنِ العاصِ جالسٌ ببابِ الحُجرةِ ليُؤذَنَ له، فطَفِقَ خالدٌ يُنادي أبا بكرٍ: يا أبا بكرٍ، ألا تزجُرُ هذه عمَّا تجهَرُ به عِندَ رسولِ اللهِ – ﷺ –؟ وما يَزيدُ رسولُ الله – ﷺ – على التَبسُّمِ، ثم قال: لعلكِ تُريدينَ أن تَرجِعي إلى رِفاعَةَ، لا، حتى تَذوقي عُسَيلَتَهُ ويَذوقَ عُسَيلَتَكِ)).[358]

وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ.

لَمَّا بيَّن الله عزَّ وجلَّ تلك الأحكام العظيمة، أشار إلى أنَّها من جُملة شرائعه التي يُوضِّحها توضيحًا كاملًا لمَن كان العلم سجيَّتَهم؛ إذ يملكون الاستعدادَ لفَهمه وقَبوله، فيفهمون الأحكام فهمًا صحيحًا يقودُهم للعمل بها كما ينبغي دون تحيُّل، فينتفعون بها وينفعون غيرهم.

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (231).

---

(357) الهُدْبة: طرَف الثَّوب ممَّا يلي طُرَّتَه، وأرادتْ بقولها: ((ما معه مِثلُ هُدبة الثَّوب)) مَتاعَه – أي: ذَكَره– وأنَّه رخوٌ مثل طرَف الثَّوب، لا يُغني عنها شيئًا.

ينظر: ((النهاية)) لابن الأثير (249/5).

(358) رواه البخاري (6084) واللفظ له، ومسلم (1433).

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾.

أي: إذا طلَّقتم- أيُّها الرِّجال- نِساءَكم، طلاقًا لكم عليهنَّ فيه رجعةٌ- وذلك في التطليقة الواحدة، والتطليقتين- فقارَبْنَ انقضاء عدتهنَّ، وأشرفْنَ على بلوغ أجلهن، فإما أن ترجعوهنَّ إلى عصمة النكاح بإشهادٍ على الرَّجعة، والتزامٍ بحُسن الصُّحبة، وطِيب العِشرة بما يتعارف عليه النَّاس، دون إخلالٍ بمأمور، أو وقوعٍ في محظور، أو اتركوهنَّ يَقضين تمام عدتهنَّ، ثم فارِقوهنَّ وأوفوهنَّ تمام حقوقهنَّ عليكم من مهرٍ ومتعةٍ ونفقةٍ، وغير ذلك، من غير مخاصمةٍ، ولا شقاقٍ، ولا إضرار.

﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾.

أي: لا يكُن إرجاعُكم لنسائكم مع قُرب انقضاء عِدَّتهن لأجْل المضارَّة بهنَّ؛ لئلَّا يتزوَّجْنَ بغيركم، أو لتطوِّلوا عليهنَّ مدَّة العِدَّة، أو لدفعها إلى ابتغاء طلب الخُلع منكم؛ كي تنالوا منهنَّ فدية في سبيل الخَلاص منكم، فكلُّ ذلك تجاوزٌ لما أمر الله تعالى به من إمساكهنَّ بمعروفٍ أو مفارقتهنَّ بإحسان، ومَن يَقُمْ بتلك الاعتداءات، فالضررُ عائدٌ عليه حقًّا، فبذلك يُكسب نفسه آثامًا، ويستحقُّ عقاب الله تعالى.

وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللهِ هُزُوًا.

أي: لا تجعلوا ما أنزل اللهُ تعالى لكم في كتابه، من تلك الأحكام العِظام، في موضع السُّخرية والاستهزاء واللَّعب بها، بحيث تتركون العمل بها تجرُّؤًا واستخفافًا؛ فالله تعالى لم يُنزلها عبثًا، بل أنزلها بالحقِّ والصِّدق؛ لأجْل العمل على وَفْقها.

وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ.

أي: اذكروا نِعَم الله تعالى التي لا تُعَدُّ ولا تُحصَى عليكم، ومن ذلك نِعمة الإسلام وما يَحويه من أحكامٍ عِظام، فيها ما يدعو الزَّوجين لتجديد الوئام، أو المفارقة الحَسَنة بعد تعذُّر الالتئام، فاذكروه سبحانه باللِّسان حمدًا وشكرًا، وبالقلب اعترافًا وتفكُّرًا، وبالجوارح سعيًا وعملًا، ومن تلك النِّعم ما أنزله الله تعالى من الوحي إلى نبيِّه محمَّدٍ - ﷺ -، وهذا يَشمل كتابَ الله عزَّ وجلَّ، وسُنَّةَ رسوله عليه الصَّلاة والسلام المشتملة على الحِكمة، ومن ذلك ما فيها من ترغيبٍ وترهيب، والله تعالى يُذكِّركم ويَنصحُكم بما أنزله، إمَّا ترغيبًا بما يُليِّن قلوبَكم للخير، وإمَّا ترهيبًا بما يحذِّركم ويزجركم عن الشرِّ.

وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ.

أي: اتَّقوا الله عزَّ وجلَّ في جميع أموركم، بفعل أوامره واجتناب نواهيه، فالتزموا بأحكامه، ولا تتجاوزوا حدوده، وليكن معلومًا لديكم علمًا يقينيًّا أنَّ الله تعالى محيطٌ بكل شيء علمًا، لا يخفى عليه شيءٌ مطلقًا، فيعلم ما تأتون وما تذرون، ويُجازيكم على ذلك بحسَبه، إنْ خيرًا فخير، وإنْ شرًّا فشر.

ومِن كمال عِلمِه سبحانه أيضًا أنْ شرَع تلك الأحكامَ التي هي في غاية الإحكام، وصالحة في كلِّ زمان ومكان.

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (232).

سبب النُّزول:

عن الحسن البصريِّ، أنَّه قال في قوله سبحانه: فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ: حدَّثني مَعقِل بن يَسَار أنَّها نزلت فيه، قال: ((زوَّجت أختًا لي من رجل فطلَّقها، حتى إذا انقضت عِدَّتها جاء يخطُبها، فقلت له: زوَّجتُك وفرشتُك وأكرمتُك، فطلقتهَا، ثم جئتَ تخطبها، لا واللهِ لا تعود إليك أبدًا، وكان رجلًا لا بأس به، وكانت المرأة تُريد أن ترجِع إليه، فأنزل الله هذه الآية: فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ فقلت: الآن أفعل يا رسول الله، قال: فزوَّجها إيَّاه)).[359]

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ.

---

(359) رواه البخاري (5130).

أي: وإذا طلَّق الرِّجال نساءَهم طلاقًا يمكن إرجاع الواحدة منهن فيه- وذلك في التطليقة الواحدة، والتطليقتين- فقاربْت عِدَّتُها على الانقضاء، وأراد الزوج إرجاعها، ورضيتْ هي بذلك، فحينئذٍ لا يجوزُ لوليّها- ما دام قد وقَع بينهما التراضي على المعاشرة الحَسَنة، من غير وقوع منكرٍ شرعًا وعُرفًا- أن يُضيّق عليها بمَنْعها من التزوُّج به؛ غضبًا ونفورًا منه؛ لتطليقِه لها.[360]

---

(360) علَّق ابنُ جرير على هذا المفهوم، فقال ٤/١٩٣: «وفي هذه الآية الدلالة الواضحة على صحة قول من قال: لا نكاح إلا بوليٍّ من العَصَبَة، وذلك أنّ الله -تعالى ذكره- مَنَعَ الوَلِيَّ مِن عَضْلِ المرأة إن أرادت النكاح، ونهاه عن ذلك، فلو كان للمرأة إنكاحُ نفسها بغير إنكاح وليّها إيّاها، أو كان لها تولية مَن أرادت توليته في إنكاحها؛ لم يكن لنهي وليها عن عضلها معنًى مفهوم ...».

واختُلِف فيمن نزلت هذه الآية؛ فقال قوم:

نزلت في معقل بن يسار.

وقال آخرون: نزلت في جابر بن عبد الله الأنصاري.

وقال غيرهم: نزلت هذه الآية دلالة على نهي الرجل عن مضارة وليَّته من النساء، يعضلها عن النكاح.

ورجَّح ابنُ جرير (٤/١٩٣) القول الثالث مستندًا إلى أقوال السلف، فقال: «والصواب من القول في هذه الآية أن يُقال: إنّ الله -تعالى ذكره- أنزلها دلالةً على تحريمه على أولياء النّساء مضارةَ مَن كانوا له أولياء من النساء بِعَضْلِهِنَّ عَمَّن أرَدْنَ نكاحَه من أزواجٍ كانوا لَهُنَّ، فَبَيَّنَ منهم بما تَبِينُ به المرأةُ من زوجها من طلاق أو فَسْخِ نكاح».

ثُمَّ بَيَّن جواز كلا القولين الأخريين، فقال: «وقد يجوز أن تكون نزلت في أمر معقل بن يسار وأمر أخته، أو في أمر جابر بن عبد الله وأمر ابنة عمه، وأي ذلك كان فالآية دالَّةٌ على ما ذكرت».

وذكر ابنُ كثير (٢/٣٧١) أنّ هذا القول ظاهرٌ من الآية، فقال: «وهذا الذي قالوه ظاهرٌ من الآية».

ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ.

أي: إنَّ نهي الأولياءِ عن عَضْلهنَّ في تلك الحال، إنَّما يُوجَّه إلى مَن يَلين قلبه بالذِّكرى، ويخاف منزجرًا عن الوقوع في الحرام، وهم الذين يؤمنون بالله تعالى وبالدار الآخرة؛ لأنَّ الإيمان بهما يُحقِّقُ خشية الله تعالى، وخوف الحساب والجزاء، فهؤلاء هم الذين ينتفعون حقًّا بتلك الموعظة.

ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ.

أي: اتِّباعُكم– يا أولياءَ النِّساءِ– شَرْعَ الله عزَّ وجلَّ في رَدِّهنَّ إلى أزواجهنَّ، وتَرْك عضلهنَّ، خيرٌ لكم وأفضلُ عند الله تعالى، وأطيبُ لنفوسكم، وأطهرُ لقلوبكم من الذُّنوب، ومن العداوات، ومن حصول الرِّيبة، وأطهرُ لعِرْضكم كذلك؛ لأنَّه إذا كان بين الزَّوجين حبٌّ ومودَّة، فقد يَتجاوزانِ ذلك إلى الوقوع في الحرام، وقد يَرتاب فيهما وليُّها وهُما بَريئانِ من ذلك.

وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ.

أي: فلا تستغربوا أنْ أمركم الله عزَّ وجلَّ بخلاف ما جرت به عادتُكم من عضلهنَّ، بل امتثلوا أمْر مَن هو عالِمٌ بمصالحكم وما فيه خيركم ونقاؤكم وطُهركم في الدُّنيا والآخِرة، وذلك في كل ما يأمركم به وينهاكم عنه، أمَّا أنتم– أيُّها العبادُ– فلا تعلمون أين الخِيَرة فيما تأتون وتتركون، إلَّا ما علَّمكم الله تعالى.

سُورةُ البَقَرَة

الآيات (233–242)

وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (233) وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (234) وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (235)

لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ (236)

وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (237)

حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ (238)

فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (239)

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (240)

وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (241)

كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (242)

غريب الكلمات:

حَوْلَيْنِ: مثنَّى حَوْل، وهو العام، وأصله: تحرُّك في دَور، وقيل للعام: حولٌ؛ لأنَّه يَحولُ، أي: يدور.

وُسْعَهَا: أي: طاقتها، وقُدرتها.

فِصَالًا: فطامًا، وهو التَّفريق بين الصَّبيِّ والرَّضاع؛ يقال: فَصَلتُ الصبيَّ؛ إذا فطمته، ومنه قِيل لولد الناقة إذا قُطِع عن الرَّضاع: فصيل؛ لأنه فُصِل عن أمِّه. وأصل الفَصْل: التفريق، وإبانةُ أحدِ الشَّيئين من الآخَر حتى يكون بينهما فُرجة.

عَرَّضْتُمْ: التَّعْرِيضُ: الإيماءُ والتَّلويح، من غير كَشْفٍ ولا تصريح.

أَكْنَنْتُمْ: سترتُم، وأَضْمَرتُم، مِن أكننتُ الشيء، أي: سترتُه وصُنته.

تَعْزِمُوا: أي: تُوَاقِعوا وتُمضوا، مِن العَزْم والعَزيمة: وهو عقْد القلْب على إمضاء الأمْر.

عُقْدَةَ: اسم لِمَا يُعقد من نِكاح أو يمين أو غيرهما، وعقْدة كلِّ أمْر: إيجابه وتوثيقه. وأصلُه: الشَّدُّ، وشِدَّة الوثوق.

قَانِتِينَ: مُداومين على الطاعة، والقنوت: دوام الطَّاعة، ولزومها مع الخضوع؛ وأصل قنَت: يدلُّ على طاعةٍ وخيرٍ في دِين.

فَرِجَالًا: أي: مُشَاةً؛ جمْع رَاجِل، اشتُقَّ من الرِّجْل للماشي برِجْله.

تفسير الآيات:

وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (233).

وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ.

أي: أَرْشدَ اللهُ عزَّ وجلَّ الوالدات المطلَّقاتِ إلى أن يرضعنَ أولادهنَّ؛ ذكورًا كانوا أو إناثًا، مدَّة سنتيْنِ تامَّتيْن، إنْ كان كلٌّ من الأب والأم، أو أحدهما يَنشُد كمالَ الرَّضاعة.[361]

---

(361) اختلف أهل التفسير في الذي دلَّت عليه هذه الآيةُ مِن مبلغ غايةِ رضاع المولودِين؛
فقال بعضهم: هو حدٌّ لبعضٍ دون بعض.
وقال آخرون: بل ذلك حدُّ رضاع مَن اختلف والداه في رضاعه، فأراد أحدُهما البلوغَ إليه والآخرُ التقصيرَ عنه.
وقال غيرهم: بل ذلك دلالة على ألّا رضاع بعد الحولين.
وذهب قومٌ إلى أنّ الحولين كانا بهذه الآية فرضًا خُفِّف بقوله: ﴿لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾، فجُعِل الخيارُ في ذلك للآباء.
وجَمَع ابنُ جرير (٤/٢٠٦–٢٠٨) بين مختلف الأقوال دون الأخير المرويِّ عن قتادة، والربيع، مستندًا للدلالة العقلية في ظاهر القرآن، فقال: «فأمّا قولُنا: إنّه دلالةٌ على الغاية التي ينتهي إليها في الرضاع عند اختلاف الوالدين فيه فلِأنَّ الله –تعالى ذِكْرُه– لَمّا حَدَّ في ذلك حَدًّا كان غيرَ جائز أن يكون ما وراء حَدِّه موافقًا في الحكم ما دونه؛ لأنّ ذلك لو كان كذلك لم يكن للحدِّ معنًى معقول، وإذا كان ذلك كذلك فلا شكَّ أنّ الذي هو دون الحولين مِن الأجل لما كان وقتَ رضاع كان ما وراءه

وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا.

أي: على الوالدِ أن يدفعَ لأُمِّ أولاده ما يَقوتُها من الطَّعام، وما يكسوها من الملبسِ بما يجب لمثلِها على مِثله، ومن غير إسرافٍ أو إقتار، والله تعالى يعلم الغنيَّ والفقير ومُتوسِّط الحال من خلقِه، ولا يُوجِب على الرِّجال من النفقة إلَّا ما أطاقوه ووجدوا إليه سبيلًا.

قال تعالى: فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللهُ لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا [الطلاق: 6–7].

لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا.

أي: يحرُمُ على الأُمِّ الإضرار بالأب، كأنْ تأبى إرْضاعَ مولودها، أو تطلُبَ أكثرَ من أجرِ مِثلِها، ولا يَحِلُّ للأب أيضًا الإضرارُ بالأُمِّ، كأنْ يَنزِعَ الولدَ من أمِّه، مع رغبتِها في إرضاعه.

غير وقت له، وأنّه وقتٌ لترك الرضاع، وأنّ تمام الرضاع لما كان تمام الحولين، وكان التّامَّ من الأشياء لا معنى للزيادة فيه، كان لا معنى للزيادة في الرضاع على الحولين، وأنّ ما دون الحولين من الرضاع لما كان محرمًا كان ما وراءه غير محرم. وإنّما قُلنا هو دلالةٌ على أنّه معنيٌّ به كلُّ مولود لأيِّ وقت كان ولاده؛ لستة أشهر، أو سبعة، أو تسعة؛ لأنّ الله –تعالى ذِكْرُه– عَمَّ بقوله: ﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين﴾، ولم يُخَصِّص به بعضَ المولودين دونَ بعض».

القراءات ذات الأثر في التفسير:

في قوله تعالى: لَا تُضَارَّ قراءتان:

1- لَا تُضَارُّ على أنَّها خبرٌ يُفيد النهيَ المتقرِّر، وهو أبلغُ من مجرَّد النهي.(362)

2- لَا تُضَارَّ أي على أنَّها نهي.(363)

وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ.

أي: ويحرُمُ على الأب أيضًا الإضرارُ بالأُمِّ، كأنْ ينزِعَ الولدَ من أمِّه، مع رغبتها في إرضاعه، ولا يَحِلُّ للأمِّ أيضًا الإضرارُ بالأب، كأنْ تأبى إرْضاعَ مولودها، أو تطلُبَ أكثرَ من أجْرِ مِثلِها.(364)

---

(362) قرأ بها ابنُ كثير، وأبو عمرو، ويعقوب.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (227/2).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (205/1)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 136)، ((الكشف)) لمكي (296/1).

(363) قرأ بها الباقون لَا تُضَارَّ.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (227/2).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (205/1)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 136)، ((الكشف)) لمكي (296/1).

(364) ذكر المفسرون وجوهًا مختلفةً للإضرار، ووجَّه ابنُ عطية (١/٥٧٣) هذا الاختلافَ بقوله: «ووجوهُ الضَّرَرِ لا تنحصر، وكُلُّ ما ذكر منها في التفاسير فهو مثال».

وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ.

أي: إنَّ على وارث الطِّفل الذي مات أبوه، مِثلَ ما على الأبِ من النَّفقة والكُسوة لوالدته، وعدم الإضرار بها.(365)

---

(365) اختُلِف في الوارث الذي عُنِي بالآية، وأيُّ وارث هو؟ ووارث مَن هو؟.

ورَجَّح ابنُ جرير (٤/٢٣٣-٢٣٥ بتصرف) فقال: « قوله: ﴿وعلى الوارث مثل ذلك﴾ محتمِلًا ظاهرُه: وعلى وارث الصبي المولود مثل الذي كان على المولود له، ومحتمِلًا: وعلى وارث المولود له مثلُ الذي كان عليه في حياته من ترك ضرار الوالدة ومن نفقة المولود، وغير ذلك من التأويلات، وكان الجميع من الحُجَّة قد أجمعوا على أنّ مِن ورثة المولود مَن لا شيء عليه مِن نفقته وأجر رضاعه، وصحَّ بذلك من الدلالة على أنّ سائر ورثته غير آبائه وأمهاته وأجداده وجداته من قِبَل أبيه أو أُمِّه في حكمه في أنّهم لا يلزمُهم له نفقةٌ ولا أجرُ رضاعٍ، إذ كان مولى النعمة من ورثته، وهو ممن لا يلزمه له نفقة، ولا أجر رضاع؛ فوجب بإجماعهم على ذلك أنّ حُكْمَ سائر ورثته غيرُ من استثني حكمه، وكان إذا بطل أن يكون معنى ذلك ما وصفنا من أنّه معنيٌّ به ورثةُ المولود؛ فبُطُولُ القولِ الآخرِ -وهو أنه معنيٌّ به ورثةُ المولود له سوى المولود- أحرى؛ لأنّ الذي هو أقرب بالمولود قرابة مِمَّن هو أبعد منه إذا لم يصح وجوب نفقته وأجر رضاعه عليه، فالذي هو أبعدُ منه قرابةً أحرى أن لا يصِحَّ وجوبُ ذلك عليه».

ووجَّه ابنُ جرير معنى الآية على هذا القول، فقال: «وتأويل ذلك على ما تأوَّله هؤلاء: وعلى الوارث المولودِ مثلُ ما كان على المولودِ له».

واختُلِف في تأويل قوله: ﴿مثل ذلك﴾؛ فقال بعضهم: تفسيره: وعلى وارث الصبيِّ بعد وفاة أبويه مثلُ الذي كان على والده من أجر رضاعِه ونفقتِه، إذا لم يكن للمولود مالٌ.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: وعلى الوارث ألا يُضارَّ.

وقال غيرهم: بل تفسير ذلك: وعلى الوارث مثلُ ما ذَكَرَه اللهُ تعالى. وذهب قومٌ إلى أنّ معنى ذلك: وعلى وارثِ المولود مثلُ الذي كان على المولود له مِن رزق والدته وكسوتها بالمعروف.

ورَجَّح ابنُ جرير (٤/٢٣٣-٢٣٥) القولَ الأخيرَ مقرونًا بقيد كون الوالدة مِن أهل الحاجة، وإلا فمِثل الذي كان على والده لها مِن أجر رضاعه.

فأمّا مُسْتَنَدُ ترجيحه فقد سبق ذِكْرُه في الخلاف الوارد في الوارث، واستند في قيده هذا إلى الإجماع، فقال: «وأمّا الذي قُلْنا: مِن وجوب رزق الوالدة وكسوتِها بالمعروف على ولدها إذا كانت الوالدةُ بالصِّفة التي وصَفْنا على مثلِ الذي كان يجب لها من ذلك على المولود له؛ فمِمّا لا خلاف فيه من أهل العلم جميعًا، فصحَّ ما قُلْنا في الآية مِن التأويل بالنَّقل المستفيض وراثة عمَّن لا يجوز خلافُه، وما عدا ذلك من التأويلات فمُتَنازَعٌ فيه، وقد دَلَّلْنا على فساده».

فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا.

أي: إذا أراد والدُ المولودِ ووالدتُه فِطامَه عن الرَّضاعة، إذا رَأَيَا ذلك قبل انقضاء نهايةِ عامَيِ الرَّضاعة وبعد وقوع تَراضٍ منهما وتشاورٍ ونظَر؛ هل في ذلك مصلحةٌ لمولودهما أم لا– فلا حرجَ حينئذٍ في ذلك ولا إثم.(366)

وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ.

أي: إذا أردتم أن تطلُبوا لأولادكم مرضعاتٍ غيرَ أمهاتِهم، على غير قصْد الإضرار بهنَّ، وإنَّما لأسبابٍ تدعو لذلك، كأن تعترضَ الأمُّ على أجرة إرضاع ولدها، ويمتنع الرجلُ من دفْع ما تطلبه،

وعلَّق ابنُ عطية (١/٥٧٥) على الخلاف في هذه الآية، فقال: «فالإجماعُ مِن الأمة: ألا يضارَّ الوارِثُ. والخلاف: هل عليه رِزْقٌ وكسوة، أم لا؟».

(366) اختُلِف في وقت التشاور؛ فذهب قوم إلى: أنّه في الحولين.

وذهب آخرون إلى: كونه فيهما وبعدهما.

ورَجَّح ابنُ جرير (٤/٢٣٩) القولَ الأول فقال: «لأنّ تمام الحولين غايةٌ لتمام الرضاع وانقضائه، ولا تشاور بعد انقضائه؛ وإنما التشاور والتراضي قبل انقضاء نهايته».

وانتقد ابنُ جرير (٤/٢٣٩-٢٤٠) القولَ الثاني فقال: «فإن ظنَّ ذو غفلة أنّ للتشاور بعد انقضاء الحولين معنًى صحيحًا؛ إذ كان من الصبيان من تكون به عِلَّةٌ يحتاج من أجلها إلى تركه، والاغتذاء بلبن أمه، فإنّ ذلك إذا كان كذلك فإنّما هو علاج كالعلاج بشرب بعض الأدوية لا رضاع».

وعلَّق ابنُ عطية (١/٥٧٦) على هذا الخلاف، فقال: «وتحرير القول في هذا: أنّ فصله قبل الحولين لا يصح إلا بتراضيهما، وأن لا يكون على المولود ضرر، وأما بعد تمامهما فمَن دعا إلى الفصل فذلك له إلا أن يكون في ذلك على الصبيّ ضرر».

فتمتنع من إرضاعه، فلا حرجَ حينئذٍ ولا إثم على الوالدين في ذلك، إذا دفَع الوالد أجرةَ الرَّضاعة المتَّفقَ عليها للمرضعةِ فأوفاها حقَّها من غير نقصٍ ولا مماطلة.

وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ.

أي: امتثِلوا ما أمَرَكم الله تعالى به، واجتنِبوا ما نهاكم عنه، ومن ذلك تلك الحقوق المذكورة في الآيات السَّابقة المتعلِّقة بالأزواج وأولادهم؛ وليكن معلومًا لديكم، علمًا يقينيًّا أنَّ الله تعالى لا يَخفى عليه شيء، فهو يراكم وينظُر ماذا تعملون، فيحفظ أعمالَكم ويُجازيكم عليها؛ فلْيَحذَر العبدُ من أن يراه ربُّه ومولاه حيث نهاه، أو يفقده حيثُ أمره ووصَّاه.

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (234).

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا.

أي: إذا تُوفِّي الزَّوج، فيجبُ على زوجته أن تَعتدَّ من بعده، فتَمكُث حابسةً نفْسَها عن الزَّواج مُدَّةَ أربعة أشهر وعَشرةَ أيَّام.

فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ.

أي: إذا انقضت مدَّة عدَّة المرأة المتوفَّى عنها زوجها، فلا حرج على أوليائها فيما تفعله في نفسها من تزيُّن وتطيُّب ونِكاح حلال، وغير ذلك ممَّا أباحه الله تعالى لها.

وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ.

أي: إنَّ الله سبحانه وتعالى عالِمٌ ببواطنكم، ومطَّلعٌ على حقائق أعمالكم؛ فأقِيمُوا أحكامه ولا تخالفوها، فإنَّه مجازيكم عليها.[367]

وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (235).

---

(367) ذكَر ابنُ عطية (١/٥٧٧-٥٧٨) أن هذه الآية هي في عِدَّة المتوفى عنها زوجها، وظاهرها العموم ومعناها الخصوص في الحرائر غير الحوامل، وأنها لم تعن لما يشذ من مرتابة ونحوها.

ثم ذكر أنّ المهدويَّ حكى عن بعض العلماء أنّ الآية تناولت الحوامل، ثم نسخ ذلك بقوله: ﴿وأولات الأحمال﴾ [الطلاق:٤].

ذكر ابن عطية (١/٥٧٩) أن جمهور أهل العلم قالوا بدخول اليوم العاشر في العِدَّة لأن الأيام مع الليالي، وذكر أنّه حُكي عن منذر بن سعيد، والأوزاعي: أنّ اليوم العاشر ليس من العدة، بل انقضت بتمام عشر ليال.

وحكى عن المهدويِّ أنّه نقل قولًا بأنّ المعنى: وعشر مدد،كل مُدَّة من يوم وليلة. وبيَّن أنّه رُوي عن ابن عباس أنه قرأ: (أَرْبَعَةَ أشْهُرٍ وعَشْرَ لَيالٍ).

وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ.

أي: لا حرَج عليكم- أيُّها الرِّجالُ- أن تَذكُروا للنِّساء المعتدَّات من وفاة أزواجهنَّ في كلامِكم ما يُشير ويُلمِّح لهنَّ من غير تصريحٍ إلى الرغبة في الزواج بهنَّ، ولا حرجَ عليكم كذلك فيما انطوت عليه قلوبُكم أثناءَ عدَّتهنَّ، من عزم نكاحهنَّ.

عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا.

أي: عَلِمَ اللهُ أنَّكم يا مَعشَرَ الرِّجالِ ستَذكُرون هؤلاء النِّسوةَ المُعتَدَّاتِ بالخِطبةِ في أنفُسِكم وبألسِنَتِكم، ولكنَّه ينهاكم عن مُواعَدتِهنَّ سِرًّا في العِدَّةِ بأن تتزَوَّجوهنَّ بعدَ العِدَّةِ،(368) إلَّا أن تُلَمِّحوا إليهنَّ برَغبتِكم في الزَّواجِ بهنَّ مُعَرِّضينَ؛ فلا حَرَجَ عليكم في ذلك.

---

(368) اختُلِف في معنى السر؛
فقال قوم: هو الزِّنا.
وقال آخرون: بل معناه: لا تنكحوهنَّ في عِدَّتهن سِرًّا.
وقال غيرهم: بل معناه: لا تأخذوا ميثاقهنَّ ألا ينكحن غيركم في عددِهِنَّ.
وذهب قومٌ إلى أنّ المعنى: أن يقول لها الرجل: لا تسبقيني بنفسك.
ورَجَّح ابنُ جرير (٤/٢٧٨-٢٧٩) القولَ الأول فقال: "وذلك أنّ العرب تُسَمِّي الجماعَ وغشيانَ الرجلِ المرأةَ: سِرًّا. لأنّ ذلك مما يكون بين الرجال والنساء في خفاء غير ظاهر مُطَّلَعٍ عليه، فسُمِّي لخفائه: سِرًّا. من ذلك قول رؤبة بن العجاج: فعَفَّ عن أسرارها بعد العسق ولم يضعها بين فرك وعشق يعني بذلك: عَفَّ عن غشيانها بعد طول ملازمته ذلك".
وانتَقَدَه ابنُ عطية (١/٥٨٢ بتصرف) مستندًا إلى اللغة، فقال: "وفي ذلك عندي نظر، وذلك أنّ السِّرَّ في اللغة يقع على الوَطْءِ حلالِه وحرامِه، لكن معنى الكلام وقرينته تَرُدُّ إلى أحد الوجهين، فمن الشواهد قولُ الحُطَيْئَة: ويحرم سِرُّ جارتهم عليهم ويأكل جارُهم أنف القصاع فقرينة هذا البيت تُعْطِي أنّ السِّرَّ أراد به: الوطء حرامًا، وإلا فلو تزوجت الجارة كما يحسن لم يكن في

وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ.

أي: لا تقوموا بإجراء عقد النِّكاح على المعتدَّات حتى تنتهي عِدَّتهنَّ.

وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ.

أي: ليكن معلومًا لديكم أنَّ الله عزَّ وجلَّ يعلم ما في أنفسكم من هواهنَّ، والرغبة في نكاحهنَّ، وغير ذلك، فكونوا على حيطةٍ من أن تخالفوا أحكامه في ذلك؛ فإنَّه مطَّلعٌ على ما في نفوسكم فلا تُضمِروا فيها نيَّة مخالفة لأمره تعالى، خوفًا من عقابه ورجاءً لثوابه.

وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ.

أي: وليكن معلومًا لديكم كذلك بأنَّكم إن أضمرتم في أنفسكم ما لا يرضاه سبحانه فلا تيئسوا ولا تقنطوا، فإنَّ لديكم طريقًا لتصحيحِ الأمر، وهو طلب المغفرة منه سبحانه، فهو الذي يستر ذنوبَ عباده ويتجاوز عنها، ولا يعاجل عبادَه بالعقوبات على ذُنوبهم مع قدرته على ذلك، بل يمهلهم جلَّ وعلا.

ذلك عارٌ، فقرينة هذا الشعر تعطي أنّه أراد تحريم جماع النساء عمومًا في حرام وحلال حتى ينال ثأره، والآية تعطي النهي عن أن يواعد الرجل المعتدة أن يطأها بعد العدة بوجه التزويج، وأما المواعدة في الزِّنا فمُحَرَّمٌ على المسلم مع مُعْتَدَّةٍ وغيرها.

وأما ابنُ كثير (٢/٣٨٤) فقد ذهب إلى أنّ الآية تَعُمُّ جميعَ ما ذُكِر، مستندًا إلى القرآن، فقال بعد ذِكْرِه لما ورد من أقوال: «وقد يحتمل أن تكون الآيةُ عامَّةً في جميع ذلك؛ ولهذا قال: ﴿إلا أن تقولوا قولا معروفا﴾».

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ (236)﴾.

لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً.

أي: لا حرجَ عليكم في طلاقِكم النساءَ بعد العقدِ عليهنَّ، وقبل أن تُجامعوهنَّ، وقبل أن تُوجِبوا لهنَّ مهرًا محدَّدًا.[369]

لَمَّا كان في طلاقهنَّ قبل جِماعهنَّ، وقبلَ فرْض المهرِ لهنَّ، انكسارٌ لقلوبهنَّ، أمر الله تعالى أزواجهنَّ بتعويضهنَّ بشيءٍ يجبُر خواطرَهنَّ، فقال تعالى:

---

(369) ذكر ابنُ عطية (١/٥٨٩) أقوالًا في معنى قوله: ﴿لا جناح عليكم﴾:

الأول: أن المعنى: لا طلب بجميع المهر، بل عليكم نصف المفروض لمن فرض لها، والمتعة لمن لم يفرض لها.

الثاني: لا جناح عليكم في أن ترسلوا الطلاق في وقت حيض بخلاف المدخول بها.

الثالث: لا جناح عليكم في الطلاق قبل البناء؛ لأنه قد يقع الجناح على المطلق بعد أن كان قاصدًا للذَّوْق، وذلك مأمون قبل المسيس. ونسبه لمكِّي.

وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ.

أي: أَعطوهنَّ- أيُّها الأزواجُ- ما يَتمتعْنَ به من أموالِكم، كلٌّ بحسَب قُدرته وأحوالِه غِنًى أو فقرًا، وبحسَب ما يتعارَف عليه الناس، من غيرِ أن تَظلموهنَّ، وجَعَل الله تعالى هذا الأمرَ أكثرَ تأكيدًا على المتَّصفين بالإحسان إلى أنفسهم وإلى الآخَرين.(370)

وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (237).

---

(370) اختُلِف في مقدار المُتْعَة؛ فقال قومٌ: هو على قدر عُسْرِ الزوج ويُسْرِه.
وقال آخرون: هو قدر نِصْفِ صَداق مِثْلِ المرأةِ المنكوحة بغير صَداقٍ مُسَمًّى في عَقْدِه.
ورَجَّح ابنُ جرير (٤/٢٩٣-٢٩٤) القولَ الأولَ فقال: «والصواب من القول في ذلك ما قاله ابنُ عباس مِن أنّ الواجب مِن ذلك للمرأة المطلقة على الرجل على قدر عُسْرِه ويُسْرِه، كما قال الله -تعالى ذِكْرُه-: ﴿على الموسع قدره وعلى المقتر قدره﴾، لا على قَدْرِ المرأة. ولو كان ذلك واجبًا للمرأة على قدر صَداقِ مِثْلِها إلى قدر نصفه لم يكن لقيله -تعالى ذكره-: ﴿على الموسع قدره وعلى المقتر قدره﴾ معنًى مفهومٌ، ولَكان الكلامُ: ومتعوهن على قدرهن وقدر نصف صداق أمثالهن. وفي إعلام الله -تعالى ذكره- عبادَه أنّ ذلك على قدر الرجل في عسره ويسره، لا على قدرها وقدر نصف صداق مثلها؛ ما يُبِينُ عن صِحَّةِ ما قلنا وفسادِ ما خالفه. وذلك أنّ المرأة قد يكون صداق مثلها المالَ العظيم، والرجل في حال طلاقه إيّاها مُقْتِرٌ لا يملك شيئًا، فإن قُضِي عليه بقدر نصف صداق مثلها أُلْزِم ما يعجز عنه بعضُ مَن قد وُسِّع عليه، فكيف المقدور عليه؟ وإذا فُعِل ذلك به كان الحاكمُ بذلك عليه قد تَعَدّى حُكْمَ قولِ الله -تعالى ذكره-: ﴿على الموسع قدره وعلى المقتر قدره﴾. ولكن ذلك على قَدرِ عُسْر الرجل ويُسْرِه، لا يجاوز بذلك خادم أو قيمتها إن كان الزوج موسِعًا، وإن كان مُقْتِرًا فأطاق أدنى ما يكون كسوة لها -وذلك ثلاثة أثواب ونحو ذلك- قُضِي عليه بذلك، وإن كان عاجزًا عن ذلك فعلى قدر طاقته، وذلك على قدر اجتهاد الإمام العادل عند الخصومة إليه فيه».
وذَهَب ابنُ عطيَّة (١/٥٩٢) إلى أنّ قوله تعالى: ﴿على الموسع قدره وعلى المقتر قدره﴾ دليلٌ على رفض التحديد.

وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ.

أي: لا حرجَ ولا إثمَ عليكم- أيُّها النَّاس- إنْ طلَّقتمُ النِّساء قَبلَ جماعِهنَّ وقَدْ قدَّرتُم لهنَّ مهرًا، ولهنَّ في هذه الحالِ نِصفُ هذا المهر.

إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى.

أي: للنِّساءِ نِصفُ المهر في تلك الحال، إلَّا إذا عفونَ عنه لأزواجِهنَّ، فيكون لهم المهر كاملًا، (وذلك إنْ كُنَّ ممن يصحُّ عفوهنَّ) أو أنْ يعفوَ أزواجُهنَّ عن نِصف المهرِ الآخَر لِنسائهم، فيكون لهنَّ المهرُ كاملًا، ورغَّب الله تعالى كلًّا من الأزواج والزَّوجات في العفو، بأنَّ مَن يعفو أقربُ للتقوى من الآخَر؛ لأنَّ مَن يعفو قد آثَر فِعل ما ندَبه الله تعالى إليه على هوى نَفْسِه، فهو لِمَا أوجبه الله عزَّ وجلَّ عليه أشدُّ امتثالًا، ولِمَا نَهاه أشد تجنُّبًا، وذلك هو القُرب من التَّقوى التي تَعني فِعلَ المأمور، واجتنابَ المحظور.(371)

(371) اختُلِف فيمن بيده عقدة النكاح؛ فقال قوم: هو وليُّ البِكْر.

وقال آخرون: هو الزوج.

ورجَّح ابنُ جرير (٤/٣٣٢-٣٣٥) القول الثاني مستندًا إلى الدلالات العقلية، والنظائر بما مفاده:

١- أنّ الولي لا يجوز له تركُ شيء من صَداقها قبل الطلاق؛ فلا يجوز له بعده إجماعًا. ٢- لا يجوز للولي بالإجماعِ تركُ شيء من مالها الذي ليس من الصَّداق، فكيف يترك نصفَه وهو من مالها أيضًا.

٣- إذا كان الوليُّ هو المقصود فما الذي يخصص بعض الأولياء دون بعض، وكلهم بيده عقدة النكاح، والله لم يخصص بعضًا دون بعض، ومَن خصَّص أحدًا سُئِل البرهان عليه. ثم رَدَّ على من قد يظن أن الزوج إذا فارق الزوجة فقد بطل أن يكون بيده عقده نكاحها، والله تعالى إنما أجاز العفوَ لمن بيده عقدة نكاح المطلقة.

وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ.

أي: لا ينبغي أن يترك الزوجانِ الإحسانَ إلى بعضِهم البعض، بإعطاءِ أحدهما للآخَر زيادةً على الحقِّ الواجب له، وذلك بالعفوِ والتسامُحِ عن بقيَّة المهر، فإنَّ الله تعالى يرى كلَّ عمل يصدُر من الناس، فمَن عفا فله أجره، والله تعالى يحفظ عملَه، ويُجازيه على إحسانه بفضله.

حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ (238).

وأمّا ابنُ عطية (٥٩٦/١) فقد أورد أدلةَ كُلِّ فريق دون أن يُصَرِّح بترجيح قولٍ على آخر، لكنه انتَقَدَ بعضَ أدلة القائلين بكونه الولي، فقال: «ويحتج مَن يقول: إنّه الوليُّ الحاجرُ. بعبارة الآية؛ لأنّ قوله: ﴿أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح﴾ عبارةٌ متمكنة في الولي، وهي في الزوج قَلِقة بعض القلق. وليس الأمر في ذلك كما قال الطبري ومكيّ مِن أن المُطَلِّق لا عقدة بيده، بل نسبة العقدة إليه باقيةٌ مِن حيث كان عقدها قبل. وأيضًا فإن قوله: ﴿إلا أن يعفون﴾ لا تدخل فيه من لا تملك أمرَها؛ لأنها لا عفوَ لها، فكذلك لا يغبن النساء بعفو من يملك أمر التي لا تملك أمرها. وأيضًا فإنّ الآية إنما هي ندبٌ إلى ترك شيء قد وجب في مال الزوج، يعطي ذلك لفظُ العَفْوِ الذي هو التَّرْكُ والاِطِّراحُ، وإعطاءُ الزوجِ المهرَ كاملًا لا يُقال فيه: عفو، إنما هو انتدابٌ إلى فَضْلٍ، اللَّهُمَّ إلا أن تُقَدَّرَ المرأةُ قد قَبضته، وهذا إطارٌ لا يُعْتَدُّ به. قال مكيٌّ: وأيضًا فقد ذكر اللهُ الأزواج في قوله: ﴿فنصف ما فرضتم﴾، ثُمَّ ذكر الزوجات بقوله: ﴿يعفون﴾، فكيف يُعَبَّر عن الأزواج بعدُ بـ﴿الذي بيده عقدة النكاح﴾، بل هي درجة ثالثة لم يبق لها إلا الوليُّ. قال القاضي أبو محمد عبد الحق: وفي هذا نظر».

واختُلِف فيمن خُوطِب بهذه الآية؛ فقال قوم: هم الرجال والنساء.

وقال آخرون: أزواج المطلقات.

ورجَّح ابنُ جرير (٣٣٨/٤) القولَ الأول فقال: «تأويل الآية على هذا القول: وأن يعفو أيُّها الناسُ بعضُكم عمّا وجَبَ له قِبَل صاحبه مِن الصَّداق قبل الافتراق عند الطلاق أقربُ له إلى تقوى الله».

حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى.

أي: يأمر الله تعالى بتعاهُد الصَّلوات المفروضة عمومًا بالمحافظة على مواظبة أدائها في أوقاتها، وحِفظ حدودها، والعناية بأدائها بشروطها وأركانها، وخصَّ الله تعالى من بينها بمزيدِ تأكيد، صلاة العصر.[372]

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: ((لَمَّا كان يومُ الأحزابِ، قال رسولُ اللهِ – ﷺ –: ملَأ اللهُ بُيوتَهم وقُبورَهم نارًا، شغَلونا عنِ الصَّلاةِ الوُسطى حتى غابَتِ الشمسُ)).[373]

وعن عبدِ اللهِ بن مسعود رضي الله عنه، قال: ((حَبسَ المشركونَ رسولَ اللهِ – ﷺ – عن صلاةِ العصرِ. حتى احمرَّتِ الشمسُ أوِ اصفرَّتْ. فقال رسولُ اللهِ – ﷺ –: شغلونا عن الصَّلاةِ الوُسطى صلاةِ العصرِ. ملأ اللهُ أجوافَهم وقبورَهم نارًا أو قال حشا اللهُ أجوافَهم وقبورَهم نارًا)).[374]

---

(372) اختُلِف في الصلاة الوسطى.

ورَجَّح ابنُ جرير (٤/٣٧٢) أنّها صلاة العصر مستندًا إلى السنة، والنظائر، فقال: «والصَّوابُ مِن القول في ذلك: ما تظاهرتْ به الأخبارُ عن رسول الله ﷺ، وهو أنّها العصر، والَّذي حثَّ الله –تعالى ذكره– عليه من ذلك نظيرُ الذي رُوِي عن رسول الله ﷺ في الحثِّ عليه».

وكذا رجَّحه ابنُ عطية (١/٦٠٠)، وابنُ تيمية (١/٥٦٦–٥٦٧)، وابنُ كثير (٢/٤٠٤).

وذكَر ابنُ عطية (١/٦٠١) أن مكِّيًّا وابن حبيب ذَكَرا أنّ فرقة قالت: الصلاة الوسطى هي صلاة الجمعة فإنها وسطى فُضْلى، لِما خُصَّت به من الجَمْع والخطبة وجُعِلت عيدًا. ونقَل عن بعض العلماء أنها الخمس المكتوبة، وعلَّق عليه بقوله: «وقوله أولًا ﴿على الصلوات﴾ يعُمُّ النفل والفرض، ثم خَصَّ الفرض بالذكر، ويجري مع هذا التأويل قوله ﷺ: «شغلونا عن الصلاة الوسطى»».

(373) رواه البخاري (2931).

(374) رواه مسلم (628).

وعن البَرَاءِ بنِ عازبٍ رضي الله عنه، قال: ((نزلت هذه الآيةُ: حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَصَلَاةِ الْعَصْرِ. فقرأناها ما شاء اللهُ، ثمَّ نسَخَها اللهُ، فنزلت: حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى، فقال رجلٌ كان جالسًا عند شقيقٍ له: هي إذنْ صلاةُ العصرِ. فقال البراءُ: قد أخبرتُك كيف نزلتْ، وكيف نَسخَها اللهُ، واللهُ أعلمُ)).(375)

وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ.

أي: أقيموا الصَّلاة، مواظبين على ذلك، ومداومين فيها على الخُشوع والطُّمأنينة والسُّكوت التامِّ عن سوى ما أمر الله تعالى به فيها من الذِّكر والقرآن.(376)

---

(375) رواه مسلم (630).

(376) اختُلف في معنى ﴿قانتين﴾؛ فقال قوم: معناه: طائعين.

وقال آخرون: معناه: ساكتين.

وقال غيرهم: معناه: الركود في الصلاة، والخشوع فيها.

وذهب قوم إلى أنها: الدعاء.

ورجَّح ابنُ جرير (٤/٣٨٣ بتصرف) القول الأول فقال: «وذلك أنّ أصل القنوت: الطاعة. وقد تكون الطاعة لله في الصلاة بالسكوت عما نهاه الله من الكلام فيها، وقد تكون الطاعة لله فيها بالخشوع، وخفض الجناح، وإطالة القيام، وبالدعاء؛ لأنّ كُلًّا غير خارج مِن أحد معنيين من أن يكون مما أمر به المصلي، أو مما نُدِب إليه، والعبد بكل ذلك لله مطيع، وهو لربه فيه قانت، والقنوت أصله: الطاعة لله، ثم يُسْتَعمل في كل ما أطاع الله به العبد».

ووجَّهه (٤/٣٧٥)، فقال: «ومعنى ذلك [أي: تأويل القنوت بالطاعة]: وقوموا لله في صلاتكم مطيعين له فيما أمركم به فيها، ونهاكم عنه».

لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى عبادَه بالمحافظة على الصَّلوات، والقيام بحدودِها، والمداومة عليها، ذَكَر الحال التي يَنشغلُ فيها المرءُ عن أدائها على الوجه الأكمل، وهي حال الخوف، ولكنَّها ليست عذرًا في ترْك المحافظة على الصَّلوات، فقال سبحانه:

فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (239).

فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا.

أي: إنْ خِفْتُم أن تُؤدُّوا صلاتَكم على تِلك الصِّفةِ الكاملة، فصَلُّوها على أيِّ حالٍ كنتم، سواء ماشِينَ على أقدامِكم أو راكبين على دوابِّكم- ويلزم من ذلك أن يكونوا مستقبلي القِبلة وغير مستقبليها- فإنَّ ذلك يجزيكم حينئذٍ عن القيام قانتِينَ.

فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ.

أي: فإذا زال عنكم الخوف، فأقيموا صلاتكم على الصِّفة الكاملة كما علمكم الله من قبلُ، وتعليمُه إيَّاكم ما ينفعكم في دُنياكم وأُخراكم– ومن ذلك إقامة الصَّلاة بتمامها– نعمةٌ عظيمة تقتضي شُكرها بذكره سبحانه في الصَّلاة وغيرها.(377)

قال سبحانه وتعالى: فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ [النساء: 103].

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (240).

---

(377) اختلف المفسـرون في تفسـير قوله: ﴿فإذا أمنتم فاذكروا الله﴾؛ فقال قوم: المعنى: فإذا أمنتم مِمَّن كنتم تخافونه على أنفسكم حال صلاتكم فصَلُّوا.

وقال آخرون: المعنى: إذا خرجتم من دار السفر إلى دار الإقامة.

ورَجَّح ابنُ جرير (٤/٣٩٦ بتصرف) القولَ الأول، وانتَقَدَ الثانيَ الذي قاله مجاهد مستندًا إلى الإجماع، والسياق، فقال: «هذا القول الذي ذكرنا عن مجاهد قولُ غيرِه أولى بالصواب منه؛ لإجماع الجميع على أنّ الخوف متى زال فواجبٌ على المصلي المكتوبةَ –وإن كان في سفرٍ– أداؤُها بركوعها وسجودها وحدودها، وقائمًا بالأرض غيرَ ماشٍ ولا راكب، كالذي يجب عليه من ذلك إذا كان مقيمًا في مصره وبلده، إلا ما أبيح له من القصر فيها في سفره. ولم يجرِ في هذه الآية للسفر ذِكْرٌ، فيتوجه قوله: ﴿فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾ إليه.

فإن كان جرى للسفر ذِكْرٌ، ثم أراد الله –تعالى ذكره– تعريفَ خلقه صفةَ الواجب عليهم من الصلاة بعد مقامهم لقال: فإذا أقمتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون. ولم يقل: ﴿فإذا أمنتم﴾».

الناسخ والمنسوخ:

جمهور المفسِّرين على أنَّ هذه الآية منسوخةٌ حكمًا بقوله تعالى: وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا، وقيل النفقة كذلك منسوخةٌ بآية المواريث.(378)

فعن عبد الله بن الزُّبَير رضي الله عنهما، قال: ((قُلْتُ لعثمانَ بن عفَّان: وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا. قد نسخَتْها الآيةُ الأخرى، فَلِمَ تَكْتُبُها؟ أَوْ تَدَعُها؟ قال: يا ابنَ أخي، لا أُغيِّرُ شيئًا منه من مكانِه)).(379)

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ.

أي: إنَّ الأزواج الذين يموتون ويتركون وراءهم زوجاتٍ، فعليهم أن يعهَدوا قبل وفاتهم لورثتهم بأن تمكث زوجاتهم في بيوتهم (أي بيوت الأزواج المتوفَّين) مدَّة عام كامل، يتمتَّعن فيه بالنفقة من أموالهم، والسُّكنى في منازلهم، دون أن يُخرِجَهنَّ أحدٌ منها.

---

(378) اختُلِف هل هذه الآية منسوخة بقوله: ﴿يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا﴾ أم لا؟ فقال قوم بالنسخ، وقال غيرهم بعدم النسخ.

ورَجَّح ابنُ جرير (٤/٤٠٦ بتصرف)، وابنُ تيمية (١/٥٧٥)، وإليه ذهب ابنُ كثير (٢/٤١١) القولَ بعدم النسخ وذلك «أنّ هذه الآية لم تدل على وجوب الاعتداد سَنَةً حتى يكون ذلك منسوخًا بالأربعة الأشهر وعشرًا، وإنّما دلَّت على أنّ ذلك كان من باب الوصاة بالزوجات أن يُمَكَّنَّ من السُّكْنى في بيوت أزواجهن بعد وفاتهم حولًا كاملًا إن اخترن ذلك، ولهذا قال: ﴿وصية لأزواجهم﴾ أي: يوصيكم الله بهن وصيةً، كقوله: ﴿يوصيكم الله في أولادكم﴾ الآية [النساء:١١]، وقال: ﴿وصية من الله﴾ [النساء:١٢].

(379) رواه البخاري (4530).

فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ.

أي: لا حرَج على أولياء الميّت في خروجهنَّ وتركهنَّ الحدادَ على أزواجهنَّ بالتجمُّل والتطيُّب والتشوُّف للنكاح والتزوُّج، وغير ذلك ممَّا لا يخرج عن حدود الشَّرْع والعُرف.

وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ.

أي: إنَّ الله تعالى لا يمنعُه شيءٌ من انتقامه ممَّن خالف أمْره وارتكب نهيه، ومن ذلك إخراج المتوفَّى عنها زوجُها من بيته قبل انقِضاء عامٍ، وهي راغبةٌ في المُكْثِ فيه، كما أنَّ ما شرَعه من أحكام في غاية الإتقان، وهي أحكام صادرة عن عزَّته، وحِكمته، فجعل لكلِّ أمر حُكمَه اللائق به.

وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (241).

أي: يجِب على الأزواج أن يُعطوا لمطلَّقاتهم ما يتمتَّعن به من كُسوة أو غيرها، بما يتعارف عليه النَّاس، من غير مخالفة لحدود الله تعالى، وهذا الأمر حقٌّ لهنَّ ثابتٌ ومؤكَّدٌ على كل مطلِّقٍ لزوجته؛ لأنَّ كلَّ أحدٍ يجبُ عليه أن يكون متَّقيًا لله تعالى بفعل ما أمر، واجتناب ما نهى.

كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (242).

أي: كما بيَّن الله عزَّ وجلَّ ما سبق من أحكام ووضَّحها غاية الإيضاح، يبيِّن لكم أيضًا سائر آياته وأحكامه بوضوحٍ تامٍّ حتى لا يبقى فيها خفاءٌ أو لبسٌ؛ لتفهموها وتعملوا بها.

سُورةُ البَقَرَةِ

الآيات (243-252)

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (243)

وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (244)

مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (245)

أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (246)

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (247)

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (248)

فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (249)

وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (250)

فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (251)

تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (252)

غريب الكلمات:

يَقْبِضُ: يُضيِّق ويُمسِك، وقبْضُ اليَدِ على الشَّيءِ: جمعُها بعدَ تناوُله، وقَبضُها عنه: جمْعُها قبلَ تناوُله.

الْمَلَأ: أشراف النَّاسِ ووجوههم.

بَسْطَةً: أي: سَعَةً؛ يقال: بسطت الشيء إذا كان مجموعًا: ففتحتَه ووسعتَه، وأصل (بسط): امتداد الشَّيء وسَعَته.

التَّابُوتُ: الصُّندوق والوِعاء، ومنه سُمِّي القَلب تابوت الحِكمة.

سَكِينَةٌ: طُمأنينة، وزوالٌ للرُّعب، وأصْل سَكَن: خلاف الاضطِرابِ والحرَكَة.

فَصَلَ: أي: خرَج.

بَرَزُوا: خرَجوا إلى الفَضاء والمتَّسع من الأرض، أصله: ظهور الشيء وبُدوُّه، ومنه سُمِّي الفضاء؛ لأنَّه ظاهرٌ وبادٍ غير خفي.

أَفْرِغْ: اصْبُبْ علينا، كما يُفرَغ الدَّلوُ، أي: يُصبُّ ما فيه.

تفسير الآيات:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (243)﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾.

أي: ألم تعلمْ يا محمَّد، خبرَ تلك الجموع المؤلَّفة من آلاف الأشخاص،[380] الذين فرُّوا من دُورِهم وموطنِهم ابتغاءَ السَّلامة من الموت، إما حذرًا من إصابتهم بوباءٍ وقع في بلادهم، أو خوفًا من مقاتلة عدوٍّ يدهمهم في أرضهم.

﴿فَقَالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾.

أي: أمَر الله تعالى أمرًا كونيًّا بأنْ يموتوا، فماتوا، ثم أحياهم اللهُ تعالى بعدَ مُدَّة، فقاموا، فهؤلاء لَمَّا فروا– إمَّا من الوباء، أو مِن مقاتلةِ الأعداء؛ طلبًا لطولِ الحياةِ والبقاء– عُومِلوا بنقيض ما قَصدوا، وجاءهم الموت جميعًا فحُصدوا، وفي هذا حثٌّ للمؤمنين على جِهاد الأعداء، بإعلامهم أنَّ إليه وحده

---

(380) رَجَّحَ ابنُ جرير (٤/٤٢٣) أنّ المقصود بالألوف كثرة العدد مستندًا لإجماع أهل التأويل.
وانتَقَدَ قولَ مَن قال: هو من الائْتِلاف.
وحكم عليه بالشذوذ قائلًا: «وأَوْلى القولين في تأويل قوله: ﴿وهم ألوف﴾ بالصواب: قولُ مَن قال: عنى بالألوف: كثرة العدد، دون قول مَن قال: عنى به: الائتلاف، بمعنى: ائتلاف قلوبهم، وأنهم خرجوا من ديارهم من غير افتراق كان منهم، ولا تباغض، ولكن فرارًا إمّا من الجهاد، وإمّا من الطاعون. لإجماع الحجة على أنّ ذلك تأويل الآية، ولا يعارَض بالقول الشاذ ما استفاض به القولُ من الصحابة والتابعين».

الإماتةَ والإحياء، وأنَّ الفرار من القتال والبقاء في الدُّور للاختباء، ليس بمُنجٍ أحدًا من وقوع القَدَر والقضاء.(381)

إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ.

أي: إنَّ الله تعالى هو صاحبُ الإحسان والإنعام على عموم النَّاس، ومِن ذلك تفضُّلُه عليهم ببيان آياته، وطريق إحياء أرواحهم بنور الهدى، ومنها إحياء أبدانهم بإنقاذهم من الموت والهلاك، وكان الواجب على النَّاس تقديم الشكر لله تعالى في مقابل تلك النِّعم، إلَّا أنَّ الصفة السَّائدة لديهم هي القيام بجحودِها، بالكفر، أو العصيان، أو الغفلة والنِّسيان.

وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (244).

وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ.

أي: كما أنَّ الحذر لا يُغني من القدْر، فكذلك الفرار من الجهاد وتجنُّبه لا يُقرِّب أجلًا، ولا يُباعِده، فقاتلوا– أيُّها المؤمنون– أعداءَ دِينكم؛ لإعلاء دين ربِّكم الذي هداكم له، واعلموا أنَّه لا يُفيدكم القعود عن القتال شيئًا، وإنْ ظننتم أنَّ في القعود بقاءَكم، فليس الأمر كذلك؛ فلا تجبُنوا عن لقائهم،

(381) استنبط ابنُ كثير (١/٤١٤–٤١٥) من هذه القصص الواردة في الآثار فائدتين:
الأولى: أن في إحيائهم دليل قاطع على البعث.
والثانية: أنه لن يغني حذر من قدر؛ فإنّ هؤلاء فَرُّوا من الوباء طلبًا لطول الحياة؛ فعُومِلوا بنقيض قصدهم، وجاءهم الموت.

وتقعُدوا عن حربِهم؛ فإن بيدي حياتَكم وموتَكم، فلا تخافوا الموت على أنفسكم، واشكروا الله تعالى بطاعة ربِّكم، واعلموا أنَّ الله عزَّ وجلَّ سميعٌ لأقوالكم؛ عليمٌ بأحوالكم؛ فاحذروا من المخالفة، وقوموا بما أوجب الله تعالى عليكم، فإنَّ الله سبحانه يُجازي كلًّا بعمله؛ إنْ خيرًا فخير، وإنْ شرًّا فشر.

قال تعالى: الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَؤُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ [آل عمران: 168].

وقال سبحانه: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ [النساء: 77-78].

لَمَّا حثَّ الله عزَّ وجلَّ على القتال، حثَّ على الإنفاق؛ فإنَّ القِتال يَستدعي أموالًا لتجهيزِ الجيش بالعددِ والعَتاد، فقال تعالى:

مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (245).

مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً.

القراءات ذات الأثر في التفسير:

في قوله تعالى: فَيُضَاعِفَهُ لَهُ قراءتان:

1- فَيُضَعِّفه، وتعني: المداومة وتكرير الفِعل، أي يستمر في المضاعفة مرَّةً بعد مرَّة.[382]

2- فَيُضَاعِفه، وتعني: كثرة ما يُضاعف.[383]

مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً.

أي: هل ثمَّة أحدٌ يقتطع جزءًا من ماله الحلال، فينفقه احتسابًا للأجْر، وطلبًا لمرضاة الله تعالى، في أوجه الخيرِ كالجِهاد وغيره، طيِّبةً نفسُه بذلك، ودون أن يُتبع نفقتَه منًّا أو أذًى- فإنَّ الله تعالى لا يَقضيه مثله في الأجر وحسب؟ بل يَزيده الغنيُّ الكريم مرَّة بعد مرَّة، زياداتٍ كثيرة، قد تبلغ سبعمئة ضِعفٍ وتزيد.

(382) قرأ بها ابنُ كَثيرٍ، وابنُ عامرٍ، وأبو جعفرٍ، ويعقوبُ.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: 159).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: 98)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 139)، ((الكشف)) لمكي (300/1).

(383) قرأ بها الباقون.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: 159).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: 98)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 139)، ((الكشف)) لمكي (300/1).

كما قال تعالى: مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ [البقرة: 261-262].

وعن أبي هُرَيرَة رضي الله عنه، أنَّ رسول الله - ﷺ - قال: ((ينزلُ اللهُ في السَّماءِ الدنيا لِشطرِ الليلِ، أو لِثُلُثِ الليلِ الآخرِ، فيقولُ: مَن يدعوني فأَستجيبَ له! أو يسألُني فأُعطِيَه! ثم يقولُ:مَن يُقْرِضُ غيرَ عديمٍ ولا ظَلُومٍ ؟)). (384)

وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ.

أي: يُضيّق الله تعالى الرزق على مَن يشاء من عباده، ويُوسّعه على مَن يشاء منهم، فالتصرُّف كلُّه بيديه، والأمور كلُّها راجعةٌ إليه؛ فالإمساكُ لا يبسط الرِّزق، والإنفاقُ لا يقبضه، فأنفِقوا- أيُّها العباد- ولا تُبالُوا؛ فالله هو الرزَّاق، وهو مع ذلك غير مضيّع أعمالكم، بل تجدون ما قدَّمتموه مُوفَّرًا مُضاعَفًا، يوم ترجعون فيه إلى ربِّكم فيُجازيكم بأعمالِكم.

---

(384) رواه مسلم (758).

كما أنَّ اللهَ تعالى هو الذي قبَض الرِّزق عمَّن حثَّ على مَعونتِه وإعطائه؛ ليبتليَه بالصبر، وهو الذي بَسط على آخَر؛ ليمتحنه بعمله فيما بسط عليه، ويجازي يوم القيامة كل واحد منهما على قدر طاعتهما له سبحانه فيما ابتلاهما به، من غنًى وفاقةٍ، وسَعَةٍ وضيقٍ.

لَمَّا أمَرَ سبحانه المؤمنين بالقتالِ في سبيله، بعد قِصَّة الذين خرَجوا من دِيارهم وهم ألوفٌ حذرَ الموت، أردْف ذلك بأنَّ القتال كان مطلوبًا ومشروعًا في الأمم السابقة، فكانتِ النفسُ أميلَ لقَبوله من التكليف الذي يقَعُ على انفراد، ولِيعلمَ المؤمنون حالَ وعاقبةَ مَن الْتزمَ أمْرَ الله تعالى بالقتال في سبيله، ومَن خالفه، فقال عزَّ وجلَّ:

أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (246).

أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ.

أي: ألَم تَنظُرْ يا محمَّد، إلى شأنَ أشراف بني إسرائيل ووجهائهم، من بعد وفاة موسى عليه السَّلام، حين طلبوا من أحد أنبيائهم أن يُعيِّن لهم ملِكًا يوحِّد أمْرهم على جهاد أعداء الله تعالى.

قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا.

أي: قال النبيُّ الذي سألوه أنْ يبعث لهم ملكًا؛ ليُجاهدوا معه في سبيل الله: لعلَّكم تَجبُنون عن القِتال إذا فُرِض عليكم؟

قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا.

أي: قال الملأ من بني إسرائيل لنبيهم: وأيُّ شيء يمنعنا من الجهاد في سبيل الله تعالى، وما الذي يبقى لنا إذا تركنا القتال، والحال أنَّا مضطرُّون إليه؛ فالبلاد قد أُخذت، والأبناء قد سُبيَت، فما دام أنَّ الأمر قد بلغ هذا المبلغ فلا بدَّ حينئذٍ من إقامة الجهاد.

فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ.

أي: لَمَّا فُرِض عليهم قتال عدوِّهم ما وَفوا بما وَعدوا، بل أَدبر أكثرُهم ناكلينَ عن القتال، وضيَّعوا فرْضَ الجهاد الذي طلبوه ابتداءً من عند أنفسِهم، فجبنوا، واستولى على أكثرهم الضَّعفُ والخور، وبقِي منهم عددٌ قليل قد عصمهم الله تعالى وثبَّتهم، فالتزموا أمر الله عزَّ وجلَّ، والله سبحانه يَعلم مَن ظَلَم نفْسه منهم ومِن غيرهم، ممَّن أخلف وعْدَه، ونكص عن أمر ربِّه، واللهُ تعالى مجازيه على ظُلْمه.

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ **(247)**.

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ.

أي: أخبَرهم نبيُّهم بأنَّ الله تعالى قد أجابهم إلى ما سألوا مِن بعث الملِك لمصلحتهم، يُقاتل ويقاتلون معه، فعيَّن لهم طالوت، وكان رجلًا من عامَّتهم، لا يَنتمي إلى السِّبط الذي فيه المُلْك، فكان الواجب عليهم قَبولَ مَن اختاره الله تعالى، والانقيادَ إليه، فأبوا إلَّا أن يعترِضوا، واستبعدوا مُلكه عليهم، فقالوا: كيف يكون ملكًا يسيطر علينا، وهو دُوننا في الشَّرف والنسب؟! فلماذا لم يأتِ الملِك منَّا، ونحن من سِبط الملوك فنحن أولى منه بذلك؟! ثمَّ هو مع هذا رجلٌ لا يمتلك الكثيرَ من الأموال كما هو شأن الملوك الآخرين!

قَالَ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ.

أي: لَمَّا اعتقدوا رأيًا فاسدًا، وهو أنَّ الملْك يتطلَّب شرف النَّسَب، وكثرة المال، ولم يدركوا الصِّفات الأساسيَّة المقدَّمة على هذين، قال لهم نبيُّهم: إنَّ الله اختاره لكم، واختصَّه من بينكم، والله أعلم به منكم، ولستُ أنا مَن عيَّنه من تلقاءِ نفسي، بل الله تعالى هو الذي عيَّنه لي لَمَّا طلبتم ذلك،

فلزِمكم الانقيادُ إليه، وهو مع هذا قد أعطاه الله تعالى زيادة في العلم، الذي يمنحه حنكةً وقدرةً على تدبير الأمور، وأعطاه طول القامة وقوة الجسد اللَّذيْنِ يمنحانِه هيبةً وشجاعة، فتوفَّرت لديه الأسباب الحقيقيَّة لاستحقاق الملْك دون غيره، فبهاتين القوَّتين: القوة المعنويَّة: قوة العلم والرأي، والقوة الحسيَّة: قوة الجسد، تتمُّ أمور الملك وسياسة الرعية، وتكثر أموال المملكة، ويحصُل النصر على الأعداء، بإذن الله تعالى.

وَاللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ.

أي: إنَّ المُلك لله تعالى وحده، وبيده دون غيره، يُؤتيه مَن يشاءُ بحسَب ما تقتضيه حِكمتُه، فيخصه به، فلا تستنكروا يا معشرَ الملأِ من بني إسرائيل أن يبعث الله طالوت ملكًا عليكم،

وإنْ لم يكُن من أهل بيت المُلْك؛ فإنَّ المُلْك ليس بميراث عن الآباء والأجداد، ولكنَّه بإيتاءِ الله وحده، فلا تتخيَّروا على الله تعالى، فهو الحاكم الذي ما شاء فعل، ولا يُسأل عمَّا يفعل وهم يُسألون.

والله تعالى ذو سَعةٍ في جميع صفاته؛ ومن ذلك أنَّه واسعٌ في عِلمه، وواسعٌ في فضله، وكرمه؛ ومِن سَعة فضله أنَّه لا يخصُّ بكرمه شريفًا عن وضيع، أو غنيًّا عن فقير، وأنَّه يُنعم بالملْك حتى على مَن لم يكُن من بيت مُلك، وهو سبحانه واسع العلم، عليم بكلِّ شيء؛ ومِن ذلك علمه بمن يصلح للملْك من غيره.

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (248).

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ.

أي: إنَّ علامة صِحَّة تنصيبِ طالوت ملكًا عليكم، وإن كان من غير سبطِ ملوككم، هي أن يُردَّ إليكم الصُّندوق الذي سُلب منكم، فتطمئنَّ به قلوبكم ويحوي ما يُهدِّئ نفوسكم، وممَّا يحويه أشياء تبقَّت من تركةِ موسى وهارون عليهما السَّلام، قيل: منها بقيةٌ من آثار ألواح التوراة، تحوي العِلم والحِكمة، وميراث الأنبياء عليهم السلام، ويحمل هذا الصندوقَ إليهم ملائكةُ الربِّ عزَّ وجلَّ.(385)

---

(385) اختلف أهل التأويل في السكينة، هل هي عينٌ قائمة بنفسها؟ والمقصود: أنّ السكينة في نفس التابوت. أو هي: معنى؟ والمقصود: مجيء التابوت سكينةً لكم وطمأنينة. على قولين.

ثم اختلف أصحابُ القول الأول في صفتها، كما ورد بالآثار.

ورَجَّح ابنُ جرير (٤/٤٧٢ بتصرف) القولَ الأول، مستندًا إلى لغة العرب، ودلالة العقل قائلًا: «وأَوْلى هذه الأقوال بالحقّ في معنى السكينة ما قاله عطاءُ بن أبي رباح: من الشيء تسكن إليه النفوسُ من الآيات التي تعرفونها. وذلك أنّ السكينة في كلام العرب (الفعيلة) مِن قول القائل: سكن فلانٌ إلى كذا وكذا: إذا اطمأنّ إليه وهدأت عنده نفسه، فهو يسكن سكونًا وسكينة. وإذا كان معنى السكينة ما وصفتُ فجائزٌ أن يكون ذلك على ما قاله عليُّ بن أبي طالب على ما روينا عنه، وجائز أن يكون ذلك على ما قاله مجاهد على ما حكينا عنه، وجائزٌ أن يكون ما قاله وهب بن منبه، وما قاله السدي؛ لأنّ كل ذلك آياتٌ كافياتٌ تَسْكُنُ إليهنّ النفوسُ، وتَثْلُجُ بِهِنَّ الصُّدُور. وإذا كان معنى السكينة ما وصفنا فقدِ اتَّضح أنّ الآية التي كانت في التابوت التي كانت النفوس تسكن إليها لمعرفتها بصحة أمرها إنما هي مسماة بالفعل، وهي غيره؛ لدلالة الكلام عليه».

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ.

أي: إنَّ في رجوعِ التابوت إليكم كما وصفتُ لكم، علامةً على اختيار الله تعالى لطالوت ملكًا عليكم، وستؤمنون بأنَّها دلالة صحيحة لكم على هذا الأمر، إن كنتم مؤمنين بالله تعالى حقًّا، ومصدِّقيَّ فيما أخبرتكم به.

فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (249).

فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ.

أي: فلمَّا أتاهم التابوت كما أخبرهم نبيُّهم، فصدَّقوه وأذعَنوا لولاية طالوت، انضمُّوا إليه لقتال عدوِّهم، فلما سار طالوت بالجنود متجاوزًا موطنهم، وشاخصًا نحو موضع آخر، أخبرهم أن الله تعالى مختبرهم بماء نَهرٍ؛ ليتميَّز منهم الكاذب من الصادق، والصابر من الجازع، ويترتَّب عليه مَن يصحب

وبنحو هذا قال ابنُ عطية (٢/٩). وزاد ابنُ القيم (١/١٨٩) السياق مُرَجِّحًا به القول الأول: «ويؤيده عطف قوله: ﴿وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون﴾».

الجيش حيث وجهته، ومَن يفارقه؛ لكونه ليس أهلًا للجهاد في سبيل الله تعالى، فأخبرهم بأنَّ مَن شرِب من هذا الماء فأنا منه بريء، وليس من أهل طاعتي وولايتي وهو بذلك عاصٍ، فلا يتبعنا لمعصيته وعدم ثباته، ومَن لم يذُقْ منه شيئًا سوى ما اغترفه بكفِّه مرَّةً واحدة، فليصحبنا، فإنَّه من أهل طاعتي وولايتي، فكانت نتيجة هذا الامتحان أنْ شرِب منه معظمُهم، ونكصوا عن قتال عدوِّهم، ولم يبقَ مع طالوت سوى عددٍ قليل قدِ الْتزموا ما أمَرَهم به!

عن البَراء بن عازبٍ رضي الله عنه، قال: ((حدَّثني أصحابُ محمدٍ - ﷺ - ممَّن شهِد بدرًا: أنهم كانوا عِدَّةَ أصحابِ طالوتَ، الذين جازوا معه النهرَ، بضعةَ عشرَ وثلاثمئةٍ. قال البراءُ: لا واللهِ ما جاوز معه النهرَ إلَّا مؤمنٌ)).[386]

---

(386) رواه البخاري (3957).

اختلف أهلُ التأويل في الذين جاوزوا النهر مع طالوت على قولين: الأول: هم أهل الإيمان فقط؛ مَن لم يشـــرب مِن النهر، ومَن شرب منه غرفة.

والثاني: هم أهل الإيمان، وأهل الكفر؛ الذين شربوا منه الكثير.

والظاهرُ مِن كلام ابن عطية (١٥/٢) ميلُه للقول الأول، حيث قال: «وما رُوِي عن ابن عباس مِن أنّ في الأربعة الآلاف من شَرِب؛ يَرِدُ عليه قولُه تعالى: ﴿هو والذين آمنوا معه﴾.

وأكثرُ المفسرين على أنه إنّما جاوز النَّهَرَ مَن لم يشـرب إلا غرفة ومَن لم يشـرب جُمْلَةً، ثم كانت بصائرُ هؤلاء مختلفةً؛ فبعضٌ كَعَّ، وقليلٌ صَمَّمَ».

وقد رَجَّحَ ابنُ جرير (٤/٤٩٢-٤٩٣ بتصرف) القولَ الثاني، وانتَقَدَ القولَ الأولَ، استنادًا إلى السياق، فقال: «وأَوْلى القولين في ذلك بالصواب: ما رُوِي عن ابن عباس، وقاله السُّدِّيُّ، وهو أنّه جاوز النَّهَرَ مع طالوت المؤمنُ الذي لم يشرب من النهر إلا الغرْفَة، والكافرُ الذي شـــرب منه الكثير، ثم وقع التَّمْيِيزُ بينهم بعد ذلك برؤية جالوت ولقائه، وانخَزَلَ عنه أهلُ الشِّـــرك والنفاق. فإن ظَنَّ ذو غفلة أنّه غيرُ جائز أن يكون جاوز النَّهَرَ مع طالوت إلا أهلُ الإيمان الذين ثبتوا معه على إيمانهم، ومَن لم يشرب من النهر إلا الغرفة -لأن الله تعالى ذكره قال: ﴿فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه﴾.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾.

أي: فلمَّا تعدَّى طالوتُ النَّهرَ، ومَن معه مِن المؤمنين الذين أطاعوه، فلم يشرَبوا شيئًا من مائه، أو شربِوا غرفةً واحدةً باليد، قال بعضهم لَمَّا شاهدوا قلَّتهم وكثرةَ عدوِّهم: لا قدرةَ لنا في هذا اليوم بقتال جالوت وجنودِه؛ لكثرة عَددهم وعُددهم.(387)

فكان معلومًا أنّه لم يُجاوِز معه إلا أهلُ الإيمان، على ما روي به الخبرُ عن البراء بن عازب، ولأنّ أهل الكفر لو كانوا جاوزوا النهر كما جاوزه أهلُ الإيمان لَما خصَّ اللهُ بالذكر في ذلك أهلَ الإيمان– فإنّ الأمر في ذلك بخلاف ما ظَنَّ؛ وذلك أنّه غير مُسْتَنكر أن يكون الفريقان –أعني: فريق الإيمان، وفريق الكفر– جاوزوا النهر، وأخبر الله نبيَّه محمدًا ﷺ عن المؤمنين بالمجاوزة؛ لأنهم كانوا من الذين جاوزوه مع ملِكِهم، وترك ذكر أهل الكفر وإن كانوا قد جاوزوا النَّهَر مع المؤمنين. والذي يَدُلُّ على صِحَّةِ ما قُلنا في ذلك قولُ الله –تعالى ذكره–: ﴿فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده قال الذين يظنون أنهم ملاقو الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله﴾.

فأوجب اللهُ –تعالى ذكره– أنّ الذين يظنون أنّهم ملاقو الله هم الذين قالوا عند مجاوزة النهر: ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله﴾ دون غيرهم الذين لا يَظُنُّون أنهم ملاقو الله، وأنّ الذين لا يظنون أنهم ملاقو الله هم الذين قالوا: ﴿لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده﴾.

وغيرُ جائز أن يُضاف الإيمانُ إلى مَن جَحَدَ أنّه مُلاقي اللهِ، أو شَكَّ فيه».

(387) اختلف أهل التأويل في مَن قال: ﴿لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده﴾ على قولين:

الأول: هم أهل إيمان، ولكنَّهم أضعفُ يقينًا مِمَّن قالوا: ﴿كم مِن فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله﴾.

والثاني: هم أهل كفر بالله ونفاق، وليسوا مِمَّن شَهِد قتال جالوت وجنوده؛ لأنّهم انصرفوا عن طالوت ومَن ثَبتَ معه لقتال عَدُوِّ الله جالُوتَ ومَن معه، وهم الذين عَصَوْا أمْرَ اللهِ لِشُرْبِهِم مِن النَّهَر.

وقد رَجَّحَ ابنُ جرير (٤/٤٩٥) القولَ الثاني، كما ذكرنا آنفًا، استنادًا إلى السياق، وهو قول ابن عباس، والسدي، وابن جريج.

قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ.

أي: قال الذين يعلمون يقينًا أنهم راجعون إلى الله تعالى وملاقوه، وهم أهل الإيمان الثابت واليقين الراسخ منهم، قالوا مُطَمْئِنِينَ مثبِّتِينَ لباقيهم الذين قالوا: لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ: ما أكثرَ ما تغلبُ الجماعةُ القليلةُ الجماعةَ الكثيرةَ! وذلك بقدر الله تعالى وإرادته، فلا تُغني الكثرة مع خذلانِه، ولا تضرُّ القِلَّة مع توفيقِه، والله عزَّ وجلَّ مع الحابسين أنفسهم على رِضاه وطاعتِه، وتجنُّب معصيته، وتحمُّل أقداره، فيُعِينهم على الجهاد في سبيله وغير ذلك من طاعاته، ويؤيِّدهم وينصرهم، ويُظهِرهم على أعدائهم الصادِّين عن دينه.

وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (250).

لَمَّا ظهر حزبُ الإيمان- طالوتُ وجنودُه- لجالوتَ وجنودِه، قالوا: ربَّنا أنزِلْ علينا صبرًا، واملأْ به قلوبنا، وقوِّها على جهادهم؛ لتثبتَ أقدامنا فلا تتزلزل فنجبُنَ ونفرَّ، وانصرنا على هؤلاء القوم الذين كفروا بك.

فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (251).

فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ.

أي: فاستجاب لهم ربُّهم دعاءَهم، فغلَب طالوتُ وجنودُه عدوَّهم بقدَرِ الله تعالى وتوفيقه، وباشَر داودُ عليه السَّلام قتْلَ جالوت بنفْسه؛ لشجاعته وقوَّته وصبره، وأعطاه الله السلطان والنبوَّة، وعلَّمه ممَّا يشاؤه سبحانه، ومن ذلك تعليمه صَنعةَ الدروع،

كما قال جلَّ وعلا: وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ [الأنبياء: 80].

وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ.

أي: لولا أنَّ الله تعالى يدفع بالمجاهدين في سبيله كيد الكفَّار والفجَّار، وإلا لفسَدت الأرض باستيلائهم عليها، وإقامتِهم شعائرَ الكفر ومظاهرَ الفِسق والفجور، ومنعهم من إظهار عِبادة الله تعالى وحده، فتحُلُّ بالأرض وأهلها العقوبات، ويَهلِك الحرثُ والنَّسل؛ فالله سبحانه صاحب الفضل الواسِع على جميع خلقه، ومِن ذلك أنْ شرَع لعباده الجهاد رحمةً بهم ولطفًا؛ إذ فيه سعادتهم، والمدافعة عنهم؛ لتمكينِهم من الأرض.

تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (252)

أي: هذه الآيات التي أنبأتُك بها يا محمَّد هي علاماتٌ على الله تعالى وتوحيده، وحُجج ودلائل على الهدى، تأتيك بالواقع الذي كان عليه الأمرُ، المطابق لِمَا بأيدي أهل الكتاب من الحقّ الذي يعلمه علماءُ بني إسرائيل؛ فهي أخبارٌ صادقةٌ لا ريبَ فيها؛ ولذا أكَّد الله تعالى لرسوله عليه الصَّلاة والسَّلام رسالتَه، التي مِن جملة أدلَّتها ما قصَّه الله عليه من أخبار الأمم الماضين التي لم يَعلمْها، إلَّا بعد إخبار الله تعالى له بذلك، فدلَّ هذا على أنَّه رسول الله حقًّا، ونبيُّه صدقًا.

سُورةُ البَقَرَةِ

الآية (253)

تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (253)

غريب الكلمات:

الْبَيِّنَاتِ: جمْع بيِّنة، وهي: الدَّلالة الواضحة؛ يُقال: بانَ الشيءُ وأبان، إذا اتَّضح وانكَشَف.

وَأَيَّدْنَاهُ: قوَّيناه، والأَيْد والأدُّ: القوَّة.

بِرُوحِ الْقُدُسِ: جِبريل، وأصْل القُدْس: الطَّهارة.

تفسير الآيات:

تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ.

أي: إنَّ عمومَ الرُّسلِ الكرام، عليهم الصَّلاةُ والسلامُ، ذَوي المراتِب العَليَّة، ليسوا على منزلةٍ واحدة في الفضائل، بل مايَزَ اللهُ تعالى بينهم؛ فهُم مراتبُ مُتفاوِتة: فمنهم مَن اختصَّه الله تعالى بتكليمه مباشرةً؛ كموسى عليه السَّلام، ومنهم مَن رفعه الله تعالى على غيره من الرُّسل درجاتٍ؛ كمحمَّدٍ – ﷺ –، وهو أفْضلُهم، وأعلاهم درجةً.

كما قال تعالى: وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا [الإسراء: 55].

وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ.

أي: أعْطى اللهُ تعالى عيسى عليه السَّلام– الذي هو ابنُ مريمَ عليها السَّلام– من الحُجَج القاطعة، والمعجِزات السَّاطعة، والإنجيل الذي أُنزِل إليه من ربِّه، ما يدلُّ على صِدْق رِسالته، وصحَّةِ ما جاء به، وقد أيَّده الله تعالى بجبريلَ عليه السلام؛ يُقوِّيه ويُعينه.

وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ.

أي: ولو أراد اللهُ تعالى أنْ لا يَقتَتِلَ أولئك الذين أَتَوا من بعد الرُّسل عليهم السَّلام، مِن بَعْد أنْ جاءهم مِن آيات الله تعالى ما يُوضِّح لهم الحقَّ، ويُرشِدهم إلى طريقِه– لو أراد الله تعالى أنْ لا يَقتتِلوا، ما اقتَتَلوا؛ فالأمرُ إليه وحْده جلَّ وعلا.

وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَنْ كَفَرَ.

أي: ولكن السَّبب الذي أَوجَب قتالَهم هو اختلافُهم في تلك البيّنات الموجِبة لاجتماعهم على الإيمان بالله تعالى ورُسله عليهم السَّلام؛ فمنهم مَن أقرَّ بالحقّ مُصدِّقًا به، ومُنقادًا إليه، ومنهم مَن جحَده، وأَعرَض عنه مُتعمِّدًا ومُبتغيًا الكُفْرَ، بعدَ قيام الحُجَّة عليه.

وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ.

أي: ولو أراد الله عزَّ وجلَّ أن يَحجُزَهم عن القِتالِ بعِصمته وتوفيقِه، لَمَا اقتَتَلوا ولا اختَلَفوا؛ فكلُّ ذلك صادرٌ عن قضاء الله وقَدَره؛ فإرادتُه غالبة، ومشيئته نافذة، وهو سبحانه يَفعل ما اقتضتْه حِكمتُه، فيُوفِّق مَن يشاء فضلًا، ويَخذُل مَن يشاء عدلًا.

سُورةُ البَقَرَةِ

الآيات (254-257)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ
وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ (254)

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ
ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ
إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (255)

لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ
اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (256)

اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ
يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (257)

غريب الكلمات:

خُلَّةٌ: مودَّة، وصَداقة مُتناهِية في الإخلاص، وأصلُ الخِلِّ: تَقارُب الفُروع، ومنه الخليلُ الذي يُخالُّك.

الْقَيُّومُ: القائمُ الحافِظ لكلِّ شيء، والمعطي له ما به قِوامُه، والذي لا يَزول، والقائم بأمْر الخَلْق، والعالِم بالأشياء، على وزن فَيْعُول، مِن قُمْتُ بالشَّيء: إذا وَلِيتُه.

سِنَةٌ: النُّعاس من غير نوْم، وابتداؤه يكون في الرَّأس، والسِّنَة: الغفلة، والغفوة أيضًا.

كُرْسِيُّهُ: الكُرسيُّ جسمٌ عظيم، مخلوق بين يَدَي العَرْش، والعرش أعظمُ منه، والكرسيُّ موضِع القَدمينِ للبارئ جلَّ وعزَّ.

يَؤُودُهُ: يُثقِله، والوَأْد: الثِّقَل؛ يقال: آدَه الشيءُ يؤوده، وآدَه يَئيده، أي: أَثْقَله.

الرُّشْدُ: الحقُّ، وهو خلاف الغَيِّ، يُستعمَل استعمالَ الهداية، واستقامة الطَّريق.

الْغَيِّ: خِلاف الرُّشدِ، وهو الانهماكُ في الباطل، والضَّلالُ، والجهلُ بالأمر مِن اعتقادٍ فاسدٍ.

بِالطَّاغُوتِ: الطاغوت: الشَّيطان، والأصنام، وكلُّ مُتعدٍّ، وكلُّ معبودٍ يُعبَد مِن دون الله ورضِي بذلك، وأصْل الطُّغيان: تجاوُزُ الحدِّ.

بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى: العُرْوة: ما يُتعلَّق به، والوُثقَى: المحكَمة.

انْفِصَامَ: انقطاع، وانكسار؛ مِن فَصمتُ القدحَ، أي: كسرتُه وقصمتُه.

وَلِيٌّ: أصْل هذه المادَّة يدلُّ على القُرْب، سواء من حيثُ: المكان، أو النِّسبة، أو الدِّين، أو الصَّداقة، أو النُّصرة، أو الاعتقاد، وكلُّ مَن وَلِيَ أمْرَ آخَرَ فهو وَلِيُّه.

تفسير الآيات:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ (254).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ.

أي: يُنادي اللهُ تعالى عبادَه المؤمنين مُنبِّهًا، وحاثًّا لهم على أمرٍ مهمٍّ من مقتضيات إيمانهم، وهو الإنفاقُ في سبيله سبحانه، فأمَرهم الله تعالى أن يُخرِجوا ممَّا أعطاهم من الخير صدقةً؛ واجبة كانت أو مُستحبَّة، ويَشترَوا بها ما عند الله تعالى من نعيم الآخِرة، قبل مجيء اليوم الآخِر الذي يَنقطِع فيه العمل، ولا يَملِك الكُفَّارُ فيه شيئًا يُنفِقونه لله تعالى، ولا مالَ لديهم يَفتدون به من عذابه عزَّ وجلَّ، ليس هذا فحسبُ، بل لا صديقَ حميم يَنصرُهم في ذلك اليوم، ولا ثَمَّ شافعٌ يَشْفع لهم عند الله تعالى، فيدفع عنهم ضرًّا، أو يَجلِب لهم خيرًا، فنَفَى الله سبحانه بذلك كلَّ الوسائل التي يُمكِن أن يَنتفِعوا بها في ذلك اليومِ العظيم.

كما قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ [آل عمران: 91].

وقال سبحانه: وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ [غافر: 18].

وقال عزَّ وجلَّ حكايةً عن أهل النَّار أنهم يقولون: فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ [الشعراء: 100 – 102].

وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ.

أي: إنَّ هؤلاء الكفَّار الذين كذَّبوا بالله تعالى ورُسله عليهم السَّلام، غيرَ مُقرِّين بهم ولا مُنقادِين إليهم، قدْ فعلوا بذلك ما ليس لهم فِعْلُه، ووضَعوا أنفسَهم في غير ما ينبغي أن يكونوا عليه، واختاروا لأنفسهم الكُفْرَ فخسِروها.

اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ

(255).

– عن أُبَيّ بن كَعْب رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ – ﷺ – قال له: ((يا أبا المنذِر، أَتدري أيُّ آيةٍ من كتاب اللهِ معك أَعْظمُ؟.

قال: قلتُ: اللهُ ورسولُه أعلمُ، قال: يا أبا المنذِرُ، أَتدري أيُّ آيةٍ من كتاب اللهِ معك أَعْظمُ؟. قال: قلتُ: اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ. قال: فضرب في صدري، وقال: واللهِ، لِيَهْنِك العِلمُ أبا المنذِرِ)).[388]

– وعن أبي هُرَيرَة رضي الله عنه، قال: ((وكَّلَني رسولُ اللهِ – ﷺ – بحفظِ زكاةِ رمضانَ، فأتاني آتٍ، فجعَل يَحْثو من الطَّعامِ، فأخذْتُه وقلتُ: واللهِ لأرفعنَّكَ إلى رسولِ اللهِ – ﷺ –، قال: إني مُحتاجٌ، وعليَّ عِيالٌ، ولي حاجةٌ شديدةٌ، قال: فخلَّيتُ عنه، فأصبَحْتُ، فقال النبيُّ – ﷺ –: يا أبا هُرَيرَةَ، ما فعَل أسيرُك البارِحَةَ؟، قال: قلتُ: يا رسولَ اللهِ، شَكَا حاجةً شديدةً وعِيالًا، فرحِمْتُه فخلَّيْتُ سبيلَه، قال: أَمَا إنَّه قد كذَبَك، وسيعودُ، فعرَفْتُ أنَّه سيعودُ؛ لقَولِ رسولِ اللهِ – ﷺ –: إنَّه سيعودُ، فرصَدْتُه، فجاء يحثو من الطَّعامِ فأخَذْتُه، فقلتُ: لأرفعَنَّك إلى رسولِ اللهِ – ﷺ –، قال: دَعْني؛ فإنِّي مُحتاجٌ، وعليَّ عِيالٌ، لا أعودُ، فرحِمْتُه فخلَّيْتُ سبيلَه، فأصبَحْتُ، فقال لي رسولُ اللهِ – ﷺ –: يا أبا هُرَيرَةَ، ما فعَل أسيرُك، قلتُ: يا رسولَ اللهِ، شَكا حاجةً شديدةً وعِيالًا، فرحِمْتُه فخلَّيْتُ سبيلَه، قال: أَمَا إنَّه كذَبَك، وسيعودُ، فرصَدْتُه الثالثةَ، فجاء يَحْثو من الطعامِ، فأخَذْتُه فقلتُ: لأرفعَنَّك إلى رسولِ اللهِ، وهذا آخِرُ ثلاثِ مراتٍ تزعُمُ لا تعودُ، ثم تعودُ، قال: دَعْني، أُعلِّمْك كلماتٍ ينفَعُك اللهُ بها، قلتُ: ما هو؟ قال: إذا أوَيْتَ إلى فِراشِك، فاقرأ آيةَ الكرسيِّ: اللهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ، حتى تختِمَ الآيةَ؛

(388) رواه مسلم (810).

فإنَّك لن يزالَ عليك من اللهَ حافِظٌ، ولا يَقربَنَّك شيطانٌ حتى تُصبِحَ، فخلَّيْتُ سبيلَه فأصبَحْتُ، فقال لي رسولُ اللهِ – ﷺ –: ما فعَل أسيرُك البارِحَةَ؟، قلتُ: يا رسولَ الله، زعَم أنه يُعَلِّمُني كلماتٍ، ينفَعُني اللهُ بها فخلَّيْتُ سبيلَه، قال: ما هي؟ قلتُ: قال لي: إذا أوَيْتَ إلى فِراشِك، فاقرَأْ آيةَ الكرسِيِّ من أوَّلِها حتى تختِمَ: اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ، وقال لي: لن يَزالَ عليك من اللهِ حافِظٌ، ولا يقربُك شيطانٌ حتى تُصبِحَ– وكانوا أحرصَ شيءٍ على الخيرِ، فقال النبيُّ – ﷺ –: أمَا إنَّه قد صدَقَك وهو كَذوبٌ، تعلَمُ من تُخاطِبُ منذُ ثلاثِ ليالٍ يا أبا هُرَيرَةَ؟ قال: لا، قال: ذاكَ شيطانٌ)).(389)

اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ.

أي: لا أحدَ معبودٌ بحقٍّ سوى الله تعالى؛ فهو وحده المستحِقُّ للعبادة حبًّا وتعظيمًا له تعالى؛ لكمال صفاته.

كما قال تعالى: ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ [الحج: 62].

الْحَيُّ الْقَيُّومُ.

أي: إنَّ الله تبارك وتعالى هو الذي له الحياة الكاملة، التي لم يَسبِقها عَدَمٌ، ولا يَلحَقها زَوال، المُستلزِمة لجميع صِفاتِ الكمال، وهو أيضًا القائم بنفسه؛ فلا يحتاج لأحد، القائمُ بأمور غيره من

---

(389) رواه البخاري (2311).

خَلْقه من الرِّزق وغيره؛ فكلُّ الموجودات إليه مُفتَقِرة، ولا قِوام لها بدونه، وهذه القَيُّوميَّة مُستلزِمةٌ لجميع أفعال الكمال.

كما قال تعالى: وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ [الفرقان: 58].

وقال سبحانه: وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ [الروم: 25].

لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ.

أي: ومِن كمال حياته وقيُّوميَّته أنَّه لا يَعتريه سبحانه نُعاسٌ، ولا يَغلِبه نومٌ.(390)

لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ.

أي: إنَّه يَملِك وحده جميعَ ما في الكون بغير نِدٍّ ولا شريك، والجميعُ عبيده ومملوكون له؛ فلا تنبغي العبادةُ لغيره سبحانه.

مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ.

أي: لا أحدَ يتجاسَر على القيام بالشَّفاعة عند الله تعالى إلَّا بعد إذنه جلَّ وعلا.

---

(390) ذكر ابنُ عطية (٢/٢٣) أن معنى السِّنَة: «بدء النعاس، وهو فتور يعتري الإنسان، وترنيق في عينيه، وليس يفقد معه كل ذهنه، والنوم هو المستثقل الذي يزول معه الذهن».
ثم علَّق بقوله: «وبهذا المعنى في السِّنَة فسَّر الضحاك، والسُّدِّي».

يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ.

أي: إنَّ الله تعالى يعلم ما بين أيدي خلقه من الأمور الماضية، ويعلم أيضًا ما خلفهم من الأمور المستقبلة.

وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ.

أي: إنَّ سائر من دونه سبحانه لا يعلمون من علم الله تعالى شيئًا البتَّةَ، فلا يعلمون ما بين أيديهم ولا ما خلفهم ولا غير ذلك، إلَّا ما علَّمهم الله تعالى بمشيئته.

وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ.

أي: أحاطَ كرسيُّ المَلِك – تعالى وتقدَّس – بالسَّموات والأرض – على اتِّساعهما وعظمتهما – وشَمِلهما.

والكُرسيُّ: هو موضِع قَدَمَي الربِّ عزَّ وجلَّ.

فعن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما، قال: (الكرسيُّ موضعُ القدميْنِ، والعرشُ لا يَقْدِرُ أحدٌ قدْرَه). (391)

---

(391) أخرجه عبد الرزَّاق في ((تفسيره)) (3030)، وابن خزيمة في ((التوحيد)) (249/1)، وابن أبي حاتم في ((تفسيره)) (2601)، وأبو الشيخ في ((العظمة)) (582/2)، والحاكم (3116).
وثَّق رواته الذهبي في ((العلو)) (76)، وصحَّحه موقوفًا ابن كثير في ((تفسير القرآن)) (457/1)، والألباني في ((شرح الطحاوية)) (279).

وَلَا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا.

أي: لا يُثقِله ولا يَشقُّ عليه حِفْظ السَّموات والأرض، بل ذلك سَهْلٌ عليه ويسير.

وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ.

أي: إنَّه تَبارك وتقدَّس ذو العُلُوِّ المطلَق على كلِّ مخلوقاته، فهو عليٌّ بذاته فوق عرشه، عليٌّ على خَلْقه بقهره، وكمال صفاته، وهو ذو العَظمة المطلَقة في ذاته وصفاته وسُلطانه، وكلُّ ما سواه حقيرٌ بين يديه، صغيرٌ بالنِّسبة إليه، فلا شيءَ أعظم منه سبحانه وتعالى.

لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (256).

سبب النُّزول:

عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما، قال: (كانت المرأةُ من نِساء الأنصار تكون مِقلاةً، فتجعَل على نَفْسها إنْ عاش لها ولدٌ أن تُهوِّدَه، فلمَّا أُجليتِ النَّضيرُ كان فيهم من أبناء الأنصار، فقالوا: لا نَدَع أبناءَنا؛ فأنزل الله تعالى: لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ........ الآية).(392)

---

(392) أخرجه الواحديُّ في ((أسباب النزول)) (ص: 52).

صحَّحه ابن دقيق العيد في ((الاقتراح)) (93)، وصحَّح إسنادَه ابن كثير في ((إرشاد الفقيه)) (169/2) وقال: لكن رُوي عن سعيد بن جُبَير مرسلًا.

لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ.

أي: لا ينبغي أن تُرغِموا أحدًا على اعتناق الدِّين الإسلامي؛ إذ لا حاجةَ لذلك؛ فهو أمرٌ واضحٌ وجَلِيٌّ، قدْ تَميَّز من الضَّلال، وتبيَّنت أدلَّته، وظهرتْ حقائقه، فلا خفاءَ فيه ولا غموض، فمَن هداه الله تعالى له، وشرَح صدرَه، دخَل فيه على بيِّنة، ومَن أعمى الله قلبَه، فإنَّه لا يُفيده الدخولُ فيه مُكرَهًا عليه.

والمقصودُ: أنَّ دِين الإسلام من حيث هو، واضحةٌ فيه معالمُ الحقِّ، ويتمايَز بجلاء عمَّا سواه من الباطل، ممَّا يُوجِب اعتناقَه مِن قِبَل كلِّ مُنصِفٍ مُرادُه اقتفاءُ الحقِّ.

فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا.

أي: إنَّ مَن جحَد ربوبيَّة الطَّاغوت وأُلوهيَّته المزعومتين، فتبرَّأ منه ومن عبادته وطاعته- والطَّاغوت: هو كلُّ ما تَجاوَز به العبدُ حدَّه، من معبود، أو متبوع، أو مُطاع- وآمَن بالله تعالى وحده وجودًا ورُبوبيَّةً وأُلوهيَّةً، وبما له من أسماء حسنى، وصفات عُلا، فعبَده وقَبِل خبرَه، وأذْعن لطلبه واتَّقاه، ممتثِلًا أمره ومجتنبًا نهيه، فإنَّه قد تمَسَّك تمسُّكًا شديدًا بأقوى رِباط، وأَحْكمِ أمر، وهو دِينُ الله تعالى الحقُّ المبرَم، وهو أَوثَق ما يُتمسَّك به لطلب العِصمة والنَّجاة، فيبقى ثابتًا على الحقِّ، مستقيمًا عليه، دون أن يَخشى انقطاعًا وانفكاكًا بخِذلان الله تعالى له وإسلامه إلى التَّهلُكة.

وذكَر الشوكاني في ((نيل الأوطار)) (217/8): أنه رُوي من طرق جميع رِجاله لا مطعنَ فيهم.

كما قال تعالى: وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ [النحل: 36].

وقال عزَّ وجلَّ: وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ [الزمر: 17].

وقال سبحانه: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا [النساء: 60].

وعن قَيس بن عبَّاد قال: ((كنتُ بالمدينةِ في ناسٍ فيهم بعضُ أصحابِ النبيِّ - ﷺ -؛ فجاء رجلٌ في وجهِه أثرٌ من خشوعٍ، فقال بعضُ القومِ: هذا رجلٌ من أهلِ الجنةِ، هذا رجلٌ من أهلِ الجنةِ، فصلَّى ركعتينِ يتجوَّزُ فيهما، ثم خرَج فاتَّبَعْتُه، فدخل منزلَه، ودخلتُ، فتحدَّثنا، فلمَّا استأنس، قلتُ له: إنَّك لَمَّا دخلتَ قبلُ، قال رجلٌ: كذا وكذا، قال: سبحان اللهِ ما ينبغي لأحدٍ أن يقول ما لا يعلمُ، وسأُحدِّثك لِمَ ذاك، رأيتُ رؤيا على عهدِ رسولِ اللهِ - ﷺ -، فقصصتُها عليه، رأيتُني في روضةٍ- ذكَر سَعَتَها وعُشْبَها وخُضْرتَها- ووسَطِ الرَّوضةِ عمودٌ من حديدٍ، أسفلُه في الأرضِ، وأعلاهُ في السَّماءِ، في أعلاهُ عروةٌ، فقيل لي: ارْقَه، فقلتُ له: لا أستطيعُ، فجاءني مِنْصَفٌ- قال ابنُ عونٍ: والمِنْصَفُ: الخادمُ- فقَال بثيابي مِن خَلْفي- وصَفَ أنَّهُ رفعَه من خلفِه بيدِه- فرقِيتُ حتى كنتُ في أعلى العمودِ، فأخذتُ بالعروةِ، فقيل لي: استَمسِك، فلقد استيقظتُ وإنَّها لفي يدي، فقصصتُها على النبيِّ - ﷺ

-، فقال: تلك الرَّوضةُ: الإسلامُ، وذلك العمودُ عمودُ الإسلامِ، وتلك العُروةُ عُروةُ الوُثْقى، وأنتَ على الإسلامِ حتى تموتَ، قال: والرجلُ عبدُ اللهِ بنُ سلَام)).[393]

وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ.

أي: إنَّ الله تعالى يسمعُ كلَّ شيء، ومنه سَماعُه إعلانَ من أعلن الكفرَ بالطاغوتِ، والإيمانَ باللهِ، وإعلانَ من أعلن خلافَ ذلك، ويعلمُ أيضًا كلَّ شيء سبحانه، ومن ذلك علمه بما في صدور خلقه مِن الإيمانِ والكفرِ؛ فيُجازي كلَّ واحدٍ منهم بحسب ما يَنطِق به لسانه، وما تُضمِره نَفْسه؛ إنْ خيرًا فخير، وإنْ شرًّا فشر.

اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (257).

اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ.

أي: مَن آمَن بالله حقًّا، فإنَّه جلَّ وعلا يتولَّاه على الدوام، فيكون عونًا له ونصيرًا، ويؤيّده ويوفّقه، ويمكّنه من التوغُّل شيئًا فشيئًا في طريق اليقين الأوحد، فيَخرُج من ظلمات الضَّلال، ويَخترِق حُجُبَ

(393) رواه البخاري (3813)، ومسلم (2484) واللفظ له.

الشُّبهات والشَّهوات المظلِمة، فيَنكشِف له نورُ الإيمان واليقين، ويُؤتَى نَفاذَ البصيرةِ، ويتجدَّد له السموُّ في مقامات الإيمان، والصُّعود في درجات اليقين، فيُبصِر قلبُه حقائقَ الأمور أكثرَ فأكثر.

كما قال جلَّ وعلا: قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ [الأعراف: 195-196].

وقال تعالى: وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ [محمد: 17].

وقال سبحانه: هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ [الحديد: 9].

وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ.

أي: إنَّ الكفار يتولَّاهم الطاغوتُ؛ فهو حليفهم الذي يؤيِّدهم ويُعينهم، ويُغويهم بدعوى نَصْرهم، وطَلَب فلاحِهم، ومن أعظم الطَّواغيت الشَّيطان؛ فإنَّه يُسلَّط عليهم؛ عقوبةً لهم، فيُزعِجهم إلى الضَّلال إزعاجًا، فيُخرِجهم من الإيمان- إنْ كانوا مؤمنين من قبل- أو يُخرِجهم من نور الفِطرة السَّليمة، أو يُزيِّن لهم مرَّة بعد مرَّة ما هم عليه من الكُفْر والشِّرك، فيَظلُّون باقين في تلك الحُجُبِ المظلِمة التي تزداد كثافةً، وتَحجُب عن أبصارِ قلوبِهم رؤيةَ حقائقِ الإيمان وأدلَّته وطريقه، إلى أنْ يَحينَ انتقالُهم إلى مُستقرِّهم الأخير، فيُلازِمون النَّارَ بلا نهاية، وبئس المصير.

كما قال تعالى: وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [الأنعام: 121–122].

وقال جل وعلا: إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا لَعَنَهُ اللهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا [النساء: 116–121].

وقال سبحانه: الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا [النساء: 76].

وقال عزَّ وجلَّ: وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ [النور: 39–40].

سُورةُ البَقَرَةِ

الآيات (258-260)

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (258)

أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (259)

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ **(260)**

غريب الكلمات:

فَبُهِتَ: انقَطع، وذهبتْ حُجَّتُه، ودَهِش وتحيَّر.

خَاوِيَةٌ: خالية، وخراب؛ فأصْلُ الخَوَاء: الخلوُّ، والسُّقوط، والخلاء.

عُرُوشِهَا: سُقُوفها، وأصْل العَرْش: الارتفاعُ في شيء مبني.

أَنَّى: حرْف للبحث عن الحال والمكان، بمعنى (كيف) و(أين)؛ لتضمُّنه معناهما.

لَمْ يَتَسَنَّهْ: لم يتغيَّر بمرِّ السِّنينَ عليه، مأخوذ من السَّنَهْ، وأصْله يتسنَّن، أُبدِلت النُّونُ هاءً.

نُنْشِزُهَا: نُحْيِيها، ونرفعها إلى مواضِعها، ونُحرِّك بعضَها إلى بعض؛ فأصْل النَّشْزِ: الارتفاع والعُلُوُّ.

فَصُرْهُنَّ: أمِلْهُنَّ إليك، واجْمَعهن، وضُمَّهنَ إليكَ، أو صِحْ بِهِنَّ، وصِرهنَّ- بكسر الصَّاد -: قطِّعهنَّ.

سَعْيًا: السَّعي: المشي السَّريع دون العَدْو، وقيل: المعنى هنا: عَدوًا، ويُقال: مشيًا على أرجُلهنَّ؛ لأنَّه لا يُقال للطَّائر إذا طار: سعَى.

تفسير الآيات:

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (258).

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ.

أي: ألم تَنظُر يا محمَّد، بقلبك مُتعجِّبًا من هذا المَلِك الذي خاصَم إبراهيمَ عليه الصَّلاة والسَّلام، وناظَرَه في وجود ربِّه ورُبوبيَّته وأُلوهيَّته؟ هل رأيتَ أحدًا مِثْله يُنكِر أن يكون ثَمَّ إلهٌ غيره؟ وما حمَله على هذا التجرُّؤ والتجاهل والمحاجَّة فيما لا يَقبَل الشكَّ، إلَّا طغيانُه وتجبُّره؛ بسبب تملُّكه على رعيَّته مُلْكًا لا يُنازِعه أحدٌ فيه لمدَّةٍ طويلة، فاستكبَرَ وبغى، فأَنكَر وجودَ العليِّ الأعلى.

إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ.

أي: ألم ترَ- يا محمَّد- إلى ذلك المُحاجِج في أمرِ الربِّ عزَّ وجلَّ، حين أخبرَه إبراهيمُ عليه الصَّلاة والسَّلام بدليلٍ يُثبِت وجودَ الربِّ ورُبوبيَّته وأحقِّيَّته وحده بالعبادة؛ فهو الخالق المالك المدبِّر، المُنفرِد بأنواع التصرُّف، وقد ذكَر إبراهيمُ منها على سبيل الخصوص: الإحياءَ والإماتةَ، وهي مِن أعظم أنواع التَّدابير التي لا يَقدِر عليها أحدٌ سوى الله تعالى، فيُحْيِي ما كان ميتًا ممَّا يَشاء مِن خَلْقه، ويُميتُ مَن

أراد إماتتَه من الأحياء، فحدوثُ هذه الأشياء المشاهَدة بعد عَدَمِها، وعدمها بعد وجودها- دليلٌ قاطِع وواضحٌ على وجود الفاعل المختار؛ لأنَّها لم تَحدُث بنفسها، فلا بدَّ لها من مُوجِدٍ أَوجَدَها، وهو الربُّ الذي دعا إبراهيمُ إلى عبادته وحده لا شريكَ له، فحينها ردَّ عليه المَلِك مُستكبِرًا ومُوهِمًا بأنَّه يَملِك فِعْلَ ذلك أيضًا، غير مُنكِر أنَّ الله تعالى يفعله؛ إذ لم يَقصُر الأمرَ على نفْسه، التي ادَّعى لها هذا المقامَ عنادًا ولَجاجًا بالباطل، مُدَّعيًا أنَّ استبقاءه مَن أراد قتْله، إحياءٌ منه له، وقتْلَه لآخر إماتةٌ له.

قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ.

أي: لَمَّا أصرَّ هذا الكافرُ على المُغالطةِ والمُكابَرة، ردَّ عليه إبراهيم عليه الصَّلاة والسَّلام من خلال ما زعَمه، بأنَّه إنْ كان حقًّا صادقًا في دعواه بأنَّه يَملِك القُدرةَ على الإحياء والإماتة؛ فإنَّه ينبغي أن يكون قادرًا كذلك على التصرُّف في الوجودِ كتسخير كواكبه، قائلًا: هذه الشَّمس الظَّاهرة للعِيان يُحرِّكها اللهُ الذي أَعبُده، فيأتي بها كلَّ يوم لتَطلُع من جِهة المَشرِق، فإن كنتَ إلهًا تُحيي وتُميت كما تَزعُم، فاجعلْها تَطلُع من جِهة المغرب.

فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ.

أي: لَمَّا عَلِم هذا المُحاجِجُ عجزَه وانقطاعَه عن الإدلاء بحُجَّة- إذ لا قِبَل له بإيراد شُبْهة تُشوِّش دليلَ إبراهيم عليه السَّلام، ولا عَرْضِ قادحٍ يَقْدَح فيه- تحيَّر واندهش، فأُخرِس مغلوبًا، وبَطَلت حُجَّته، وقامت عليه حُجَّة الحقّ.

وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ.

أي: إنَّ الله تعالى لا يُوفِّق أهلَ الباطلِ الذين ظلموا أنفسَهم بإيثارهم الكُفْرَ على الإيمان، بل يُبقِيهم على كُفْرهم وضَلالهم، ولو كان قَصْدهم الهدايةَ إلى الحقِّ، لوفَّقهم ويسَّر لهم الوصولَ إليه، فحُجَجهم باطِلة، لا يُمكِن أنْ يُبطِلوا بها حُججَ أهلِ الحقّ عند المحاجَّة والمُناظَرة.

أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (259).

أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا.

أي: أَلَمْ تنظُر أيضًا يا محمَّد، مُتعجِّبًا من هذا الرجل الذي مرَّ على قرية فارِغةٍ،(394) قد فَنِي أهلُها فماتوا جميعًا، وقد سقطت سُقُوفُها، وخرَّت الجِدران عليها، فخَرِبتْ أبنيتُها، فأصبحت مُوحِشةً بلا أنيس، مُقْفِرةً بلا عمارة.

قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا.

أي: لَمَّا مرَّ هذا الرجُلُ بذلك الموضِع الخَرِب الذي كان عامرًا بالحياة، مأهولًا بالسُّكان، وقَف عليه مُتفكِّرًا فيما آل إليه حالُ هذا المكان، فتساءل مُستبعِدًا كيف يُمكِن عَوْد الحياة إلى ما كانت عليه سابقًا.

فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ.

أي: إنَّ الله تعالى أراد أن يُرِيَه قُدرتَه على ما استَبْعَدَه، بضرْب المَثَل له في نَفْسه، فقبَض اللهُ سبحانه رُوحَه، وظلَّ مَيِّتًا لمدَّة مئة عامٍ كاملة، ثم أحياه الله عزَّ وجلَّ، فسأله عن مدة مُكْثه في هذا المكان، فأجاب– شاكًّا– بأنَّ لُبْثه لن يعدو يومًا كاملًا أو جزءًا من يوم، ظنًّا منه أنَّه كان نائمًا فاستيقظ.

(394) رَجَّح ابنُ جرير (٤/٥٨١، ٥٨٢) مستندًا إلى ظاهر لفظ الآية عَدَمَ تعيينِ المارِّ على قرية، وأنّه يجوزُ أن يكونَ مَن ذُكِرَ في أقوالِ السّلفِ، مبيّنًا أنّه لا حاجة إلى معرفة اسمه؛ إذ ليس ذلك هو المقصود بالآية، وإنّما المقصود بها تعريف المنكرين قدرةَ الله على إحيائه خلقه بعد مماتهم، وإعادته إياهم بعد فنائهم.

قيل: لأنَّه مات في أوَّل النَّهار وبُعِث في آخره بعد مِئة عام، فظنَّ لما رأى آخِرَ النَّهار أنَّه بقيَّة يومه الذي كان فيه حيًّا، أو أنَّه آخِرِ النَّهار من اليوم التَّالي.

قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ.

أي: ليس الأمرُ كما ذكرتَ، فلمْ تمكُث يومًا أو بعضَ يوم، وإنما مكثتَ مئة عامٍ بتمامها، فلْتُشاهِد الآن خوارقَ العادتِ الدَّالَّة على قُدْرة الربِّ عزَّ وجلَّ، فانظُرْ أولًا إلى ما بحوزتك من طعامٍ وشراب، فإنه لم يتغيَّر مُطلَقًا بمرور كلِّ تلك السِّنين، خلافًا لما جرتْ به العادة، فإنَّ الطعامَ والشَّراب من أسرع الأشياء تغيُّرًا.

وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ.

أي: انظُر بعينَي رأسِك إلى حمارك، وقد مات وتمزَّق لحمُه وجِلدُه، وتفرَّقت أوصالُه، وبَدَتْ عِظامُه النَّخِرة؛ فانظر كيف يُحيِيه اللهُ عزَّ وجلَّ؟

وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ.

أي: أَمتْناك مِئةَ عامٍ، ثمَّ بعثناك لنُصيِّرك حُجَّةً ودليلًا وعلامةً مرئيَّةً على قدرة الله تعالى، القادر وحده على فِعْل ما يشاء مِن إحياء وإماتة، وعلى إثبات البعثِ من القبور يوم القيامة؛ مِصداقًا لما أَخبرَتْ به رُسلُ الله عليهم السَّلام، وذلك لمن عرَفه مِن ولدِه وقومه ممن عَلِم موته، فرأوا ذاته وتحقَّقوا صفاتِه، ولعموم النّاس كذلك.

وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا.

أي: انظُر عيانًا إلى تلك العِظام البالية المتفرِّقة لحمارك، وشاهِدْ كيف نُحْيِيها، وهي ترتفعُ من الأرض فتتَّصلُ ببعضها، فنردُّها إلى مواضعها من الجسد، ونَسترُها باللَّحمِ بعد التئامها، فأحيا الله عزَّ وجلَّ الحِمارَ بالإعادة، من بعد تَحلُّل جَسدِه.

القراءات ذات الأثر في التفسير:

في قوله تعالى: نُنْشِزُهَا قراءتان:

1- نُنْشِزُهَا من النَّشَز، وهو: ما ارتفع مِن الأرضِ، والمعنى: نجعلُها بعدَ بِلاها وهمودِها ناشزةً، أي: نرفعُ بعضَها إلى بعضٍ.[395]

2- نُنْشِرُهَا من الإنشارِ، وهو الإحياءُ، أي: نُحييها بعدَ موتِها.[396]

---

(395) قرأ بها ابن عامر والكوفيُّون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (231/2).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (222/1)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 144).

(396) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (231/2).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (222/1)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 144).

فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

أي: فلما اتَّضح له ما كان مُستبعِدًا وقوعه، وظهر له عيانًا، أمره الله سبحانه أن يُدرِك الآن إدراكًا جازمًا بأنَّ الذي فعَل تلك الأشياء العجيبة بقدرته، قادِر أيضًا على أيِّ شيء أراده، فلا يُعجِزه شيء أبدًا، فقال: أُوقِن مطمئنًّا الآن- أكثرَ من أيِّ وقت مضى- بقُدرةِ الله، التي ليستْ لها حدودٌ.

القراءات ذات الأثر في التفسير:

في قوله تعالى: قَالَ أَعْلَمُ قراءتان:

1- قراءة اعْلَمْ على معنى أنه أمرٌ من الله عزَّ وجلَّ له بالعلم.(397)

2- قراءة أَعْلَمُ على معنى أنَّ ذلك من مقالة الذي أحياه الله تعالى.(398)

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (260).

---

(397) قرأ بها حمزة والكسائي. ((النشر)) لابن الجزري (2/231، 232).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (1/223، 224).

(398) قرأ بها الباقون. ((النشر)) لابن الجزري (2/231، 232).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (1/223، 224).

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى.

أي: واذْكُرْ يا محمَّد، حين طلَب إبراهيمُ عليه السَّلام من ربِّه أنْ يُشاهِد بعينيه كيفيَّةَ إحياء الموتى.

قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي.

أي: فقال الله تعالى لخليله عليه السَّلام: أَوَلستَ قد آمنتَ؟ يعني: أنَّه ما دُمتَ قد آمَنتَ فلِمَ تَطلُبُ هذه الرؤيةَ؟ فأجاب نبيُّ الله – ﷺ – بأنَّه مؤمن، لا يَعْتري إيمانَه أدنى شكٍّ، ولكنَّه لفَرْط محبَّته للوصولِ إلى مرتبةِ المُعايَنة، رامَ الترقِّي من درجة عِلْم اليقين إلى عَين اليقين، حتى يزدادَ إيمانًا، ويزدادَ قلبُه طُمأنينةً.

قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ.

أي: أجاب اللهُ تعالى طلبَه، فأمَره أنْ يأخذ أربعةَ طيور، وأنْ يَذبَحهنَّ ويُقطِّعهنَّ؛ ليكون ذلك بمرأى منه، ولِيَتِمَّ الأمرُ على يديه.(399)

---

(399) قال ابنُ كثير (٢/٤٥٥): «اختلف المفسرون في هذه الأربعة ما هي؟ وإن كان لا طائل تحت تعيينها، إذ لو كان في ذلك مُهِمٌّ لَنصَّ عليه القرآنُ».

ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا.

أي: أَمَر اللهُ تعالى إبراهيمَ عليه السَّلام بتفريق أعضاء الطُّيور الأربعة التي قطَّعهنَّ، وقام بتَنْحِيتهنَّ عنه، بتَبديدهنَّ أجزاءً على رؤوس عدَّة جبالٍ؛ لتكون ظاهرةً للعِيان، وأَمَره أنْ يدعوهنَّ، ليُقبِلنَ عليه مُسرِعات، ففعل إبراهيمُ عليه السَّلام ذلك، وجئنَ طائراتٍ على أكمل ما يكون من الحياة.

قال تعالى: وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ [الأنعام: 75].

وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ.

أي: اعْلَم يا إبراهيمُ، أنَّ الذي فعَل ذلك له كمالُ العِزَّة، فلا يَغلِبه شيءٌ، ولا يَستعصي عليه شيءٌ أراده، وأنَّ أفعاله وأقواله وأقداره وشرائعه كلَّها صادرةٌ عن كمال حِكْمته؛ فيَضَع كلَّ شيء في مُوضِعه الصَّحيح، ولا يَفعل- أبدًا- شيئًا عبثًا.

سُورةُ البَقَرَةِ

الآيات (261-265)

مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ
حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (261) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ
(262) قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (263)
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا
يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا
يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (264)
وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا
وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (265)

غريب الكلمات:

أَذًى: ما يُكره ويُغتمُّ به، ولا يُقَرُّ عليه.

وَمَغْفِرَةٌ: سَترٌ لخَلَّة المسلم وفاقته، وترْك أذيَّته؛ فأصْل الغَفْر: السَّتر، والوقاية.

رِئَاءَ النَّاسِ: مراءاةً للناس، أي: فِعل الشَّيء ليراه الناس، وأصْله من الرُّؤية.

صَفْوَانٍ: كالصَّفا حَجَر أَمْلس، وهو اسمُ واحدٍ معناه جمعٌ، واحدتُه صَفوانة؛ وأصل الصَّفاء: خُلُوص الشَّيء من الشَّوب، ومنه قيل: الصَّفا، للحجارة الصافية.

وَابِلٌ: المطر الثَّقيل، أو المطر الشَّديد.

صَلْدًا: صلبًا يابسًا أملسَ، وهو الحجر الصُّلب الذي لا يُنبِت؛ فأصْل الصَّلد: الصَّلابة واليُبْس.

رَبْوَةٍ: المكان المرتفِع من الأرض، وأصْل الرَّبو: العُلُوُّ والزِّيادة والنَّماء.

فَطَلٌّ: الطَّلُّ: أضعفُ المَطر، وأصْل الطلِّ: غَضاضةُ الشَّيء، وحُسْنه ونَضْرته؛ سُمِّي أضعفُ المَطَر به؛ لأنَّه يُحسِّن الأرضَ.

تفسير الآيات:

مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (261).

مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ.

أي: شبَّه الله سبحانه في هذا المَثَل المنفِقَ بالبَاذِر، والنَّفقةَ في سبيله بالبَذْرة؛ فإنَّ مَن يُنفِق في أوجه الخير والبِرِّ ابتغاءَ مَرْضات الله تعالى– ومن ذلك النَّفقة في الجهاد في سبيله– كالذي غيَّب في أرضٍ طيِّبة زكيَّة بَذرةً صالحةً للنُّمو، فأخرجتْ سَبْع سنابل، وقد اشتملت كلُّ واحدة منها على مِئة حَبَّة، فكانت النتيجة سبعَمِئة حبَّة، خرجت من حبَّة واحدة، فكذلك النَّفقة الطَّيِّبة يُنمِّيها الله عزَّ وجلَّ لبَاذِلها، ويُضاعِف له أجرَها سبعمِئة مرَّة.

عن عُقْبة بن عمرٍو رضي الله عنه، قال: (جاء رَجلٌ بناقةٍ مَخطُومة،[400] فقال: هذه في سبيل الله، فقال رسولُ اللهِ – ﷺ –: ((لك بها يومَ القيامةِ سَبعُمئةِ ناقةٍ، كلُّها مَخطومة).[401]

(400) مخطومة: أي: فيها خِطام، وهو قريب من الزمام، وخِطام البعير أن يُؤخَذ حبل من ليف أو شَعر أو كَتَّان، فيُجعل في أحد طرفيه حلقةٌ ثم يشدُّ فيه الطَّرف الآخر حتى يصيرَ كالحلقة، ثم يُقاد البعير ثم يثنى على مخطمه.
وأمَّا الذي يُجعل في الأنف دقيقًا، فهو الزمام.
ينظر: ((شرح النووي على مسلم)) (13/ 38)، ((النهاية)) لابن الأثير (2/ 120).
(401) رواه مسلم (1892).

وعن أبي هُرَيرَة رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ – ﷺ – قال: ((كلُّ عملِ ابنِ آدمَ يُضاعَفُ؛ الحسنةُ عشرُ أمثالها إلى سبعمئةِ ضِعفٍ، قال اللهُ عزَّ وجلَّ: إلَّا الصَّومَ؛ فإنَّهُ لي، وأنا أَجزي بهِ...)) الحديث.[402]

وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ.

أي: إنَّ الله تعالى يُضاعِف هذه المضاعفةَ إلى السَّبعمئة، أو إلى أكثرَ من ذلك، بحسَب مشيئته، وذلك وَفْق ما تَقتضيه حِكمتُه، فإنَّ المنفِقين يتفاوتون إيمانًا وإخلاصًا لله تعالى، وتتفاوت نفقاتُهم كذلك بحسَب حِلِّها ونَفْعها، وشدَّة الحاجة إليها.

عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما، أنَّ النبيَّ – ﷺ – قال: ((إنَّ اللهَ كتب الحسناتِ والسيِّئاتِ، ثُمَّ بيَّنَ ذلِكَ، فمَنْ هَمَّ بحسنةٍ فلمْ يعملْها، كتبَها اللهُ عندَهُ حسنَةً كامِلَةً، وإنْ همَّ بِها فعمِلَها كتبَها اللهُ عزَّ وجلَّ عندَه عشرَ حسنَاتٍ إلى سَبعمِئَةِ ضِعْفٍ إلى أضعافٍ كثيرةٍ، وإنْ همَّ بسيِّئَةٍ فلمْ يَعملْها، كَتبَها اللهُ عندَهُ حسَنَةً كامِلَةً، وإنْ هَمَّ بِها فعَمِلَها، كَتبَها اللهُ سيئَةً واحِدَةً)).[403]

وفِي روايَةٍ وزادَ: ومَحاها اللهُ، ولَا يَهْلِكُ علَى اللهِ إلَّا هالِكٌ)).[404]

---

(402) رواه مسلم (1151).
(403) رواه البخاري (6491)، ومسلم (131).
(404) رواه مسلم (131).

وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ.

أي: إنَّ الله تعالى واسعُ الفضل والعطاء؛ ولذا يُضاعِف لمن يشاء هذه المضاعفة أو يَزيد عليها، فلا يَستبعِدنَّ أحدٌ ذلك الأجرَ الكريمَ، أو يتوهَّم أنَّ فيه مُبالَغةً؛ فإنَّ الله تعالى لا يَتعاظمه شيءٌ، ولا يَنقُصه العطاءُ مهما عَظُم، ولكن لا ينبغي أن يُظَنَّ أنَّ سَعَة عطائه سبحانه تقتضي حصولَ تلك الأجور لكلِّ مُنفِق؛ فإنَّه عليمٌ بمن هو أهلٌ لهذا الأجر، ومَن لا يَستَحِقُّه، فإنَّ سَعَة كَرَمه تعالى لا تُناقِض حِكمتَه، بل يَضعُ فضلَه مواضعَه.

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (262).

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى.

أي: إنَّ الذي يَبذُل أموالَه في أوجه الخير، ابتغاءَ مرضاة الله تعالى، ثم لا يَمتنُّ على مَن أَنفق عليه، سواء بقلبه، أو بلسانه كأنْ يُخبِره بأنَّه تفضَّل عليه بمنحه شيئًا، وأنَّه مَدين له لِقاء معروفه، ولا يقول أو يفعل أيضًا مكروهًا للمُنفَق عليه يُنافي ما قدَّمه له من إحسان، فذلك محظورٌ لِمَا فيه من تَكبُّر المُنفِق واستعلائه، واستعباد المُنفَق عليه، وكسْر قلبِه وإذلاله، بل على المُعطي في سبيل الله تعالى أنْ يشهد دائمًا أنَّ المتفضِّل والمُنعِم حقيقةً هو الله تعالى وحده، وعليه أنْ يتفكَّر أيضًا في أنَّ أجره على الله تعالى بأضعافِ ما أَعطى، فأيُّ حقٍّ بقي له على الآخذ المُحتاج حتى يَمتنَّ عليه، أو يؤذيه بصنائع معروفه؟

عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ – ﷺ – قال: ((ثلاثةٌ لا يُكلِّمُهم اللهُ يومَ القِيامةِ: المنَّان الذي لا يُعطي شيئًا إلَّا مِنَّةً، والمُنَفِّق سِلْعته بالحَلِف الفاجِر، والمُسبِل إزارَه)). وفي روايةٍ: ((ثلاثةٌ لا يُكلِّمُهم اللهُ، ولا يَنظُر إليهم، ولا يُزكِّيهم ولهم عذابٌ أليمٌ)).[405]

لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ.

أي: إنَّ هؤلاء الذين يُنفِقون أموالَهم في سبيل الله تعالى بلا منٍّ ولا أذًى، يَستحِقُّون– وحْدَهم دون غيرهم من المنفقين– ثوابًا وجزاءً من الله تعالى وحده، قد تَكفَّل به الكريم مُقابِلَ صنيعهم هذا، فهو مُوفِّيه إيَّاهم لا محالة، ولهم مع ذلك أيضًا ألَّا يَخافوا من المستقبل ومِن ذلك، عدَم خوفهم عند مَقدَمهم على الله تعالى حين فِراقِهم للدُّنيا، ولا في أهوال القيامة، فلا يَنالُهم فيها مكروهٌ، ولا يُصيبهم فيها عقابٌ، ولا يحزنون أيضًا على ما مضى، ومن ذلك ما يُخلِّفونه وراءهم في الدنيا من أموالٍ وبنينَ عَقِب موتهم؛ لأنَّهم قد صاروا إلى ما هو خيرٌ لهم من ذلك، فحصَلتْ لهم بذلك الخيراتُ، واندفعت عنهم الشرورُ والسيئات.

---

(405) رواه مسلم (106).

قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (263).

قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى.

أي: إنَّ تقديم الإحسان للسَّائلِ حاجةً، عَبْرَ إسدائه قولًا معروفًا تَعرِفه القلوبُ ولا تُنكِره، بردِّه بالقول الجميل والدُّعاء الطَّيِّب له، وغير ذلك ممَّا يُدخِل السُّرورَ على قلبه، أو تقديم الإحسانِ إليه بسَتْرِ سوء حالته، أو بمسامحته وتَجاوُزِه عمَّا لا ينبغي أنْ يَصدُر من السائل من قول أو فِعْل، كما لو وجَد منه بعضَ الجَفوةِ أو الغِلْظة بسبب ردِّه، وعدم تلبية حاجته، فالقول المعروف والمغفرة أفضلُ مُطلَقًا من تقديم يدِ العون للمحتاج، بمساعدةٍ مصحوبة بأذِيَّته والإساءة إليه.

وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ.

أي: إنَّ الله تعالى غنيٌّ عن خَلْقه، وعمَّا يتصدَّقون به؛ فلن يَنالَه شيءٌ من صدقاتِهم، وإنما نفعُها عائدٌ عليهم؛ فكيف يمنُّ أحدٌ بصدقته، ويؤذِي بها عبادَ الله تعالى، مع غِنى الله تعالى عنها؟ وهو مع هذا حليمٌ سبحانه، لا يُعاجِلُ هذا المانَّ بالعقوبة مع قُدْرته على ذلك، بل يعفو عنه ويَصفَح، أو يُمهِله ليتوب إليه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (264).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ.

أي: يُحذِّر اللهُ تعالى عبادَه المؤمنين، من حُبُوط أجرِ ما يَبذُلونه صدقةً في سبيله سبحانه، إنْ صدَر منهم منٌّ أو أذًى على آخِذ الصَّدقة، فيكون حالُهم حينئذٍ موافِقًا لحال المنافِق الذي يَبذُل مالَه لأجل الله تعالى في ظاهرِ الأمر، بينما ينوي في باطِنه أن يُرِيَ النَّاسَ صَنيعَه؛ ليَحمَدوه ويُثْنوا به عليه، وهم لا يُدرِكون في واقع الأمر، حقيقةَ أنَّه لا يؤمن بالله تعالى ولا بالآخرة، فلا يَطمَع في نيل ما فيها من ثواب لِقاء ما يُقدِّمه في الدنيا من معروف.

فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا.

أي: إنَّ قلب هذا المنافق الذي يُنفق مالَه رياءً، غيرَ مؤمن بالله ولا باليوم الآخِر، حالُه في صلابته وشِدَّته، وعدم الانتفاع به- لعدم إيمانه وإخلاصِه لله تعالى- تُشبِهُ حالَ حجر أملس، ونفقة هذا المنافق تُشبه ترابًا يعلو هذا الحجرَ، فهو مستندٌ إليه، يَظنُّ مَن يراه أنه أرضٌ طيِّبة صالحة للإنبات، مثلما يظنُّ مَن يشاهد ظاهرَ حال المنافق أنَّ صدقته مبنيَّة على أساس من الإيمان والإخلاص لله عزَّ وجلَّ، فتُثمر

له حسناتٍ، وشبَّه الله تعالى تعرُّض التراب لمطرٍ غزيرٍ شديد الوقع، بالمانع الذي أبطل صدقتَه، وذهب بأثرها تمامًا. وكما أصبح الحجر في نهاية الأمر، صلبًا كما عُهِد من قبلُ، وخاليًا لا شيءَ عليه من ترابٍ، ولم يبقَ أملٌ في إنبات نبات، فكذلك صدقات هذا المنافِق تَذهب هباءً، لا تُثمر شيئًا من الحسنات وزيادة الإيمان؛ لأنَّه لا أصل لها تُؤسَّس عليه، ولا لها مقصدٌ طيّب تنتهي إليه، فكل ما قدَّمه مضمحل.

فإذا كان يومُ القيامة، وجاء وقتُ حصاد الزَّرع وتلقِّي أجور العاملين، وظنُّوا أنهم سيَنتفعون بما قدَّموه، لم يجدوا شيئًا يحصدُونه، ولا أجرًا يتلقَّوْنه، فقد اضمحلَّ ما قدَّموه كلُّه؛ لأنَّه لم يكُن لله تعالى، فلا تكونوا– أيُّها المؤمنون– كهؤلاء المنافقين، فتُبطلوا أجورَ صدقاتكم بمَنّكم وأذاكم على مَن تصدَّقتم عليه.

وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ.

أي: إنَّ الله سبحانه وتعالى لا يُوفِّق الكفارَ لقَبُول الحقّ وإصابته في نَفَقاتهم وغيرها؛ فلأنَّهم للباطل مُؤثِرون، تَركَهم في ضلالتهم يَعمَهون، قد انصَرفوا عن طريق الحقِّ إلى طُرُق الغواية، فصرَف الله عزَّ وجلَّ قلوبَهم عن الهداية.

وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (265).

وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ.

أي: ضرب الله تعالى مثلًا لصِنفٍ آخرَ من المنفِقين، وهم الذين يُنفِقون أموالَهم صدقةً في أوجه الخير والبِرِّ التي يُحِبُّها الله تعالى، كالجهاد في سبيله؛ دون منٍّ أو أذًى، وإنَّما طلبًا لنيل رِضوان الله عزَّ وجلَّ، وقد أَقدَموا صادِقين على البذل من جِهة أنفسهم، لم يَحمِلهم أحدٌ على القيام بذلك، فأنفقوا بعزائمَ قويَّة، مُتحقِّقين ومُوقِنين بوعد الله تعالى على إثابته المنفقين، فلا يَتقاعَسون أو يتردَّدون في الإنفاق، ولا يَشُكُّون بوعْد الله سبحانه على الثَّواب.

كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ.

أي: إنَّ نفقة أولئك المنفقين المخلِصين الصادقين، المصدِّقين بوعد ربِّ العالمين، تُشْبِه بُستانًا غزيرَ الأشجار والظِّلال، تُغطِّي ما فيه من كَثْرتها، وهو على مكانٍ مُرتفِع من الأرض فكان خصيبًا جدًّا؛ لأنَّه لَمَّا ارتفَع عن مجرى المسايل والأودية كانتْ أرضه أغلظَ، فكان أحسنَ وأزكى ثمرًا وغرسًا وزرعًا، كما أنَّه بارتفاعه يكون مُعرَّضًا أكثرَ للأهوية والرياح،

وبائنًا للشمس وقت طلوعها واستوائها وغروبها، فيكون أنضج ثمرًا وأطيبه وأحسنه وأكثره كذلك، وسَقْيه إنَّما يأتي من السَّماء، فإمَّا أنْ يتعرَّض لمطرٍ غزير،

فيتضاعف إنتاجُ ثمرِه مرَّتين، الأصل ومثله معه، أو يُصيبه مطرٌ خفيف، كالرَّذاذ، فإنَّه يَكفيه ليُؤتي ثمارَه مضاعفةً؛ بسبب كَرَم مَنْبته وطِيب مَغرَسه، فهذه الجنَّة لا يُعدَم منها حصولُ الخير بحالٍ من الأحوال.

فكذلك المؤمن المنفِق يُضاعِفُ الله تعالى صدقتَه قلَّت أو كَثُرت، فلا تَبور أبدًا، فإذا كان قصدُه مرضاة الله عزَّ وجلَّ والتثبيت من نفسه، فهي زاكيةٌ عند الله تعالى، ونامية في جميع الأحوال.

وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ.

أي: إنَّ ما تعمَلونه- أيُّها النَّاس- من الإنفاق وغيره، هو بمَرْأًى مِن الله تعالى، لا يَخْفى عليه، فإنَّه يرى ويعلم مَن المُنفِق منكم بالمنِّ والأذى،

ومَن المُنفِق ابتغاءَ مرضاة الله، وتثبيتًا من نفسه، فيُحصي عليكم ذلك وغيرَه من أعمالكم، حتى يُجازيكم عليها، إنْ خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

سُورةُ البَقَرَةِ

الآيات (266–274)

أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ **(266)**

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ **(267)** الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ **(268)**

يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ **(269)**

وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ **(270)**

إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (271)

لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (272)

لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (273)

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (274)

غريب الكلمات:

أَيَوَدُّ: أيحبُّ ويتمنَّى؛ فالودُّ: محبَّة الشَّيء، وتمنِّي كونه.

إِعْصَارٌ: الإعصار هو: ريح شَديدة تَعصِف، تَرفَع تُرابًا إلى السَّماء، كأنَّه عمودُ نارٍ، أو هو الغُبار الذي يَسطَع مُستديرًا، أو رِيح عاصفة تنعكس من الأرض إلى السَّماء، ملتفَّة في الهواء، حاملة للتراب، مستديرة كالعمود.

وَلَا تَيَمَّمُوا: لا تَقصِدوا الرَّديء، ولا تَعمِدوا إليه.

تُغْمِضُوا فِيهِ: تترخَّصوا، وتتسامحوا، وأَصْل الغَمْض: النَّوم العَارِض، ثم استُعير للتَّغافُل والتَّساهُل.

الْفَحْشَاءِ: هي كلُّ شيء مُستقبَح ومُستشنَع، من قولٍ أو فِعلٍ.

الْحِكْمَةَ: العِلم والفِقه، وإصابة الحقِّ بالعِلم والعَقل، وأصل حَكم: المنع، وأوَّل ذلك الحَكْم، وهو المنع من الظُّلم، والإحكام هو الفصل والتمييز، والفرق والتحديد الذي به يتحقَّق الشيء ويحصُل إتقانُه؛ ولهذا دخل فيه معنى المنْع كما دخَل في الحدِّ، فالمنعُ جزءُ معناه لا جميع معناه. والحِكمة اسمٌ للعَقل، وإنَّما سُمِّي حِكمة؛ لأنَّه يمنع صاحبه من الجَهل.

الْأَلْبَابِ: العقول الزكيَّة، مفردها لُبٌّ، وأصْل اللُّبِّ: الخُلوص والجَوْدة، والشَّيء المُنتقَى.

نَذْرٍ: إيجابُ المرءِ على نَفْسِه ما ليس بواجبٍ.

تُبْدُوا: تُظهِروا، مِن بدَا بدوًّا وبداءً، أي: ظهَر ظُهُورًا بيِّنًا.

فَنِعِمَّا هِيَ: فنِعمَ شيئًا أو فنِعم الشيءُ هي، وأصْل النِّعمة: التَّرفُّه، وطِيبُ العَيش، والصَّلاح.

يُوَفَّ إِلَيْكُم: تُوفَّوْا أجْرَه، وأصْل التَّوفية: بلوغ التَّمام.

أُحْصِرُوا: أي: مُنِعوا وحُبِسوا عن التَّصرُّف في مَعايِشِهم؛ خَوفَ العَدُوِّ، وأصْل الحَصْر: التَّضييق والمنْع.

ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ: ذَهابًا فيها، أي: تِجارةً وغيرها كالسَّفر.

التَّعَفُّفِ: تَرْك السُّؤال، والكفُّ عمَّا لا ينبغي، والعِفَّة كذلك: حصولُ حالة للنَّفس تَمتنِع بها عن غَلبةِ الشَّهوة.

بِسِيمَاهُمْ: بعلاماتهم وآثارهم؛ فأصْل الوَسْم: الأَثَر والمَعلَم.

إِلْحَافًا: إلحاحًا، وأصْله: الاشتمال والمُلازَمة.

تفسير الآيات:

أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (266).

أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ.

أي: هل يرغب أحدٌ منكم في أن يمتلك بُستانًا ذا أشجارٍ كثيرة، تَستُر ما بداخله من كثرتها، ويحوي أفضلَ أنواعِ الأشجار، وأشرفَ أنواع الثمار، وأكثرها نفعًا، ممَّا لا يوجد عادةً مجتمعًا في موضعٍ واحدٍ، ألَا وهي أشجار النَّخيل والعِنَب، وتجري في أرض هذا البستان المدهش المياهُ العَذْبة المتفرِّقة في أنحائه، فتسقيه بلا تعبٍ ولا مؤونة، ليس هذا فحسبُ، بل يشتمل أيضًا على جميع أصناف الثِّمار الشهيَّة؛ فهو بُستانٌ ذو مشهدٍ عجيب، متكاملٌ من جميع نواحيه، ممَّا يُوجِب لصاحبه الفرح العظيم، والابتهاج الشديد به.

وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ.

أي: كَبِرتْ سنُّ صاحبِ الجنةِ، فغدا شديدَ التشبُّث بها؛ إذ لم يعُدْ قادرًا بعدُ على مباشرةِ التكسُّب، ومعاناة التجارةِ؛ للحصولِ على قُوته بنفسِه، وقد اشتدَّ حرصُه مع تقدُّمِه في العمرِ، وله عيالٌ يقومُ بحاجاتهم، لا سيَّما وأنهم عاجزون عن القيامِ بذلك بأنفسِهم؛ إمَّا لصغرهم، أو لغير ذلك من أسبابِ العجزِ، فهم كَلٌّ عليه، فكُلُّ هاتيك الشدائدِ مجتمعةً تدفعه نحوَ شدَّةِ التعلُّق بجنَّتِه، فهو أحوجُ ما يكونُ إليها في مِثل هذه الأحوالِ العصيبة، فبينما هو على ذلك إذ حلَّت الكارثةُ بها، حين اجتاحتها ريحٌ عاصفٌ تستديرُ في الأرضِ، ثم ترتفعُ في طبقاتِ الجوِّ كالعمود، وقد احتوت على نارٍ أحرقتْ تلك الجنةَ، فتلفتْ دفعةً واحدةً، فلا تسألْ بعدَها عن فظاعةِ حالِه وسوءِ ما حلَّ به مِن الهمومِ والغمومِ والأحزانِ، وقد أصبح صِفرَ اليدين بلا شيء يملكُه.

فكذلك مَن أنفق لوجهِ الله تعالى باديَ الأمرِ، فنفقتُه بمنزلةِ البذرِ للزُّروعِ والثِّمارِ، ولا يزالُ كذلك حتى يحقِّقَ مِن عملِه هذا حسناتٍ عظيمةً، بمثابة جنةٍ غنَّاء، في غايةِ الحسنِ والبهاءِ، لكنه أفسدَ نفقاتِه بما يُبطلُ الأجرَ، كالمنِّ والأذى، وذلك بمنزلةِ الإعصارِ الذي فيه نارٌ، فأحرق جنتَه، وهو أحوجُ ما يكون إليها، فكذلك إذا مات أصبح في حالٍ لا يقدرُ معها على العملِ الصالحِ، ولا له نصيرٌ أو شفيعٌ، فيجدُ أنَّ نفقاتِه التي يرجو نفعَها قد صارت هباءً منثورًا.

عن عُبَيد بن عُمَير قال: قال عمرُ رضي الله عنه يومًا لأصحاب النبيِّ - ﷺ -: (فيمَ تَرون هذه الآية نزلتْ: أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ؟ قالوا: الله أعلم، فغضِب عمرُ، فقال: قولوا: نعلم أو لا نعلم، فقال ابن عبَّاس: في نفْسي منها شيء يا أمير المؤمنين، قال عمر: يا أخي، قُلْ ولا تحقِر نَفْسك، قال ابن عبَّاس: ضُربت مَثَلًا لعمل، قال عمر: أي عمل؟ قال ابن عبَّاس: لعملٍ. قال عمر: لرجل غني يَعمل بطاعة الله عزَّ وجلَّ، ثم بعث الله له الشيطان، فعمِل بالمعاصي حتى أغرق أعمالَه).[406]

كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ.

أي: كما بيَّن لكم ربُّكم جلَّ وعلا أمرَ النَّفقة في سبيله، كذلك يُبيِّن لكم الآياتِ التنزيليَّة والكونيَّة، فيعرِّفكم أحكامَها وحلالَها وحرامها، ويُوضِّح لكم حُججَها؛ لتتفكَّروا بعقولكم فتتدبَّروا وتعتبِروا وتفهَموا الأمثالَ والمعاني، وتُنزِلوها على المراد منها؛ لتُطيعوا الله جلَّ وعلا، فلو تَصوَّر مَن له أدنى مُسْكة من عقل هذا المَثَل حقَّ تَصوُّره، وتأمَّلَه كما ينبغي، لم يُقدِم على ما فيه مضرَّته وندامته، ولَمَا سوَّلت له نفْسه إحراقَ أعماله الصالحة، وإضاعة أجورها.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (267).

---

(406) رواه البخاري (4538).

سبب النُّزول:

عن البَراء رضي الله عنه، أنَّه قال في قوله تعالى: وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ: (نزلت فينا – معشر الأنصار– كنَّا أصحابَ نَخْل، فكان الرجلُ يأتي من نخله على قَدْر كَثْرته وقلَّته، وكان الرجلُ يأتي بالقِنْو والقِنْوين فيُعلِّقه في المسجد، وكان أهل الصُّفَّة ليس لهم طعامٌ، فكان أحدهم إذا جاء أتى القِنْو فضربه بعصاه، فيَسقُط البُسْر والتَّمر فيأكل، وكان ناسٌ ممَّن لا يَرغَب في الخير يأتي الرجل بالقِنْو[407] فيه الشِّيص[408] والحَشَف[409] والقِنْو قد انكسر، فيُعلِّقه فأنزل الله تبارك وتعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ، قال: لو أنَّ أحدكم أُهْدِي إليه مِثْل ما أَعطى، لم يأخذه إلَّا على إغماضٍ أو حياءٍ)، قال: فكنَّا بعد ذلك يأتي الرَّجل بصالح ما عنده)).[410]

---

(407) القِنْو: العِذْق (السُّباطة) بما فيه منَ الرُّطَب.
وهو من النَّخل كالعُنقود من العنب. ((النهاية)) لابن الأثير (116/4)، ((معجم اللغة العربية المعاصرة)) (1866/3).

(408) القِنْو: العِذْق (السُّباطة) بما فيه منَ الرُّطَب.
وهو من النَّخل كالعُنقود من العنب. ((النهاية)) لابن الأثير (116/4)، ((معجم اللغة العربية المعاصرة)) (1866/3).

(409) الحَشَف: أَردأُ التَّمر، واليَابِس الفاسِد مِنه.
وقيلَ: الضَّعِيفُ الَّذي لا نَوَى له كالشِّيص. ((الصحاح)) للجوهري (1344/4)، ((النهاية)) لابن الأثير (391/1).

(410) أخرجه الترمذي (2987).
قال الترمذيُّ: حسنٌ غريبٌ صحيح. وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (2987)، وقال الوادعيُّ في ((الصحيح المسند)) (146): حسنٌ غريب.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ.

أي: يَحُثُّ الله تعالى عبادَه المؤمنين على أن يُزكُّوا ويتصدَّقوا من أجود أموالهم التي اكتسبوها حلالًا بالتِّجارة، وأمرهم أن يُنفِقوا من الثِّمار والزروع والرِّكاز والمعادن التي أخرجها لهم سبحانه من الأرض، فكما منَّ عليهم بتيسير الحصول على ذلك، فلْيُنفِقوا منه شكرًا له عزَّ وجلَّ.

وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ.

أي: لا تَقصِدوا الرَّديء من أموالكم فتتصدَّقوا منه، وتُمسِكوا الجيِّد لأنفسكم؛ فإنَّ هذا ليس من العدل في شيء، ولكن تصدَّقوا من الطيِّب الجيِّد، فإنَّكم لو كنتم مكانَ آخذ الصَّدقة والحالة هذه، فلستم بآخذيها إلَّا على وَجْه التَّسامح والتغاضي عن ذلك، فإنَّكم لكَراهتِكم إيَّاه تُغمِضون بَعضَ بَصَركم عنه؛ إذ لا يملأ أعينَكم لرداءته، فالله عزَّ وجلَّ أحقُّ أن يُبذَل لأجلِه أطايبُ المال؛ فإنَّه سبحانه طيِّبٌ لا يَقْبل إلا طيِّبًا.

وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ.

أي: اعلموا أيُّها النَّاس، أنَّ الله عزَّ وجلَّ غنيٌّ عنكم وعن أعمالكم، ومنها صدقاتكم، فلا حاجةَ له بها، وإنَّما أمركم بها؛ رحمةً منه لكم، فنفْعها عائدٌ إليكم؛ إذ يُغْني بها فقيركم، ويُقوِّي بها ضعيفَكم، ويُثيبكم عليها.

واعلموا أيضًا أنَّه سبحانه المحمودُ على جميع صِفاته وأفعاله وأقواله وشَرْعه وقَدَره، ومن ذلك غناه، فإنَّه يُحمَد عليه سبحانه، ومن ذلك أيضًا ما يأمركم به من الأوامر الحميدة، والأخلاق الجميلة، وهو عزَّ وجلَّ يَحمَد مَن يَستحِقُّ الحمد؛ فأثنى على أنبيائه، ورسله، والصالحين من عباده.

كما أنَّ غناه وحمْده يَأبيَان قَبُول الرَّديء، فإنَّ مَن يأخذه؛ إمَّا أنْ يَقْبله لحاجته إليه، وإمَّا أنَّ نفسه لا تأباه؛ لعدم كمالها وشرفها، وأمَّا الغنيُّ عنه الكامل الأوصاف سبحانه، فإنَّه لا يَقْبله.

الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (268).

الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ

أي: إنَّ الشيطان يخوِّفكم- أيُّها المؤمنون- بالافتقار إن تصدَّقتم، فإذا صوَّر لكم هذه الصورة أَمَركم بالبُخل الذي هو من أقبح الفواحش؛ لتُمسِكوا ما بأيديكم فلا تُنفِقوه في مرضاة الله تعالى، وتشمل الفحشاء أيضًا ما سوى البُخل، من قبائح المعاصي والمنكرات.

وَاللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا.

أي: إنَّ الله عزَّ وجلَّ يَعِدُكم- أيُّها المؤمنون- بأنْ يَسترَ عليكم ما ارتكبْتُموه مِن فحشاء، ويتجاوزَ عن مؤاخذتِكم بها؛ لما تقدِّمونه مِن صدقاتٍ وغيرِها، وهذا في مقابلةِ أمرِ الشيطانِ لكم بالفحشاءِ، كما

يعدُكم اللهُ تعالى بأن يعوِّضَكم عمَّا تصدقتم به، بمنحِكم المزيدَ مِن الأجورِ والأرزاقِ في الدنيا والآخرة، وذلك في مقابلةِ تخويفِ الشَّيطانِ لكم بالفقرِ.

وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ.

أي: إنَّ الله تعالى واسع الفضل، واسع الصِّفات، ومن ذلك سَعَةُ عِلْمه؛ فهو عليمٌ بمن يَستحِقُّ فضْله منكم، وعليم بنفقاتكم التي تُنفِقون، فيُحصيها لكم ويُجازيكم بها من سَعَة فضله.

يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (269).

يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ.

أي: يُعطي الوهَّابُ عزَّ وجلَّ مَن يشاء من عباده معرفةَ الحقِّ، ومعرفة المقصود منه، والعمل به، وبذلك يتمكَّن من الإصابة في القول والعمل، وتنزيل الأمور منازِلَها في نفْسه وفي غيره، ووضْعها في مواضِعها اللائقة بها؛ فإنَّ الإصابةَ في الأمور إنَّما تكون بفَهْم القرآن والفقه في حقائق الإيمان وشرائع الإسلام، مع الخشية لله تعالى، والنُّبوة من الحكمة؛ لأنَّ الأنبياء مُسدَّدون، مُفهَّمون، ومُوفَّقون لإصابة الصَّواب.

وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا.

أي: إنَّ من يُعطَى تلك الحِكمة من العباد، فيخرج من ظُلْمة الجهل إلى نورِ الهُدى، ومن حُمْق السَّفه والانحراف في الأقوال والأفعال، إلى إصابة الصَّواب فيهما، وحصول التَّوفيق والسَّداد، فقد مُنح خيرًا عظيمًا لا يُقدَّر؛ فإنَّ الحكمة أفضلُ الأُعطيات، وهي أجلُّ المنح والهِبات.

وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ.

أي: لا يتَّعظ بما وعظ به الله تعالى في آياتِه المُنفِقين أموالَهم وغيرَهم، فيَذكُر وعدَه ووعيدَه، فيَنزجِر عمَّا زجره عنه ربُّه، ويُطيعه فيما أمره به سبحانه، إلَّا أصحابُ العقول الكاملة، الذين يَعقِلون بها عن الله عزَّ وجلَّ أمرَه ونهيه.

وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (270).

وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ.

أيْ: أَيَّ صدقة بذلتموها، أو أيَّ نَذْر نَذرتموه ممَّا أَلْزَم المرءُ به نفسَه، فإنَّ الله تعالى لا يَخفى عليه من ذلك شيء، فيعلم نيَّتَكم بها، ويعلم ما قدَّمتم منها، فيُحصيه عليكم ويُجازيكم به، إنْ خيرًا فخير، وإنْ شرًّا فشر.

وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ.

أي: ليس لِمَن لم يُنفِق ما وجب عليه من النَّفقات ولم يوفِّ ما أَوجَبه على نفسه من المنذورات، أو كانت نفقتُه أو نَذْره في غير طاعة الله عزَّ وجلَّ، ما له أحد يَنْصُره من الله يوم القيامة؛ لأنَّه ظالم بوضْعه إنفاقَ ماله أو نَذْرَه في غير موضِعه الصَّحيح، وعلى غير الصِّفة المأمور بها شرعًا.

إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (271).

إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ.

أي: إنْ تُظهِروا الصَّدقاتِ فتعطوها علانيةً، فنِعْم الشيءُ هي؛ لحصول المقصود بها، ما دام أنَّها لأجْل الله تعالى.

وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ.

أي: إنْ تَستروا صدقتَكم غيرَ المفروضة عليكم، فتُعْطوها الفقراءَ في السرِّ، فإخفاؤكم إيَّاها أفضلُ لكم من إظهارها وإعلانها، ففي إخفائها: السَّترُ على الفقير، وحِفْظ ماء وجهه بعدم تَخجيله وفضيحته بين الناس، وهذا قدْرٌ زائدٌ عن الإحسان إليه بمجرَّد الصَّدقة، مع كونه أَدْعى إلى إخلاص صاحبها، وأَبْعدَ له عن الرِّياء.

وقيَّد تعالى الإخفاءَ بإيتاء الفقراء خاصَّة؛ لأنَّ من الصَّدقة ما لا يُمكِن إخفاؤه كتجهيز الجيش، أو يترَتَّب على الإظهار مصلحةٌ راجحةٌ، كإظهار شعائر الدِّين، وحصول اقتداء النَّاس به.

عن أبي هُرَيرَة رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ – ﷺ – قال: ((سبعةٌ يُظِلُّهُم اللهُ تعالى في ظِلِّه يومَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّه: إمامٌ عَدْلٌ، وشابٌّ نشأَ في عبادةِ اللهِ، ورجلٌ قلبُه مُعَلَّقٌ في المساجدِ، ورجلانِ تحابَّا في اللهِ؛ اجتمَعا عليه، وتفرَّقا عليه، ورجلٌ دعَتْهُ امرأةٌ ذاتُ منصبٍ وجمالٍ، فقال: إنِّي أخافُ اللهَ، ورجلٌ تصدَّقَ بصدقة، فأخفاها حتى لا تعلمَ شمالُه ما تُنْفِقْ يمينُه، ورجلٌ ذكَرَ اللهَ خاليًا ففاضتْ عَيناه)).[411]

عن أنسٍ رضي الله عنه، قال: ((لَمَّا نزلت هذه الآية لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ [آل عمران: 92] أو الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا، قال أبو طلحة– وكان له حائط– فقال: يا رسول الله، حائطي لله، ولو استطعتُ أنْ أُسِرَّه لم أُعْلِنه، فقال: اجعلْه في قرابتك أو أقربيك)).[412]

وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ.

أي: إنَّه لَمَّا امتدَح اللهُ تعالى الصدقةَ عَلَنًا كانت أو سرًّا، لا سيَّما إن كانت سرًّا؛ لأنَّها أفضل للمُتصدِّق، وتضمَّن ذلك حصولُ الثَّواب، بيَّن أنَّه يَسْتُرُ بها السيِّئاتِ جميعَها، أو بعضَها؛ دفعًا للعقاب.

---

(411) رواه البخاري (1423) واللفظ له، ومسلم (1031).

(412) أخرجه الترمذي (2997)، وأحمد (13793).

قال الترمذي: حسن صحيح. وقال ابن القطان في ((الوهم والإيهام)) (620/5): صحيح أو حسن. وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (2997).

القراءات ذات الأثر في التفسير:

في قوله تعالى: ويكفِّر قراءات:

1- قراءة (وَنُكَفِّرُ)، على معنى الإخبارِ مِن الله عزَّ وجلَّ عن نفسِه، على وجهِ التفخيمِ والتعظيمِ.(413)

2- قراءة (وَيُكَفِّرُ) بإضمارِ ضميرٍ يعودُ على اللهِ تعالى في الفعلِ؛ لأنَّه هو المكفِّرُ حقيقةً. وهو الراجح بحمله على قراءة (وَنُكَفِّرُ)، وقيل: إنَّه يعودُ على صرفِ الصَّدقاتِ، أي: ويكفرُ صرفُ الصدقاتِ. وقيل: إنَّه يعودُ على الإخفاءِ المفهومِ من قوله: (وإن تخفوها)، ويجوزُ أن ينسب التَّكفيرِ للصرفِ والإخفاءِ؛ لأنَّهما سببٌ للتكفيرِ، وكما يجوزُ إسنادِ الفعلِ إلى فاعلِه، يجوزُ إسنادُه إلى سببِه.(414)

3- قراءة (وَنُكَفِّرْ) معطوفًا على جوابِ الشرطِ الثاني في قوله تعالى: (فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ)، إيذانًا بدخولِ التكفيرِ للسيئاتِ في الجزاءِ، إنْ أُخفيت الصدقةُ.(415)

---

(413) قرأ بها ابن كثير، وأبو عمرو، وأبو بكر عن عاصم، ويعقوب.
ينظر: ((النشر)) لابن الجزري (236/2).
ويُنظر لمعنى هذه القِراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (230/1)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 147)، ((الكشف)) لمكي (317/1)، ((تفسير أبي حيان)) (692/2)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (613/2).

(414) قرأ بها ابن عامر، وحفص عن عاصم.
ينظر: ((النشر)) لابن الجزري (236/2).
ويُنظر لمعنى هذه القِراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (230/1)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 147)، ((الكشف)) لمكي (317/1)، ((تفسير أبي حيان)) (692/2)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (613/2).

(415) قرأ بها نافع، وحمزة، والكسائي. ينظر: ((النشر)) لابن الجزري (236/2).

وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ.

أي: إنَّ الله عزَّ وجلَّ مُطَّلِعٌ على ما تعملون في صدقاتِكم، من إعلانٍ بها وإسرار، وعلى غير ذلك من أعمالكم، فيُحصيها لكم ويُجازي كلًّا بعمله، فهو سبحانه ذو علمٍ ببواطن الأمور وظواهِرها، لا يَخْفى عليه شيءٌ من أعمالكم ونيَّاتِكم.

لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (272).

سبب النُّزول:

عن سعيد بن جُبير عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما، قال: ((كانوا يَكْرَهون أن يَرضَخوا لأنسابهم من المشركين، فسألوا فرُخِّص لهم، فنزلت هذه الآية لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ إلى قوله: وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُون)).(416)

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (230/1)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 147)، ((الكشف)) لمكي (317/1)، ((تفسير أبي حيان)) (692/2)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (613/2).

(416) أخرجه البزار (5042)، والطبراني (54/12) (12453)، والحاكم (313/2).

صحَّح إسناده أحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (327/1)، وصحَّحه الوادعي في ((الصحيح المسند)) (630).

وعن ابن عبَّاس رضي الله عنهما، قال: ((كان يأمرنا ألَّا نَتصدَّق إلَّا على أهلِ الإسلام، حتى نزلت هذه الآية، فأمَرَنا بالصَّدقة بعدها على كلِّ مَن سألك من كل دِين)).(417)

لَيسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ.

أي: ليس عليك- يا محمَّد- هداية الخَلْق إلى الإسلام هدايةَ توفيقٍ، وإنَّما عليك البلاغ وهو هداية الإرشاد، فلا تَمتنعْ من بذْل الصَّدقة للكفَّار والمشركين؛ كي يَدخلوا في الإسلام حاجةً منهم إليها، ولكنَّ الله تعالى هو الَّذي يَهدي وحده مَن يشاء من خلْقه إلى الإسلام فيُوفِّقهم له، فلا تمنعهم الصَّدقة ولو لم يهتدوا.

عن أسماءَ بنت أبي بكرٍ رضي الله عنهما، قالت: (قَدِمتْ أُمِّي وهي مُشرِكَةٌ، في عهدِ قُريشٍ ومُدَّتِهم إذ عاهَدوا النبيَّ - ﷺ -، مع أبيها، فاستَفتَيتُ النبيَّ - ﷺ - فقُلْتُ: إنَّ أُمِّي قَدِمَت وهي راغِبَةٌ؟ قال: نعم، صِلِي أُمَّكِ).(418)

وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ.

---

(417) أخرجه ابن أبي حاتم في ((تفسيره)) (2/537).

قال ابن كثير في ((تفسير القرآن)) (4/27): غريب.

وصحَّح إسناده أحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (1/327)، وحسَّن إسنادَه الألباني في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (6/629).

(418) رواه البخاري (5979) واللفظ له، ومسلم (1003).

أي: إنَّ كلَّ ما تَبذُلونه صدقةً من الأموال– قليلةً أو كثيرةً– على أيِّ شخص– مسلمًا كان أو كافرًا– فنفْعُه في الحقيقة عائدٌ إليكم، وليس لله تعالى حاجةٌ به، والنفقة النافعة لصاحبها والمعتدُّ بها، هي ما كانت خالصةً لله تعالى، وطلَب بها صاحبُها الفوزَ في الآخرة بالنظر إلى وجهه الكريم سبحانه، وتلك هي صدقات المؤمن؛ فإنَّ إيمانهم يُحتِّم عليهم الإخلاصَ لله عزَّ وجلَّ، وإذا تَصدَّق بهذه النيَّة فقد وقع أجرُه على الله تعالى، ولا عليه في نَفْس الأمْر لمن أصاب: ألِبَرٍّ أو فاجرٍ، فهو مُثابٌ في جميع الأحوال على قصْده.

عن أبي هُرَيرَة رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ – ﷺ – قال: ((قال رجلٌ: لأتصدَّقنَّ الليلةَ بصدقةٍ، فخرج بصدقتِه فوضعها في يدِ زانيةٍ، فأصبحوا يتحدَّثون: تُصُدِّق الليلةَ على زانيةٍ، قال: اللهمَّ لك الحمد على زانيةٍ، لأتصدَّقنَّ بصدقةٍ. فخرج بصدقتِه فوضعها في يدِ غنيٍّ، فأصبحوا يتحدَّثون: تُصُدِّق على غنيٍّ، قال: اللهمَّ لك الحمدُ على غنيٍّ، لأتصدقنَّ بصدقةٍ. فخرج بصدقتِه فوضعها في يد سارقٍ، فأصبحوا يتحدَّثون: تُصُدِّقَ على سارقٍ، فقال: اللهمَّ لك الحمد على زانيةٍ، وعلى غنيٍّ وعلى سارقٍ، فأُتِيَ فقيل له: أمَّا صدقتُك فقد قُبِلَتْ، أما الزَّانيةُ فلعلَّها تستَعِفُّ بها عن زِناها، ولعلَّ الغنيَّ يَعتَبِر فيُنفِق ممَّا أعطاه اللهُ، ولعلَّ السارقَ يَستعِفُّ بها عن سرقتِه)).(419)

وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ.

(419) رواه مسلم (1022).

أي: إنَّ أيَّ مالٍ تَتصدَّقون به، قليلًا كان أو كثيرًا؛ فإنَّ أجره يُؤدَّى إليكم في الآخرة كاملًا من غير نَقْص؛ فلا يَضيع عنده سبحانه مثقالُ ذرَّةٍ من ذلك.

لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ (273).

لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ.

أي: اجعلوا صدقاتِكم للمُعْدَمين، الخاليةِ أيديهم من أيِّ شيء يقوم بمعيشتهم، لمَن حبَسوا أنفسَهم على الجهادِ في سبيل الله تعالى، فحبَسهم ذلك بدوره- مع خوفهم مِن تَربُّص أعدائهم بهم- عن التَّصرُّف في أشغال الدنيا، فلا يستطيعون تقلُّبًا في الأرض، وسفرًا في البلاد؛ ابتغاءَ المعاش وطلب الرزق.

يَحْسَبُهُمُ الجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا.

أي: يَحسَبهم الجاهلُ بأمرهم وحالهم ممَّن لا فِطْنة لديه، أغنياء من شدَّة تَرْكهم التَّعرض لما في أيدي الناس، وكِتمانهم حاجتهم صبرًا منهم على البأساء والضَّرَّاء، لكن بإمكان ذوي الألباب تمييزُهم بالتَّوسُّم

والتَّفرُّس فيهم، وعلى رأسهم محمد – ﷺ –، فيعلمون حقيقةَ حالهم من خلال علاماتهم، وآثار الحاجة البادية عليهم، من ملامِح وجوههم، أو نظراتهم، أو بعض عباراتهم، أو غير ذلك.

ونفَى اللهُ تعالى عنهم بالكلِّيَّة طلبَ حاجةٍ من الناس، وخاصَّةً الطلب المُصاحِب للشَّرَهِ والضَّراعة التي تكون في المُلِحِّين، فهم بعيدون عن ذلك تمامًا؛ لأنهم يَستَمِدُّون العَونَ من الله تعالى وحده.

فهذا الصِّنف من الفقراء هو أَوْلى المستحِقِّين للصَّدقة؛ لدَفْع حاجتهم، وإعانتهم على مَقصِدهم، وشكرًا لهم على ما اتَّصفوا به من جميل الأخلاق، وقصْر أنظارِهم على الخلَّاق.

عن أبي هُرَيرَة رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ – ﷺ – قال: ((ليس المِسكينُ الذي تَرُدُّه التمرةُ والتَّمرتان، ولا اللُّقمةُ ولا اللُّقمتان، إنَّما المِسكينُ الذي يَتَعَفَّفُ، واقرَؤوا إن شِئتُم– يعني قولَه: لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا)).(420)

وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ.

أي: إنَّ كلَّ ما تُنفِقونه من أيِّ خيرٍ كان قليلًا أو كثيرًا، فإنَّ الله تعالى يعلمه، ويُحصيه لكم، وسيَجزيكم عليه أتمَّ الجزاء.

(420) رواه البخاري (4539) واللفظ له، ومسلم (1039).

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (274).

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ.

أي: إنَّ الإنفاق في أيِّ وقتٍ كان ليلًا أو نهارًا، وعلى أيِّ حالٍ وُجِد سرًّا أو علانيةً، فإنَّه سبب الجزاء على كلِّ حال؛ فليبادرْ إليه العبد– ولا يؤخِّره– في جميع الأوقات والأحوال،

فإنَّ مَن يقوم بذلك، له يوم القيامة أجرٌ عظيمٌ، ولا يُصيبه خوفٌ على ما يُستقبَل، ولا يَعْتريه حزنٌ على ما مضَى، فيفوز بحصول المرغوب، والنَّجاة من المرهوب.

سُورةُ البَقَرَةِ

الآيات (275–281)

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (275)

يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (276)

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (277)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (278)

فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ (279)

وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (280)

وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (281)

غريب الكلمات:

الرِّبَا: أصْل الرِّبا الزِّيادة، وخُصَّ في الشَّرع بالزِّيادة على رأسِ المالِ دون وجْه حقٍّ.

يَتَخَبَّطُهُ: الخَبْط: الضَّرب على غيرِ استواءٍ.

الْمَسِّ: الجُنون، ويُقال لكلِّ أذًى ينال الإنسان: مسٌّ.

مَوْعِظَةٌ: الوعظ: تخويفٌ، أو زجْرٌ مُقترِن بتخويف، وتذكيرٌ بالخيرِ وما يَرِقُّ له القلبُ.

يَمْحَقُ: أي: يُذهِب، ويَنقُص؛ وأصْل المحْق: النُّقصان وذَهاب البركة.

فَأْذَنُوا: أي: أَيقِنوا، واعلَموا ذلك، واسْمعوه، وأذِن: استَمَع، ويُستعمل ذلك في العِلم الذي يُتوصَّل إليه بالسَّماع؛ إذ هو مبدأُ كثيرٍ من العِلم فِينا.

عُسْرَةٍ: العُسر: نقيض اليُسْر، وأصْله: الصُّعوبة والشِّدة.

فَنَظِرَةٌ: أي: انتظار، وإنظار، وأصْل (نظر): تأمُّل الشيء ومعاينتُه، ويقال: نظرتُه، أي: انتظرته.

مَيْسَرَةٍ: الميسرة واليَسار عِبارة عن الغِنى، وأصْله اليُسرُ: ضدُّ العُسر.

تفسير الآيات:

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (275).

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ.

أي: إنَّ الذين يأخذون الرِّبا، فينتفعون به بأكلٍ، أو شربٍ، أو لِباسٍ، أو سكَنٍ، أو غير ذلك من وجوه الانتفاع، إنَّما يقومون في الآخرة من قُبورهم لبَعْثهم ونُشُورهم، كهيئةِ المصروعِ الذي أصابه الشيطانُ بالجنونِ، كما كانوا في الدُّنيا كالمجانين في طلَبِ هذا المكسَب الخبيث.[421]

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا.

أي: هذا الذي يُصيبهم يومَ القيامة، من قُبْح حالهم، ووَحْشة قيامهم من قبورهم؛ من أجل أنهم كانوا في الدنيا يَكذِبون فيقولون اعتراضًا على أحكام الله تعالى في شَرْعه -: إنَّما البيعُ الذي أحلَّه الله لعباده مِثْلُ الرِّبا؛ فمَا الفرق بينهما وكلاهما وسيلتان للتَّكسُّب؛ فلِمَ حُرِّم هذا وأُبيح هذا؟ فكذَّبهم الله

(421) ذكر ابنُ عطية (٢/٩٦) قول المفســـرين: أن المرابي يبعث يوم القيامة كالمجنون عقوبة له وتمقيتًا، ثم بين أن هذا التأويل مجمع عليه، ثم قال: «ويقوي هذا التأويل المجمع عليه أنّ في قراءة عبد الله بن مســعود: (لا يَقُومُونَ يَوْمَ القِيامَةِ إلّا كَما يَقُومُ المَجْنُونُ)».

في قيلهم هذا؛ بأنَّ الله تعالى المُستحِقَّ للعبادة وحده هو الذي أحلَّ الأرباحَ في التجارة والشراء والبيع، وحرَّم أخْذ الزِّيادة بالباطل، وليسا سواءً، فالأمر أمره، والخَلْق خَلْقه، يَقضي فيهم ما يشاء، ويَستعبِدهم بما يُريد، وعليهم طاعته والتسليم لحُكْمه؛ فهو العالِم بحقائق الأمور وما ينفع عباده، فيُبيحه لهم، وما يَضرُّهم، فينهاهم عنه.

فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ.

أي: مَن بلَغه النَّهي عن الرِّبا والتخويف من أكْله وتعاطيه عمومًا، فكَفَّ عنه وانزَجَر، فله ما أكَل منه وأخَذ فيما مضى قبل نزول تحريمه، وشأن آكِله إلى الله تعالى في توفيقه أو خِذلانه، وكذا عفوُه أو عُقوبته، فيما يَستقبِل من زمانه، فإنْ عَلِم مِن قلبه صحَّةَ توبتِه، غفَر له، وإلَّا عاقبه على ذلك.

ومَن عاد لأكلِ الرِّبا بعدَ بلوغِه تحريمُه مستحلًّا له، وعاد إلى القولِ بأنَّ البيعَ مثلُ الرِّبا، وأصرَّ على ذلك، فقد استوجب عقوبةَ اللهِ تعالى بملازمةِ نارِه خالدًا فيها.

يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (276).

يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ.

أي: يُذهِب الله تعالى مكاسبَ الرِّبا بالكُليَّة من يد صاحبها، أو يَحرِمه بركتَها؛ فلا يَنتفِع بها، بل يُعذِّبه بها في الدنيا، ويُعاقِبه عليها يوم القيامة جزاءً مِن جِنْس ما عمِل، بينما يُنمِّي أجرَ الصَّدقات لصاحبها حتى تَتضاعَف.

كما قال تعالى: وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ [الروم: 39].

عن أبي هُرَيرَة رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ – ﷺ – قال: ((مَن تصدَّق بعِدْلِ تمرةٍ من كَسْبٍ طَيِّبٍ –ولا يقبَلُ اللهُ إلَّا الطَّيِّبَ– وإنَّ اللهَ يَتقبَّلُها بيمينِه، ثم يُرَبِّيها لصاحبها، كما يُرَبِّي أحدُكم فَلُوَّه،[422] حتى تكونَ مِثْلَ الجبلِ)).[423]

---

(422) الفَلُوُّ– بوزنِ عَدُوّ، والفِلْو– وزان حِمْل– لُغة فيه: هو المُهْر يُفصَل عن أمِّه، والأُنثى فَلُوَّة.
((المصباح المنير)) للفيومي (481/2).
(423) رواه البخاري (1410).

وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ.

أي: إنَّ الله تعالى لا يحبُّ كلَّ من كان كثيرَ الكُفْران، مُصرًّا على الكُفْر بنِعَمه، مقيمًا على ذلك، مُستحِلًّا أكْلَ الرِّبا، متماديًا في الإثم فيما نهاه عنه من أكْله وتعاطِيه، وغير ذلك من معاصيه، لا يَرْعوي عنه، ولا يتَّعِظ بموعظة ربّه؛ ذلك أنَّ المرابي لا يَرضَى بما قسَم اللهُ تعالى له من الحلال، ولا يَكتفي بما شرَع له من التَّكسُّب المُباح، فهو يَسعى في أكْل أموال الناس بالباطل، بأنواع المكاسب الخبيثة، فهو جَحودٌ لما عليه من النِّعمة، ظَلومٌ آثمٌ بأكل أموال الناس بغير وجْه حقٍّ.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (277).

أي: إنَّ المؤمنين بما يجب الإيمان به، ومِن ذلك إيمانهم بما أُنزل إليهم من ربِّهم- والذي شَمِل تحريمَ الرِّبا- وعمِلوا الصَّالحات التي أمرهم الله عزَّ وجلَّ بها، وهي المبنيَّة على الإخلاص لله تعالى، والمتابَعة لرسوله - ﷺ - ومنها بذْل الصَّدقات في سبيله تعالى- وأَدَّوُا الصَّلاةَ قويمةً بشروطها وأركانها، وواجباتها وسُنَنها، وأَعْطَوا الزَّكاة المفروضة عليهم في أموالهم لمُستحِقِّيها، فأولئك لهم ثوابُهم عند الله جلَّ وعلا، ولا خوف عليهم ممَّا يَستقبِلون، ولا هم على ما مضى يَحزنون.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (278).

أي: يا أيُّها المؤمنون، امتثِلوا ما أَمَركم الله تعالى به، وانتهُوا عمَّا نهاكم عنه، فاتركوا ما لكم على الناس من الزِّيادة على رؤوس الأموال من المعاملات الحاضِرة التي بأيديكم، بعد هذا الإنذار الذي تلقَّيتُموه، إنْ كنتم صادقين حقًّا في إيمانكم.

فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ (279).

فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ.

أي: إنْ لم تتركوا ما بقي لكم على النَّاس من زيادةٍ على رأس المال، مُستَمرّين على تَعاطي الرِّبا بعد إنذاركم، فأَعلِموا أنفسَكم وغيرَكم، مُستيقنين أنَّ الله تعالى يتوعَّدكم بحرب وقتْل مِنه ومن رسولِه عليه الصَّلاة والسَّلام.

القِراءات ذات الأَثَر في التفسير:

في قوله تعالى: فَأْذَنُوا قراءتان:[424]

(424) قرأ حمزة وأبو بكر (فَآذِنُوا).
وقرأ الباقون (فَأْذَنُوا) بالقَصْر.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (236/2).

1- (فَآذِنُوا) من آذنتُه أُوذِنه، إذا أعلنتُه، كقولهم: أَعْلِمُوا مَنْ وراءَكم، فالمعنى: فأَعلِموا غيركم أنَّ كلَّ مَن لم يترك الرِّبا فهو حرب، وهذا أعمُّ؛ لأنَّهم إذا أعلَموا غيرَهم بالحرب من الله ورسوله، فقد علِموا هم ذلك.

2- (فَأْذَنُوا) على أنَّه أمرٌ للمُخاطَبين بترك الرِّبا، أُمِروا أن يَعْلموا ذلك هم أنفسهم، فالمعنى: فإن لم تتركوا الرِّبا، فأَيْقِنوا بحربٍ من الله ورسوله.

وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ.

أي: إن تُبْتُم فتركتُم أَكْلَ الرِّبا، وأَنَبْتُم إلى الله عزَّ وجلَّ، فلكم رؤوس أموالكم من الدُّيون التي لكم على النَّاس دون الزِّيادة التي أحدثتموها على ذلك، فلا تَظْلِمُونَ الناسَ بأخذ الزِّيادة، وَلا تُظْلَمُون بإعطائكم رؤوسَ أموالكم ناقصةً.

وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (280).

وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ.

أي: إنْ كان الذي عليه الدَّين مُعسِرًا لا يَجِد ما يَردُّ به حقَّكم- وهو رؤوس أموالكم التي أَسلفتُموه إيَّاها دون زيادة- فعليكم أن تُمهِلوه حتى يتيسَّر له الوفاءُ به.

ويُنظر لمعنى القراءتين: ((معاني القراءات)) للأزهري (1/231-232)، ((الكشف)) لمكي (1/318).

وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ.

أي: إنَّ تصدُّقكم على المدينِ المعسرِ بالتنازلِ والعفو عمَّا لكم عليه أو بإسقاط بعضه، خيرٌ لكم من إمهاله حتى يتيسَّر له القيام بردِّه لكم، فقوموا بذلك إذًا إن كنتم من ذوي العِلْم بفضل الصَّدقة، وما لصاحبها من ثوابٍ عظيم.

عن عبد الله بن أبي قَتادةَ: ((أنَّ أبا قَتادةَ رضي الله عنه، طلَب غريمًا لهُ، فتوارى عنهُ، ثم وجدَه، فقال: إنِّي مُعسِرٌ، فقال: آللهِ؟ قال: آللهِ، قال: فإنِّي سمعتُ رسولَ اللهِ – ﷺ – يقول: مَن سرَّهُ أن يُنجيَه اللهُ من كُرَبِ يومِ القيامةِ، فلينفِّسْ عن مُعسِرٍ، أو يَضعْ عنهُ)).[425]

وعن أبي هُرَيرَة رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ – ﷺ – قال: ((مَن نفَّسَ عن مؤمنٍ كُربةً من كُرَبِ الدنيا، نفَّسَ اللهُ عنه كُرْبةً من كُرَبِ يومِ القيامةِ، ومَن يَسَّرَ على مُعسِرٍ، يسَّرَ اللهُ عليه في الدنيا والآخرةِ، ومَن سترَ مسلمًا، ستره اللهُ في الدنيا والآخرةِ، واللهُ في عونِ العبدِ ما كان العبدُ في عونِ أخيه)).[426]

وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (281).

أي: احذروا– أيُّها الناس– يومًا تزول فيه هذه الدنيا وما فيها من الأموال وغيرها، فترجعون إلى الله فتلقَونه فيه، فاحذروا أن تَرِدوا عليه بسيّئات تُهلِككم، وبلا حسنات تُنجِيكم، فتَستحِقُّوا عقابَ

(425) رواه مسلم (1563).
(426) رواه مسلم (2699).

الله تعالى، وهو يوم مُجازاة الأعمال، فتستوفي فيه كلُّ نَفْس جزاءها بالعدل من ربِّها، على ما قدَّمت واكتسَبتْ من سيِّئ وصالح، لا يُنقَصُون شيئًا من ثواب الحسنات، ولا يُزاد عليهم شيءٌ من عقوبة السيِّئات.

سُورةُ البَقَرَةِ

الآيات (282-283)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (282)

وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (283)

غريب الكلمات:

أَجَلٍ: الأجل: غاية الوقتِ المحدَّدة، والمدَّة المضروبة للشيء، يقال: دَينه مؤجَّل، جُعل له أجَل.

وَلْيُمْلِلِ: من أَمللتُ الكتابَ، أي: أمليتُ على أحدٍ شَيْئًا يكتبُه.

يَبْخَسْ: أي: يَنقُص، وأصْل البَخْس: نَقْص الشيء على سبيل الظُّلم، والشيء الطَّفيف الناقص.

وتَسْأَمُوا: أي: تَمَلُّوا، وأصْل السَّآمة: الملالة ممَّا يَكْثُر لُبْثه.

أَقْسَطُ: أي أَعدْلُ وأصحُّ، والقِسْط: هو النَّصيب بالعدل كالنَّصَف والنَّصفة، والعدل، ويقال منه: أَقسط يُقسِط.

وَأَدْنَى: أي: أَقْرَب، والدُّنوُّ: القُرْب بالذَّات، أو بالحُكم، ويُستعمَل في المكان والزَّمان والمنزلة.

تَرْتَابُوا: تَشكُّوا؛ فأصلْ الرَّيب: الشكُّ والخوف.

تُدِيرُونَهَا بينكم: أي: تَتبايعونها، أو تتداولونها وتتعاطونها من غير تأجيل، وأصْل الدَّوران: إحداقُ الشَّيء بالشَّيء مِن حَواليه.

فَرِهَانٌ: جمْع رهْن، وهو ما يُوضَع وثيقةً للدَّين؛ فالرهن: توثقةُ الدَّينِ بعَينٍ يمكنُ استيفاءُ الدَّينِ أو بعضِه منها، أو مِن بعضِها.

تفسير الآيات:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (282).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ.

أي: يا أيُّها المؤمنون، إذا داين بعضُكم بعضًا على أنْ يكون ردُّ الدَّين في وقت معلوم بينكم، فاكتبوه– للتوثُّق والحِفْظ–؛ لكَثْرة النِّسيان، ولوقوع المُغالَطات، وللاحتراز من الخونة الذين لا يَخْشَون الله تعالى، واكتبوه بواسطة كاتب عارِف بكتابة ما يَحصُل به التوثُّق، معروف بالعدل والإنصاف، لا

يجورُ في كتابته على أحد، ولا يكتُب إلَّا ما اتَّفقوا عليه من غير زيادة ولا نُقصان، ولا يَميل مع أحدٍ منهم لقَرابة أو غيرها، ولا على أحد لعداوة ونحوها.

وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا.

أي: لا ينبغي أن يمتنع مَن يعرف الكتابةَ إذا سُئل أن يكتبَ للنَّاس توثيقَ دُيونهم ووقتَ ردِّها، فكما علَّمه اللهُ ما لم يكن يعلم، فخصَّه بعِلم ذلك، وحرَمه عددًا من خَلْقه، فليُحسِن إلى غيره بأن يُبادِر إلى كتابة ذلك بطريقةٍ مُستوفِية لِمَا ينبغي أنْ تكون عليه.

ولْيُمْلِلِ المدينُ على الكاتب ما في ذِمَّته من الدَّين، وليَحذَر عقابَ الله تعالى في أن يَنقُص صاحبَ الحقِّ شيئًا من مقداره أو كيفيَّته، أو نوعه أو أَجَله أو غير ذلك من توابِعه.

فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ.

أي: إنْ كان المدينُ- الذي عليه المال- جاهلًا بالصَّواب من الخطأ في الَّذي عليه إملاؤه على الكاتب، أو كان لا يُحسِن التصرُّف، أو ضعيفًا لصِغَره أو جُنونه، أو لا يستطيع الإملالَ لخَرَسه أو عيِّ لسانه، أو غَيبتِه لسفرٍ أو غيره، فإنَّه ينوبُ عنه في ذلك مَن يتوَّلى شؤونه من أبٍ، أو جدٍّ، أو أخٍ، أو غيرهم، ويَلزَم الوليَّ الإملاءُ بالصِّدق المطابِق للواقع؛ فلا يَزيد، ولا يَنقُص، ولا يَجور على الدائن أو المدين.

وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى.

أي: اطْلُبوا أيضًا– لتوثيق حقوقِكم– شهادةَ رَجلين عليها من المسلمين العدول الذين تَرضَونهم، فإنْ لم يكن الشَّاهدان رجُلين، فليشهد رجلٌ وامرأتان على ذلك؛ كي تُذكِّر إحدى المرأتين الأخرى، إنْ وقع لها نِسيانٌ.

وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا.

أي: ليس للشُّهداء أن يَمتنعوا من الإجابة إذا دُعُوا لتحمُّل الشَّهادة أو أدائها.

وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ.

أي: لا تَمَلُّوا– أيُّها الذين تُداينون النَّاس– من كتابة قليل الدَّين أو كثيره إلى أجَله المُسمَّى؛ فإنَّ كتابة ذلك أعدلُ عند الله، وأثبتُ لشهادة الشُّهود؛ فلا يقع بينهم اختلاف في ذلك لاجتماعهم على ما حواه الكتاب، وأَقْربُ إلى عدم وقوع الرِّيبة وحصول التَّنازُع، فلا تَشُكُّون فيما شَهِد به الشهود من الحقِّ والأَجَل.

ولا حَرَج ولا إثم على المُتبايعِينَ منكم في تَرْك كتابةِ ذلك؛ إذا كان كلٌّ من البائع والمشتري، يَقبِض حقَّه فورًا بلا تأخير، فيأخذ المشتري سِلعتَه، ويَقبِض البائعُ أجرَه قبل مُفارَقة بعضهما، فلا حاجةَ لهما حينئذٍ إلى الكتابة والتَّوثيق، لكن الإشهاد على حقِّهما مشروع.

وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ.

نَهى الله تعالى أهلَ الحقوقِ عَن إيقاع ضررٍ بأيِّ وَجْه من وجوه الضَّرر على كاتبٍ أو شاهِدٍ على حقوقهم، كما لا يَحِلُّ أيضًا لكاتبٍ أو شاهدٍ أن يَضُرَّا أحدًا من أهل الحقوق بأيِّ ضررٍ كان؛ فإنَّ إحداثَ الضرر في ذلك يُعَدُّ خروجًا عن طاعة الله تعالى إلى معصيته.

وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ.

أي: خافوا اللهَ- أيُّها المتداينون- في الكتَّاب والشهود أن تُوقِعوا عليهم ضررًا ما، وراقِبوه في غير ذلك من حدوده فلا تُضيِّعوها، واتَّبِعوا أمرَه، واترُكوا نهيَه، والله تعالى يبيّن لكم على الدوام أحكامَ شريعته فضلًا منه ونعمةً؛ فهو العالم بحقائق الأمور ومصالحها وعواقبها، وعِلْمه محيطٌ بجميع الكائنات، كما أنَّه لا يَخْفى عليه شيءٌ من أعمالكم، فيُحصيها عليكم ويُجازيكم بها.

وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (283).

وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ.

أي: إنْ كنتم مسافرين وتَداينتُم بدَين إلى أجل مسمًّى، ولم تَعثُروا على كاتب يكتُب لكم توثيقَ الدَّين وأجلَه، فليكُنْ بدلَ الكتابة رِهانٌ يَقبِضها صاحبُ الحقِّ، وتكون وثيقةً عنده حتى يأتيه حقُّه.

فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ.

أي: إنْ كان المَدينُ أمينًا عند صاحب الدَّين فوَثِق فيه، وأحبَّ أن يُعامِله من دون رَهْن، فعلى المَدين أن يردَّ إليه دَينَه كاملًا، غيرَ ظالمٍ له، ولا باخس حقَّه، وليَحذَر ربَّه سبحانه، من أن يُعاقِبه لمخالفته أَمْرَه، وارتكابه نَهْيَه في ذلك.

وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ.

أي: لا تُخْفوا– أيُّها الشُّهود– ما شهِدتم به؛ إمَّا بإنكاره بالكُليَّة، أو بالزِّيادة عليه والنُّقصان منه، ولكن أَجيبوا مَن شَهِدتم له إذا دعاكم لإقامة شهادتكم بالصِّدق؛ لإثبات حقِّه على غريمه، ومَن يَكتُم شهادتَه فإنَّه فاجرٌ قلبه، مُكتسِب بكِتمانه إيَّاها الإثمَ؛ لأنَّ الحقَّ مبنيٌّ عليها ولا يَثبُت بدونها، فكِتمانها من أعظم الذنوب، والله بما تعملون– في شهادتكم من القيام بها، أو كِتمانها عند حاجة مَن استشهَدكم إليها، وبغير ذلك من سرائر أعمالكم وعلانيتها– عليمٌ؛ يُحصي عليكم أعمالَكم ليَجزيكم بها، إمَّا خيرًا، وإمَّا شرًّا على قدْر استحقاقكم.

سُورةُ البَقَرَةِ

الآيات (284–286)

لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ
فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ **(284)**
آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ
بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ **(285)**
لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا
أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا
طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ **(628)**

غريب الكلمات:

غُفْرَانَكَ: أي: اغفِر مغفرتَك، أو نسألك مغفرتَك، والمغفرة: هي السَّتر لخَلَّة المسلم وفاقته، وترْك أذيَّته؛ وأصْل الغَفْر: السَّتر، والوقاية.

أَخْطَأْنَا: فاتَنا الصَّواب، وعدَلنا عنه، وسَهَوْنا، من غير تعمُّد -مِن أخْطأ-، وأمَّا إذا تعمَّد الذَّنب، وأثِم، فهو من خَطِئ لا مِن أخطأ. وقيل: هما بمعنًى واحد.

إِصْرًا: أي: ثقلًا، وأصْل الأصْرِ: عقْدُ الشَّيء، وحبْسُه بقهره، أو الحَبْس والعَطف.

تفسير الآيات:

لِلهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (284).

لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ.

أي: إنَّ لله تعالى وحده ما في السَّموات والأرض وما بينهما، خَلْقًا ومُلْكًا وتدبيرًا، وهو المُطَّلِع على مَنْ فيهما، لا يَخفى عليه شيء مُطلَقًا، وسيُطْلِعهم على وجه المحاسبة على إظهارِ ما انطوت عليه نفوسُهم، أو إضماره، ممَّا استقرَّ فيها وثبَت، من الكُفْر والنِّفاق، أو من الأوصاف السيِّئة التي تتَّصِف بها، أو من العزائم المصمِّمة على ارتكاب معصية.

فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

أي: فيغفر بعد المحاسبة، لِمَن أتى بأسباب المغفرة فضلًا منه، ويُعاقِب مَن يكفُر به، أو يُصِرُّ على المعاصي، في باطنه أو ظاهره عدلًا منه، فالله تعالى لا يُعجِزه شيءٌ، ومن تَمام قُدْرته محاسبةُ الخلائق، وإيصالُ ما يَستحِقُّونه من الثواب والعقاب.(427)

(427) رجَّح ابنُ جرير (٥/١٤٤)، وابنُ عطية (٢/١٣٤)، وابنُ تيمية (١/٦١٧، ٦٢٤) أنّ الآية هنا محكمة غير منسوخة استنادًا إلى عدم التعارض، وذلك: أ) أنها خبر، والأخبار لا تُنسخ. ب) إمكان الجمع بينها وبين قوله تعالى: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ بأوجه متعددة، منها: ١- أن المحاسبة على ما تخفيه النفس ليس مما في الوسع، وليس مما يُكسب أو يكتسب. ٢- أن المحاسبة لا يلزم منها المعاقبة، بل تكون محاسبة الله للمؤمنين فيما أخفوه إخبارهم به وغفرانه لهم؛ ليرَوا كبير

عن أبي هُرَيرَة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله – ﷺ –: ((إنَّ الله تَجاوَز لأُمَّتي ما حدَّثتْ به أنفسَها، ما لم يتكلَّموا، أو يعملوا به)).[428]

آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (285)

لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (628)

عن عُقْبة بن عمرٍو رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ – ﷺ – قال: ((مَن قرَأ بالآيتَينِ مِن آخِرِ سورةِ البقرةِ في ليلةٍ كفَتاه[429])).[430]

فضل الله عليهم وعظيم إكرامه لهم. ٣– أنه لو لزم من المحاسبة المعاقبة لكانت المحاسبة مخصوصة بالكافرين الذين أخفوا في أنفسهم الشك في الله والكفر به.

ووجَّه ابنُ تيمية القول بالنسخ، فقال: «النسخ في لسان السلف أعمُّ مما هو في لسان المتأخرين؛ يريدون به: رفع الدلالة مطلقًا، وإن كان تخصيصًا للعامّ، أو تقييدًا للمطلق، وغير ذلك، ومَن قال مِن السلف: نسخها ما بعدها. فمرادُه: بيان معناها والمراد منها، وذلك يسمى نسخًا في لسان السلف، كما يسمون الاستثناء نسخًا».

(428) رواه مسلم (127).

(429) كَفَتاه: قيل: كَفَتاه مِن قيامِ تلك الليلةِ.

وقيل: كَفَتاه المكروهَ فيها. ((شرح النووي على مسلم)) (152/2).

(430) رواه البخاري (5008).

وعَن عبدِ اللهِ بن مسعود رضي الله عنه، قال: (لمَّا أُسْرِيَ برسولِ اللهِ - ﷺ - انتُهِيَ بِهِ إلى سِدرةِ المنتهَى، وَهِيَ فِي السَّماءِ السَّادسةِ، إليها يَنتهي ما يُعرَج بِهِ منَ الأرضِ، فيُقبَض منها، وإليها ينتهي ما يُهْبَطُ بِهِ مِن فوقِها فيُقبَضُ منها، قالَ: إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى [النجم: 16]، قال: فَرَاشٌ من ذَهَبٍ، قالَ: فأُعْطِيَ رسولُ اللهِ - ﷺ - ثلاثًا: أُعْطِيَ الصَّلواتِ الخمسَ، وأُعْطِيَ خواتيمَ سورةِ البقرةِ، وغُفِرَ لِمَن لم يُشرِك باللهِ من أمَّتِهِ شيئًا المُقْحِماتُ[431]).[432]

وعن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما، قال: (بينما جبريلُ قاعدٌ عند النبيِّ - ﷺ -، سمِع نقيضًا من فوقِه، فرفع رأسَه، فقال: هذا بابٌ من السَّماءِ فُتحَ اليومَ، لم يُفتَح قطُّ إلا اليومَ، فنزل منهُ مَلَكٌ، فقال: هذا مَلَكٌ نزل إلى الأرضِ، لم ينزل قطُّ إلا اليومَ، فسلَّم وقال: أبشِر بنورَينِ أُوتيتَهما لم يُؤتَهما نبيٌّ قبلك: فاتحةُ الكتابِ، وخواتيمُ سورةِ البقرةِ؛ لن تقرأَ بحرفٍ منهما إلَّا أُعطيتَه)).[433]

وعن أبي هُرَيرَة رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ - ﷺ - قال: لَمَّا نَزلَت على رسولِ اللهِ - ﷺ -: لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، قالَ: فاشتدَّ ذلك على أصحابِ رَسولِ اللهِ - ﷺ -، فأتَوْا رسولَ اللهِ - ﷺ - ثمَّ برَكوا علَى الرُّكَبِ، فقالوا: أيْ رسولَ اللهِ، كُلِّفنا منَ الأَعمالِ ما نُطيقُ؛

---

(431) المقحِمات- بكسر الحاء-: هي الذنوب العِظام الكبائر التي تُهلِك أصحابَها، وتورِدهم النار، وتُقحمهم إيَّاها. ((شرح النووي على مسلم)) (3/3).

(432) رواه مسلم (173).

(433) رواه مسلم (806).

الصَّلاةَ والصِّيامَ، والجِهادَ والصَّدقةَ، وقد أُنْزِلَت عليكَ هذه الآيةُ، ولا نُطيقها، قال رسولُ اللهِ - ﷺ -: أتُريدونَ أن تَقولوا كما قالَ أَهْلُ الكتابَيْنِ من قبلِكُم: سَمِعنا وعصَينا؟ بل قولوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ، فلمَّا اقترَأَها القومُ، ذلَّت بِها ألسنتُهُم، فأنزلَ اللهُ في إثرِها: آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ، فلَمَّا فعَلوا ذلك نسَخها اللهُ تعالى، وأنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا، قالَ: نعَم، رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا، قالَ: نعَم، رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ، قالَ: نعم، وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ، قال: نعَم)).[434]

عن النُّعمانِ بن بَشير رضي الله عنه، قال: قال رسول الله - ﷺ -: ((إنَّ اللهَ كتَب كتابًا قبل أن يَخْلُقَ السَّمواتِ والأرضَ بألْفَي عامٍ أَنْزَلَ منه آيتينِ ختَم بهما سورةَ البقرةِ، ولا يُقرأانِ في دارٍ ثلاثَ ليالٍ فيَقْرَبُها شيطانٌ)).[435]

---

(434) رواه مسلم (125).

(435) أخرجه الترمذي (2882)، وأحمد (18438)، والدارمي (3387)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (10803). حسَّنه الترمذي، وابن حجر في ((نتائج الأفكار)) (275/3)، وجوَّد سنده الشوكاني في ((فتح القدير)) (463/1)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (2882).

آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ.

أي: آمَنَ رسولُ الله محمَّدٌ - ﷺ -، فأقرَّ وانقاد لِمَا أُوحي إليه من ربِّه من الكتاب والسُّنة، وكذلك آمن المؤمنون، وكلٌّ من الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام والمؤمنين جميعًا يؤمنون حقًّا بالله تعالى وبجميع ملائكته، وجميع كُتُبه، ويُعلِنون إيمانَهم بجميع رُسله عليهم الصَّلاة والسَّلام، دون أيِّ تفريق بين أحدٍ منهم، فلا يؤمنون ببعضٍ، ويَكْفُرون ببعض.

وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ.

أي: قال جميع المؤمنين: سَمِعنا قولَ ربِّنا، وأمْرَه ونهيَه، وفَهِمنا ذلك، فقبِلْناه، وعمِلْنا بما أَمَر، واجتنبْنا ما عنه زجَر، وقالوا: نسألك يا ربَّنا أن تَستُرَ لنا على الدوام ذنوبَنا، وتتجاوز عن عِقابنا عليها، وأنت يا ربَّنا مَرجِعُنا في كلِّ أمورنا، وإليك مَعادُنا، ومَعاد كلِّ الخلائق فتَجزيهم بما عمِلوا من خيرٍ وشرٍّ.

لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ

(286).

سبب النُّزول:

عن أبي هُرَيرَة رضي الله عنه، قال: ((لَمَّا نزلَت على رسولِ اللهِ - ﷺ -: لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، قالَ: فاشتدَّ ذلك على أصحابِ رَسولِ اللهِ - ﷺ -، فأتَوا رسولَ اللهِ - ﷺ -، ثمَّ برَكوا علَى الرُّكَبِ، فقالوا: أيْ رسولَ الله، كُلِّفنا منَ الأَعمالِ ما نُطيقُ: الصَّلاةَ والصِّيامَ، والجِهادَ والصَّدَقةَ، وقد أُنْزِلَت عليكَ هذه الآيةُ ولا نُطيقُها، قال رسولُ الله - ﷺ -: أتُريدونَ أنْ تقولوا كما قال أَهْلُ الكتابَينِ من قبلِكُم: سمِعنا وعصَينا؟ بل قولوا: سَمِعنا وأطَعْنا، غُفرانَكَ ربَّنا وإليكَ المَصيرُ، فلمَّا اقترَأَها القومُ، ذلَّت بِها ألسنتُهم، فأنزلَ اللهُ في إثرِها: آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ، فلمَّا فعلوا ذلك نسخَها اللهُ تعالى، وأنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا، قالَ: نعم، رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا، قالَ: نعم، رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ، قالَ: نعم، وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ، قال: نعَم)).[436]

(436) أخرجه مسلم (804)

وعنِ ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما، قال: ((لَمَّا نزلت هذِهِ الآيةُ: وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ، قال: دخلَ قلوبَهُم منها شيءٌ لم يدخُل قلوبَهُم من شيءٍ، فقال النَّبيُّ – ﷺ –: قولوا: سَمِعنا وأطَعْنا وسلَّمنا، قالَ: فألقى اللهُ الإيمانَ في قلوبِهِم، فأنزلَ اللهُ تعالى: لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا، قالَ: قَد فعلتُ، رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا، قالَ: قد فَعلتُ، وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا، قالَ: قد فَعلتُ)).(437)

لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ.

أي: لا يُحمِّل الله تعالى نفسًا فوقَ طاقتِها، فلا يتعبَّدها إلَّا بما يَسَعُها تَحمُّله، فلا يُضيِّق عليها، ولا يُجهِدها بما لا قِبل لها به، وهو وإنْ حاسَب وسأل، لكنَّه لا يُعذِّب بما لا يُمكِن للمرء دفْعُه؛ كوسوسة عَرَضتْ له، أو خَطْرة خطَرتْ بقلبه، ولكلِّ نَفْس ما عمِلتْ من خير، لا يَنقُص منها شيءٌ؛ وعليها ما عمِلتَ من شرٍّ، لا يُزاد عليها شيء.

رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا.

---

(437) رواه مسلم (126).

أي: قولوا: يا ربَّنا، لا تُعاقِبْنا إنْ نسِينا القيامَ بفرضٍ، أو تَرْك مُحرَّم،[438] ولا تُعاقِبنا يا ربَّنا، إنْ أخطأنا الصَّوابَ في العمل، جهلًا منَّا بوجْهه الشَّرعي، أو وقَعْنا في معصيتك جهلًا، عن غير قصْدٍ منَّا، بارتكاب نهيك.

---

(438) بيَّن ابنُ جرير (٥/١٥٥–١٥٧) أنّ النسيان في الآية يحتمل معنيين:

أحدهما: على وجه التفريط من العبد والتضييع.

والآخر: على وجه العجز عن التَّذَكُّر.

وأنّ الخطأ يحتمل معنيين: أحدهما: إتيان العبد ما نُهي عنه بقصد وإرادة.

والآخر: ما كان فعله من العبد على وجه الجهل. ثم رجَّح مستندًا إلى الدلالة العقلية المعنى الأول في كلٍّ، مُعَلِّلًا ذلك بأنّ النسيان الناتج عن ضعف العقل والعجز، وكذا الخطأ غير المقصود؛ مِمّا قد وضعه الله عن العبد لخروجه عن مقدوره، فلا وجه لمسألة العبد ربه أن لا يؤاخذه به.

وخالفه ابنُ عطية (٢/١٤٢–١٤٣)، فرجح مستندًا إلى الدلالة العقلية أنّ المراد بالنسيان والخطأ: النسيان الغالب، والخطأ غير المقصود. ونسبَه لكثيرٍ من العلماء، وبيَّن أن قول قتادة والسدي يفيد ظاهرهما ذلك، ثم علَّل ترجيحه بقوله: «وذلك أنّ المؤمنين لما كشف عنهم ما خافوه في قوله تعالى ﴿يحاسبكم به الله﴾ أُمِرُوا بالدعاء في دفع ذلك النوع الذي ليس من طاقة الإنسان دفعه، وذلك في النسيان والخطأ، والإصر: الثقل، وما لا يطاق على أتم أنواعه. وهذه الآية على هذا القول تقضي بجواز تكليف ما لا يطاق، ولذلك أُمِر المؤمنون بالدعاء في أن لا يقع هذا الجائز الصعب».

رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا.

أي: قولوا: يا ربَّنا، لا تُحمِّلنا عهدًا على القيام بأعمالٍ شاقَّةٍ وثقيلةٍ علينا، فنعجِز عن القيام بها، فتَحِلَّ علينا العقوباتُ، كما وقَع لليهود والنصارى وغيرهم ممَّن كُلِّفوا أعمالًا، وأُخِذتْ عليهم العهودُ والمواثيقُ على القيامِ بها، فلم يفعلوا، فعُوقِبوا.(439)

رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ.

أي: قولوا أيضًا: يا ربَّنا لا تُكلِّفنا من الأعمال ما لا نُطيق القيامَ به؛ لثِقَل حَمْله علينا، ولا تَبْتلِنا بما لا قِبَل لنا به.(440)

(439) جمع ابنُ عطية (٢/٤٤١) بين أقوال السلف الواردة في معنى الإصر بقوله: «والإصرة في اللغة: الأمر الرابط؛ من ذمام، أو قرابة، أو عهد ونحوه، فهذه العبارات كلها تنحو نحوه».

(440) قل ابنُ القيم (١/٢١٤) في تفسير ﴿ما لا طاقة لنا به﴾ قولًا بأن المراد به: العشق، ووجَّهه بأنّ المعنى غير مختص به، بل يشـمله وغيره، فقال: «فُسِّـر ذلك بالعشـق، وليس المراد اختصـاصـه به؛ بل المراد: أن العشـق مما لا طاقة للعبد به. وقال مكحول: هو شدة الغُلْمَة. وقال النبي ﷺ: «لا ينبغي للمرء أن يُذِلَّ نفسه».

قال الإمام أحمد: تفسيره أن يتعرض من البلاء لما لا يطيق. وهذا مطابق لحال العاشق، فإنه أذلُّ الناس لمعشـوقه، ولما يحصـل به رضاه، والحب مبناه على الذل والخضوع للمحبوب».

وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا.

أي: يا ربَّنا، تَجاوَز عمَّا بيننا وبينك من تقصيرٍ في أداء ما افترضتَه علينا، واستُرْ علينا فيما بيننا وبين عبادِك، فلا تُظهِرهم على سيِّئاتنا، وتَجاوَز عنها، وجُدْ علينا بالرحمة حتى لا نَقَع في ارتكابِ محظورٍ، أو تَهاوُنٍ في أداء مأمور، ونجِّنا برحمتك من غضبِك وعقابِك.

أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ.

أنت وليُّنا وناصِرُنا دون مَن عاداك وكَفَر بك؛ لأنَّا حِزبُك المؤمنون بك، والمُطيعون لك فيما أَمَرتنا ونَهيتنا؛ فبوَلايتِك الخاصَّة انصُرنا على الكافرين، الذين جَحدوا وحدانيتَكَ، وأَشرَكوا معك، وأَنكَروا رسالةَ نبيِّك، وعبدوا غيرَك، وأطاعوا الشَّيطانَ في معصيتِك، واجعل لنا العاقبةَ عليهم في الدُّنيا والآخرة.

تمَّ بحمدِ الله تعالى المجلَّدُ الأوَّل

ويَليه المجلَّدُ الثَّاني، وأوَّله: تفسير سُورة آل عمران

الفهرس

" نُسْخَةٌ إِلِكْتِرُونِيَّةٌ، حُقُوقُهَا مَحْفُوظَةٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ"

نسخة إلكترونية

المُغْنِي في التَّفْسِيرِ

المُحَرِّرُ الجَامِعُ لِتَفَاسِيرِ السَّلَفِ

[تَهْذِيبُ التَّفْسِيرِ المُحَرَّرِ لِلدُّرَرِ السَّنِيَّةِ]

[مُطَرَّزًا بِحَاشِيَةٍ مِنْ تَحْرِيرَاتٍ وَتَرْجِيحَاتٍ وَتَعْلِيقَاتِ عُيُونِ تَفَاسِيرِ المُحَقِّقِينَ فِي التَّفْسِيرِ:

{ابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ عَطِيَّةَ، وَابْنِ تَيْمِيَّةَ، وَابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ، وَابْنِ كَثِيرٍ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى}

كَتَبَهُ وَاعْتَنَى بِهِ

د/ هَانِي بْن عَبْده

د/ آلَاء رِضَا